

مَوْسُوعَةُ الْأَعْمَالِ الْكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الْإِمَامِ
بُورِيفِ الْقُرْضَاوِيِّ



المحور الحادي عشر

خطب الجمعة

١٧٩

خطب الشيخ القرضاوي

١٦

إعداد

المكتب العلمي للشيخ



من الدستور الإلهي للبشرية

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ * لِيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [الحج: ٥٨ - ٥٩].

﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠].



من مشكاة النبوة الخاتمة

عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعْطِيَتْ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرَّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهْرًا، وَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيَصِلْ، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُئِثْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، وَأُعْطِيَتْ الشَّفَاعَةُ». متفق عليه.

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: «مَا مِنْ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٍّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْ وَحِيًّا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ». متفق عليه.

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ يَوْمٍ يَصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ، إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مَنْفَقًا خَلْفًا، وَيَقُولُ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مَمْسُكًا تَلْفًا». متفق عليه.





خصائص النبوة المحمدية (١)

الخطبة الأولى

أمّا بعد، فيا أيّها الإخوة المسلمون:

في شهر ربيع الأوّل يحتفل المسلمون بمولد رسول الله ﷺ. سواء كان مولده في الثاني عشر من ربيع كما هو المشهور، أم في التاسع من ربيع كما ذكره بعض المحققين من العلماء، ففي ذلك الزمن لم يكونوا يُعنون بالتاريخ.

وعلى كلّ حال لا نريد أن ندخل مع الذين يبحثون: هل هذا الاحتفال سُنة أم هو بدعة؟ ففي الحقيقة أننا لا نحتفل بمولد الرسول، ولكننا نحتفل بمولد الرسالة.

وُلد الرسول مُحَمَّدٌ ﷺ في مكّة المُكْرَمَة فلم تُنصب له الزينات، ولم تُرفع له الأعلام، ولم تُطلق له النيران؛ فهو صبيّ يتيّم، لم يكن أحد يعلم ما له من شأن، وما له من مستقبل في حياة البشريّة، فليس المهم ميلاد الرسول، إنّما المهم ميلاد الرسالة التي وُلدت بهذا الرسول العظيم، كما

(١) ألقيت في مسجد عمر بن الخطاب بالدوحة، بتاريخ ٢٢ مارس ٢٠٠٨م.

قال تعالى: ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ * فَادْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ [البقرة: ١٥١، ١٥٢]. اشكروا لي على هذه النعمة، نعمة إرسال هذا الرسول العظيم، بالبينات والهدى ودين الحق.

بُعِثَ مُحَمَّدٌ ﷺ كَمَا بُعِثَ النَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِهِ، أُرْسِلَ رَسُلٌ مِنْ قَبْلِهِ، ذُكِرَ فِي الْقُرْآنِ مِنْهُمْ مَنْ ذُكِرَ، ثَلَاثَةٌ وَعِشْرُونَ أَوْ أَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ مِنَ الرُّسُلِ، وَلَكِنَّ هُنَاكَ رِسَالًا كَثِيرَةً لَمْ يَذْكُرْهُمْ الْقُرْآنُ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾ [النساء: ١٦٤]، ﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر: ٢٤]، ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ يَدْعُوا إِلَى اللَّهِ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦]. فالرسل لا عدَّ لهم ولا حصر.

ولكن محمداً ﷺ هذه الشخصية العظيمة التي تطاول عليها المتطاولون في عصرنا، حتى ممن ينتسبون إلى الإسلام من رجال أو نساء، هذه الشخصية العظيمة تميّزت نبوتها ورسالتها عن سائر النبوات والرسالات بخصائص عشرٍ.

١ - رسالة عالمية عامّة:

أوّل خصيصة لهذه النبوة المُحمّديّة أنّ الله ﷻ بعثه بالرسالة العامّة، الرسالة العالميّة، كل نبي قبل مُحَمَّدٍ ﷺ كان مبعوثاً إلى قومه خاصّة: أرسل الله نوحاً إلى قومه، وهوداً إلى قومه عاد، وصالحاً إلى قومه ثمود، وموسى إلى بني إسرائيل، والمسيح عيسى كذلك، إلّا محمداً ﷺ، كما قال في أحد الأحاديث المتفق عليها: «وكان الرسول يُبعث إلى قومه خاصّة، وُبُعِثَ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً»^(١).

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الصلاة (٤٣٨)، ومسلم في المساجد (٥٢١)، عن جابر بن عبد الله.

وقد أعلنت عالميّة الرسالة المُحمّديّة منذ العهد المكي. بعض المستشرقين قال: إنّ محمداً لم يدعِ العالميّة إلاّ بعد صلح الحديبيّة، حينما أرسل لكسرى وقيصر، والنجاشي والمقوقس وهؤلاء، يدعوهم إلى الإسلام. وهذا ليس بصحيح؛ فمَنْ قرأ القرآن المكي وجد فيه آيات شتى تُعلن عالميّة الإسلام، وعالميّة القرآن، في سورة الأنبياء وهي مكية: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. وفي سورة الفرقان وهي مكية: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]. وفي سورة الأعراف وهي مكية: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]. سور عديدة أعلنت عالميّة القرآن وعالميّة الرسالة المُحمّديّة، ومنها سور مكيّة.

وكانت هذه أوّل مرّة يُعلن نبي من الأنبياء أنّه بُعث إلى النَّاس كافّة، حتّى إلى الجن والإنس، مَنْ يقرأ منكم التوراة التي بين أيديهم يجد أنّها كتاب محليّ، كل التوراة عن بني إسرائيل، ومُلك إسرائيل، وتاريخ إسرائيل، وأعداد بني إسرائيل، وأسباط بني إسرائيل، حتّى الرب نفسه هو عندهم رب إسرائيل، بينما عندنا أوّل آية في المصحف بعد البسملة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفتحة: ٢]. وآخر سورة في القرآن: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ﴾ [الناس: ١-٣]. هذه من العالميّة عندنا، أمّا التوراة كتاب إسرائيليّ، كتاب قوميّ، كتاب عنصريّ، كتاب محليّ، وأوّل نبي جاء يُعلن العالميّة هو محمّد ﷺ، هذه أوّل خصيصة للرسالة المُحمّديّة، أنّها رسالة عالميّة.

٢ - رسالة خاتمة خالدة:

والخصيصة الثانية: أنّه بُعث بالرسالة الخالدة، الرسالة الخاتمة، كل رسول بُعث قبل محمّد كان يُبشّر قومه برسول يأتي من بعده، موسى

بَشْرٍ حَتَّى بِمُحَمَّدٍ ﷺ، وعيسى بشر بمحمد ﷺ، ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي أُسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]، وهذه المبشرات موجودة إلى الآن، مَنْ يقرأ أسفار التوراة وملحقاتها، والأنجيل الأربعة وملحقاتها يجد فيها البشري بمحمد ﷺ، أن هناك نبيًا يأتي بعد موسى، ونبيًا يأتي بعد عيسى يكشف كل الحقائق، ويكسر عمود الكفر، ويفعل كذا وكذا، هذا موجود في الإنجيل إلى اليوم.

النبي الوحيد الذي أعلن أنه جاء يختم النبوات، وأنه آخر الأنبياء. فالذي يمثل اللبنة الأخيرة في بيان النبوة هو محمد ﷺ، ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، ختم الله به النبوات جميعًا، وقال: «أنا العاقب فلا نبي بعدي»^(١).

وكما قال الأستاذ العقاد رَحِمَهُ اللهُ: مضت أربعة عشر قرنًا، ولم تظهر نبوة مسموعة إلى اليوم. نبوة يمكن أن يُسمع لها، لها معجزات ولها كتاب، ولها رسالة، فالزمن نفسه والتاريخ والواقع: أكد دعوى محمد ﷺ أنه خاتم النبيين.

وكان النَّاسُ قديمًا يقولون: كيف يأتي نبي برسالة للعالم كله؟ ومن يوصل الرسالة إلى العالم؟ وكيف يختم نبي النبوات؛ ألا يحتاج النَّاسُ إلى نبوة بعد مماته؟

وقد ظهر لنا أن الله الذي خلق العالم، وخلق حاضره ومستقبله، ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨].

(١) متفق عليه: رواه البخاري في المناقب (٣٥٣٢) مختصرًا، ومسلم في الفضائل (٢٣٥٤)، عن جبير بن مطعم.

علم الله أنه سيأتي زمان يتقارب فيه العالم، حتى يصبح كأنه قرية واحدة، ويكون من السهل إبلاغ الرسالة الواحدة إلى العالم كله، وأن هذا أفضل من أن تكون هناك رسالات متعددة، لأن الرسالة الواحدة تجمع الناس ولا تفرقهم، وأن البشرية قد بلغت من النضج والرشد، ما لم تعد معه بحاجة إلى نبوة جديدة، يكفي أن تأتي نبوة خاتمة تضع لها القواعد، وتؤسس لها الأسس، ثم تدع للعقل البشري المجال، في أن يجتهد لكل عصر ولكل بيئة، بما يصلح لها.

وهذه من مزايا هذا الإسلام العظيم وهذه الرسالة المحمدية أنها لم تُقيد الناس بأشياء تُلزمهم بصور جامدة لعصر من العصور فيتكيفون بها ويتقيدون بها، تركت لهم الحرية، تركت للعقل البشري أن يتكر من الصور والآليات والكييفيات في كل عصر ما يليق به.

ولذلك كان التيسير والتخفيف من سمات هذه الرسالة الخالدة، وكان من وصف النبي ﷺ في الكتب السابقة: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. فالرسالة الخالدة لا بد أن تتضمن التيسير والتخفيف، وترفع الأصار والأغلال عن الخلق، ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

كان عند بني إسرائيل آصارٌ وأغلال، عاقبهم الله على معاصيهم وكفرهم، وقتلهم الأنبياء بغير حق؛ بأن حرّم عليهم طيبات أُحلت

لهم، قال تعالى: ﴿فِيُظَلِّمِ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ وَأَخَذَهُمُ الرَّبُّوا وَقَدْ نُهِوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ﴿[النساء: ١٦٠، ١٦١]. بهذا كله حرّم الله عليهم هذه الطيبات.

ثم جاء مُحَمَّدٌ ﷺ يُحِلُّ الطَّيِّبَاتِ كُلَّ الطَّيِّبَاتِ، وَيُحَرِّمُ الْخَبَائِثَ كُلَّ الْخَبَائِثِ، وَيَضَعُ الْأَثْقَالَ وَالْأَصَارَ وَالتَّكَالِيفَ الثَّقِيلَةَ عَنِ النَّاسِ، حَتَّى تَكُونَ هَذِهِ الرِّسَالَةُ هِيَ الرِّسَالَةُ الْخَاتِمَةَ، وَيَحْتَمِلُهَا النَّاسُ فِي كُلِّ الْأَقْطَارِ، وَفِي كُلِّ الْبِيئَاتِ، وَكُلِّ الْأَزْمَانِ، وَكُلِّ الْأَحْوَالِ، ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ﴿هُوَ أَجْتَبَكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨]. فخلود الرسالة المُحَمَّدِيَّةُ هُوَ الْخَصِيصَةُ الثَّانِيَّةُ لِهَذِهِ النُّبُوَّةِ.

٣ - القرآن معجزة الإسلام الخالدة:

ومن الخصائص التي تميّزت بها رسالة مُحَمَّدٍ: أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ السَّابِقِينَ أَيْدَهُمُ اللَّهُ فِي دَعْوَى الرِّسَالَةِ بِآيَاتٍ كُونِيَّةٍ، وَمَعْجَزَاتٍ حَسِيَّةٍ يَرَاهَا النَّاسُ فَتَبْهَرُهُمْ، وَلَكِنَّهَا تَنْتَهِي بِمَجْرَدِ حَدُوثِهَا، أَيْدِ اللَّهِ مُوسَى بِالْعَصَا وَبِالْيَدِ وَبِآيَاتٍ أُخْرَى، وَأَيْدِ اللَّهِ الْمَسِيحَ عَيْسَى بِإِبْرَاءِ الْأَكْمَةِ وَالْأَبْرَصِ، وَإِحْيَاءِ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ، وَلَكِنْ هَذِهِ الْمَعْجَزَاتُ بِمَجْرَدِ أَنْ تَقَعَ تَنْتَهِي، وَلَوْلَا أَنَّ الْقُرْآنَ حَدَّثَنَا عَنْ هَذِهِ الْمَعْجَزَاتِ مَا عَلِمْنَا بِهَا، وَلَا صَدَّقْنَا بِهَا.

ولكن الله تعالى أيد محمدًا صاحب الرسالة الخالدة بمعجزة خالدة، بمعجزة باقية ما بقي الدهر، لأنها ليست معجزة حسيّة، أنّها معجزة أدبيّة عقليّة، أنّها القرآن العظيم، الآية الباقية ما بقي الزمان، وما بعد الزمان.

ولذلك حينما قال المشركون: ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [العنكبوت: ٥٠]. ردَّ الله عليهم بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ فِي ذَٰلِكَ لِرَحْمَةٍ وَذِكْرٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١]. هذا هو الآية العظمى، فالقرآن هو الرسالة الباقية.

وجاء في الحديث الصحيح: «ما من نبيٍّ من الأنبياء إلا وأوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابِعاً يوم القيامة»^(١). كانت آيته أو معجزته وحياً أوحاه الله إليه: القرآن العظيم!

القرآن هو الآية التي أعجزت العرب أن يأتوا بقرآن مثله، بحديث مثله، أو بعشر سور مثله مفتريات، أو بسورة واحدة من مثله، عجزوا وانقطعوا عن أن يأتوا بشيء من هذا، وصدق الله العظيم: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ [الإسراء: ٨٨]. هذه هي الخصيصة الثالثة.

٤ - الحفظ الإلهي للقرآن:

الخصيصة الرابعة: أن الله وكل حفظ الكتب السابقة في الأديان السابقة إلى أهلها، قال عن التوراة: ﴿بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءً﴾ [المائدة: ٤٤]. أي: طلب إليهم أن يحفظوها، أمّا القرآن فتولّى الله تعالى حفظه بنفسه، لم يكله إلينا، تكفل بحفظه، وقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]. بهذا التأكيد، بالجملة الاسمية المؤكدة بـ(إن)، واللام في الخبر، كل هذا زيادة في التأكيد.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في فضائل القرآن (٤٩٨١)، ومسلم في الإيمان (١٥٢)، عن أبي هريرة.

ولذلك هيأ الله لهذا الكتاب مَنْ يحفظه، لا تجد كتاباً في الدُّنيا يحفظه عشرات الألوف ومئات الألوف من البنين والبنات، من الرجال والنساء، من العرب والعجم إلا القرآن، هناك من العجم مَنْ لا يعرف كلمة في العربيّة، ولكنّه يتلو عليك القرآن كأنّه مُسجل (ريكوردر)، لا يخطئ فيه كلمة ولا حرفاً، هذا من معجزات القرآن، حفظ الله القرآن العظيم.

ولا يوجد أسقف ولا كاردينال يحفظ الكتاب المقدّس، ولكن صبياننا يحفظون هذا القرآن، وتُقام المسابقات لحفظه، انظروا إلى هذه المسابقات تجدون شيئاً عجيباً وغريباً، في كل بلد يتنافسون على إقامة مسابقات في حفظ القرآن، ويدخل في هذه المسابقات الكبار والصغار، الذين يتنافسون في حفظ هذا الكتاب العظيم، ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

هذا الكتاب محفوظ، ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، نحن نقرؤه كما كان يقرؤه مُحَمَّد رسول الله، وأصحابه: أُبَي ومعاذ، وزيد بن ثابت، وابن مسعود، إلى آخر هؤلاء القُرّاء العظام، بغنّه ومدّه، وحركاته وسكناته، وتلوه كما كُتب في عهد عثمان رضي الله عنه. هذه هي الخصيصة الرابعة من خصائص الرسالة المُحمّديّة، أنّ الله حفظ كتابه.

بُدلت التوراة، وبُدّل الإنجيل، لا نعرف الإنجيل الذي أنزل على المسيح عليه السلام، وإنّما نعرف أناجيل نُسبت إلى أصحابها، إنجيل متّى، وإنجيل لوقا، وإنجيل مرقس، وإنجيل يوحنا، هذا غير عشرات الأناجيل التي أحرقوها؛ مثل إنجيل برنابا وغيره.

٥ - الحفظ الإلهي للسنة:

الخصيصة الخامسة: أنّ الله تعالى كما حفظ القرآن: الآية العظمى لمُحمّد صلّى الله عليه وآله حفظ السُنّة النبويّة، هذا ما قاله الإمام الشاطبي: إن حفظ

القرآن من الله تعالى يستلزم حفظ السنة؛ لأن السنة بيان للقرآن، وحفظ المُبَيَّن يستلزم حفظ بيانه، وإلا بقي بلا بيان^(١). كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

ومن معاني حفظ السنة أيضًا: حفظ سيرة الرسول ﷺ، لأن سيرته ﷺ جزء من سنته، فحُفِظَت سيرته أيضًا، لا تجد نبيًا له سيرة كاملة مستكملة الحلقات من الميلاد إلى الوفاة إلا سيرة مُحَمَّد ﷺ، لا تجد سيرة موسى مستكملة، ولا سيرة المسيح، ولا سيرة أي نبي آخر.

لكن سيرة مُحَمَّد مُسْتَكْمَلَةٌ منذ ميلاده، مَنْ أَرْضَعَهُ؟ ماذا حدث له في أيام الرضاعة؟ وماذا حدث له في أيام الشباب؟ ماذا حدث له قبل الرسالة وبعد الرسالة؟ ماذا حدث له قبل الهجرة وبعد الهجرة؟ سُجِّلَت كل هذه الحلقات تسجيلًا علميًا، فهي سيرة علمية محفوظة.

ليس في سيرته ﷺ دائرة حمراء على بعض الجوانب، لا، بل حتَّى أموره الشخصية، علاقته بنسائه تُروى لنا، تسع نساء إذا نسيت واحدة تذكر الأخرى وتروي، فلا يوجد نبي له سنة وسيرة محفوظة بكاملها، مثل سنة مُحَمَّد ﷺ وسيرته.

وهي سيرة شاملة، كل مَنْ أَرَادَ الأُسُوءَةَ فِيهَا يجد له أسوة، وهذا أمر شرحناه في خطب سابقة، الغني يجد في سيرته أسوة، والفقير يجد فيها أسوة، الشاب يجد فيها أسوة، والشيخ يجد فيها أسوة، العزب يجد فيها أسوة، والمتزوج يجد فيها أسوة، المتزوج بواحدة يجد فيها أسوة،

(١) راجع: الموافقات في أصول الشريعة (٣/٤) وما بعدها، الدليل الثاني: السنة، وهو كتاب لا ند له في بابه، تحقيق الشيخ عبد الله دراز، نشر دار المعرفة، بيروت، ط ٢، ١٣٩٥هـ -

والمتزوج بعدة زوجات يجد فيها أسوة، المسالم يجد فيها أسوة، والمحارب يجد فيها أسوة، المنتصر يجد فيها أسوة، والمنهزم يجد فيها أسوة، فهي أسوة في كل شيء، ولا يوجد هذا في سيرة نبي من الأنبياء. لو أردت أن تقتدي بسيرة المسيح وأنت تريد الحرب: لا تجد للمسيح حرباً ولا غزوات ولا قتالاً؛ فلم يقاتل ولم يحارب، ولو أردت أن تقتدي به كأب فالمسيح لم يتزوج حتى يكون له أولاد، أمّا الرسول فتزوج، وكان له أولاد وأحفاد، منهم من عاش، ومنهم من مات، ولذلك تجد الأسوة في حالتي الحياة والموت، فهذه خصيصة من خصائص النبوة المحمّديّة.

٦ - تمييز أصحاب النبي ﷺ:

والخصيصة السادسة: أنّ محمداً ﷺ خصّه الله بأصحاب، لم يخص بهم أحد من رسله، لا يوجد لنبي من الأصحاب المميزين، الأشداء على الكفار، الرحماء بينهم، الباذلين لله أنفسهم وأموالهم، المتعبدین لله، القوام الصوّم، الرّكع السجود؛ كما وُجد لمحمّد ﷺ من الأصحاب.

أثنى الله على أصحاب النبي في القرآن في سورة التوبة فقال: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوْلُونَ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وأثنى عليهم في أواخر سورة الأنفال فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٢]، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٧٤].

وأثنى الله عليهم في سورة الحشر فقال: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿ [الحشر: ٨، ٩].

وأثنى الله عليهم في سورة الفتح فقال: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨]، ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَفَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩]. وفي سور عدة أثنى الله تبارك وتعالى على هؤلاء الأصحاب.

وأثنى عليهم مُحَمَّدٌ ﷺ في أحاديثه، وقال: «لا تسبُّوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبًا ما بلغ مدَّ أحدهم ولا نصيفه»^(١)، «اللَّهُ اللهُ في أصحابي، فَمَنْ أَحَبَّهُمْ فَبِحَبِّي أَحَبَّهُمْ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ فَبِبْغَضِي أَبْغَضَهُمْ، وَمَنْ آذَاهُمْ فَقَدْ آذَانِي فَيُوشِكُ اللهُ أَنْ يَأْخُذَهُ»^(٢)، «خير القرون قرني، ثمَّ الذين يلونهم، ثمَّ الذين يلونهم»^(٣).

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤١)، كلاهما في فضائل الصحابة، عن أبي سعيد الخدري.

(٢) رواه أحمد (١٦٨٠٣)، وقال مخرجه: إسناده ضعيف. والترمذي في المناقب (٣٨٦٢)، وقال: غريب. عن عبد الله بن مغفل.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٣٦٥١)، ومسلم (٣٥٩٤)، كلاهما في فضائل الصحابة، عن ابن مسعود.

هؤلاء الأصحاب الذين أثنى عليهم الله ورسوله هم قرة عين الدنيا، لم تكتحل الدنيا برؤية مثلهم، تلاميذ مُحَمَّد ﷺ، أصحاب موسى خذلوه في أول معركة، قيل لهم: ﴿ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٢١]. فقالوا: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَارِينَ وَإِنَّا لَنَدْخُلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ [المائدة: ٢٢]. وما زال يلح عليهم، ويلح عليهم بعض أصحابه فقالوا أخيراً: ﴿إِنَّا لَنَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَكَتِلْنَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]. فلم يملك موسى إلا أن يقول: ﴿رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ * قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٥، ٢٦]. هؤلاء الفاسقون هم أصحاب موسى الذين خذلوه.

أمَّا أصحاب مُحَمَّد فقالوا له: والله يا رسول الله لا نقول لك كما أصحاب موسى لموسى: ﴿فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَكَتِلْنَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾. ولكن نقول لك: اذهب أنت وربك فقاتلا إِنَّا معكما مقاتلون^(١). ويقولون: والله لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وإنا لَصَبِرٌ فِي الْحَرْبِ صُدُقٌ عِنْدَ الْوُقُوعِ، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك^(٢). هؤلاء هم أصحاب رسول الله ﷺ.

وكان أصحاب عيسى عدداً قليلاً: اثني عشر حوارياً، ومع هذا في ساعة الشدة وساعة العسرة خانه مَنْ خانه، وخذله مَنْ خذله، وقال لهم أكثر من مرّة: مِنْكُمْ مَنْ يَنْكُرُنِي. وأنكروه، وشهدوا عليه أمام الحاكم الروماني، وفعلوا ما فعلوا.

(١) رواه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٠٩)، عن ابن مسعود.

(٢) رواه البيهقي في دلائل النبوة (٣١/٣ - ٣٥)، وصححه الألباني في تخريج فقه السيرة ص ٢٢٣.

هؤلاء الأصحاب هم الذين حفظوا لنا القرآن، وهم الذين رَووا لنا السنن، وهم الذين فتحوا العالم، ونشروا فيه الإسلام، ومع هذا يجيء مَنْ يجيء ويحاول أن يُشوّه صورة هذا الجيل النموذجي المتميز الفريد، الذي كان يتلقّى القرآن فينْفِذه في الحال، تميز رسول الله ﷺ بهؤلاء الأصحاب.

٧ - إعداد الله نبيّه لحمل رسالته:

والخصيصة السابعة للنبوة المُحمّديّة والرسالة المُحمّديّة: أنّ الله تعالى أعدّ محمداً ﷺ إعداداً خاصّاً، عين الله هي التي رعته، هيّأته ليحمل هذه الرسالة العامّة الخالدة.

تولّى الله تربيته ورعايته بنفسه، علّمه فأكمل تعليمه، وأدّبّه فأحسن تأديبه، مات أبوه وهو في بطن أمّه، وماتت أمّه وهو في السادسة من عمره، ومات جده، الذي كان سيد مكّة في وقته، وهو في الثامنة من عمره، مات كل مَنْ كان يرعاه ويحنو عليه لتكون عين الله هي التي ترعاه؛ بحيث لا يعتمد على أبٍ ولا أمٍّ ولا جدٍ، وإنّما يعتمد على الله، ويخوض الحياة بنفسه، ويهيّؤه الله ليرعى الغنم بأجر لبعض الناس؛ ليتعلم منها حسن الرعاية، وحسن الرفق، وليعتمد بعد الله على نفسه: على كدّ يمينه، وعرق جبينه.

صحيح أنّه ابن عائلة كبيرة، ومن أوساط قريش، وجده سيد مكّة، ولكنّه ليس كأبناء القبائل الكبيرة والعائلات الشريفة، يعتمد على شرف عائلته ولا يعمل، ويمد يده إلى أقاربه، لا، بل كان يعمل ويكدح في الحياة، يأكل من عرقه، هذا هو الذي علّمه الله.

وكان نِعَم الشاب في حياته، في غاية من الطهر، وغاية من الاستقامة، لم يُعرف عنه أنه عاكس فتاة، أو ركض وراء امرأة، أو دخل حانة من الحانات، أو شارك في شرب الخمر، أو شارك في ليلة من ليالي اللهو، أبداً لم يُعرف عنه شيء من هذا.

ولو عرفوا عنه هذا لقالوا له: ألسنت الذي كنت تفعل كذا وكذا؟! وما قال أحد منهم هذا؛ لأنهم يعرفون طهره وخُلُقَه واستقامته، فقد كان مصنوعاً على عين الله، الله هو الذي تولاه، ولذلك وصفه ربُّه بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]. هذه الكلمة ليست هينة، أن يقول له ربه الذي خلقه فسوّاه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾. هذه شهادة لها معناها من رب العباد إلى مُحَمَّد ﷺ، فهذه هي الخصيصة السابعة من خصائص النبوة المُحمّدية.

٨ - أُمِّيَّة الرَسُول ﷺ :

والخصيصة الثامنة من خصائص النبوة المُحمّدية: أَنَّ اللَّهَ وَعَجَلَ مِيَّزَهُ بِالْأُمِّيَّةِ، فهو النبي الأُمِّي، حينما حدّث موسى قومه أخبرهم أن هناك نبياً أُمِّيّاً سيأتي، كما قال القرآن: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

ميزة النبي مُحَمَّد ﷺ أَنَّهُ النبي الأُمِّي، لم يقرأ كتاباً، لم يتعلّم كما تعلّم النَّاسُ، أبعدَه اللهُ عن تعلّم القراءة والكتابة، حتّى لا يُقال: إِنَّ مَا جَاءَ بِهِ تَعَلَّمَهُ مِنْ قِرَاءَةِ كِتَابِ النَّبِيِّينَ السَّابِقِينَ، أو الفلاسفة الماضين أو الحكماء في الأمم المختلفة. لا، فما كان يقرأ ولا يكتب، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَأَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]. كانوا إذن يتشككون.

أراد الله أن يبعد كل الشكوك وكل الرّيب عن رسوله؛ فجعله نبياً أمياً؛ ليتلقى القرآن من الله تلقياً خالصاً، لا تشوبه شائبة، فلا يستطيع أحد أن يقول: إنّه من بنات أفكاره، أو من تأملاته الفلسفية الخاصّة، لا، لم تكن له تأملات ولا فلسفات.

ويقول الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَلنُّقْىَ الْقُرْءَاتِ مِن لَّدُنِّ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ٦]، ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَهْدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]. قبل إحياء القرآن ما كنت تدري شيئاً من العلم، الله هو الذي علّمك بواسطة جبريل، ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ﴾ [النجم: ٥، ٦]، ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٣ - ١٩٥]. هذه هي الخصيصة الثامنة من خصائص النبوة المحمّديّة.

٩ - استعصاء الأمة على الفناء:

والخصيصة التاسعة أيّها الإخوة أنّ الله تولّى بقاء هذه الأمة: أمة محمّد، إلى يوم القيامة، ما دامت هذه الأمة هي الأمة الخاتمة، وتحمل الرسالة الخاتمة فمن الحكمة أن تبقى هذه الأمة حاملة الرسالة إلى العالم. ولذلك ضمن الله لرسوله ألاّ يُسلط على هذه الأمة عدوّاً من غيرها يستطيع بيضتها، ويستأصل شأفتها، قد تقع في حروب مع أعدائها، ولكن لا يستطيع أعداؤها أن يفتنوها، أن يقضوا عليها، أن يبيدوها إبادة مادية.

ومن هنا رأينا المسلمين طوال التاريخ: أغار عليهم الفرنجة أو الصليبيون في تسع حملات صليبيّة من أوروبا، والمسلمون في غاية من الوهن والضعف، وغاية من التشرذم والتفرق، جاؤوا والمسلمون على

هذه الحال فاكتمسحوا البلاد أمامهم، وأقاموا لهم إمارات بواسطة الخونة من الأمراء وغيرهم، وظلوا أكثر من مائتي سنة، ولكنهم لم يستطيعوا أن يقضوا على هذه الأمة.

جاء كذلك بعدهم وفي عهدهم التتار من الشرق، فالصليبيون من الغرب والتتار من الشرق، وجاءوا كالريح العقيم، ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم، اكتسحوا الممالك مملكة بعد مملكة، ودولة بعد دولة.

ومن سوء حظ المسلمين في ذلك الوقت أن كل بلد كان يدافع عن نفسه وحده، فقدوا الوحدة الإسلامية، أنهم تابعون لخلافة واحدة ودولة واحدة، ولكنهم من هوانهم وتشردمهم كانوا يدافعون فرادى، فانتصر التتار عليهم حتى دخلوا بغداد عاصمة الخلافة، وحدث فيها ما حدث.

ولكن رغم أنهم قتلوا مليوناً أو مليونين بالسيوف والسكاكين: لم يستطيعوا أن يقضوا على أمة الإسلام، واستطاعت الأمة بعد ذلك أن يهيئ الله لها رجالاً ينفخون فيها الروح، ويبدؤون من جديد معارك التحرير، وحرروا الأمة من الفرنجة الصليبيين ومن التتار.

انتصروا أولاً على التتار عسكرياً في معركة عين جالوت، ثم انتصروا ثانياً على التتار معنوياً حينما دخل التتار في الإسلام، وأصبحوا في الهند وفي غيرها يحكمون باسم الإسلام.

حفظ الله الأمة مادياً من الفناء، لا يهلكها الله بسنة من السنن: بالغرق، أو الخسف، أو المسخ، ولا يهلكها بتسليط أحد من الأعداء عليها، بحيث يستبيح بيضتها، هذه هي الخصيصة التاسعة.

١٠ - عصمة مجموع الأمة:

والخصيصة العاشرة أيها الإخوة: أن الله كما حفظ هذه الأمة مادياً حفظها معنوياً، وما معنى معنوياً؟ أي تبقى حاملة الرسالة، قد يضلُّ فيها مَنْ يضلُّ، ويزلُّ فيها مَنْ يزلُّ، وينحرف مَنْ ينحرف من الحكام، أو من النُخب، أو من بعض النَّاس، ولكن الأمة في مجموعها معصومة، عصمتها الله أن تجتمع كلها على ضلالة، يظل فيها مَنْ يقول الحق، ومَنْ يُنكر الباطل، كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَسُوًّا بِهَا بِكْفِيرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩].

هناك ناس مُوَكَّلون من قِبَلِ اللَّهِ وَعَلَيْهِمْ، يدافعون عن الحق، ويقاومون الباطل، كما قال سبحانه: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨١]. هناك أمة من المسلمين يهدون بالحق وبه يعدلون، وهم الذين سمَّاهم العلماء (الطائفة المنصورة) التي جاءت بها الأحاديث الصحاح المستفيضة، عن عدد من الصحابة: «لا تزال طائفة من أمتي قائمة على الحق، لا يضرها مَنْ خالفها، حتَّى يأتي أمر الله وهم على ذلك»^(١). هذه الطائفة المنصورة بالحق، الناصرة للحق، القائمة على الحق هي أمل الأمة.

لا يمكن أن تُجمع هذه الأمة على الضلال، وتسير في ركب الشيطان، يوجد شياطين يدعون إلى الضلال، «دعاة على أبواب جهنم، مَنْ أجابهم إليها قذفوه فيها». قالوا: صفهم لنا يا رسول الله. قال: «هم من بني جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا»^(٢). هؤلاء الدعاة على أبواب جهنم

(١) متَّفَق عليه: رواه البخاري في المناقب (٣٦٤١)، ومسلم في الإمارة (١٠٣٧)، عن معاوية. ورواه

مسلم في الإيمان (١٥٦)، وأحمد (١٥١٢٧)، عن جابر بن عبد الله.

(٢) متَّفَق عليه: رواه البخاري في الفتن (٧٠٨٤)، ومسلم في الإمارة (١٨٤٧)، عن حذيفة بن

اليمان.

رأيانهم في كل بلد، وفي كل حين، وأحياناً تكون أجهزة وأبواق يتحدثون بها، وتكون لهم صحف وقنوات.

ولكن لا يستطيع هؤلاء أن يضلوا الأمة كلها، سيظل هناك مَنْ يحمل علم النبوة، وميراث النبوة؛ كما جاء في الحديث الذي رواه البيهقي وغيره: «يحمل هذا العلم من كلِّ خلفٍ عدوُّه، ينفون عنه تحريفَ الغالين، وانتحالَ المبطلين، وتأويلَ الجاهلين»^(١). هؤلاء هم الذين اختارهم الله ليدافعوا عن حقيقة هذا الدين، عن ميراث النبوة، ينفون عنه تحريف أهل الغلو، وانتحال أهل الباطل، وتأويل أهل الجهل.

سيظل هذا الدين محمياً من الله تبارك وتعالى بهؤلاء الرجال والنساء، جيل النصر المنشود، الذي ذكره الله تعالى في كتابه، حين يمرق المارقون، ويرتد المرتدون، يدخر الله للدفاع عن دينه قوماً وصفهم بقوله: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

(١) رواه ابن وضاح في البدع حديث رقم (١)، والبيهقي في الشهادات (٢٠٩/١٠)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٢٤٨). عن إبراهيم بن عبد الرحمن العذري. والحديث ذكره الإمام ابن القيم وقواه لتعدد طرقه في مفتاح دار السعادة (١٦٣/١، ١٦٤)، نشر دار الكتب العلمية، بيروت. وكذلك العلامة ابن الوزير الذي استظهر صحته أو حسنه، لكثرة طرقه مع ما نقل من تصحيح الإمام أحمد له، والحافظ ابن عبد البر، وترجيح العقيلي لإسناده، مع سعة اطلاعهم وأمانتهم، فهذا يقتضي التمسك به. انظر: الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم لابن الوزير (٢١/١ - ٢٣)، نشر دار المعرفة، بيروت. وانظر: كلامنا عن هذا الحديث في كتابنا: كيف نتعامل مع السنة النبوية ص٣٦ - ٤١، نشر دار الشروق، القاهرة، ٢٠١٠م.



واجبنا تجاه الرسالة المُحمَّديَّة:

هذه هي الخصائص العشر التي ميَّز الله بها نبوة محمد ﷺ ورسالته عن سائر النبوات والرسالات، وهذه هي التي علينا نحن المسلمين أن نعيها حق الوعي، نؤمن بأننا أصحاب رسالة عامَّة خالدة عالميَّة، رسالة الرحمة، رسالة الهدى والنور، وأنَّ العالم أحوج ما يكون إلى هذه الرسالة.

ماذا فعلنا نحن المسلمين لتبليغ هذه الرسالة إلى العالم؟ إننا مُقَصِّرون أبلغ التقصير في إيصال هذا النور، هذا الهدى إلى النَّاس كافة، رغم ما هيأ الله لنا في هذا العصر من وسائل وآليات وإمكانات، نستطيع أن نخاطب بها البشر في كل مكان.

إننا أيُّها الإخوة لسنا في حاجة إلى مَنْ يحمل السيف ليُبَلِّغ هذه الرسالة، بالعكس نحن في حاجة إلى مَنْ يحمل الفكر، ويحمل العلم، ويحمل القلم، ويحمل الدعوة ليُبَلِّغ هذه الرسالة إلى الشرق والغرب، وإلى العرب والعجم، إلى العالم بأسننته المتباينة ولغاته المختلفة؛ فماذا أعددنا لهذا؟

إنَّ ما نراه من تطاول على شخصيَّة محمد ﷺ، وهي أعظم شخصيَّة بشريَّة إنما هو من جرَّاء الجهل بسيرة مُحمَّد ﷺ، ورسالة مُحمَّد ﷺ، لا يعلمون عن هذا الرسول شيئاً، قرؤوا قراءات سطحية مُشوَّهة مُشوَّشة، وربَّما ساهم في هذا التشويش والتشويه بعض المسلمين للأسف، فأخذوا صورة زائفة عن هذا النبي العظيم.

ونحن علينا واجب نحو إزالة هذه الصور الشائثة الزائفة، أن نعطي صورة حقيقيَّة لمُحمَّد رسول الله صاحب الصورة العاطرة، صاحب

المسيرة الزاهرة، صاحب الرسالة الخالدة، صاحب القرآن العظيم،
صاحب الخلق العظيم.

علينا نحن أن نقوم بهذا الواجب، ليسأل كل منا نفسه: ماذا فعل في أداء هذه الرسالة؟ هل كلم مرة واحدة أحدًا من غير المسلمين عن هذا الرسول، وعن هذه الرسالة، وعن هذا القرآن، وعن هذه العقيدة، وعن هذه الشريعة، وعن هذه الحضارة؟ وهل أهل نفسه لهذا؟ هل قرأ بنفسه عن هذه الرسالة ما يؤهله لتبليغها؟ هل أعد نفسه ليكون من هؤلاء الدعاة؟

إن كل مسلم داعية إلى الله، كل مسلم مخاطب بقول الله تعالى:
﴿ اُدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾
[النحل: ١٢٥]. كل مسلم مخاطب بقول الله تعالى: ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعْتِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٨].
مُحَمَّدٌ ﷺ يدعو إلى الله على بصيرة هو ومن اتبعه؛ فإن كنت ممن اتبع محمدًا ﷺ فيجب أن تكون داعيًا إلى الله، وداعيًا على بصيرة، هذا ما يطالبنا به القرآن، وهذا ما يطالبنا به الإسلام، ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت: ٣٣].

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه؛ إنه هو الغفور الرحيم، وادعوه يستجب لكم.

الخطبة الثانية

أَمَّا بَعْدُ:

دعوة للتبرع لموقع ببليو إسلام:

فأرجو من الإخوة أن يتبرعوا لموقع «ببليو إسلام» عن طريق جمعية «البلاغ الثقافية» (إسلام أون لاين)، وإسلام أون لاين لنصرة الرسول ﷺ، لا بد أن نبذل بعض الشيء نصرةً لرسولنا ﷺ، فالله تعالى وصف أصحاب مُحَمَّدٍ ﷺ بقوله: ﴿وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨]، ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. فلا بد أن نصر رسول الله بالدعوة إلى رسالته، إلى سُنَّته، إلى سِيرَتِهِ، إلى هذا الإسلام العظيم، وأن ندافع عنه أمام هذه الهجمات الكاذبة الزائفة المفترية، التي تستهين بهذا الرسول العظيم، وبهذا الدين العظيم، وبهذه الأمة العظيمة.

اللهم هَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا، اللَّهُمَّ لَا تَكُنْ لَنَا إِلَى أَنْفُسِنَا طَرْفَةً عَيْنٍ، وَلَا أَقْلَ مِنْ ذَلِكَ، اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي دِينِنَا وَدُنْيَانَا، وَأَهْلِينَا وَأَمْوَالِنَا، اللَّهُمَّ اسْتِرْ عَوْرَاتِنَا، وَأَمِنْ رَوْعَاتِنَا، وَاحْفَظْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِينَا وَمِنْ خَلْفِنَا، وَعَنْ أَيْمَانِنَا وَشِمَائِلِنَا وَمِنْ فَوْقِنَا، وَنَعُوذُ بِعَظْمَتِكَ أَنْ نُغْتَالَ مِنْ تَحْتِنَا، اللَّهُمَّ اجْمَعْ كَلِمَةَ هَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى الْهُدَى، وَقُلُوبَهَا عَلَى التَّقَى، وَنَفُوسَهَا عَلَى الْمَحَبَةِ، وَعِزَائِمَهَا عَلَى عَمَلِ الْخَيْرِ وَخَيْرِ الْعَمَلِ؛ إِنَّكَ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

* * *



الرد على المتهمين على النبي ﷺ

الخطبة الأولى

أمَّا بعدُ، فيا أيُّها الإخوة المسلمون:

نحن الآن في مرحلة خطيرة من تاريخ الأمة الإسلاميَّة، ومما يُؤسف له أنَّ الإسلام في هذه المرحلة يتعرض لغزوات ضارية، ولهجمات شرسة، من الخارج ومن الداخل، من أعدائه ومن بعض أبنائه، في الخارج نجد اتهام الإسلام بالإرهاب، واتهام المسلمين بأنهم إرهابيون، وأصبح الإرهاب كأنه تهمة لصيقة بالإسلام وحده، وبالمسلمين دون غيرهم من سائر الأمم.

اتهام الغرب للإسلام بالإرهاب:

ونحن نجد أحداث العنف في العالم كله، وفي سائر الديانات وأصحابها، في الغرب وفي الشرق، وجدنا أحداث العنف في أمريكا في أوكلاهوما، وفي اليابان، أحداث مترو الأنفاق باستخدام الغازات السامة، ووجدنا أحداث العنف في بريطانيا، ووجدنا أحداث العنف في إسرائيل، ووجدنا أحداث العنف في الهند.

لماذا يلصق بالإسلام وحده هذه التهمة، حتّى قال رجل يهودي: إنّ التطرف كامن في الإسلام نفسه! قالوا له: كيف تقول هذا؟ قال: إنّ القرآن نفسه أكبر داعٍ إلى التطرف، والمسلمون جميعًا مُتَطَرِّفون، ليس فيهم معتدل واحد! ولما حاصروه بالأسئلة قال: يوجد بعض المسلمين المعتدلين. قالوا: مثل من؟ فضرب لهم مثلا برئيس دولة في إفريقيا تحرم الحجاب، وتحرم تعدد الزوجات، إلى آخره. وقال: ثمّ سلمان رشدي! هؤلاء هم المعتدلون في نظره! وجميع المسلمين متطرفون؛ لأن القرآن يعلمهم التطرف، والإسلام يغرس في عقولهم وقلوبهم العنف. هذا ما يقوله هؤلاء!

ولا نستبعد أن يقول هؤلاء ما يقولون، ما داموا يدّعون ويزعمون أنّ القرآن ليس كلام الله، وأنّ مُحَمَّداً كذاب، افترى هذا القرآن، وادعى أنّه من عند الله ﷻ، لا نستغرب من هؤلاء، فالشيء من معدنه لا يستغرب، ﴿وَالَّذِي خُبْتُ لَا يُخْرِجُ إِلَّا نَكِداً﴾ [الأعراف: ٥٨].

تجني بعض أبناء الإسلام عليه:

أمّا الذي نستغربه، فهو أن يُتَّهم الإسلام من أبنائه، ممّن يتسمون بمُحَمَّدٍ وأحمد، وحسن وحسين وعبد الرحمن، إلى آخر هؤلاء. نجد الإسلام في هذا العصر الأخير قد استبيحت حرّماته، وقد استهين بمقدساته، وقد اجترأ على حماه، وقد تناول عليه المتناولون.

لا نمنع النَّاسَ أن يجتهدوا، وأن يفكروا، فإنَّ أعظم دين دعا إلى التفكير والاجتهاد هو الإسلام، فالتفكير عبادة، أو كما قال عبّاس العقّاد رَحِمَهُ اللهُ: التفكير فريضة إسلامية. وذلك أنّ القرآن الذي أمر بالعبادة:

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَعِبُدُوا رَبَّكُمْ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧]. أمر بالتفكر: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بِوَحْدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشْنَىٰ وَفِرَادَىٰ ثُمَّ تَنْفَكُرُوا﴾ [سبأ: ٤٦]، ﴿أَوْلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

القرآن يدعو للنظر والاعتبار والاجتهاد:

القرآن حافل بالأوامر المتواصلة التي تأمر بالنظر في الكون، وفي التاريخ، وفي الأنفس والآفاق، وبالاعتبار بما صنع الله، وما أحدث الله في هذه المجتمعات البشرية. القرآن آيات ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، و﴿لِقَوْمٍ يَنْفَكُرُونَ﴾. القرآن هو الذي نوه بـ ﴿يَتَأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أصحاب العقول. ليس في القرآن ما قيل في الأديان الأخرى: اعتقد وأنت أعمى. أو أغلق عينيك ثم اتبعني.

القرآن حمل حملة كبرى على التقليد الأعمى، سواء أكان هذا التقليد للأجداد والآباء أم للسادة والكبراء، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانُوا ءَابَاءَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠]، ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبْرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا﴾ ﴿رَبَّنَا ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٧، ٦٨]. لا يشفع لهم هذا. المسلم مأمور أن يعمل عقله، وأن يعمل اجتهاده، ولا يوجد دين حث على الاجتهاد مثلما حث عليه الإسلام، حتى إنه ليشيب المخيط إذا اجتهد ولم يُصب، «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر»^(١). ولكن على أن يكون هذا الاجتهاد في محله، ومن أهله.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الاعتصام (٧٣٥٢)، ومسلم في الأفضية (١٧١٦)، عن عمرو بن العاص.



الاجتهاد المقبول من أهله في محله:

ليس الباب مفتوحاً لكل من (هَبَّ ودَبَّ)، يقول ما يشاء فيما يشاء، هناك مناطق مغلقة لا يدخلها اجتهاد ولا تطوير، وهناك مناطق مفتوحة. الحمد لله أن معظم أحكام الإسلام، ونصوص الإسلام من هذه المناطق المفتوحة. ولكننا رأينا هؤلاء المتطاولين، الذين يجترئون على الله ورسوله، الذين يستخفون بالمقدسات، ويهزؤون بالآيات، ويريدون أن يزيلوا القدسية عن كل شيء، حتى قدس الأقداس: القرآن الكريم. عمدة الملة، وينبوع العقيدة والشريعة، وروح الوجود الإسلامي، الذي تولى الله حفظه، فلم يعتره تغيير ولا تبديل، ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]، ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۗ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢].

لا يوجد كتاب بقي كما هو، يُقرأ كما كان يقرؤه مُحَمَّدٌ ﷺ وأصحابه، بما فيه من غنٍّ ومدٍّ وإظهار وإدغام، وإقلاب وإخفاء. تولى شرحها علم يسمى (علم التجويد). ويكتب كما كان يُكتب على عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان، مع تطور قواعد الرسم والإملاء، بقي المسلمون يكتبون المصحف كما كُتِبَ منذ ذلك العهد.

ثوابت الإسلام لا يجوز اختراقها:

لا يُوجد في الدنيا كتاب مثل هذا الكتاب، ومع هذا رأينا من يجترئ على هذا القرآن، على قدس الأقداس، ويحاول أن يفسره كما يشاء، وأن يفهمه كما يشاء، ولو خالف جميع الأمة، وناقضها في جميع عصورها التاريخية!

لا، ليس كل شيء كلاً مباحاً، هناك ثوابت عند هذه الأمة لا يجوز اختراقها. بعضهم سُئِلَ في إحدى القنوات الفضائية العربية: هل تُوجد

عندك خطوط حمراء؟ قال: لا، لا يوجد عندي خطوط حمراء، كل شيء قابل للمناقشة! الألوهية قابلة للمناقشة، النبوة قابلة للمناقشة، القرآن قابل للمناقشة، نبوة مُحَمَّدٍ قابلة للمناقشة، الجزاء في الآخرة قابل للمناقشة! إذن لست مسلماً، إذا كانت هذه الأمور كلها قابلة للمناقشة فلست مسلماً، فلتناظرني إذن مناظرة غير المسلم للمسلم، لا تدعي أنك مجتهد في الإسلام!

هذا للأسف ما نراه عند هؤلاء. يريد أن يمرق من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، وأن يشكك في كل ثوابت الإسلام، وفي كل مقدسات الإسلام، ومع هذا يريد أن يبقى في دائرة المسلمين. هل هذا معقول؟ إن شئت اختر طريقك خارج الدائرة الإسلامية، أمّا أن تريد أن تفرض نفسك علينا، وأنت لا تؤمن بثوابت الإسلام، التي لا تقبل التغيير أو التطور، فهذا ما يرفض.

فإمّا أن تكونَ أخي بصدقٍ فأعرف منك غثي من سَميني
وإلا فاطرحني واتخذني عدواً أتقيك وتقيني^(١)
لا بدّ أن تتضح المسائل.

نحن في عصر اجترأ فيه المجترئون على هذا الجَمي المقدّس، وأخيراً رأينا بعض الناس الذين يتناولون التاريخ الإسلامي، والسيرة النبوية بما لا ينبغي أن تُتناول به سيرة نبي عظيم مثل مُحَمَّدٍ ﷺ، هذا الذي قال: إن محمداً ﷺ - بأبي هو وأمي - فشل في مهمته في العهد المكي، خلال ثلاثة عشر عاماً. فشل في مهمته!

(١) من شعر المُثَقَّب العَبْدِي، كما في عيون الأخبار لابن قتيبة (٨٩/٣)، نشر دار الكتب العلمية،

بيروت، ١٤١٨هـ.

منهجي المناقشة لا التكفير:

أنا لا أسارع بتكفير أحد، وليس من منهجي المبادرة بالتكفير، وقد كتبت في ذلك رسالة معروفة (ظاهرة الغلو في التكفير). لا أحب أن أكفر النَّاس بسهولة، إلا بعد أن تقوم البينة القاطعة، التي تُزال فيها كل شبهة، وتقام كل حجة، وينقطع العذر. هذا ما لا بدَّ منه، إذا أردنا أن نكفر أحدًا، لا نخرج أحدًا من الملة إلا بيقينٍ جازم، إلا بقواطع مُحكمة. ولكنني أميل إلى مناقشة هؤلاء، الذي يجترئون على الثوابت، وعلى القواطع، والذين يسيئون الأدب مع كتاب الله، ومع رسول الله ﷺ.

ما مهمّة النبي في مكة؟

ماذا يعني هذا الذي قال: إن رسول الله فشل في مهمته خلال ثلاثة عشر عامًا في مكة؟! ما هي مهمّة النبي ﷺ التي فشل فيها؟ وماذا يتصوّر المسكين هذه المهمّة، هل كانت مهمته أن يُكره النَّاس على الدخول في الإسلام؟! هل كانت مهمته أن يفتح القلوب ليحشوها بالإيمان بيده؟!!

هذا ليس إلى النبي، وليس إلى أيّ نبي، الإيمان شيء يشرح الله به صدور عباده، لا يملك نبي من الأنبياء، ولا رسول من الرسل أن يكره النَّاس على الإيمان الحقيقي، وقد قال الله تعالى لرسول في القرآن المكي: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]. وكذلك قال نوح ﷺ لقومه: ﴿أَنْزِلْكُمْ هَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ [هود: ٢٨]. لا نستطيع ذلك. «إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن، كقلب واحد، يصرفه حيث يشاء»^(١). إن شاء أن يهديها هداها، وإن شاء أن يزيغها أزاغها.

(١) رواه مسلم في القدر (٢٦٥٤)، عن ابن عمر.

حُزْنُ النَّبِيِّ لِإِعْرَاضِ قَوْمِهِ:

كان النبي ﷺ شديد الحزن، شديد الضيق لإعراض قومه عن الإيمان، فقال الله تعالى له في ذلك: ﴿طه﴾ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿١﴾ إِلَّا نَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى ﴿٢﴾ [طه: ١-٣]. ما نزل عليك القرآن ليتسبب لك في الشقاء والضيق، أنت مهمتك أن تذكر، وليست مهمتك أن تهدي، ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿٣﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿٤﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢]. لا تستطيع أن تسيطر على القلوب، عليك الدعوة وعلى الله الهداية، عليك البلاغ وعلى الله الحساب، ﴿فَاتِمَّا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٥﴾ [الرعد: ٤٠]، ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٦﴾ [النور: ٥٤]، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ [القصص: ٥٦]. وهذه الآية نزلت في أبي طالب عم النبي ﷺ، الذي كان حريصًا على هدايته، ولكنه لم يهتد ومات على ملة عبد المطلب^(١). ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٨﴾ [النحل: ٣٧].

الدعوة من الرسول والهداية من الله:

ليست الهداية بيد محمد ﷺ، إنما الذي بيده هو الدعوة، هو التبليغ، هو البيان، هو الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن، هو التبشير والإنذار، ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنْ آرَأْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٢﴾ وَبَشِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٣﴾ وَلَا نُطِيعُ الْكٰفِرِينَ وَالْمُنٰفِقِينَ وَدَعَّ أٰذُنَهُمْ وَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤﴾ [الأحزاب: ٤٥ - ٤٨]، ﴿يَأْتِيهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ ﴿٥﴾ [المائدة: ٦٧].

(١) كما في الحديث المتفق عليه: رواه البخاري في مناقب الأنصار (٣٨٨٤)، ومسلم في الإيمان

(٢٤)، عن المسيب بن حزن.

فهل قصر النبي ﷺ في التبشير والإنذار؟ هل قصر في البيان والتبليغ؟! لا والله ما قصر، ظل حياته مبشراً منذراً، مبلغاً وداعياً إلى الله ﷻ بأحسن ما يكون التبليغ، وبأرق ما يكون التبيين والدعوة إلى الله ﷻ، ولكن القلوب ليس زمامها إليه، زمامها بيد الله ﷻ. عليه أن يبذر الحب، ويرجو الثمار من الرب. هذه مهمته.

ولذلك حينما كان يحزن أشد الحزن، ينزل القرآن ليخفف عنه، ويقول له: ﴿لَعَلَّكَ بَدِخٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣]، تقتل نفسك من أجلهم! ﴿فَلَعَلَّكَ بَدِخٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]. ويأمره بالصبر: ﴿أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [ص: ١٧]، ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨]، ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧، ١٢٨]، ﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠]، ﴿فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولَا الْعُرْوِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥]. لا تستعجل، فالثمرة لا بد أن تتركها مدة من الزمن حتى تنضج، هكذا كان ﷺ.

دعوة متواصلة ثلاثة عشر عاماً:

ظل النبي ﷺ ثلاثة عشر عاماً يؤدي رسالته، ويعلي كلمة الله، ويبلغ أمانة الله إلى الناس، بدأ بالدعوة الفردية في الثلاث السنوات الأولى، ثم نزل عليه: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، فجاء بأقاربه من بني هاشم وبلغهم، «إِنَّ الرَّائِدَ لَا يَكْذِبُ أَهْلَهُ، وَاللَّهُ لَوْ كَذَبْتُ النَّاسَ جَمِيعًا مَا كَذَبْتُكُمْ، وَلَوْ غَرَرْتُ النَّاسَ جَمِيعًا مَا غَرَرْتُكُمْ، وَاللَّهُ إِنِّي لِرَسُولِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ خَاصَّةً، وَإِلَى النَّاسِ كَافَّةً، وَاللَّهُ لَتَمُوتَنَّ كَمَا تَنَامُونَ، وَلَتَبْعَثَنَّ كَمَا

تستيقظون، ولتحاسبنَّ بما تعملون، ولتجزونَّ بالإحسان إحساناً، وبالسوء سوءاً، وإنَّها لجنة أبداً، أو لنارٌ أبداً»^(١).

ثمَّ دعا قومه دعوة عامَّة، وقف على الصفا ونادى بطون قريش، «يا بني عبد مناف، يا بني مخزوم، يا بني عديّ، يا بني فلان، يا معشر قريش»، فجأؤوه، وبلغهم رسالة الله^(٢). وظلَّ هكذا، يبلغ رسالته ويتحمل في سبيلها، يتحمل الأذى هو وأصحابه، لم يقصر يوماً، ولم يئس يوماً من الأيام.

فلسفة الهجرة إلى الحبشة:

حتَّى إنَّه أمر جماعة من أصحابه أن يذهبوا إلى الحبشة، وكان هذا من حُسن تدبيره وتخطيطه ﷺ، أن يكون هناك قوَّة احتياطية، لو أصابهم الأذى أو الهلاك في مكَّة، يكون هؤلاء رصيِّداً للدعوة وللأمة، واختار المكان المناسب جغرافياً، فليس بعيداً جدًّا في الصين أو في الهند، لأنَّه لو فعل ذلك لهلكوا ولم يعرف عنهم خبر، وليس في جزيرة العرب حيث تتناول إليهم الأيدي بالسوء، ولكنَّهم في الحبشة القريبة، يعبرون البحر فيكونون في الحبشة. فكان هو المكان المناسب جغرافياً. والمكان المناسب دينياً، لأنَّ أهل الحبشة من النصارى، وهم أقرب مودة للمسلمين. وكان المكان المناسب سياسياً، ففي الحبشة ملك يرجو ﷺ ألا يُظلموا عنده^(٣). وقد صدقت الوقائع فراسته ﷺ.

(١) الكامل لابن الأثير (٦٥٩/١)، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

(٢) متَّفَق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٧٧٠)، ومسلم في الإيمان (٢٠٨)، عن ابن عباس.

(٣) رواه البيهقي في الدلائل (٣٠١/٢)، وجوِّد إسناده العراقي في تخريج الإحياء ص ٦٩٠، عن أم سلمة.

حُوصِرَ النبي ﷺ وأصحابه في شِعْبِ أَبِي طَالِبٍ ثَلَاثَ سَنِينَ، حَتَّى أَكَلُوا فِيهَا أَوْرَاقَ الشَّجَرِ، وَدَمِيتْ أَشْدَاقَهُمْ وَأَفْوَاهُهُمْ مِمَّا يَأْكُلُونَ مِنَ الْأَشْيَاءِ الْخَشَنَةِ، ثُمَّ فَرَجَ اللَّهُ عَنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ، وَخَرَجُوا مِنْ هَذَا الْحَصَارِ. وَتَوَفَّى عَمَهُ أَبُو طَالِبٍ، الَّذِي كَانَ سِنْدًا لَهُ فِي الْخَارِجِ، وَزَوْجَهُ خَدِيجَةَ، الَّتِي كَانَتْ سِنْدًا لَهُ فِي الدَّخْلِ، وَسُمِّيَ هَذَا الْعَامَ (عَامَ الْحَزَنِ)، وَظَنَّ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ هَذِهِ التَّسْمِيَةَ إِيْذَانٌ بِالْقَنُوطِ مِنَ الْمُسْتَقْبَلِ، لَا، وَلَكِنَّهُ ﷺ لَمْ يَبْسُطْ، ذَهَبَ إِلَى الطَّائِفِ، يَدْعُو أَهْلَ الطَّائِفِ: قَبِيلَةَ ثَقِيفٍ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَجِدْ فِيهِمْ سَمِيعًا وَلَا مُسْتَجِيبًا، فَظَلَّ يَعْضُ نَفْسَهُ عَلَى قَبَائِلِ الْعَرَبِ الَّذِينَ يَأْتُونَ فِي مَوْسَمِ الْحَجِّ، لِيَحْجُوا الْبَيْتَ الْحَرَامَ، فَكَانَ مِنْهُمْ مَنْ يَشْتَرِطُ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْأَمْرُ مِنْ بَعْدِهِ، فَرَفُضَ هَذَا^(١). هُوَ لَا لَيْسُوا أَهْلَ دِينٍ، هُمْ تِجَارُ دُنْيَا، الدَّخُولُ فِي الْإِسْلَامِ لَيْسَ صَفْقَةً، مَنْ يَدْخُلُ يَدْخُلُ لِلَّهِ، فَرَفُضَ هُوَ لَا.

بيعة العقبة الأولى والثانية:

حَتَّى هَيَّأَ اللَّهُ لَهُ جَمَاعَةً مِنْ أَهْلِ يَثْرِبَ، مِنْ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ، وَعَرَضَ عَلَيْهِمُ الْإِسْلَامَ، وَتَلَا عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ فَقَبِلُوا، وَفِي السَّنَةِ التَّالِيَةِ جَاءَ عَدَدٌ أَكْبَرَ مِنْهُمْ، وَدَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ، وَأَرْسَلَ إِلَيْهِمُ النَّبِيُّ ﷺ الشَّابَّ الْمَوْهُوبَ وَالدَّاعِيَةَ الْمَوْفُوقَ: مِصْعَبُ بْنُ عَمِيرٍ، يَعْلَمُهُمُ الْإِسْلَامَ، وَيَتْلُو عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ، فَكَانَ كُلُّ يَوْمٍ تَدْخُلُ دَارٌ مِنْ دَوْرِهِمُ الْإِسْلَامَ، أَوْ يَدْخُلُ مِنْهَا عَدَدٌ إِلَى الْإِسْلَامِ، حَتَّى أَصْبَحُوا فِي السَّنَةِ التَّالِيَةِ عَدَدًا كَبِيرًا. بَايَعَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ بَيْعَةَ الْعُقْبَةِ الْأُولَى، ثُمَّ بَيْعَةَ الْعُقْبَةِ الثَّانِيَةِ، وَعَاهَدُوهُ عَلَى أَنْ

(١) رواه الطبري في تاريخه (١٤٦/٣)، عن عبد الله بن أبي بكر. نشر دار التراث، بيروت، ط ٢،

ينصروا الإسلام بأنفسهم وأموالهم، وأن يمنعوهم ﷺ مما يمنعون منه ذراريهم وحرمااتهم.

وهكذا دخل الإسلام في عهد جديد، وأصبح هناك أرض أخرى تقبل الإسلام، أرض خصبة، يبذر فيها فتنج البذرة، هنا فكر ﷺ في تغيير الموقع من مكة إلى المدينة، يثرب التي سميت بعد ذلك (المدينة المنورة)، وأذن له ربه بذلك، فكانت الهجرة إلى المدينة.

مهمة الرسول الدعوة والتربية والتعليم:

كان عليه ﷺ في العهد المكي أن يبذر: أن يدعو ويبلغ، ويربي ويعلم، كان معهد التربية هو دار الأرقم بن أبي الأرقم، الذي يلقي فيه أصحابه الإسلام، يتلو عليهم القرآن، ويعلمهم الكتاب الحكمة، ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [البقرة: ١٢٩]، وهذه هي المهمة التي حددها القرآن الكريم له ﷺ: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢]. تلاوة الآيات، وتعليم الكتاب والحكمة، وتزكية الأنفس هي المهمة الأولى للنبي ﷺ، وقد قام بها خير قيام، كما قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]. وهي دعوة إبراهيم: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

تكوين نواة المجتمع المسلم:

هكذا قام ﷺ بمهمته هذه خلال ثلاثة عشر عامًا، مهَّد الأرض، وبلغ الرسالة، وأقام الحجة. وقد استجاب له قليلون، ولكن هؤلاء القليلين

كانوا هم نواة المجتمع الإسلامي فيما بعد، كانوا نواة الدولة الإسلامية، كانوا هم حملة الرسالة، هم السابقون الأولون. هؤلاء هم المهاجرون، ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨]. أولئك الذين صبروا على البلاء، وذاقوا الصاب والعلقم، ولكنهم ظلوا كالجبال الشام ثابتين على عقيدتهم لا يترددون، ولا يتلكؤون، مستعدين أن يبذلوا الأنفس والنفائس في سبيل الله ورسوله. هذه هي الفترة المكيّة.

الفترة المكيّة انتهت بالهجرة إلى المدينة، التي رُتّب لها في مكّة. ماذا يُراد من النبي ﷺ أن يفعل أكثر من ذلك، كانت الفترة المكيّة: السنوات الثلاث عشرة فترة الحرث والبذر، والسقي والتسميد، صبر فيها ﷺ على البذرة حتى أنبتت، وعلى النبتة حتى أورقت، وعلى الورقة حتى أزهرت، وعلى الزهرة حتى أثمرت، وعلى الثمرة حتى نضجت.

الهجرة بداية تاريخ الإسلام:

وكان بعد ذلك الهجرة، التي ألهم عمر بن الخطاب ومن معه فيما بعد أن يجعلوها بداية تاريخ الإسلام، لأنّه بعد الهجرة قام المجتمع الإسلامي، وقامت الدولة الإسلاميّة، وإذا أردنا أن نكون منصفين في تقويم عمل النبي ﷺ، فلا بدّ أن نأخذ العهدين: العهد المكي، والعهد المدني جميعاً، فترة بعثة النبي ﷺ، أكثر من نصفها في مكّة، والباقي في المدينة، لا تنفصل الفترة المدنية عن الفترة المكيّة، ولا ينفصل القرآن المكي عن القرآن المدني.

هذه الفترة بمجموعها استطاع النبي ﷺ أن يقيم فيها دين التوحيد، أن تتقرر عبادة الله وحده في الأرض، أن تزول الأصنام من جزيرة العرب،

أن يدخل النبي ﷺ إلى مكة فاتحًا؛ وقد خرج منها مضطهدًا، خرج منها ليلاً وعاد إليها نهارًا، خرج منها خفية وعاد إليها جهارًا، خرج منها مظلومًا مطارداً، وعاد إليها فاتحًا منتصرًا، وهو يضرب الأصنام برمحه، فتخر ساقطة، وهو يتلو قول الله تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١] (١).

هدم الأصنام في قلوب عابديها:

لم يفكر أن يفعل ذلك ﷺ وهو في مكة، أن يقول لحمزة وعمر وأبطال الصحابة: هاتوا معاولكم وفؤوسكم لنذهب إلى تلك الأصنام لنحطمها. لأنّه لو فعل ذلك، لعرض نفسه ومن معه لمعركة غير متكافئة قد يهلكون فيها جميعًا، وتضيع الدعوة، ويضيع مستقبل الإسلام. كما قال فيما بعد: «إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام، لا تُعبد في الأرض» (٢).

لم يفعل ذلك، ولأنّه لو فعل ذلك لاستطاعوا في اليوم التالي أن يصنعوا آلهة جديدة، يذهبون إلى النحاتين لينحتوا لهم أصناما وآلهة، ربما كانت أحسن شكلًا من الأصنام الأولى. كما قال إبراهيم: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ [الصفات: ٩٥]. هؤلاء يعبدون ما ينحتون. كانت مهمته ﷺ أن يحطم هذه الأصنام في عقول عبّادها، وأن يحرر هذه العقول؛ وإلا فلا قيمة لتحطيم الأصنام والعقول كما هي متحجرة.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في المغازي (٤٢٨٧)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٨١)، عن ابن مسعود.

(٢) رواه مسلم في الجهاد والسير (١٧٦٣)، وأحمد (٢٠٨)، عن عمر بن الخطاب.



إقامة التوحيد وإعادة الحنيفية:

فترة مكة كانت إعدادًا لفترة المدينة، استطاع النبي ﷺ أن يقيم دين التوحيد في الأرض، وأن يعيد ملّة إبراهيم الحنيفية السمحة، «بُعِثْتُ بِحَنِيفِيَّةٍ سَمْحَةٍ»^(١)، ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]. قام التوحيد في الأرض، ومعنى التوحيد إقرار الحرية والإخاء والمساواة بين الناس، فلا بشرَ ربٌّ لبشر، ولكنَّ الكلَّ عبيدٌ لربِّ واحدٍ هو الله، وأبناء لأبٍ واحدٍ هو آدم، وهذا ما أعلنه ﷺ في حجة الوداع على مرأى ومسمع من النَّاسِ: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، كُلُّكُمْ لآدَمَ، وَآدَمُ مِنْ تَرَابٍ: لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَيَّ عَلَيَّ، وَلَا لِأَبْيَضٍ عَلَيَّ أَسْوَدَ إِلَّا بِالتَّقْوَى»^(٢).

المساواة بين النَّاسِ جميعًا:

هذه المبادئ العظيمة التي أعلنها النبي ﷺ في هذه الجموع الحاشدة، وقرَّر فيها ما جاء به القرآن: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفَكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]. جاء الإسلام فقرَّر مبادئ عظيمة في الحياة الإنسانية: أنَّ النَّاسَ إِخْوَةٌ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ، متساوون بعضهم مع بعض.

كان النبي ﷺ يبعث إلى قيصر والأمراء النصارى برسائله يدعوهم إلى

(١) رواه أحمد (٢٤٨٥٥)، وقال مخرَّجوه: حديث قوي. وحسَّن إسناده الحافظ في التعليل (٤٣/٢)، عن عائشة.

(٢) رواه أحمد (٢٣٤٨٩)، وقال مخرَّجوه: إسناده صحيح. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥٦٢٢): رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح. عن سمع خطبة النبي ﷺ.

الإسلام، ويختم رسائله بهذه الآية: ﴿يَتَأْهَلُ الْكِنْبِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]. لا يتخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله، كلنا عباد لله، ليس فينا أحدٌ ربًّا لأحد، ما ادَّعاه نمرود، وما ادَّعاه فرعون، وما ادَّعاه الذين زعموا لأنفسهم الألوهية كلُّه باطل، لا ربَّ إلا الله عز وجل. كان هذا من ثمرات ما جاء به مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم.

نفضت الإنسانية عنها الغبار، وارتفعت الجباه فلا تسجد إلا لله، واستقامت الظهور فلا تنحني إلا لله تبارك وتعالى، وعز الناس فلا يذُّون إلا لربِّ العالمين راعين أو ساجدين. هذا ما جاء به مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم. هل (فشل) مُحَمَّد في مهمته؟! لو نظرنا إلى ما صنعه الرسل من قبله، وقد قال الله تعالى له: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]. وأولو العزم قبله هم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى.

دعوة النبي ودعوة أولي العزم من الرسل:

نوح صلى الله عليه وسلم ظلَّ ألف سنةٍ إلا خمسين عامًا، فكان كما قال الله تعالى: ﴿إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا * وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَابَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا * ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ [نوح: ٦-٩]. قالوا: لا نريد أن نرى وجهك ولا أن نسمع صوتك.

وإبراهيم صلى الله عليه وسلم دعا قومه، فما كان منهم إلا أن ألقوه في النار، ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨].

وموسى صلى الله عليه وسلم دعا المِصْرِيِّين ودعا بني إسرائيل، فلم يستجب له من

المصريين إلا رجل واحد، حكى عنه القرآن فقال: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾ [غافر: ٢٨]. ثم أسلم أولئك السحرة بعد ذلك وآمنوا، وضربوا المثل الأعلى في الإيمان حين يستكنُّ في القلوب، ووقفوا أمام فرعون، في ثقة المؤمن وإيمان الوائق، يقولون له: ﴿ فَأَقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ [آء آمانا بربنا ليغفر لنا خطيئنا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى] ﴿ [طه: ٧٢، ٧٣]. وكانت نتيجة هذا الإيمان التعذيب والإهلاك.

ثم ماذا صنع موسى مع قومه؟ لقد لقي منهم ما لقي، حتى إنه ذهب إلى ربه وعاد بعد المناجاة؛ فوجدهم قد عبدوا العجل الذي صنعه لهم السامري، وعاتب أخاه، كيف سكت على هذا؟! فقال له: ﴿ قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾ [طه: ٩٤]، ﴿ فَلَا تَشْمِتْ بِي الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٥٠]. القوم الظالمين هم هؤلاء أنفسهم، حينما دعاهم موسى: ﴿ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾ قالوا يَمْوَسِيَّ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَنْدُخُلُهَا حَتَّىٰ يُخْرِجُوا مِنهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿ [المائدة: ٢١، ٢٢]، ﴿ إِنَّا لَنَنْدُخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ [المائدة: ٢٤].

أين هذا من أصحاب مُحَمَّد ﷺ الذين قالوا له يوم بدر: والذي بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجلٌ واحد^(١). والله يا رسول الله، لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٢/٢٦٦)، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، نشر مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط ٢، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م، والبداية والنهاية (٧٠/٥)، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، نشر دار هجر، ط ١، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م. وروى معنى هذه المشورة مسلم في الجهاد والسير (١٧٧٩)، وأحمد (١٣٢٩٧).

لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]. بل نقول لك: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون^(١).

والمسيح عيسى ابن مريم آمن به عددٌ قليل، منهم الحواريون الاثنا عشر، وللأسف خانه بعضهم، وشهد عليه!

أين هذا من أصحاب مُحَمَّد ﷺ: المهاجرون ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ [الحج: ٤٠]، ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨]. والأنصار ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]. الذين وصفوا بهذه الكلمة البليغة أنهم: يكثرون عند الفزع ويقلون عند الطمع^(٢). هؤلاء هم أعظم أجيال الدنيا الذين تخرجوا على يد مُحَمَّد ﷺ.

مقارنة بين الصحابة وأتباع الأنبياء السابقين:

هذا الجيل الذي فتح البلاد، وعلم العباد، ونشر القرآن، ونشر السنن، نجد رجلاً منهم يقف أمام رستم قائد الفرس، وهو رجل أعرابي، ما دخل مدرسة ولا جامعة، ولكنه تعلم في المدرسة المحمدية، سأله رستم: من أنتم؟ وما قصتكم؟ فقال له هذه الكلمات: نحن قوم ابتعثنا الله، لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى

(١) رواه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٠٩)، عن ابن مسعود.

ذكره الخطابي وقال: يرويه الواقدي، عن ابن أبي حبيبة، عن داود بن الحصين، عن محمود بن لبيد. تحقيق عبد الكريم الغرابوي. انظر: في غريب الحديث (٦٨٢/١)،

نشر دار الفكر، دمشق، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م

سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام^(١). لخص فلسفة الإسلام، والأهداف الكُلِّيَّة الكبرى للإسلام في هذه الكلمات.

هؤلاء هم أصحاب مُحَمَّد ﷺ. مَنْ مِنَ الرسل والأنبياء ترك مثل هؤلاء الأصحاب؟ في حَجَّة الوداع كان هناك أكثر من مائة ألف، مَمَّن سمعوا خطاب النبي ﷺ، وكان المُبلَّغون يُبلَّغون، يقول النبي الجملة ويبلغونها على البعد لمن وراءهم، حتَّى تبلغ هذه الجموع الهائلة، فلم يكن هناك مُكَبِّرات للصوت ولا غيرها. النبي ﷺ رَبَّى هذا الجيل المثالي.

في سيرة النبي القدوة في مختلف المجالات:

وترك لنا ﷺ سيرة مضيئة مشرقة، فيها لكل النَّاس أسوة، كل من يريد أن يقتدي بِمُحَمَّد ﷺ يجد في سيرته مكانا للأسوة. لا تستطيع أن تقتدي بسليمان إلا إذا كنت ملكًا، ولا تستطيع أن تقتدي بعيسى إلا إذا كنت زاهدًا. المُتَزَوِّج لا يستطيع أن يقتدي بعيسى، لأنَّه لم يتزوَّج، والأب لا يستطيع، والغني لا يستطيع. ولكن مُحَمَّد ﷺ يستطيع الفقير أن يجد في حياته أيام الفقر ما يقتدي به، والغني يجد في أيام الفتوح ما يقتدي به، والمُتَزَوِّج بزوجة واحدة يجد أنَّه عاش معظم حياته مع امرأة واحدة هي خديجة، والمُتَزَوِّج بأكثر من زوجة يعلم كيف يعامل زوجاته بالعدل، والمسالم والمحارب، والقائد والجندي، كلُّ هؤلاء يجدون في حياته ﷺ القدوة.

انتصار الرسول على السيف لا بالسيف:

النبي ﷺ نجح فيما لم ينجح فيه أحد. نصره الله على أعدائه، كانوا يريدون أن يقضوا عليه. ولم ينتصر الإسلام بالسيف؛ بل انتصر على

(١) رواه الطبري في تاريخه (٥٢٠/٣).

السيف، منذ بُعث مُحَمَّدٌ ﷺ والسيف مرفوع في وجهه: بالإيذاء والتعذيب حيناً، وبالحصار حيناً، وبالقتال حيناً؛ غزوة بدر، وغزوة أحد، وغزوة الخندق، كان يراد فيها استئصال شأفة الإسلام، غُزي المسلمون في عُقر دارهم، في أوّل الأمر قريباً من ديارهم في بدر، ثمّ في المدينة نفسها في أحد، ثمّ في الخندق، حيث قال تعالى: ﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿ [الأحزاب: ١٠، ١١]. ولكن الله نصرهم، ورد كيد أعدائهم، ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٢٥]. وهذا التعبير: ﴿ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ﴾ يدلُّ على أنّ الإسلام يتعطش للسلام. لسنا هواةً لأن نقاتل، إذا انتهت الغزوة بالسلام، بغير قتال؛ فالحمد لله.

انتصر الإسلام على الوثنيّة العربيّة، وانتصر على اليهوديّة الغادرة الماكرة، وانتصر الإسلام على النصرانيّة التي وقفت ضد المسلمين، وكان معها غزوة تبوك وغزوة مؤتة. انتصر الإسلام على كلّ هؤلاء. هذا ما فعله النبيُّ ﷺ.

إقامة المجتمع الإسلامي على المبادئ الربّانيّة والأخلاقيّة:

ثم أقام المجتمع المسلم، وأقام الدولة الإسلاميّة، المجتمع الذي يقوم على عبادة الله، والذي كان أوّل مشروع أقامه هو بناء المسجد. أقام المجتمع الإسلامي الذي يقوم على الإخاء، ولهذا آخى بين المهاجرين والأنصار. أقام المجتمع الإسلامي الذي يقوم على اقتصاد قوي، ولذلك كان المشروع الثاني بعد المسجد سوق فتحها النبيُّ ﷺ، لتستقل عن سوق بني قينقاع، التي كان يسيطر عليها اليهود.

المجتمع الذي يقوم على المعاني الربّانيّة، والمعاني الإنسانيّة، وعلى شريعة محكمة، المجتمع الذي يقوم على الجهاد في سبيل الله إذا انتهكت حرّماته أو اعتدي عليه أو أريد بسوء. هكذا أقام النبي ﷺ هذا المجتمع، وأقام هذه الدولة الفتية، وورّثها لأصحابه من بعده. أمثل هذا يقال: إنّه (فشل) في مهمّته؟

النبي ﷺ هو أعظم من نجح في مهمّته من الرسل، لا نجد رسولاً من الرسول نجح مثلما نجح مُحَمَّدٌ ﷺ، وهذا بشهادة الكثيرين من أهل الشرق وأهل الغرب، من المسلمين وغير المسلمين. لا أستطيع أن أسرد عليكم هذه الشهادات، أكتفي بما شهد به الكاتب الشهير «توماس كارليل» صاحب كتاب «الأبطال»، فاختر بطلاً في صورة نبي، واختر محمداً ﷺ ليكون هذا النبي، وقال فيما قاله: ماذا تريد ممّن يدّعي لك أنّه بنّاء، أكثر من أن يبني لك صرحاً بحيث يسع مئات الملايين، وأن يبقى هذا الصرح ثلاثة عشر قرناً؛ ليعلم النَّاسُ أنّ مثل الباطل كمثل ورق البنكنوت الزائف، يمرُّ من يدٍ إلى يد، ثمّ لا يلبث أن يُضبط ويُعرف أنّه زائف، فلا يرفع أحدٌ له رأسه، فالأمة فالإسلاميّة هي من أشدّ الأمم تمسكاً بدينها في الأرض^(١).

الأمة الإسلاميّة أكثر الأمم تديناً:

وهذه حقيقة، المسلمون أشدّ النَّاسِ تمسكاً بدينهم من أيّ أُمَّة، الإحصاءات تقول: إنّ الذين يذهبون إلى الكنائس يمثلون (٥٪) من البلاد الغربيّة، وليس كل من يذهب إلى الكنيسة يذهب تديناً. والمسلمون على عِلاتهم، وعلى ما بهم من ضعف وانحراف هم أقوى الأمم تمسكاً بأمر

(١) الأبطال لتوماس كارليل ص ٥٤، تعريب محمد السباعي، ط ٣، ١٣٤٩هـ - ١٩٣٠م.

الدين. لا يمكن أن يستمرّ الباطل أبد الدهر، فكيف استطاع دين الإسلام أن يثبت كل هذه المئات من السنوات؟ هذا ما يقوله الغربيون.

إنّ رسول الله ﷺ قد قام بمهمّته خير قيام، قام بمهمّته في البلاغ والتبيين، وقام بمهمّته في التربية والتكوين، وقام بمهمّته في التشريع والتقنين، وقام بمهمّته في الجهاد والتمكين. قام بهذه المهمات، واستطاع في هذه المجالات كلها أن يبلغ الذروة، وأن يؤدي الأمانة، وأن يبلغ الرسالة، وأن ينصح للأُمَّة، وأن يتركنا على المَحَجَّة البيضاء، وعلى الطريقة الواضحة الغراء، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك.

صلوات الله وسلامه عليك يا رسولَ الله، بأبي أنت وأمي!

أقول قولي هذا، وأستغفر الله تعالى لي ولكم، فاستغفروه إنّه هو الغفور الرحيم، وادعوه يستجب لكم.

* * *



الخطبة الثانية

أَمَّا بَعْدُ، فَيَا أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُسْلِمُونَ:

يبدو أنّ هذه السنة، سنة فَقْدِ العلماء والدعاة، فقدنا الشيخ خالد مُحَمَّدَ خالد، وفقدنا بعده الشيخ مُحَمَّدَ الغزالي، وفقدنا بعده الشيخ جاد الحق علي جاد الحق، وفي الأسبوعين الماضيين فقدنا عالمين من علماء الدعوة إلى الله:

رثاء الشيخ عبد الحميد كشك:

أحدهما: الشيخ عبد الحميد كشك، الذي ذاع صيته، وانتشرت شرائطه في الآفاق، كان رجلاً أوتي الفصاحة والكلمة المؤثرة، وكان النَّاسُ يجتمعون عليه في المسجد قبل الصلاة بساعتين أو أكثر يمتلئ مسجده، هناك في شارع مصر والسودان في القاهرة، وأشرطته ذهبت إلى كل بلد، ما ذهبت إلى بلد إلاَّ وجدت أشرطة الشيخ كشك رَحِمَهُ اللهُ يَستمع إليها الناس.

لم ألقَ الشيخ كشك في حياتي، بقيت تسع سنوات لا أنزل إلى مصر، ولما نزلت أواسط السبعينيات ذهبت إلى مسجده لألقاه وأتعرّف عليه، وأسِرُّ له ببعض النصائح، ولكنهم قالوا لي: إنّ الشيخ في إجازة. ولم يقدر لي أن ألقاه بعد ذلك.

كان الشيخ كشك من ألسنة الصدق وأقلام الحق، بعض النَّاسِ يأخذون عليه أنّه كان يذكر النَّاسَ بأسمائهم، وأنا لا أحبذ ذلك في الحقيقة، لا أحبُّ للمنبر أن يتعرض للنَّاسِ بالأسماء والأشخاص، فهذا

مقام رسول الله ﷺ، وكان النبي ﷺ إذا أراد أن ينصح قومًا أو رجلًا يقول: «ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا؟». إِيَّاكَ أعني، واسمعي يا جارة!

أراد أن ينصح للرجل الذي هاجر من أجل امرأة فقال: «إنما الأعمال بالنيّات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوَّجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه»^(١).

ولكن لعلّ الأوضاع في ذلك الحين كانت تقتضي من الشيخ كشك رَحْمَةُ اللهِ أَنْ يفعل ذلك، وكان النَّاس يشجعونه على ذلك، وخصوصًا أَنَّهُ يخاطب طبقة معيَّنة من النَّاس، تجد في هذا الهجوم تفريرًا لشحنة الغضب في نفسها، على الأوضاع الفاسدة، والانحرافات الجائرة في المجتمع.

كان هو لسان صدق، وقد توفي رَحْمَةُ اللهِ بَعْدَ أَنْ عُزِلَ عَنِ الْمَسْجِدِ نَحْوَ سِتَّةِ عَشْرَ عَامًا، تَرَكَ الْمَسْجِدَ، قَالُوا لَهُ: إِذَا خَطَبْتَ فَلَا بَدَّ أَنْ تَلْتَزِمَ كَذَا وَكَذَا. فَرَفَضَ، وَاعْتَذَرَ وَبَقِيَ بَعِيدًا، حَتَّى تَوَفَّاهُ اللهُ. كَانَ رَجُلًا مَعْتَزًا بِكَرَامَتِهِ، كَثِيرًا مَا طَلَبَ إِلَى الْبِلَادِ الْعَرَبِيَّةِ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ، وَطَلَبَ هُنَا فِي قَطْرٍ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ، وَلَكِنَّهُ كَانَ يَعْتَذِرُ، رَغْمَ رِقَّةِ حَالِهِ، وَضِيقِ ذَاتِ يَدِهِ، وَرَغْمَ مَرَضِهِ وَحَاجَتِهِ إِلَى الدَّوَاءِ الْمُسْتَمَرِّ، وَلَكِنَّهُ رَفَضَ ذَلِكَ رَحِمَهُ اللهُ وَرَضِيَ عَنْهُ.

رثاء الشيخ عبد الرشيد صقر:

الرجل الثاني الذي توفي في هذه المدة أيضًا: هو الشيخ عبد الرشيد صقر، خطيب جامع صلاح الدين في مصر، الذي مُنِعَ أيضًا من الخطابة

(١) متَّفَقٌ عَلَيْهِ: رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي بَدَأِ الْوَحْيِ (١)، وَمُسْلِمٌ فِي الْإِمَارَةِ (١٩٠٧)، عَنْ عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ.



منذ سنة ١٩٨٨م. وكان أيضًا من الدعاة الأقوياء، الذين لا يباليون بما أصابهم في سبيل الله، دخل السجن أكثر من مرّة، كما دخل الشيخ كشك أيضًا إلى السجن سنة ١٩٨١م. وهكذا لقي هؤلاء ما لقوا في سبيل دعوتهم. لم تتحدث الصحف ولا بسطر واحد عن الشيخ عبد الرشيد صقر، وتحدثت بسطرين أو ثلاثة أسطر في بعض الأعمدة، في بعض الصحف، عن الشيخ كشك! ولو كان الشيخ كشك ممثلًا أو مطربًا أو لاعب كرة لطنن له المُطَنُّون، وامتلات أنهار الصحف بذكره، ولكنه كان داعية إلى الله، حسبه أنه أفضى إلى ربه، حسبه أنه بلّغ كلمة الله إلى عباده، أسأل الله أن يتقبلهما في الصالحين، وأن يرضى عنهما، وأن يغفر لنا ولهما، إنه سميع قريب.





من فضائل الصحابة الكرام (١) (١)

الخطبة الأولى

أمَّا بعدُ، فيا أيُّها الإخوة المسلمون:

في أواخر العام الدراسي الماضي كنّا قد تحدّثنا عن بعض الخلفاء الراشدين، تحدّثنا عن خامس الراشدين وأحد العُمَرَاءِ: عمر بن عبد العزيز، وتحدّثنا عن ثاني الراشدين عمر بن الخطّاب.

وقال لي بعض الإخوة: لماذا لا تُكمل هذه الحلقات عن الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، حتّى تكتمل الصورة، وتتمّ الدراسة لهؤلاء الأعلام، مصابيح الدجى، وأئمّة الهدى، وأعلام الخير، الذين تخرّجوا في مدرسة مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، وتربّوا على مائدته؛ فكانوا بحقّ خير أمة أخرجت للناس؟

خير أجيال النبوات:

واستجبت لهذا الطلب، ورأيت أن أبدأ هذا الأمر بحديثٍ عامٍّ عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، هؤلاء التلاميذ المخلصون في مدرسة النبوة، هؤلاء الذين ربّاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأحسن التربية، وأدّبهم فأحسن

(١) ألقيت في مسجد عمر بن الخطاب بالدوحة، عام ١٩٩٦م.

التأديب، وعلمهم فأحسن التعليم، فكانوا خير تلاميذ لخير معلم، وكانوا خير أجيال الأمة؛ بل كانوا خير أجيال النبوات كلها في التاريخ كله، لم يُعهد لنبي من الأنبياء من الأصحاب ما عُهد لمحمد ﷺ.

حين قال موسى ﷺ لأصحابه: ﴿يَقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٢١]. قالوا له: ﴿يَمُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَدْخُلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ [المائدة: ٢٢]. وأيُّ قوم يتركون أرضهم باختيارهم ليدخلها المُغِيرُونَ عليهم؟!!

ثم قالوا بعد ذلك: ﴿يَمُوسَىٰ إِنَّا لَن نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]. انظروا قولهم: ﴿فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ﴾ [المائدة: ٢٤]. كأنَّ رب موسى ليس هو ربهم، كما قالوا له في صحراء التيه: ﴿يَمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاجِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٦١]. أصحاب موسى أسلموه وخذلوه في ساعة الشدة، وقالوا: ﴿فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ﴾.

ولكن أصحاب محمد ﷺ لم يقولوا له ذلك كما حكى لنا التاريخ عن أوَّل معركة وقف فيها الإسلام في مقابل الجاهليَّة، ووقف فيها التوحيد في مقابل الوثنيَّة، ووقف فيها الرسول ﷺ ومن معه أمام أبي جهل ومن معه، وأراد النبي ﷺ أن يستشير أصحابه قبل دخول المعركة؛ فقد خرجوا لغير القتال، خرجوا للقاء العير، للقاء القافلة التجاريَّة، ولم يتأهبوا نفسيًّا، ولم يستعدوا مادِّيًّا لخوض معركة قتاليَّة، فقال لهم النبي ﷺ: «أشيروا عليَّ أيُّها النَّاسُ». فقام المقداد وتكلم فأحسن، وقام أبو بكر وتكلم فأحسن، وقام عمر وتكلم فأحسن، وقام منهم مَنْ قال: والله يا رسول الله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل

لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾. بل نقول لك: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون^(١).

ثم كرر النبي قوله: «أشيروا علي أيها الناس». فقام سعد بن معاذ سيّد الأوس وسيّد الأنصار يقول: كأنك تريدنا يا رسول الله! والله لقد آمنا بك وصدّقناك، وأيقنا أنّ ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهدنا وموآثيقنا على السمع والطاعة، فأمض يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك، ما تخلف منا واحد، وما نكره أن نلقى عدونا غدا، إنا لصبر عند الحرب، صدق عند اللقاء، فسالم بنا من شئت، وحارب بنا من شئت، وصل حبال من شئت، واقطع حبال من شئت، ولعلّ الله يريك منا ما تقرّ به عينك، فسر بنا على بركة الله. فسرّ بذلك رسول الله ﷺ^(٢). وكان إذا سرّ استنار وجهه كأنه فلقة قمر^(٣)، هؤلاء أصحاب رسول الله ﷺ، وأولئك أصحاب موسى ﷺ.

وأصحاب عيسى ﷺ وهم عدد قليل خذله من خذله منهم، وخانه من خانه، ولكن أصحاب محمد ﷺ وهم أكثر أصحاب الأنبياء، فقد كان منهم في حجة الوداع نحو مائة ألف حجّوا مع رسول الله ﷺ، هؤلاء هم الذين أخذنا عنهم الإسلام، هم الذين بذلوا في سبيل هذا الدين ما بذلوا، لاقوا الصاب والعلقم من أجل هذا الدين.

(١) رواه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٠٩)، عن ابن مسعود.

(٢) رواه البيهقي في دلائل النبوة (٣١/٣ - ٣٥)، وصححه الألباني في تخريج فقه السيرة ص ٢٢٣.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في المناقب (٣٥٥٥)، ومسلم في الرضاع (١٤٥٩)، عن

كعب بن مالك.

بذل أصحاب النبي لهذا الدين:

هذا الدين لم يأت إلينا ثمرة دانية القطوف، لم يأت إلينا غنيمة باردة، ولا بيضة مقشورة كما يقال، إنما بُذلت فيه أرواح، وأُريقَت فيه دماء، وقُدِّمت فيه تضحيات، سقط فيه شهداء وراء شهداء، وبذل فيه مَنْ بذل، وأُصيب فيه مَنْ أُصيب.

وكان أوَّل مَنْ بذل في سبيل هذا الدين حتَّى وصل إلينا هم أصحاب النبي ﷺ، هم الَّذِينَ عاشوا ثلاثة عشر عامًا في مكَّة يُلاقون الأذى ألوانًا وُصنوفًا، أحيانًا الضرب، وأحيانًا الكيِّ بالنار، وأحيانًا المقاطعة والتَّجويع؛ حتَّى أكلوا أوراق الشجر حتَّى دَميت أشداقهم، سألت أشداقهم دمًا من خشونة ما يأكلونه، حتَّى قال سعد بن أبي وقَّاص: ذهبْتُ ليلةً لأبول، فسمعت قعقعةً تحت البول؛ فإذا هي جلدةٌ بعيرٍ يابسة، فأخذتها وغسلتها وأحرقتها، ثمَّ دققتُها وسففتُها؛ فقويت بها ثلاثًا^(١). في حالة المقاطعة التي قاطع فيها المشركون الصحابة، ومعهم بنو هاشم وبنو المُطَّلِب، لا يبيعون لهم ولا يتاعون منهم.

ذاق الصحابة ما ذاقوا في سبيل الله، منهم من مات تحت العذاب، مثل ياسر وامرأته سمية وابنه عمار رضي الله عنهم، مرَّ عليهم النبي ﷺ وهم يُعذَّبون؛ فلم يستطع أن يفعل لهم شيئًا، ولم يملك إلا قال لهم: «صبرًا آل ياسر؛ فإنَّ موعدكم الجنة»^(٢). وكان أوَّل شهيدٍ في الإسلام

(١) الروض الأنف للسهيلي (٢١٦/٣، ٢١٧).

(٢) رواه الطبراني في الأوسط (١٥٠٨)، والحاكم في معرفة الصحابة (٣٨٣/٣)، وصحَّحه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٥٥٩٢): رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله رجال الصحيح، غير إبراهيم بن عبد العزيز المقوم، وهو ثقة. عن جابر بن عبد الله.

سمية أم عمار، طعنها أبو جهل لعنه الله في موضع عفتها فقتلها، ومات ياسر بعدها.

كان الصحابة يُعذَّبون ويُسامون سوء العذاب، وخصوصًا المستضعفون منهم، الذين ليس لهم قبيلة تحمي ظهرهم، وتجيرهم من أذى المشركين.

ومع هذا هناك من أجاره المشركون فردَّ إليهم جوارهم كما رأينا عثمان بن مظعون رضي الله عنه الذي كان في جوار الوليد بن المغيرة، ولكنه رأى نفسه يغدو ويروح في أمان، في ظلَّ هذا الجوار من سيِّد من سادات قريش، وإخوانه يؤذون ويضطهدون ويُعذَّبون؛ فعزَّ عليه هذا، وذهب إلى الوليد بن المغيرة وقال له: يا أبا عبد شمس، إنِّي أريد أن أردَّ عليك جوارك. قال: لِمَ يا ابن أخي؟ هل آذاك أحدٌ من قومك؟ قال: لا والله، إنَّك كنت كريم الجوار، ولم يؤذني أحد، ولكنِّي أريد أن أستجير بالله تعالى، وأكتفي بجواره. قال: إذن فاذهب معي إلى المسجد لتردَّ جوارِي علانية كما أجزتك علانية. قال: نعم. وذهب إلى المسجد الحرام وقال: يا قوم، إنِّي كنت في جوار الوليد بن المغيرة، وقد وجدته كريم الجوار، وأنا أرد عليه جواره وأستجير بالله عز وجل.

وجلس عثمان بن مظعون في مجلس فيه شاعر هو لبيد بن ربيعة يلقي قصيدته اللامية الشهيرة، وكان ذلك قبل أن يُسلم، وفيها يقول:

أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ

فقال له عثمان: صدقت. قال:

وَكُلُّ نَعِيمٍ لَا مَحَالَةَ زَائِلٌ

فقال له عثمان: كذبت؛ نعيم الجنة لا يزول. فقال لبيد: ما هذا يا معشر قريش؟ ما كان جليسكم يُؤذَى. قالوا: لا تؤاخذه؛ فهذا سفية في سفهاء من قومه، خرجوا على دين قومهم، وفارقوا آباءهم. فردَّ عليه عثمان، وردَّ عليهم الآخر، وقامت معركة بينهما ولطم الرجل المشرك عثمان لطمه ذهبته بإحدى عينيه، أو أصابته إصابة بالغة في إحدى عينيه، والوليد بن المغيرة جالس فقال له: ما كان أغناك أن يصيب عينك ما أصابها. فقال له: والله يا عمَّاه إنَّ أختها لفقيرة إلى أن تُصاب كما أصيبت الأخرى في سبيل الله^(١).

هكذا لقي الصحابة في سبيل هذا الدين، لقي الصحابة الأذى والعذاب الكثير في مكة طيلة ثلاثة عشر عامًا، ثمَّ في المدينة ماذا صنعوا؟ بذلوا الأنفس والأموال، تقدّموا في معارك مستمرّة، سبع وعشرون غزوة غزاها النبي ﷺ وحضرها بنفسه، وبضع وخمسون سرية بعث فيها أصحابه، لم يبقَ بيت من بيوت المدينة؛ إلاَّ وقدّم شهيدًا أو شهيدين، أو ثلاثة أو أربعة، كانت البيوت مليئة باليتامى والأرامل، كل هذا في سبيل الله، في سبيل هذا الدين.

تضحيات الصحابة بنفوس راضية، وأعين قريرة:

قدّم الصحابة رضوان الله عليهم لهذا الدين ما قدّموا، وبنفوسهم راضية، وأعينهم قريرة، وقلوبهم مطمئنة: أن ما أصابهم في سبيل الله لن يضيع، وأنَّ الموت في سبيل الله هو عين الحياة، ﴿وَلَا نَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤].

(١) رواه أبو نعيم في معرفة الصحابة (٤٩١٥)، تحقيق عادل بن يوسف العزازي، نشر دار الوطن للنشر، الرياض، ط ١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

أصحابُ رسول الله ﷺ هم الَّذِينَ بذلوا لهذا الدين ما بذلوا، وهم الَّذِينَ آمنوا بالإسلام عن اختيار واقتناع، هجروا آباءهم وأُمَّهاتهم، وإخوانهم وعشيرتهم، وأموالاً اقتترفوها، وتجارة كانوا يخشون كسادها، ومساكن كانوا يرضونها، لأنَّ هذا كله حينما وضعوه في كفة، وحب الله ورسوله في كفة أخرى، رجحت كفة حب الله ورسوله، فلم يَضُنُّوا بمال، ولم يبخلوا بشيء من نفس أو نفيس؛ في سبيل نصر الإسلام، وإعلاء كلمة الإيمان.

محبتهم لله ورسوله:

كان أصحاب رسول الله ﷺ يُحِبُّون الله ورسوله، كان الله ورسوله أحبَّ إليهم من ذواتهم، من أنفسهم، حتَّى إنَّ عمر قال يوماً: يا رسول الله، لأنَّت أحب إليَّ من كل شيء إلا نفسي. قال: «لا، والذي نفسي بيده، حتَّى أكون أحبَّ إليك من نفسك». قال: فإنَّه الآن والله، لأنَّت أحبُّ إليَّ من نفسي^(١).

وفي الحديث: «ثلاث من كنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه ممَّا سواهما، وأن يُحب المرء لا يحبُّه إلاَّ الله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يُقذَّف في النَّار»^(٢). هكذا كان أصحاب النبي ﷺ.

أخذ المشركون أحد الصحابة في مكَّة وقدموه ليصلبوه، وحينما وُضع على خشبة الصلب، قال له المشركون: أتحبُّ أن تكون في بيتك، وأن يكون مُحَمَّد في مكانك يُصلب بدلاً منك؟ قال: لا والله ما أحب أن يكون رسول الله ﷺ في مكانه الَّذي هو فيه تُصيبه شوكة تؤذيه؛ وأنا جالس في أهلي. فقال أبو سفيان: والله ما رأيت أحداً يحبُّ أحداً كحبِّ أصحاب مُحَمَّد مُحَمَّدًا^(٣). هكذا كانوا يُحِبُّون رسول الله ﷺ.

(١) رواه البخاري في الإيمان والنذور (٦٦٣٢)، عن عبد الله بن هشام.

(٢) متَّفَق عليه: رواه البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣)، كلاهما في الإيمان، عن أنس.

(٣) رواه أبو نعيم في معرفة الصحابة (٢٩٩٩).

وحينما سأل النبي ﷺ مولاه ثوبان، وقد رآه متغيّراً: «ما بك يا ثوبان؟» قال: يا رسول الله، تذكّرت حالي معك في الدنيا، إذا غبت عني فترة ولو قصيرة اشتقتُ إليك، وتذكّرت الآخرة حينما تكون في الدرجات العُلا، وإذا أكرمني الله ودخلت الجنة أكون في درجات المؤمنين؛ فلن أراك يا رسول الله. فقال له النبي ﷺ: «أبشّر، فإن المرء مع مَنْ أحب». فأنزل الله في ذلك: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩] (١).

هكذا كان الصحابة رضوان الله عليهم يُحبُّون الله ورسوله، ولذلك بذلوا الأنفس والنفائس، بذلوا الغالي والرخيص في سبيل هذا الدين، ولم يرضنوا بشيء في سبيل الله.

المحافظة على القرآن ونقله للأمة:

الصحابة هم الذين علّموا مَنْ بعدهم هذا الدين، الله علّم وربّي رسوله محمّداً ﷺ، وأدبه فأحسن تأديبه ليعلّم الصحابة ويُرَبِّبهم، ثم يتولّى الصحابة بعد ذلك تربية الأمم التي تدخل في الإسلام، فهم معلّمو الأمم ومُرَبُّو الأجيال بعد ذلك.

الصحابة هم الذين نقلوا إلينا القرآن، حفظوا القرآن وأتقنوه علماً وعملاً، لم يكونوا مجرد حُفّاظ لأحرف القرآن، بل كانوا مصاحف حيّة، مصاحف مفسّرة، كانوا قرآنيين كما كان النبي ﷺ، فقد سُئِلت عائشة عن

(١) رواه ابن عساکر في تاريخ دمشق (١٧٤/١١)، تحقيق عمرو بن غرامة العمري، نشر دار الفكر،

خُلِقَ فَقَالَتْ: كَانَ خُلُقَهُ الْقُرْآنَ^(١). وكذلك كان خُلُقُ الصحابة القرآن، أخلاقهم قرآنيّة، وسلوكهم قرآني.

هكذا كان الصحابة رضوان الله عليهم، حفظوا القرآن علمًا وعملاً، لم يكونوا ينتقلون من سورة إلى سورة إلا بعد أن يتقنوا علمها والعمل بها، ثمّ ينتقلون إلى غيرها. وهكذا أورثوا تلاميذهم هذا السلوك كما حدّث عبد الرحمن السُّلَمي وقال: كان الَّذِينَ يقرؤونا القرآن يُعلموننا إِيَّاه علمًا وعملاً^(٢).

الصحابة هم الَّذِينَ حفظوا القرآن ونقلوه إلى مَنْ بعدهم، ثمّ مَنْ بعدهم نقلوه إلى مَنْ بعدهم حتّى وصل إلينا متواترًا تتلوه الألسنة، وتحفظه الصدور، ويُكتبُ في المصاحف، وَالَّذين نقلوه أولاً هم الصحابة رضوان الله عليهم.

الحفاظ على السُّنَّة النبويّة والسيرة المحمدية:

والصحابة هم الَّذِينَ نقلوا السُّنن: عايشوا النبي ﷺ، ورووا سننه، سمعوا منه أقواله، وشهدوا منه أفعاله، ورأوا منه تقريراته، وعايشوا صفاته وأخلاقه، ونقلوها إلينا، نقلوا إلينا سنّته، فكل حياته ﷺ مروية لنا بحذافيرها: حياته الخاصّة، وحياته العامّة، ليس هناك شيء في سيرته عليه دائرة حمراء، أو ممنوع أن يُروى، لا، بل كل شيء يُروى، حتّى علاقته مع زوجاته، حتّى أخص الخصائص في حياته رُويت لنا!

لا توجد سيرة عظيم من العظماء، ولا حتّى نبيٍّ من الأنبياء رُويت كاملة غير منقوصة من الميلاد إلى الوفاة - بما فيها من تفاصيل - إلاّ

(١) رواه مسلم في صلاة المسافرين (٧٤٦)، وأحمد (٢٤٦٠١)، عن عائشة.

(٢) رواه عبد الرزاق في فضائل القرآن (٦٠٢٧).

سيرة مُحَمَّد ﷺ ، ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَاليَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١]، فالصحابه هم الذين نقلوا هذه السنن إلى مَنْ بعدهم، ونقلها مَنْ بعدهم حتى وصلت إلينا.

فتح الفتوح ونشر الإسلام في الآفاق:

والصحابه هم الذين نشروا الإسلام في الآفاق، هم الذين فتحوا الفتوح، هم الذين ورثوا ممالك كسرى وقيصر، هم الذين انساحوا في الأرض يحملون الإسلام إلى العالمين، يحققون عالمية الدعوة، ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، ﴿ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [ص: ٨٧، التكويم: ٢٧]، ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان: ١]، ﴿ قُلْ يَتَّيَّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

الصحابه هم الذين حققوا عالمية الإسلام، وانتشروا في الأرض شرقًا وغربًا، وشمالًا وجنوبًا، وبهذا أصبح الإسلام بعد أقل من قرن في معظم الدنيا القديمة، ووصل إلى أسوار الصين ودخلها، ووصل إلى أوزبكستان، وإلى بخارى وسمرقند، وإلى تلك البلاد، ووصل إلى شمال إفريقيا، ووصل إلى أوروبا، عبر البحر، ووصل إلى الشاطئ الآخر بالقائدين طارق بن زياد، وموسى بن نصير، في أقل من قرن كان الإسلام يسود العالم القديم كله، وما ذلك إلا بفضل الصحابة وتلاميذ الصحابة.

الصحابه هم معلمو الأمة، رأى أحد قواد الفرس جماعة من الصحابة يصطفون خلف إمامهم في الصلاة، بعد أن تطهروا وتوضؤوا، ووقفوا في صف منتظم كأنهم في صفوف الملائكة، لا فرجة ولا خلل، متماسكين

متراضين كالبنيان المرصوص، نظر هذا القائد الفارسي إلى هذه الصفوف المترابطة وقال: لقد أكل كبدي عمر بن الخطاب حيث علم هؤلاء النظام ومكارم الأخلاق^(١).

والقائد الفارسي مُخطئ فيما قال؛ لأنَّ عمر بن الخطاب لم يُعلم هؤلاء، إنما الذي علم عمر بن الخطاب وعلم هؤلاء هو مُحَمَّد ﷺ، وعمر بن الخطاب تلميذ من تلاميذ المدرسة المُحمَّدية، فهو وأصحابه نقلوا هذه المكارم الأخلاقية إلى الأمم، تعلم العرب النظام بعد الفوضى، والتعاون بدل التشاحن، والتفاهم بعد أن كان يقول كل واحد: نفسي نفسي. هذا هو الإسلام، فالصحابه هم الذين نشروا الإسلام في الآفاق، ولولا الصحابة لما وصل الإسلام إلى هذه الآفاق في أنحاء العالم.

مَنْ الذي وصل بالإسلام إلى مصر؟ لولا رجل مثل عمرو بن العاص الذي ظلَّ يلحُّ على عمر بن الخطاب في فتح مصر، ويغريه بها، ويُسهِّل له أمر الفتح حتَّى وافق عمر، كان عمر ضئيلاً بجنود المسلمين، حينما كان يقال له في أوَّل الأمر عن محاربة الروم يقول: والله لَمُسْلِمٌ واحدٌ أحبُّ إليَّ من الروم وما حوت^(٢). كان ضئيلاً بدماء المسلمين أن تُراق في مغامرات ومجازفات، ولكنَّه حينما اقتنع بادر بحرب الروم، وتكلمة لهذه الحرب ذهب إلى مصر.

حروب الصحابة كانت حروب تحرير لا حروب استعمار:

كانت حروب الصحابة حروب تحرير للشعوب، من هذه الإمبراطوريات الإمبريالية الحاكمة الظالمة، التي تستغل الشعوب

(١) تاريخ الطبري (٣/٥٣٣).

(٢) رواه ابن عساکر في تاريخ دمشق (٧/٩٤، ٩٥).

لصالحها، كانت مصر تعتبر بقرة حلوبًا للرومان رغم أنهم نصارى؛ وإن كانوا مختلفين في المذهب، كان المصريون يكرهون الرومان ويتمنون لو جاء العرب وفتحوا هذه البلاد، وخلصوهم من ظلم الرومان، وكان عمرو بن العاص يعرف ذلك، فذهب عمرو بأربعة آلاف جندي، قوة صغيرة يدخل بها هذا البلد الكبير، ثم استعان بقوة أخرى فأرسل إليه عمر يقول: أبعث إليك بأربعة آلاف، ومعهم أربعة رجال كل منهم بألف، ولن يُغلب اثنا عشر ألفًا من قلة^(١).

الصحابة هم الذين فتحوا البلاد ونقلوا إليها الإسلام، ونقلوها إلى الإسلام، لم يُكرهوا أحدًا على الدخول في الدين، ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، إنما كانوا يزيحون السلطات الطاغية التي تحول بين الناس والدعوة، كانت مهمّة الجهاد الإسلامي إزالة القوّة الطاغية المتحكّمة في الرقاب.

ولذلك حينما أرسل النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر كان يُحملهم إثم رعيتهم، يقول: أسلموا تسلموا، فإن توليت يا كسرى يا ملك الفرس؛ فإنّما عليك إثم المجوس، أنت الذي تتحمّل وزرهم، وإن توليت يا قيصر يا إمبراطور الروم فإنّما عليك إثم اليبوسيين، الجماهير الذين يتبعونه في بلاد الروم^(٢).

كان هؤلاء الحكّام هم الذين يحولون بين الشعوب والاستماع إلى كلمة الإسلام، فكان الجهاد الإسلامي لإزالة السلطات الطاغية، وليس

(١) فتوح مصر والمغرب لابن بن عبد الحكم ص ٨٢، ٨٣، نشر مكتبة الثقافة الدينية، ١٤١٥هـ.

(٢) إشارة إلى ما رواه الطبري في التاريخ (٦٥٤/٢)، وحسنه الألباني في تخريج أحاديث فقه

السيرة ص ٣٥٦.

لإكراه الناس على الإسلام، بحسب الناس أن تكون أمامهم الفرصة لتبلغهم الدعوة، ويختاروا لأنفسهم عن اقتناع، السيف يفتح الأرض، ولكنه لا يفتح العقول والقلوب، إنما تفتتح العقول بالحجة، وتفتتح القلوب بالهداية.

وهنا رأينا الشعوب تدخل في دين الله مختارة، دخل الناس في بلاد الفرس، وفي بلاد الشام، وفي مصر، وفي غيرها دخلوا في دين الله أفواجًا ومختارين، حتى إنهم في عصر بني أمية كانوا يفرضون الجزية على من أسلم، وهذا ممنوع، ولكن لكثرة الداخلين في الإسلام وهم لا يدفعون الجزية، ولا يدفعون زكاة إلا بعد سنة؛ فمن أين تُنفق الدولة؟ فأبقوا الجزية حتى على من دخل في الإسلام.

وبقي هذا الأمر إلى عهد عمر بن عبد العزيز، وبعث إليه واليه على مصر يقول له: كان من قبلي يفرضون الجزية على من أسلم فماذا نفعل؟ فبعث إليه يقول: قبَّح الله رأيك؛ إن الله بعث محمدًا ﷺ هاديًا، ولم يبعثه جابيًا^(١). بُعث للهداية ولم يُبعث للجباية، ليست مهمته جباية أموال الناس، إنما هداية قلوب الناس.

أبرز هذه الأمة وأعلمها:

كان الصحابة أبرز هذه الأمة قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلها تكلفًا، وأقومها هديًا، وأحسنها حالًا، اختارهم الله تعالى لصحبة نبيه ﷺ، وإقامة دينه، كما قال ابن مسعود^(٢).

(١) رواه سعيد بن منصور، كما في سير أعلام النبلاء (١٤٧/٥)، وقال الأرنؤوط: رجاله ثقات.

(٢) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم (١٨١٠)، تحقيق أبي الأشبال الزهيري، نشر دار ابن الجوزي، السعودية، ط ١، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

كانوا على الفطرة، على اليسر والبساطة، عاشوا بهذا الدين، وعاشوا لهذا الدين، كان أكبر همهم أن ينتصر الإسلام، وأن ترتفع راية القرآن، وأن تعلق كلمة الإيمان، وأن يمتد الإسلام في الآفاق، وينتشر نوره في العالمين. عاشوا لهذه الرسالة، وربوا على هذا تلاميذهم التابعين لهم بإحسان، كان لتلاميذ المدرسة الموحّديّة تلاميذ اقتبسوا من مشكاتهم، وساروا على آثارهم.

ثناء القرآن على الصحابة:

ولا عجب أن أثنى الله على هؤلاء الصحابة في كتابه في عدة سور من القرآن الكريم، في سورة الأنفال أثنى الله عليهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَأُوا وَنَصَرُوا أَوْلِيَّكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٢]، ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَأُوا وَنَصَرُوا أَوْلِيَّكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٧٤].

وفي سورة التوبة: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠]. حتى من اتبعهم رضي الله عنهم ورضوا عنه؛ لحقهم من نورهم ما لحقهم.

وفي سورة الفتح: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْءَهُ فَفَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩].

وفي هذه السورة أثنى الله عن الذين بايعوا النبي تحت الشجرة: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

وفي سورة الحشر أثنى الله عن المهاجرين والأنصار: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ * وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٨، ٩].
يقدمون غيرهم على أنفسهم ولو أنهم في أشد الحاجة والمجاعة، الأنصار الذين وُصفوا أنهم يكثرون عند الفزع، ويقلون عند الطمع^(١).

ثناء النبي على صحابته:

هؤلاء هم أصحاب النبي ﷺ مدحهم القرآن في آيات عديدة، ومدحهم رسول الله ﷺ في أحاديث شتى: «خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»^(٢)، «لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبًا: ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه»^(٣)، «الله الله في أصحابي، فمن أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني؛ فيوشك الله أن يأخذه»^(٤).

(١) غريب الحديث (٦٨٢/١).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الشهادات (٢٦٥١)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٥٣٥)، عن عمران بن حصين.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في أصحاب النبي (٣٦٧٣)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٥٤١)، عن أبي سعيد الخدري.

(٤) سبق تخريجه ص ١٧.

وورد في الصحاح أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لِيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ، يَغْزُو فِيهِ فِئَامٌ مِنَ النَّاسِ، فَيُقَالُ: هَلْ فِيكُمْ مِنْ صَحْبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟» فيقال: نعم. فيفتح لهم، ثُمَّ يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ، يَغْزُو فِيهِ فِئَامٌ مِنَ النَّاسِ، فَيُقَالُ: هَلْ فِيكُمْ مِنْ صَحْبِ أَصْحَابِهِ؟ فيقال: نعم. فيفتح لهم، ثُمَّ يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَغْزُو فِيهِ فِئَامٌ مِنَ النَّاسِ فَيُقَالُ: هَلْ فِيكُمْ مِنْ صَحْبِ مَنْ صَاحَبَهُمْ؟ فيقال: نعم. فيفتح لهم^(١). أي إلى الجيل الثالث من بركة الصحابة رضوان الله عليهم.

القرآن يُبَيِّنُ لَنَا فَضْلَ الصَّحَابَةِ، وَالسُّنَّةُ تَبَيِّنُ لَنَا فَضْلَ الصَّحَابَةِ، وَالتَّارِيخُ بِوَقَائِعِهِ يُبَيِّنُ لَنَا فَضْلَ الصَّحَابَةِ، وَلِذَلِكَ نَعْجَبُ مِنْ أَنَاثِ يَكْرَهُونَ الصَّحَابَةَ أَوْ يَسْتُبُونَهُمْ، وَفَضْلَهُمْ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ لَا يُنْكَرُ، وَتَارِيخُهُمْ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُكَابِرَ فِيهِ مَكَابِرٌ.

الصَّحَابَةُ هُمْ خَيْرُ أَجْيَالِ الْأُمَّةِ، وَلَا أَقُولُ: هُمْ خَيْرُ أَجْيَالِ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَحَدَّهَا. هُمْ خَيْرُ أَجْيَالِ التَّارِيخِ، الْجِيلُ الَّذِي رَبَّاهُ النَّبِيُّ ﷺ فَأَحْسَنَ تَرْبِيَّتِهِ، وَأَخْرَجَهُ نَمُودَجًا عَمَلِيًّا يَتَأَسَّى بِهِ النَّاسُ، وَيُرُونَ فِيهِ الْأَسْوَةَ الْمُحَمَّدِيَّةَ، يَرُونَ فِيهِمْ قِبَسًا مِنْ أَقْبَاسِ النَّبِيِّ، وَهَكَذَا كَانُوا: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

أَسْأَلُ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ يَجْعَلَ لَنَا مِنَ الَّذِينَ يَسْتَمْعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ، أَوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ، وَأَوْلَئِكَ هُمْ أَوْلُوا الْأَلْبَابِ. أَقُولُ قَوْلِي هَذَا، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ؛ فَادْعُوا رَبَّكُمْ يَسْتَجِبْ لَكُمْ.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في أصحاب النبي ﷺ (٢٨٩٧)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٥٣٢)، عن أبي سعيد الخدري.

الخطبة الثانية

أَمَّا بَعْدُ، فَيَا أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُسْلِمُونَ:

قضية فلسطين وانهايار الطموحات:

قُدِّرَ على جيلنا أن يعيش حتَّى يرى مآسي المسلمين: في كل مشرق ومغرب، وشمال وجنوب، قُدِّرَ على جيلنا أن يرى أخبار المسلمين ومآسيهم تملأ نشرات الأخبار، قُدِّرَ على جيلنا أن يعيش ويرى العرب والمسلمين يحتفلون بالذل، ويعتبرون الذل نصراً وفتحاً.

قُدِّرَ على جيلنا أن يعيش ويرى اليهود يتحكّمون في مصير الأمة، ويرى قضية فلسطين، وهي قضية القضايا وأمّ القضايا، أرض النبوات، أرض الإسراء والمعراج، أرض القبلة الأولى، أرض المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله، يرى قضية فلسطين تنتهي إلى هذه النهاية التي رأيناها: اتفاق أسلو، والاتفاقيات التكميلية.

وأَمَّا ما كان يطمح إليه الفلسطينيون من قبل، وحتى ما طمحوا إليه من بعد في عصر الهوان لم يصلوا إليه، كانوا من قبل يقولون: إن إسرائيل كلها قائمة على العدوان والاعتصاب، ولا بقاء لها في أرضنا. ثمّ بعد مدة من الزمن قالوا: مهمتنا أن نزيل آثار العدوان. أي عدوان سنة ١٩٦٧م. وأمّا عدوان سنة ١٩٥٦م. وعدوان سنة ١٩٤٨م. والعدوانات السابقة على ذلك فقد سُكِّتَ عنها! حتَّى هذا لم يصلوا إليه، لم يصلوا إلى إقامة دولة فلسطينية على هذا الجزء الصغير الذي أُعطي لهم منحة من إسرائيل.

قال رابين: ليس هناك شيء اسمه دولة فلسطينية، ولا بعد نصف قرن. وحينما سُئل بل كلينتون عن هذا الموضوع سدّ أذنا من طين وأذنا من عجين، أي أنّ الدولة الفلسطينية التي سعى الناس إليها، وقامت مُنظمة التحرير من أجلها، ومن أجل إقامة الشعب الفلسطيني دولته المستقلة على كامل ترابه الوطني؛ أين هذا؟ لا وجود له! فإسرائيل هي الحارسة، حتّى أنّهم يتحكّمون في المسجد الإسلامي: مسجد إبراهيم الخليل، وحتى أنّهم أبقوا مجموعة من المستوطنين اليهود ليتحكّموا في رقاب الخليليين من أجل هؤلاء المستوطنين!

أين اللاجئون المشردون بالملايين؟ وأين حقوقهم في العودة إلى وطنهم؟ أين القدس عاصمة فلسطين؟ انتهت القدس كعاصمة فلسطين، وصدقت مقولة رابين منذ اتفاق أوسلو: إنّ القدس هي العاصمة التاريخية والأبدية لشعب إسرائيل.

رضينا بهذا كله للأسف، رضينا من الغنيمة بالإياب؛ كما قال الشاعر الجاهلي امرؤ القيس:

وقد طوّفتُ في الآفاقِ حتّى رَضِيتُ من الغنِمةِ بالإيابِ^(١)

كان امرؤ القيس يسمّى الملك الضليل، كان أبوه ملكًا، وكان هو مسحورًا باللهو والشكر والعردة؛ فعزله أبوه، ثمّ جاء خبر قتل أبيه، قتله بنو أسد، فقال وهو منغمس في الشرب: رحم الله أبي؛ ضيّعني صغيرًا، وحمّلي دمه كبيرًا، لا صحو اليوم ولا سُكر غدًا، اليوم خمر، وغدًا أمر.

(١) ديوان امرؤ القيس ص ٧٩، عناية عبد الرحمن المصطاوي، نشر دار المعرفة، بيروت، ط ٢،

بقي يومه في شرابه ولهوه، ومن اليوم الثاني ركب جواده وأخذ أصحابه
ليثأر لأبيه، كان طموحًا كثير الطموح، وقال فيما قال:

فَلَوْ أَنَّ مَا أَسْعَى لِأَدْنَى مَعِيشَةٍ كَفَانِي، وَلَمْ أَطْلُبْ، قَلِيلٌ مِنَ الْمَالِ
وَلَكِنَّمَا أَسْعَى لِمَجْدٍ مُؤْتَلٍ وَقَدْ يُدْرِكُ الْمَجْدَ الْمُؤْتَلُ أَمْثَالِي^(١)

كان خصومه من ملوك الفرس؛ فذهب ليستعين عليهم بملوك الروم،
ذهب إلى قيصر الروم بواسطة الغساسنة في الشام، وحينما ذهب ومعه
صاحبه قال ما قال في قصيدته:

بكى صاحبي لَمَّا رَأَى الدَّرْبَ دُونَهُ وَأَيَقِنَ أَنَا لِأَحْقَانِ بِقَيْصَرَا
فَقُلْتُ لَهُ: لَا تَبْكُ عَيْنُكَ إِنَّمَا نَحَاوِلُ مُلْكًا أَوْ نَمُوتُ فَنُعْذِرَا^(٢)

كان الرجل طموحًا، ولكنه لم يبلغ ما طمح إليه، وانتهى به المطاف
إلى أن انتهى في طريقه فقال ما قال:

وَقَدْ طَوَّفْتُ فِي الْآفَاقِ حَتَّى رَضِيتُ مِنَ الْغَنِيمَةِ بِالْإِيَابِ

رضي بمجرد العودة ولم يأخذ شيئًا، وكأن قومنا من دعاة السلام الهزيل
رضوا من الغنيمة بالإياب، رضوا بمجرد أن يعيشوا، أطلوا الغيبة وأتوا
بالخيبة، وهي (خَيْبَةٌ تُكَالُ بِالْوَيْبَةِ)^(٣) كما يقول المصريون. خيبة ثقيلة.

هذا للأسف ما حدث الآن، وإسرائيل تريد أن تأكل المنطقة كلها،
أن تبلعها اقتصاديًا، وتبلعها سياسيًا، وتبلعها ثقافيًا، وتبلعها جغرافيًا،
وتعد العدة لذلك، وهناك اتفاقية (الجات) تساعد على ما تريد، وهناك

(١) ديوان امرئ القيس ص ١٣٩.

(٢) ديوان امرئ القيس ص ٩٦.

(٣) الويبة: مكيال يسع اثنين أو أربعة وعشرين مُدًا. كما في القاموس المحيط مادة (و. ي. ب.).

والمعنى أنها خيبة بلغت من عظمتها أن تُكَالُ بالويبة.

من رجالات العرب مَنْ يريد أن يُثري ولو من حرام، ويريد أن يسعى إلى إسرائيل ويأخذ الوكالات، ويملاً أرصدته بالملايين الحرام، هذا لا يجوز لهذه الأمة.

أيها الإخوة، إذا كان السياسيون قد ضعفوا، ووقعوا على ما وقعوا؛ فنحن الشعوب العربية والإسلامية علينا واجب أن نقاطع، أن نقف كما وقف الشعب المصري بعد اتفاقية (كامب ديفيد)، رفض التطبيع، رفض أن يكسر الحاجز النفسي، رفض الذهاب إلى إسرائيل وقد فتحت باب السياحة، رفض شراء بضائع إسرائيل، وهذا ينبغي أن يُسجّل لشعب مصر، وينبغي أن يكون هذا موقف الشعوب العربية والإسلامية، ينبغي أن يقاطعوا بضائع إسرائيل، وأن يستمرّوا على هذه المقاطعة، ولن تستطيع السياسة أن تجبر إنساناً أن يشتري ما لا يريد، الأمر إذن أمرنا، هذا هو واجبنا.

الحكم بسجن الشيخ عمر عبد الرحمن:

وهناك أمرٌ آخر أحببتُ أن أُعلّق عليه في هذه الخطبة، وهو الحكم الذي صدر على أخيها الشيخ عمر عبد الرحمن، وأنا لم ألقَ الشيخ عمر في حياتي، وهو من الجيل الذي بعدي، ولم أسمع له خطبة، ولم أقرأ له مقالاً.

وأنا ضدُّ العنف، لا أريد العنف، ولا أحب نشر الإسلام بالعنف، وإنّما بالكلمة والموعظة الحسنة، وإقناع العقول، ولكننا نرى أنّ الشيخ عمر ظلم، ظلمه الإعلام الأمريكي، وضحّموا قضيتَه، وضحّموا أمر المسلمين، وربطوا الإسلام بالإرهاب، وفعلوا ما فعلوا، ومن أجل ذلك صدر الحكم على هذا الشيخ الضرير، لم يرحموا سنّه، ولم يرحموا عمّاه، ولم يرحموا أمراضه، وصدر هذا الحكم!



إننا نرجو في حكم الاستئناف الذي يُطالب به الآن: أن يُنصف الشيخ، فإنَّ هناك ألعيبَ قد فُعلت، هناك من دخلوا مثل هذا الذي يعمل في المخابرات، وورَّط الشيخ وورَّط من معه، وقال الشيخ حتَّى قبل ما نشرته جريدة (الشرق) اليوم: إنَّ قتل الأبرياء حرام، من أراد أن يقاتل فليقاتل الجيش الأمريكي. وهذه كلمة تُقال عامَّة، ومَنْ يملك ما يملك الجيش الأمريكي حتَّى يقاتله؟

نسأل الله ﷻ أن يفكَّ أسرَ المأسورين، وأن يجبر كسرَ المكسورين، اللهم انصُرْ إخوتنا المسلمين والمجاهدين في فلسطين ولبنان، وانصُرْ إخوتنا المجاهدين في البوسنة والشيشان، وانصُرْ إخوتنا المجاهدين في كشمير وفي السودان، وانصُرْ إخوتنا المجاهدين في الفلبين، واجمع كلمتنا على الحقِّ في باكستان وفي الصومال، وأيدِّ إخوتنا الذين يعملون في نصر دعوتك، ونشر دعوتك، وفكَّ أسرَ إخوتنا المسجونين والمعتقلين ظلماً حينما كانوا، اللهم آمين.

* * *



من فضائل الصحابة الكرام (٢) (١)

الخطبة الأولى

أَمَّا بَعْدُ، فَيَا أَيُّهَا الإِخْوَةُ المُسْلِمُونَ:

اليوم أحدثكم عن أصحاب رسول الله ﷺ، أصحاب رسول الله ﷺ هم خير أجيال البشر على الإطلاق، لا يوجد جيل منذ آدم ﷺ إلى محمّد ﷺ الذي ختم الله به النبيين، وختم به رسالات السماء مثل هذا الجيل في صدق إيمانه، في حُسن صلته بالله ﷻ، في طاعته لربه، في حبّه لله ورسوله، في بذله النفس والنفيس، والغالي والرخيص في سبيل الله، لا يوجد جيلٌ عرفه الناس في التاريخ كله مثل هذا الجيل.

جيل فريد من نوعه:

هناك من الأنبياء من لم يستطع أن يوجد جيلاً، فنوح ﷺ ما آمن معه إلا قليل، حتى امرأته كفرت به، وحتى أحد أبنائه كفر به، وكذلك هود وصالح، وأمّا إبراهيم ﷺ، فلم يُعرف له أصحاب كما عُرف لآخرين. والحواريّون بعضهم خان عيسى وأنكروه وتبرؤوا منه، وقد حكى

(١) ألقيت في مسجد عمر بن الخطاب بالدوحة، بتاريخ ١٤ أكتوبر ٢٠١٠م.

القرآن عنهم مواقف حسنة، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢].

ولكن في مواقف أخرى قالوا: ﴿يَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ١١٢]. وكانوا كلهم اثنا عشر حوارياً بعضهم أنكره، وقال هو ذلك كما جاء في الإنجيل: إنَّ منكم من سينكرني. ومنهم من خانه.

وأصحاب موسى ﷺ كما حكى القرآن عنهم قال لهم: ﴿يَقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٢١]. ومع قوله: كتب الله لكم. كان ينبغي أن يقتحموا هذه البلاد ويدخلوها ما دام الله قد كتبها لهم على لسان رسوله، ولكنهم رفضوا وقالوا له: ﴿يَمُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ [المائدة: ٢٢].

هنا نصحهم بعض المؤمنين الصادقين بالانقياد لأمر نبيهم: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِتَّكُمُ غَلِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]. فماذا كان ردُّهم؟ ﴿قَالُوا يَمُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]. كأنه ليس ربهم.

وهنا قال موسى بلسان اليائس المحبب: ﴿رَبِّ إِنِّي لَأَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٥]. سمى أصحابه (الفاسيقين)، لأنهم خرجوا عن أمره، ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٦]، لا تحزن عليهم.

أين هذا من أصحاب محمد ﷺ؟ في غزوة بدر وقد خرج الصحابة لغير القتال، حينما خرجوا مع رسول الله ﷺ كانوا يطلبون عير قريش القادمة من الشام، ما كانوا يحسبون حساب القتال، ولم يعدوا له أنفسهم، ولم يتجهّزوا بما ينبغي من السلاح.

ولكن مع هذا حينما شاورهم النبي ﷺ قام منهم من قام مثل المقداد بن الأسود وقال: والله يا رسول الله، لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة ٢٤]. ولكن نقول لك: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون^(١).

وقام سعد بن معاذ وقال: يا رسول الله، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، وإنا لصبّير في الحرب صدق عند اللقاء، ولعلّ الله يريك منا ما تقرّ به عينك^(٢).

نماذج مثالية رفيعة:

وهكذا كان أصحاب رسول الله نماذج مثالية رفيعة الدرجة، في كل ما يُحقّق الإيمان والبطولة والرجولة، كان لهم من الحظ ما ليس لغيرهم، وهبّ لهم من الأسباب ما لم يتهيأ لغيرهم؛ فكان عندهم المنهج والمرجع الذي يرجعون إليه، كان مرجعهم هو القرآن، وكان منهجهم هو القرآن، القرآن يتعهّد لهم، كلما ينزل منهم حدث ينزل القرآن، نزل القرآن في ثلاث وعشرين سنة، ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلاً﴾ [الإسراء: ١٠٦]، ليُجيب عن أسئلتهم واستفساراتهم،

(١) رواه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٠٩)، عن ابن مسعود.

(٢) رواه البيهقي في دلائل النبوة (٣١/٣ - ٣٥)، وصحّحه الألباني في تخريج فقه السيرة ص ٢٢٣.

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣]، فالصحابة هم تلاميذ مدرسة القرآن.

لم يكونوا يقرؤون القرآن لمجرد المتعة والتسلية، ولكن يقرؤون القرآن للتنفيذ، حينما ينزل قوله تعالى: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٩٢]. يتنافسون في تنفيذ هذه الآية.

يأتي أبو طلحة إلى النبي ﷺ، وكانت عنده حديقة بئرحاء مقابل مسجد النبي ﷺ، وكانت من أعظم الحدائق ظللاً وثماراً وأشجاراً وموقعاً، فيقول: يا رسول الله، عندي حديقة، إنني قد جعلتها لله. فقال: «ضعها في أقاربك»^(١). اجعلها وقفاً عليهم.

ويأتي عمر يقول: يا رسول الله، إنني أصبت مالاً هو أنفس مال عندي. فيقول له: «احبس الأصل وسبب الثمرة»^(٢). اجعل أصلها وقفاً، واجعل ثمرتها في سبيل الله، وهكذا كان القرآن هو مصدرهم في كل ما يفعلون، وفي كل ما يصدرون.

تتلمذوا على خير مُربٍّ في العالم:

وكان من حُسن حظهم أنهم تتلمذوا على خير مُربٍّ في العالم، أستاذ المُربِّين محمد ﷺ، مَنْ يجد مُربِّياً مثل هذا المُربِّي الذي كان لهم كالوالد مع ولده، وخيراً من الوالد لولده؟ ربَّاهم على أحسن ما تكون

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الوصايا (٢٧٥٨)، ومسلم في الزكاة (٩٩٨)، عن أنس.

(٢) رواه النسائي في الأحباس (٣٦٠٤). والحديث متفق عليه بلفظ: «إن شئت حبست أصلها، وتصدقت بها». رواه البخاري في الشروط (٢٧٣٧)، ومسلم في الوصية (١٦٣٢)، عن ابن عمر.

التربية، الله تعالى ربِّي محمدًا ﷺ ليربِّي أصحابه، أدبه ربُّه فأحسن تأديبه، وعلمه فأحسن تعليمه، علمه بواسطة جبريل، ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ * [النجم: ١-٦]، وجبريل يُعلمه بالقرآن، كان يعرض عليه ما جاء من سور القرآن في رمضان من كلِّ سنة، يتدارسان القرآن.

من شكك في تربية التلاميذ إنما يطعن في معلمهم:

هذا هو المُربِّي العظيم، وهؤلاء الصحابة هم تلاميذه، ولذلك فمن شكك في تربية هؤلاء التلاميذ، وقال: إنَّهم أساءوا وفعلوا كذا وكذا، وخانوا أستاذهم ورسولهم. فإنَّما يطعن بذلك في تربية رسول الله ﷺ، إذا ذممت تلاميذ أستاذ فإنَّك ذممت الأستاذ: أنه لم يحسن تربيتهم، إذا رأيت إنساناً من الناس سيِّئ السلوك، منحرف الأخلاق، مؤذياً لخلق الله، ماذا تقول عنه؟ تقول: إنَّ هذا لم يجد أحداً يُربِّيه، قليل التربية. فمن سبَّ أصحاب النبي ﷺ فقد سبَّ أستاذهم ومُعلمهم محمدًا ﷺ.

خير رفقة وخير زملاء:

وجد الصحابةُ خيرَ المرَبِّين، ووجدوا خيرَ الرفقة، وخيرَ الزملاء، حينما يفتخر الإنسان منا يقول: كان في دفعتي فلان وفلان من الأجلاء. وهؤلاء الصحابة كلُّ واحد منهم أُمَّة، بألف وأكثر من ألف.

بعث عمر بن الخطَّاب عمرو بن العاص بأربعة آلاف جندي لفتح مصر وهي محكومة للإمبراطورية الرومانية، ولما ذهب عمرو طلب مدداً من عمر لأن العدد قليل؛ فأرسل إليه أربعة آلاف أخرى، وعلى رأس كل ألف واحد من الصحابة، قال له: أرسلت إليك أربعة آلاف، ومع كل ألف

واحد بألف، ولن يُهزم اثنا عشر ألف من قلة^(١). فهؤلاء هم أصحاب النبي ﷺ، والصحابي منهم يتربى في هذه الرفقة مع هؤلاء الأصحاب.

بيئة صالحة وفطرة سليمة:

كما وجد الصحابة أيضًا البيئة المناسبة، التربة الخصبة التي تنبت فيها البذور الصالحة وترعرع؛ كما وصفهم القرآن: ﴿كَزَّرَعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ، فَفَازَرَهُ، فَأَسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩].

كان الإمام مالك رضي الله عنه يستدل بهذه الآية على كفر من يكره أصحاب رسول الله ﷺ، من يبغضهم، من يغيظهم أصحاب رسول الله ﷺ، فيقول: هؤلاء كفار الذين يسبوا الصحابة ويبغضونهم ويلعنونهم؛ لأن الله تعالى قال: ﴿لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾. وهؤلاء يغتazon من الصحابة^(٢). كما قال في آية أخرى: ﴿وَلَا يَطَّوُّنَ مَوْطِنًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيْلًا إِلَّا كُنِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ [التوبة: ١٢٠].

وجد هؤلاء الصحابة هذه التربة وهذه البيئة مع فطر سليمة، وعقول مستقيمة متهيئة لتلقي التربية المحمدية النبوية فكانوا بحق - كما وصف القرآن - الأمة الوسط، ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، وكانوا خير أمة، ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، صحيح أن هذه الآية عامة في كل أجيال الأمة، ولكن أحق من يُخاطب بها هم الصحابة، وهم أول من تلقوها، أول من شافهتهم هذه الآيات هم أصحاب رسول الله ﷺ.

(١) فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم ص ٨٢، ٨٣.

(٢) تفسير ابن كثير (٣٦٢/٧)، تحقيق سامي بن محمد سلامة، نشر دار طيبة للنشر والتوزيع،

مرَّ أحد قُود الفرس في حروب فارس على الصحابة، وهم يصلُّون وراء إمامهم بعد أن تطهَّروا وتوضَّؤوا، ووقفوا صفوفًا مستقيمة، ليس فيها عوج، وليس فيها انحراف، وليس فيها ثغرات؛ بل صفوفًا متماسكة، فنظر إليهم وقال في غيظ: أكل كبدي عمر بن الخطَّاب؛ لقد علِّم هؤلاء البدو مكارم الأخلاق^(١).

والحقيقة أنَّ عمر بن الخطَّاب ليس هو الذي علِّم هؤلاء البدو، الذي علِّمهم وعلِّم عمر بن الخطَّاب معهم وقبلهم هو محمَّد رسول الله ﷺ الذي قال الله في شأنه: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]. هذا هو المرَبِّي العظيم الذي بعثه الله لهذه الأمة ليربِّي به الصحابة، وعلى الصحابة أن يربُّوا العرب، وعلى العرب أن يربُّوا جميع الأمم.

التزكية أرفع من التربية:

﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾، فهناك تزكية، وهناك تعليم، كانت كثير من وزارات التعليم تسمَّى وزارات المعارف، وقال الناس: المعارف وحدها لا تكفي، فالمعارف تعني أن تحشو الرأس بالعلم، تتناول تعليم الرؤوس، ولكن لا تتناول تربية النفوس. فسمَّوها وزارات التربية والتعليم، ومحمَّد ﷺ كان مرَبِّيًا مُزَكِّيًا.

وكلمة التزكية أفضل من كلمة التربية، لأنَّ التزكية تتضمن معنيين أساسيين: معنى الطهارة، ومعنى النماء، قالوا: الزكاة طهارة ونماء،

(١) تاريخ الطبري (٣/٥٣٣).

فمعنى ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾: يُطَهِّرُهُمْ من الشرك لِيُنَمِّيَهُمْ بالتوحيد، يطَهِّرُهُمْ من النفاق لِيُنَمِّيَهُمْ بالإيمان، يُطَهِّرُهُمْ من الرذائل لِيُنَمِّيَهُمْ بالفضائل، والصوفيّة يقولون: لا بدّ من تخلية وتحلية. فالطهارة تعني التخلية من الرذيلة ومن كلّ شرٍّ، والنماء يعني التحلية بكلّ فضيلة وبكلّ خير.

﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، فمن مزايا الصحابة: أنّهم أدركوا الجاهليّة وأدركوا الإسلام، وعرفوا النقلة الهائلة التي نقلهم الإسلام بها، من ظلمات الجاهليّة إلى نور الإسلام، ولذلك قال سيّدنا عمر بن الخطّاب: إنّما تُنقِضُ عُرَى الإسلام عروة عروة؛ إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهليّة^(١). ما عرف مقدار ما فعل الإسلام!

أثر الإسلام في تحرير عقول الصحابة:

ولذلك علينا أن نعرف ما كانت عليه الجاهليّة، الجاهليّة أفسدت على الناس عقولهم حتّى عبدوا أصنامًا ينحتونها، وحتى عبدوا آلهة من التمر يأكلونها، فإذا جاع أحدهم في السفر أكل إلهه، فلا بدّ أن نعرف أنّ الإسلام حرّر عقول البشر، وحرّر عواطف البشر، كان الإنسان في الجاهليّة يقتل ابنه أو ابنته شرّاً قتلة، يحفر حفرة ويدفنه فيها حيّاً، ﴿وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُئِلَتْ ﴿بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾﴾ [التكوير: ٨، ٩]، ماذا بقي من الإنسان إذا فقد عقله، وفقد عاطفته؟

(١) مدارج السالكين (٣٥١/١)، تحقيق محمد المعتصم بالله البغدادي، نشر دار الكتاب العربي،

بيروت، ط ٣، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

الإسلام هو الذي أنقذ إنسان الجاهليّة من فساد العقل والقلب، وصنعه من جديد، أنشأه خلقًا آخر، فرأينا عمر بن الخطّاب الذي كان يعبد الأصنام: يأتي إلى الحجر الأسود ويُقبّله ويقول: أيّها الحجر، إنّي أُقبّلك وأنا أعلم أنّك حجرٌ لا تضرُّ ولا تنفع^(١).

ورأينا عمر بن الخطّاب صاحب القلب الذي صنعه الإسلام، وجعله يشفق على عباد الله، ويرحم الأرملة واليتيم والمسكين، ويذهب لبيت المرأة وينفخ في النّار ليوقدها على الطعام الذي ينفعها في ولادتها، وهو أمير المؤمنين، هذا ما صنعه الإسلام بإنسان الجاهليّة.

ثناء القرآن على الصحابة:

وقد أثنى القرآن الكريم على صحابة رسول الله ﷺ ثناءً عاطراً، لا أدري كيف يمكن لإنسان يقرأ القرآن، ثمّ يسبُّ أصحاب رسول الله ﷺ؟ هم الذين قال الله فيهم: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرْتَهُمُ رُكْعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩].

اقرأ أواخر سورة الأنفال قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَأُوا وَنَصَرُوا أَوْلِيَّكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٢]، ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَأُوا وَنَصَرُوا أَوْلِيَّكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٤].

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٥٩٧)، ومسلم (١٢٧٠)، كلاهما في الحج.

اقرأ في سورة التوبة قوله تعالى: ﴿وَالسَّيِّئُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَجْرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠]. حتى الذين اتبعوهم وإحسان لهم هذا الفضل.

مبغضو الصحابة لا عقل لهم:

هؤلاء الذين يلعنون أبا بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير والعشرة المبشرين بالجنة؛ كيف يمكن لهؤلاء إذا كان عندهم مسكة من عقل أن يفعلوا ذلك، والله أثنى عليهم؟ ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَايَعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨]. حينما بايعوا رسول الله في صلح الحديبية أو في بيعة الحديبية: على أن يقاتلوا حتى الموت ولا يفروا، هؤلاء الذين بايعوا تحت الشجرة ﷺ، ولذلك جاء في الحديث: «لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة»^(١).

كل الصحابة على خير، هم درجات عند الله، ولكنهم كما قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلِ أَوْلِيكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ [الحديد: ١٠]. جميع الصحابة وعدهم الله الحسنى، وكما قال ابن حزم: قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١]. لا يدخلون النار.

الصحابة كلهم عدول:

ربما كانت لهم ذنوب لأنهم ليسوا معصومين من الخطأ، ولا من الخطايا، أهل السنة جميعًا يقولون: إن الصحابة عدول. أي: لا يستحلون

(١) رواه مسلم في فضائل الصحابة (٢٤٩٦)، وأحمد (٢٧٣٦٢)، عن أم مبشر.

الكذب على رسول الله ﷺ، ولكن يمكن أن يخطئوا، ويمكن أن يرتكبوا الذنوب، لكنهم سرعان ما يتوبون.

كلُّ الصحابة عدول، عدلهم الله جميعاً، حينما يأتينا حديث عن الرسول لا يبحث علماء الحديث: هل هذا الصحابي عدل مقبول أم لا؟ لا، بل كل الصحابة عدول عدلهم الله، وعدلهم رسول الله، حتى إنَّ أحد الصحابة ممَّن شهد بدرًا ارتكب ما يشبه جريمة الخيانة؛ حينما أرسل رسالة إلى أهل مكة يخبرهم بقدوم جيش الفتح، وكان الرسول حريصًا على السرية؛ بحيث أراد أن يفاجئهم، حتى يجبرهم على التسليم بدون قتال وبدون دماء، فهذا الصحابي بفعلته يكشف خطة النبي ﷺ، ولكن اكتُشف أمره، ولما أخرجت الرسالة التي أرسلها وقال سيِّدنا عمر: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا الرجل فقد نافق. فقال: «وما يُدريك يا عمر، لعلَّ الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم؛ فإنِّي قد غفرتُ لكم»^(١). فالصحابه تشفع لهم سوابقهم.

وفي غزوة أحد هناك مَنْ فُروا عن رسول الله ﷺ، وهناك من عصوا أمر رسول ﷺ، وهم الرُّماة الذي يرمون بالسهم والجبل وراءهم، أمرهم أن يبقوا في أماكنهم، لا يتزحزحوا عنها، ولكنهم حينما رأوا المسلمين قد انتصروا في الجولة الأولى تركوا أماكنهم، وعصوا أمر النبي ﷺ، ومع هذا قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ ۗ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ ۗ مِنْكُمْ مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۗ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۗ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ۗ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الجهاد (٣٠٠٧)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٩٤)، عن علي.

بعضكم رأى الغنائم فسال إليها لعابه، ولكن النتيجة أن الله عفا عنهم.

وقد فرّ بعضهم في هذا اليوم، ومنهم سيّدنا عثمان، ولما عاتبوه قرأ لهم هذه الآية: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٥٥].

هؤلاء هم أصحاب النبي ﷺ، خصوصاً أهل بدر، وأهل أحد، وأهل بيعة الرضوان، وأهل بيعة العقبة، والذين ثبتوا في غزوة الأحزاب كما قال الله تعالى عنهم: ﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَجْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْظُرُ وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٢٢، ٢٣]. هؤلاء هم أصحاب النبي ﷺ في القرآن.

ثناء النبي على الصحابة:

وأما في السنّة فما أكثر الأحاديث التي جاءت في فضلهم، يكفينا هذا الحديث، وقد رواه عدد من الصحابة: «خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»^(١). هم أفضل قرون الأمّة، أفضل أجيال الأمّة من غير شك، وهذا طبيعي فكلما اقترب الإنسان من نور النبوة اقتبس ما لا يقتبسه غيره، ولذلك كان الجيل الذي جاء بعد الصحابة جيل التابعين بإحسان، ثم الذين يلون جيل الأتباع، وهكذا كلما ابتعدوا عن نور النبوة قلّ فضلهم، وكلما اقتربوا من نور النبوة زاد فضلهم، فالقرآن والسنّة يشهدان بفضل الصحابة.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الشهادات (٢٦٥١)، ومسلم في فضائل الصّحابة (٢٥٣٥)، عن عمران بن حصين.



شهادة التاريخ بفضل الصحابة:

والتاريخ كذلك يشهد بفضل الصحابة، لو لم تأتنا هذه الآيات وهذه الأحاديث لكان التاريخ يقول: إِنَّ هَؤُلَاءِ الصَّحَابَةَ هُمُ الَّذِينَ حَفِظُوا لَنَا الْقُرْآنَ، وَنَقَلُوهُ لَنَا بِالتَّوَاتُرِ الْقَطْعِيِّ الْيَقِينِيِّ التَّارِيخِيِّ، مِمَّنْ أَخَذْنَا الْقُرْآنَ؟ مِنَ الصَّحَابَةِ، أَخَذَهُ عَنْهُمْ التَّابِعُونَ، ثُمَّ أَخَذَهُ مِنْ بَعْدِهِمْ حَتَّى وَصَلَ إِلَيْنَا، وَمَنْ الَّذِي رَوَى لَنَا السَّنَنَ وَحَفِظَهَا لَنَا؟ السَّنَةُ الْقَوْلِيَّةُ وَالْفِعْلِيَّةُ وَالتَّقْرِيرِيَّةُ، رَوَاهَا لَنَا أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ .

ثم من الذي نقل الأمم إلى الإسلام؟ من الذي نشر الإسلام في العالم؟ الصحابة هم الذين ذهبوا إلى الآفاق ليقاوموا طواغيت الأرض، ويحاربوا كسرى وقيصر ليحرروا الشعوب من قبضة هؤلاء الجبارين، ويسمعوهم صوت الإسلام، لأن هؤلاء كانوا عقبة في سبيل تبليغ رسالة الإسلام.

حينما أرسل الرسول ﷺ إلى كسرى وقيصر وغيره من ملوك الأرض كان يقول لكسرى: «فإن توليت فعليك إثم المجوس»^(١). ويقول لقيصر: «فإن توليت فعليك إثم الأريسيين»^(٢). إثم الشعوب، فالناس كانوا على دين ملوكهم كما قال فرعون للسحرة حين آمنوا: ﴿ءَأْمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَأْذَنَ لَكُمْ﴾ [الأعراف: ١٢٣]. لم يكن ممكناً للشعوب أن تقتنع بشيء، ولا أن تؤمن بشيء إلا إذا أذن لهم فرعون وأمثاله، لهذا وقف الصحابة أمام هؤلاء الطغاة، ونشروا الإسلام في الأرض.

(١) رواه الطبري في التاريخ (٦٥٤/٢)، وحسنه الألباني في تخريج أحاديث فقه السيرة ص ٣٥٦.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في بدء الوحي (٧)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٧٣)، عن

أبي سفيان بن حرب.

وهم الذين دافعوا عن الإسلام أمام الردّة، فقد كانت أوّل محنة ابتلي بها المسلمون بعد وفاة النبي ﷺ محنة الردّة، ارتدّت قبائل العرب للأسف، رجعت إلى الجاهليّة ما عدا مكّة والمدينة والطائف، كان أهل الطائف آخر من أسلم فاستحيوا أن يكونوا أوّل من يرتدّ، فبقيت هذه البلاد الثلاثة، وارتدّ سائر العرب؛ حتّى قال بعض الصحابة لسيدنا أبي بكر: الزم بيتك، وأغلق بابك، وابدء ربك حتّى يأتيك اليقين، لا طاقة لك بحرب العرب جميعاً.

لكن هذا الرجل اللين الرقيق البكاء الذي وقف كالأسد الهصور، ووقف كالجبل الأشمّ أبي أن يتراجع وقال: والله لو لم يبق إلا أنا لقاتلتهم وحدي، والله لو منعوني عقلاً كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه^(١). فقاتل المرتدّين، وقاتل مانعي الزكاة، وجهّز أحد عشر لواءً أو جيشاً من الصحابة، تقاتل هؤلاء المرتدّين الذين اتبعوا الأنبياء الكذبة: مسيلمة وسجّاح وغيرهم، وقال بعضهم: نحن نعلم أنّ مسيلمة كذاب، ونعلم أنّ محمّداً لصادق، ولكنّ كذاب ربيعة أحبُّ إلينا من صادق مضر^(٢). نبيّ قبيلتنا أحسن من نبيّ قريش، العصبية الجاهليّة تحكّمت!

ذهب الصحابة إلى بني حنيفة: قوم مسيلمة الكذاب، وقاتلوا قتال الأبطال في معركة هائلة ينبغي أن تُقرأ، أنصحكم أن تقرؤوا هذه الحروب، وقف الصحابة وخصوصاً حفاظ القرآن الذين قتل منهم في هذه المعركة المئات، وكانوا ينادون: يا أصحاب سورة البقرة، يا من بايع تحت الشجرة!

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الاعتصام (٧٢٨٤)، ومسلم في الإيمان (٣٢).

(٢) تاريخ الطبري (٢٨٦/٣).

وحفر سالمٌ مولى أبي حذيفة لنفسه في الأرض حتى لا يتزحزح عن موقعه، وقال: بئس حامل القرآن أنا إن أُتيم من قبلي^(١). وقُتِل في سبيل الله، هؤلاء الصحابة هم الذين زادوا عن هذا الدين وقاتلوا عنه، وأعادوا المُرتدِّين إلى حظيرة الإسلام، وكان هؤلاء المرتدُّون من أكثر الناس إقدامًا واستبسالًا في حروب فارس والروم، كانوا يشعرون بخطيئة كبرى حينما ارتدُّوا عن الإسلام؛ فكانوا يريدون أن يُكفِّروا عن هذه السيئة بالإقدام والاستشهاد في سبيل الله.

خير أجيال العالم كله:

هؤلاء هم أصحاب النبي ﷺ؛ فمن يضاھيهم، ومن يدانيهم؟ مَنْ يجرؤ على أن يسبَّ هؤلاء الكرام البررة، الأخيار الأطهار؟! إنَّ أصحاب النبي ﷺ هم خير أجيال العالم كله، منهم نتعلَّم، وبهم نقتدي، وبهم نهتدي، إنَّ القراءة في سيرة أصحاب رسول الله ﷺ تزيد المرء إيمانًا، وتزيده هُدًى واطمئنًا.

وقد كان سيِّدنا عبد الله بن مسعود، وهو من علماء الصحابة وأئمتهم يقول: مَنْ كان مستنًا - مقتديًا - فليستنَّ بمن مات؛ فإنَّ الحيَّ لا تُؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمد ﷺ، كانوا أفضل هذه الأمة، أبرَّها قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلَّها تكلفًا، اختارهم الله لصُحبة نبيِّه، وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتَّبِعوهم على أثرهم، وتمسَّكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرهم، فإنَّهم كانوا على الهدى المستقيم^(٢). اختارهم الله

(١) رواه الحاكم في معرفة الصحابة (٢٢٧/٣)، عن زيد بن الخطاب.

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (٣٠٥/١)، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٩هـ، وابن عبد البر في جامع بيان العلم (٩٤٧).

لصحبة نبيّه، وإقامة دينه؛ هل يختار الله لهذا النبيّ إِلَّا خَيْرَ الأصحاب؟ هذا هو النبيُّ الخاتم، وهذه هي الرسالة الخاتمة، وهذه هي الأمّة الخاتمة أمّة الخلود، الأمّة التي ليس بعدها أمّة، اختار الله لنبيه خير الأصحاب؛ ليكونوا تلاميذ خير الأنبياء، وليتعلموا من خير الكتب القرآن الكريم.

أسأل الله تبارك وتعالى أن ينفعنا بهدي صحابة رسول الله ﷺ، وأن يجعلنا ممّن اتّبع هداهم، فكان على الهدى المستقيم كما قال ابن مسعود رضي الله عنه.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، فادعوه يستجب لكم.

* * *



الخطبة الثانية

أمّا بعدُ، فيا أيُّها الإخوة المسلمون:

وحدة السودان:

كلمتي في هذه الخطبة الثانية أوجهها إلى إخواننا في السودان الشقيق، أوجهها إلى كل الأطياف، أوجهها إليهم ليكونوا صفًا واحدًا، وليستمروا بلدًا واحدًا، وشعبًا واحدًا، وجبهة واحدة.

هذا السودان البلد العربي الإفريقي الكبير، لا ينبغي أن يتمزق، ولا ينبغي أن يتفرّق، يجب أن يبقى السودان بلدًا قويًا كبيرًا، يجب أن يعمل كل مخلص للسودان على توحيد كلمة السودان، على أن يبقى السودان كما كان بلدًا كبيرًا، بلدًا قويًا، بلدًا قادرًا على أن يبني نفسه، وأن يدخل في مرحلة التقدم بعد التخلف.

إنّ الاتّحاد يُقوّي القلّة، وأمّا الاختلاف فيضعف الكثرة، لماذا نضعف أنفسنا بتفرّقنا واختلافنا؟ لماذا نُحقّق آمال أعدائنا وأهداف أعدائنا؟ الصهيونيّة والصليبيّة وكل من يعادينا، لماذا نُحقّق أهدافهم في أن نمزق أنفسنا؟

إنّ إسرائيل تعمل على تفتيت السودان، والغرب الاستعماري يريد أن يفتت السودان، وأنا أريد من أبناء السودان أن يفتنوا لهذه المكيدة، ولهذا المكر الكُبّار، وأن يعملوا على أن يخيبوا آمال هؤلاء.

إنّ أهل السودان يستفيدون من الوحدة الكثير، ولن يستفيدوا والله من الفرقة شيئًا، لن يستفيد الجنوبيّون ولا الشماليّون ولا الدارفورويّون من الفرقة.

أنادي إخواننا أبناء دارفور، أبناء القرآن، معلمي إفريقيا كلها القرآن، أناديهم أن يتمسكوا بالوحدة، وأن يرفضوا الفرقة، هم عرب لأنهم أهل القرآن، فمن قرأ القرآن وتعلم القرآن كان عربيًّا؛ لأنَّ العربية ليست عرقًا ولا جنسًا، العربية لغة وثقافة، ومن تكلم العربية فهو عربي، أدعو أبناء دارفور بلد القرآن، وبلد العلم، وبلد الدين أن يتمسكوا بالوحدة الكبرى مع أبناء وطنهم ومع إخوانهم شعب السودان.

وأدعو الإخوة في الجنوب أن يرفضوا المؤامرات التي تريد أن تمزقهم مزقًا، وتفترقهم فرقًا، لا بقاء لهم إلا في وحدتهم، في تمسكهم في هذا الكيان الكبير، هناك ملايين من الجنوبيين يعيشون في الشمال، وهناك قلة من الشماليين تعيش في الجنوب، وكلهم يعيشون في وطنهم.

أنا أنادي الإخوة في الجنوب أن يتقوا الله في بلادهم، وألا يصغوا إلى وساوس الشياطين، الذين يريدون أن يمزقوهم كل مُمزق، والله لا خير لهم إلا في الوحدة، ولا نجاة لهم إلا في الوحدة، ولا غنى لهم إلا في الوحدة، ولا تقدّم لهم إلا في الوحدة.

إنَّ الأشخاص فانون، سيذهب البشير، ويذهب المهدي، ويذهب الميرغني، ويذهب الترابي، ويذهب سلفاكير، سيذهب هؤلاء الزعماء ويبقى السودان؛ فلا ينبغي إلا أن يعتصموا بحبل الله جميعًا ولا يفرقوا، عليهم أن يتمسكوا بوحدة هذا البلد. فوالله إنَّ من ورائها الخير.

والله إنِّي لأقول هذا مخلصًا، أنا لست مع البشير ولا مع فلان ولا فلان، أنا مع الحق حيثما كان، والحق أنَّ الخير كل الخير، والقوة كل القوّة، والغنى كل الغنى إنَّما هو في وحدة السودان، في وحدة هذا البلد الكبير، من حقّ السودان أن يبقى بلدًا واحدًا، وشعبًا واحدًا، ووطنًا واحدًا، وقوة واحدة.

نحن في عالم يتكلم بلغة التكتُّل والتوحد، أوروبا التي حارب بعضها بعضًا، وفقدت الملايين في الحروب العالمية الأخيرة نسيت هذا كله، وطوت هذه الصفحة، وقالت: نريد أن نتَّحد، الخير في أن نتَّحد. واتحدوا بالفعل!

لماذا لا نتعلم من غيرنا؟! الخير في أن نتَّحد، ويجب أن نفتسم الثروة والسلطة بالعدل وفقًا لأعداد النَّاس، ويجب أن ننهض بالجميع، نعلم الناس في الجنوب والشمال والشرق والغرب، يجب أن ننهض بالسودان كله.

هذا ما أدعو إليه أبناء السودان الحبيب، وأسأل الله ﷻ أن ينير بصائرهم، ويفتح قلوبهم للحق وللخير، اللهم آمين.

* * *





أبو بكر الصديق رضي الله عنه (١)

الخطبة الأولى

أمّا بعدُ، فيا أيُّها الإخوة المسلمون:

لا زلنا مع الخلفاء الراشدين المَهْدِيِّين الَّذِينَ أَمَرْنَا النَّبِيَّ ﷺ أَنْ نَتَّبِعَ سُنَّتَهُمْ مَعَ سُنَّتِهِ، وَأَنْ نَعُضَّ عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِدِ، وَحَدَّرْنَا مِنْ مُحَدَّثَاتِ الأُمُورِ؛ فَإِنَّ كُلَّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

نتحدّث عن الخليفة الأول، تحدّثنا عن عمر بن عبد العزيز، وعن عمر بن الخطّاب، وتحدّثنا عن الصحابة عامّة، ونتحدّث اليوم عن الصّديق الأول والخليفة الأول أبي بكر رضي الله عنه.

هذا الرجل الَّذِي أَكْرَمَ اللهُ الأُمَّةَ بِهِ، فَكَانَ أَوَّلَ رَجُلٍ آمَنَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ، لَا نَدْخُلُ فِي ذَلِكَ الخِلافِ الَّذِي لَا مَعْنَى لَهُ: أَيُّهُمَا أَسْلَمَ أَوَّلًا: أَبُو بَكْرٍ أَمْ عَلِيٌّ؟ فَكَلِمَاتُنا مُتَأَكِّدُونَ أَنَّ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ مِنَ النِّسَاءِ خَدِيجَةٌ، وَمِنَ الصِّبْيَانِ عَلِيٌّ، وَمِنَ الرِّجَالِ أَبُو بَكْرٍ، وَمِنَ المَوالِي زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ.

(١) أُلْقِيَتْ فِي مَسْجِدِ عَمْرِ بْنِ الخَطَّابِ بِالدُّوحَةِ، عَامَ ١٩٩٦م.

أسلم أبو بكر بمجرد أن عرض عليه الإسلام من صديقه وصفيّه محمّد، حتّى جاء في الحديث: «ما عرضتُ الإسلام على أحدٍ؛ إلّا كان له نظرٌ وتردّد، غير أبي بكر»^(١). ما تردّد، ولا نظر، ولا تلعثم، ولكن بمجرد أن أخبره النبي ﷺ قال له: صدقت. فليس هناك مَنْ هو أخبر وأعرف بالصّديق من صديقه، وقد كانت الصداقة تجمع بين أبي بكر ومحمد في الجاهليّة، مثل هذا الصديق يعرف من صديقه مدخله ومخرجه، وظاهره وباطنه.

ومن هنا عرف أبو بكر أنّ محمّدًا هو الصديق الذي لا يكذب، والأمين الذي لا يخون، ما كذب على أحد قطّ، فما كان ليَدَع الكذب على الخلق ثمّ يكذب هذه الكذبة الكبرى على الخالق، وبعد أربعين سنة من العمر! هيهات أن ينحرف المستقيم إذا لم يكن في شبابه بوادٍ تؤدّي إلى هذا الانحراف، ولذلك سرعان ما صدّق أبو بكر رسول الله ﷺ، وهكذا كان شأنه أبداً.

حادثة الإسراء والمعراج:

في حادثة الإسراء والمعراج حينما قال النبي ﷺ لقومه من قريش: إنّ الله قد أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وذهب وعاد في ليلة واحدة: سخر منه القوم، وهزئوا به، وقالوا: نضرب أكباد إبلنا شهراً ذهاباً وشهراً إياباً، ثمّ تقول لنا: إنّك قد ذهبت وعُدت في نفس الليلة!

وجاؤوا إلى صاحبه أبي بكر، وقالوا له: هل لك إلى صاحبك يزعم أنّه أسرى به الليلة إلى بيت المقدس! قال: أو قال ذلك؟ قالوا: نعم. قال:

(١) رواه رزين في التجريد في الجمع بين الصحاح، كما في جامع الأصول (٨/٥٨٥).

لئن كان قال ذلك لقد صدق. قالوا: أَوْتَصَدَّقَ أَنَّهُ ذَهَبَ اللَّيْلَةَ إِلَى بَيْتِ
الْمَقْدَسِ، وَجَاءَ قَبْلَ أَنْ يَصْبِحَ؟! قَالَ: نَعَمْ، إِنِّي لِأُصَدِّقَهُ فِيمَا هُوَ أَعْبَدُ مِنْ
ذَلِكَ، أَصَدِّقُهُ فِي خَبَرِ السَّمَاءِ فِي غَدْوَةٍ أَوْ رَوْحَةٍ^(١)؟

ولذلك سمَّاه النبي ﷺ (الصِّدِّيقَ)، والصِّدِّيقُ صِيغَةٌ مَبَالِغَةٌ مِنَ الصِّدْقِ،
فَهُوَ كَثِيرُ الصِّدْقِ وَكَثِيرُ التَّصَدِّيقِ، وَهَذَا كُلُّهُ مِنْ صِدْقِ إِيمَانِهِ وَيَقِينِهِ
بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَهَذَا الْيَقِينُ هُوَ الَّذِي فَضَّلَ بِهِ أَبُو بَكْرٍ هَذِهِ الْأُمَّةَ كُلَّهَا، وَقَالَ
فِيهِ مَنْ قَالَ: مَا فَضَّلَكُمْ أَبُو بَكْرٍ بِكَثْرَةِ صَلَاةٍ وَلَا صِيَامٍ، وَلَكِنْ بِشَيْءٍ وَقَرَّ فِي
نَفْسِهِ^(٢). هَذَا الشَّيْءُ هُوَ ذَلِكَ الْيَقِينُ الَّذِي لَا يَتَزَعَّرُ بِصِدْقِ مُحَمَّدٍ ﷺ،
وَصِدْقِ رِسَالَتِهِ، وَصِدْقِ مَا أَخْبَرَ بِهِ، لَا يَسْتَبَعِدُ شَيْئًا يَقُولُهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

أَسْلَمَ أَبُو بَكْرٍ، وَظَلَّ بِجَوَارِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ طَوَالَ عَهْدِهِ بِمَكَّةَ، يَتَحَمَّلُ
مَا يَتَحَمَّلُ، وَيُدْفَعُ مِنْ مَالِهِ وَنَفْسِهِ، لَا يَدَّخِرُ وَسْعًا فِي نَصْرَتِهِ، كُلَّمَا رَأَى
مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ وَمِنَ الْعَبِيدِ الرَّقِيقِ مَنْ يُؤْذَى وَيُعَذَّبُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ:
حَاوَلَ أَبُو بَكْرٍ أَنْ يَسْتَنْقِذَهُمْ بِمَالِهِ، كَمَا فَعَلَ ذَلِكَ مَعَ بِلَالٍ وَغَيْرِهِ، هُوَ
الَّذِي اشْتَرَى بِلَالًا مِنْ سَيِّدِهِ حِينَمَا رَأَاهُ يُعَذَّبُ أَشَدَّ الْعَذَابِ فِي سَبِيلِ
الْإِسْلَامِ، وَلِذَلِكَ قَالَ عَنْهُ عُمَرُ: أَبُو بَكْرٍ سَيِّدُنَا، وَأَعْتَقَ سَيِّدَنَا^(٣). يَقْصِدُ
أَعْتَقَ سَيِّدَنَا بِلَالًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَفِي أَبِي بَكْرٍ نَزَلَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَسَيَجْنِبُهَا الْأَنْفَى * الَّذِي يُؤْتِي
مَالَهُ، يَتَزَكَّى * وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى * إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى *
وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾^(٤) [الليل: ١٧ - ٢١].

(١) رواه الحاكم في معرفة الصحابة (٦٢/٣)، وصحح إسناده ووافقه الذهبي، عن عائشة.

(٢) رواه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول (١١١٨)، من قول بكر بن عبد الله المزني.

(٣) رواه البخاري في أصحاب النبي (٣٧٥٤).

(٤) تفسير ابن كثير (٤٢٢/٨).



وحينما أذن الله لرسوله بالهجرة من مكة إلى يثرب، اختار أبا بكر ليكون رفيقه في هذه الرحلة الشاقة، على ما بها من مخاطر، وكذلك سَرَّ أبو بكر وقرَّت عينه حينما اختاره رسول الله ﷺ رفيقاً لهجرته، وهياً له الرواحل، واشترى له المطايا التي يركبها، وأراد أبو بكر أن يدفع ثمنها فأبى النبي ﷺ (١).

رافق أبو بكر رسول الله ﷺ في رحلته، ودخل معه الغار الذي اختبأ فيه النبي ﷺ ليالي ثلاثاً، حتى يهدأ الطلب من أهل مكة، وكان حريصاً على حياة النبي ﷺ، يحاول أن يسدَّ كلَّ ثغرة في الغار خشية أن يكون فيها شيء يؤذي النبي ﷺ.

ولمَّا أقبل المشركون يبحثون عن رسول الله وصاحبه حتى وصلوا إلى الغار، ووقفوا أمامه، وقال القافة: هنا انقطع أثر محمد. ولكنَّ أبا بكر كان يُشفق على النبي ﷺ وهو يرى القوم أمام الغار ويسمع أصواتهم، فيقول له: يا رسول الله، لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا. لو كلف أحدهم خاطره أن ينحني وينظر تحت قدميه لرأى الرسول الكريم وصاحبه الصديق، ما كان أبو بكر يخاف على نفسه، إنَّما يخاف على صاحب الدعوة، يشفق عليه أن يناله المشركون بسوء.

وهنا طمأنه النبي ﷺ بقوله: «يا أبا بكر، ما ظنُّك باثنين الله ثالثهما؟» (٢). وهذا ما سجَّله القرآن الكريم حيث يقول:

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٤٨٦/١، ٤٨٧)، تحقيق مصطفى السقا.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٦٥٣)، ومسلم (٢٣٨١)، كلاهما في فضائل الصحابة، عن أبي بكر الصديق.

﴿إِلَّا نَضْرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا نَرَى اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: ٤٠]. كان أبو بكر ثاني اثنين، كان صاحب رسول الله في الغار، كان رفيقه في الهجرة.

وكان رفيقه وصاحبه وأقرب الناس إليه طوال عهده بالمدينة، ما تخلّف عن غزوة من الغزوات، ولا عن مشهد من المشاهد، في غزوة بدر أراد أن يخوض المعركة بنفسه، وحينما برز أحد أبنائه يقول: هل من مبارز؟ وكان ابنه لا يزال على الشرك، فقال: دعني يا رسول الله أبارز هذا المشرك. فقال له: «متّعنا بنفسك يا أبا بكر؛ فإنّما أنت بمنزلة سمعي وبصري»^(١). وبقي مع النبي ﷺ.

في الغزوات كلها لم يُعرف عنه أنّه فرّ، قد فرّ بعض الناس في أحد، وفرّ بعض الناس في حنين، ولكن أبا بكر كان من أشجع الرجال، لم يفر ولم يخذل رسول الله ﷺ.

كان أبو بكر هو وزير رسول الله ﷺ والمشير عليه، وأقرب الناس إليه. يقول ابن عباس: كنا نسمع رسول الله ﷺ يقول: جئت أنا وأبو بكر وعمر، وذهبت أنا وأبو بكر وعمر^(٢)، و«أومن بهذا أنا وأبو بكر وعمر»^(٣). فكان هذان الرجلان أقرب الناس إليه.

(١) انظر: أسباب النزول للواحد ص ٤١٤، ٤١٥، تحقيق عصام بن عبد المحسن الحميدان، نشر دار الإصلاح، الدمام، ط ٢، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في أصحاب النبي ﷺ (٣٦٨٥)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٣٨٩)، عن ابن عباس.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٧١)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٣٨٨)، عن أبي هريرة.

ظلَّ أبو بكر هكذا لم يتخلف عن رسول الله ﷺ، لا بمالٍ ولا بنفسٍ، في غزوة تبوك غزوة العسرة؛ حيث كان المسلمون يواجهون الروم أكبر إمبراطورية عاتية في الأرض في ذلك الحين، وكان ذلك في وقت جني الثمار وفي حرٍّ شديد، وطلب النبي ﷺ من الصحابة أن يُجهِّزوا هذا الجيش، وبذل الكثيرون، وقال عمر: لأسبقنَّ أبا بكر اليوم. فجاء بنصف ماله. ما عنده من ثروة شطره شطرين، أبقى شطرًا في البيت، وجاء بنصف المال في حجره، وقال: يا رسولَ الله، هذا شطر مالي قد جئتكَ به. فقبله النبي ﷺ ودعا له.

وما هي إلا لحظات حتى جاء أبو بكر وماله في حجره، وقال: خذ هذا يا رسول الله. قال: «ما هذا؟» قال: هذا مالي كله يا رسول الله. قال: «وماذا أبقيت لأهلك وعيالك يا أبا بكر؟» قال: أبقيتُ لهم الله ورسوله. فقال عمر: والله لا أسابقنَّ أبا بكر إلى شيءٍ بعد هذا أبدًا^(١).

كان عليُّ بن أبي طالب يسمي أبا بكر (السِّبَّاق)، فيقول: ما استبقنا إلى خير قط إلا وسبقنا إليه^(٢). هكذا كان أبو بكر رضي الله عنه.

في مرض رسول الله ﷺ أمر الرسول أبا بكر أن يؤمَّ النَّاسَ، فجاء أبو بكر ليصلِّي بالناس، فأراد أن يتأخَّر، فأشار إليه النبي ﷺ أن يبقى في مكانه، وصلَّى خلف أبي بكر^(٣)، وهذه منقبة من المناقب، ومأثرة من

(١) رواه أبو داود في الزكاة (١٦٧٨)، والترمذي في المناقب (٣٦٧٥)، وقال: حسن صحيح. والحاكم في الزكاة (٥٧٤/١)، وصحَّحه على شرط مسلم، وسكت عنه الذهبي، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود (١٤٧٢)، عن عمر بن الخطاب.

(٢) رواه الطبراني في الأوسط (٧١٦٨)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٤٣٣٢): رواه الطبراني في الأوسط، وفيه أحمد بن عبد الرحمن بن المفضل الحراني، ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات.

(٣) رواه الترمذي في الصلاة (٣٦٢)، وقال: حديث حسن صحيح غريب. عن عائشة.

المآثر لهذا الصديق العظيم، ولذلك قال المسلمون بعد ذلك: رضيه رسول الله ﷺ لدينا؛ أفلا نرضاه لدينا^(١)؟ رضي أن يؤمنا في الدين؛ أفلا يؤمنا في الدنيا وفي السياسة؟ هذا أبو بكر رضي الله عنه.

يقول النبي ﷺ: «ما نفعني مالٌ كمال أبي بكر»^(٢). ويقول: «إن من أمن الناس عليّ في صحبته بنفسه وماله أبا بكر»^(٣). ويقول: «لو كنت متخذًا خليلًا غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلًا، ولكن أخي وصاحبي»^(٤). ويقول: «سُدُّوا الخَوَاطِ كَلْهَا إِلَّا خَوْخَةَ أَبِي بَكْرٍ»^(٥). هكذا كانت منزلة هذا الصديق من صفيّه وحببه رسول الله ﷺ.

وحيثما تُوفي رسول الله ﷺ طاشت العقول، وقال بعض الصحابة: إن رسول الله لم يمُت. وقال بعضهم: مَنْ قال: إن رسول الله ﷺ قد مات؛ ضربت عنقه. حتّى عمر بن الخطّاب أصابه ما أصابه، وقال ما قاله يوم ذلك!

ولكن الذي ثبت ثبات الأطواد الراسية هو أبو بكر، هو الذي وقف يخطب في أحب الناس إليه في رسول الله، ويقول: أيها الناس، مَنْ كان

(١) انظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٣/٨٧٧)، نشر دار الفكر، بيروت، ط ١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م، وتاريخ التشريع الإسلامي ص ٢٣٢، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٥، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

(٢) رواه أحمد (٧٤٤٦)، وقال مخرّجوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين. وابن ماجه في المقدمة (٩٤)، وصحّحه الألباني في تخريج مشكاة الفقر (١٣)، عن أبي هريرة.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الصلاة (٤٦٧)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٣٨٢)، عن أبي سعيد الخدري.

(٤) رواه البخاري في أصحاب النبي ﷺ (٣٦٥٦)، عن ابن عبّاس.

(٥) متفق عليه: رواه البخاري في مناقب الأنصار (٣٩٠٤)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٣٨٢)، عن أبي سعيد الخدري.

يعبد محمدًا، فإنَّ محمدًا قد مات، ومنَّ كان يعبد الله، فإنَّ الله حيٌّ لا يموت. ثمَّ تلا الآية الكريمة: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤] ^(١). الآية التي نزلت عقب غزوة أحد تلاها على النَّاس، وكانَّ المسلمون لم يسمعوها من قبل، وهنالك هدأت النفوس، واطمأنت القلوب، وعرف النَّاس أنَّ الموت حق، وأنَّه مدركُ رسول الله، وتذكروا قول الله له: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ [الزمر: ٣٠].

خلافة أبي بكر:

كانت خلافة أبي بكر خيرًا وبركة على الأمة، بعد موت رسول الله اجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة، وسمع بذلك عمر وأبو عبيدة فأسرعا إلى القوم، ووجد القوم يتشاورون فيمن يكون خليفة منهم، وأراد عمر أن يتكلَّم وقد هبَّ في نفسه كلامًا، ولكنَّ أبا بكر أخذ منه المبادرة وتكلَّم على البديهة، قال عمر: تكلم على البديهة فما ترك ممَّا كنت زورته في نفسي شيئًا إلاَّ قاله وأحسن منه. قال لهم: أيُّها الأنصار، نحن المهاجرون وأنتم الأنصار، أسلمنا قبلكم، وقُدِّمنا في القرآن عليكم، وإنَّ العرب لا تدين إلاَّ إلى هذا الحي من قريش ^(٢). فافتنع الأنصار، وبادر عمر ليفضَّ هذه المشكلة، ويقطع هذا الأمر بأن مدَّ يده إلى أبي بكر، وقال: ابسط يدك أبايعك. فبسط أبو بكر يده فبايعه، وبايعه أبو عبيدة، وبايعه الأنصار، وانتهت هذه الفتنة وأطفئت في مهدها.

(١) رواه البخاري في أصحاب النبي (٣٦٦٧، ٣٦٦٨)، عن عائشة.

(٢) رواه البخاري في الحدود (٦٨٣٠)، عن ابن عباس.

كانت خلافة أبي بكر خيرًا وبركة، قد بدأ هذه الخلافة بخطبته الشهيرة حين وقف وقال: أيُّها النَّاسُ، فإنِّي قد وُلِّيتُ عليكم ولست بخيركم، إنَّ أحسنَ فأعينوني، وإنَّ أسأتُ فقوِّموني، القويُّ فيكم ضعيفٌ عندي حتَّى آخذَ الحقَّ منه، والضعيفُ فيكم قويٌّ عندي حتَّى آخذَ الحقَّ له، الصدقُ أمانة، والكذبُ خيانة، أطيعوني ما أطعتُ الله فيكم، فإنَّ عصيته فلا طاعة لي عليكم^(١).

وهكذا أرسى هذه المبادئ التي تُعطي الرعيَّة حقَّ تقويم الراعي، لا تجعل الرعيَّة أذنبًا لا قيمة لها، ولا تجعل الراعي طاغوتًا يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، هكذا أرسى أبو بكر هذه القواعد الذهبية في خطبته البليغة الموجزة.

إرسال جيش أسامة بن زيد:

ثم كان هناك جيش أسامة الذي أمر النبي ﷺ بتجهيزه وإرساله إلى الروم، أسامة بن زيد قُتل أبوه في معركة مؤتة مع الروم، فأراد النبي ﷺ من أسامة أن يذهب وهو في الثامنة عشر من عمره، ومعه من الصحابة الكبار، ومنهم عمر بن الخطَّاب نفسه، بعد أن مات النبي ﷺ، وارتدَّ من ارتدَّ من العرب قال الناس: نحن في حاجة إلى جيش أسامة ليبقى في المدينة. ولكن أبا بكر أبي وقال: والله لا أحلُّ لواءَ عقده رسول الله ﷺ، والله لو أنَّ السباع ستخطفني أو الطير، ولو جرَّت الكلاب بأرجل أمهات المؤمنين ما أخَّرت جيشًا أنفذه رسول الله ﷺ. وهذا من قوَّة يقينه، وشدَّة إيمانه، فأبى إلا أن يذهب أسامة.

(١) ذكره ابن هشام في السيرة (٦٦١/٢)، وابن كثير في البداية والنهاية (٨٩/٨، ٩٠)، وصحح إسناده، عن أنس.

وذهب أبو بكر مع أسامة يودعه، وأسامة راكب وأبو بكر ماشٍ، فأراد أسامة أن ينزل فرفض أبو بكر، فقال له: يا خليفة رسول الله، إمّا أن تركب وإمّا أن أنزل. قال: والله لا تنزل ولا أركب، وما عليّ أن أغبّر قدمي ساعة في سبيل الله. ثمّ استأذنه أن يترك له عمر بن الخطّاب فترك له عمر^(١).

محاربة المرتدين:

ثم بدأ أبو بكر - بعد جيش أسامة - يهيئ الصحابة لمحاربة المرتدين، فقد كانت فتنة كبرى، ارتدت قبائل العرب حينما سمعوا بوفاة رسول الله ﷺ، ولم يبق على الإسلام إلا أهل مكة والمدينة والطائف، أمّا سائر الناس فقد رجع أكثرهم عن الإسلام، اتبعوا المتنبيين الكذابين، هناك من اتّبع مسيلمة الكذاب من بني حنيفة، وهناك من اتّبع الأسود العنسي في اليمن، وهناك من اتّبع طليحة الأسيدي من بني أسد، وهناك من اتّبع سجاح بنت الحارث، هناك متنبتون كذابون من جهلة العرب الدجالين، اتبعهم أقوامهم، وهم يعلمون أنّهم كذبة فجرة، وقال قائلهم: كذاب ربيعة أحبّ إلينا من صادق مضر^(٢). يعني أنّ كذاباً من قومنا أحبّ إلينا من صادق من غير قومنا.

وهناك من لم يرددوا بالكليّة، ولكن قالوا: نُصلي ولا نُزكي، نُقيم الصلاة ولا نُؤتي الزكاة، الزكاة كانت تُعطى لمحمّد لأنّه هو الذي يصلي علينا، وصلاته سكن لنا، وليس لمن بعده هذا الحق!

(١) البداية والنهاية (٤٢٢/٩ - ٤٢٤).

(٢) تاريخ الطبري (٢٨٦/٣).

وقد وقعت بعض الشبهات لبعض الصحابة، حتى عمر نفسه قال لأبي بكر حينما عزم على حرب المرتدين: يا خليفة رسول الله، كيف تقاتل الناس وقد قال النبي ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتَلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. فَإِذَا قَالُوهَا فَقَدْ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا، وَحَسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ»^(١)؟ فقال أبو بكر: والله لأقاتلنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ؛ فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ الْمَالِ^(٢).

يشير إلى قول الحديث: «عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها». فهناك حقوق لقول: لا إله إلا الله. ومنها حق المال، والزكاة حق المال، وإذا كان الإنسان يُقاتل على الصلاة فيُقاتل على الزكاة، كما قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥]. ولذلك قال أنس رضي الله عنه: رحم الله أبا بكر ما كان أفقهه^(٣) حيث لم يُفرِّق بين الصلاة والزكاة.

وقال أبو بكر: والله لو منعوني عناقاً - عنزة صغيرة - وفي رواية: لو منعوني عقالاً - حبلاً يُربط به البعير - كانوا يؤذونه لرسول الله لقاتلتهم عليهم. يقول عمر: فما هو إلا قد رأيت أن الله شرح صدر أبي بكر لهذا الأمر، فعرفت أنه الحق. رأى أبا بكر غير مُتردّد في هذا الأمر فعرف أنه الحق ورجع إلى رأيه.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الصلاة (٧٢٨٤)، ومسلم في الإيمان (٢١)، عن أبي هريرة.
(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة (٧٢٨٤)، ومسلم في الإيمان (٢٠)، عن أبي هريرة.

(٣) رواه الطبري في تفسيره (١٥٣/١٤)، من قول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، تحقيق محمود وأحمد شاكر، نشر دار التربية والتراث، مكة المكرمة، وفي تفسير القرطبي (٧٤/٨)، عن ابن عباس، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، نشر دار الكتب المصرية، ط ٢، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

وجهز أبو بكر أحد عشر جيشًا لمحاربة المرتدّين، ومحاربة مانعي الزكاة، ورجع جيش أسامة بعدما ذهبت الجيوش، وكلّما ذهب جيش إلى قبيلة قال الناس: كيف استطاع أن يبعث هذا الجيش؟ هذا دليل على أنّهم أقوياء. فأرعبت الجيوش من حول المدينة من القبائل، وعاد أسامة سالمًا والحمد لله، وانضم إلى هؤلاء.

ذهبت جيوش المسلمين لمحاربة المرتدين، وحدد أبو بكر فلانًا على رأس الجيش الفلاني، أمير في منطقة كذا، فإذا ذهب إلى منطقة كذا كان فلان هو الأمير، فالرجل خبير بالرجال، خبير بالمناطق، أيهم يصلح للإمارة في هذا المكان؟ وأيهم يصلح لها في المكان الآخر؟ وأوصى خالد بن الوليد وصيته الشهيرة: احرص على الموت يا خالد: توهب لك الحياة^(١).

وذهب قواد المسلمين، خالد بن الوليد، وشرحبيل بن حسنة، ويزيد بن أبي سفيان، وعكرمة بن أبي جهل، وأبو عبيدة بن الجراح، وغيرهم لقتال المرتدين، فقاتلوا المرتدين حتى ردهم إلى الإسلام، وصدوهم عن الكفر، وأعادوهم إلى حظيرة هذا الدين.

وكان المرتدون بعد ذلك في حروب فارس والروم من أشدّ الناس بلاء، ومن أعظمهم حماسًا في مهاجمة الكفار؛ يكفرون عن أنفسهم خطيئة الردة.. شعروا أنّهم أخطؤوا في حق هذا الدين فعوضوا عن هذا بالإقدام والبلاء في سبيل الله.

كان الانتصار في حروب الردة من مآثر أبي بكر العظيمة، ولو استسلم أبو بكر لهذه المخاوف لذهب الإسلام وضاع في مهده، وانتصر

(١) البيان والتبيين للجاحظ (١١٧/٣)، نشر دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٣هـ.

الكفر والشرك إلى الأبد، ولكن أبا بكر لم يستسلم.. هذا الرجل الخاشع البكاء الرقيق وقف هذه الوقفة، وقف كالأسد الهصور، كالجبل الأشم لا يتزعزع، وأبى إلا أن يقاتل المرتدين، ويقا تل مانعي الزكاة.

كانت الدولة الإسلامية في عهد أبي بكر هي أول دولة في العالم تقاتل من أجل حقوق الفقراء، تسلُّ السيف، وتشنُّ الحرب لتنتزع حقوق الفقراء من براثن الأغنياء الأشحاء، لم يُطالب بذلك الفقراء، لم يُسيروا مسيرة، أو يقيموا مظاهرة، لا.. الإسلام هو الذي قرر لهم هذا الحق، وجعل هذا الحق فريضة، وجعل الدولة الإسلامية مسؤولة عن أخذه، ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ [التوبة: ١٠٣]، فالله تعالى «افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم لُتُردُّ على فقرائهم»^(١)، فمن لم يبذل هذه الفريضة طوعاً أخذت منه كرهاً، ومن امتنع منها وكان ذا شوكة قُوتل بحدِّ السلاح، هذا ما صنعه أبو بكر رضي الله عنه.

ثم بعد أن انتصر أبو بكر في حرب الردّة وجّه قادة جيوشه لحرب فارس والروم، هاتان الدولتان العُظُمَيان اللتان كانتا تقتسمان العالم، تستعمران العالم، دولة الفُرس في الشرق، ودولة الروم في الغرب تتنازعان السيادة، وكان العرب الغساسنة في بلاد الشام عمّالاً تحت ولاية الروم، وكان العرب المناذرة في العراق عمّالاً تحت ولاية الفُرس.

هنا كان لا بدّ من وقفة، لا يستطيع الإسلام أن يؤدّي رسالته، وأن يُبلِّغ دعوته وهذه القوى القاهرة المستكبرة تستحوذ على العالم، وتحول بين شعوبها ودعوة الله، ولذلك كانت رسائل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى كسرى وقيصر: إن لم تسلم فعليك إثم قومك. لأنّه هو الذي يحول

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الزكاة (١٤٩٦)، ومسلم في الإيمان (١٩)، عن ابن عباس.

بينهم وبين بلوغ الدعوة، فكان لا بدّ من إزالة هذه القوى المتجبرّة، من إزالة هذه السلطات الطاغية حتّى تصل دعوة الإسلام إلى الشعوب ويختار الناس لأنفسهم.

هكذا فعل أبو بكر رضي الله عنه : وجّه المثنى بن حارثة إلى العراق، وخالد بن الوليد وأبا عبيدة وغيرهم إلى الشام، وعمرو بن العاص إلى فلسطين، وكان هذا ممّا يُحسب لأبي بكر رضي الله عنه ، هذا الرجل الرقيق هو الذي بدأ الفتوح الإسلاميّة.

كم بقي أبو بكر في خلافته؟ بقي فيها نحو سنتين ونصف، ولكنّه في هاتين السنتين والنصف فعل أفعالاً عجيبة، حتّى إنّ بعض الناس يعجب أن يستطيع رجل واحد في مثل هذه الظروف، وبعد موت مؤسس الدين وارتداد العرب أن ينفذ هذا كله، وأن ينجز هذه الإنجازات العظيمة، يعيد المرتدين إلى الدين، ويجمع الزكاة من المانعين، ويوجه الجيوش إلى فارس والروم، ويجمع القرآن الكريم في عهده، ويفعل أفعالاً كثيرة لا نستطيع أن نتحدث عنها كلها في هذا المقام، ولكن هذا من بركات هذا الرجل الذي كان مؤمناً شديداً بالإيمان برسول الله صلّى الله عليه وآله ، وكان يقتدي به، ولا يحيد عن سنته.

كان أبو بكر من الرجال القلائل الذين صنعهم هذا الدين، الذين تربوا في المدرسة المحمّدية، وقاد الأمة في أحلك أوقاتها إلى هذا النصر، ولهذا حينما قال بعض الناس في عهد خلافة عمر: عمر خير من أبي بكر. جاء بهم عمر وقال لهم: والله ليومٌ و ليلة من أبي بكر خير من عمر وآل عمر^(١). يقصد باليوم يوم مات النبي صلّى الله عليه وآله ، وكانت العرب كالغنم

(١) رواه البيهقي في دلائل النبوة (٤٧٦/٢، ٤٧٧)، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٠٥هـ.

في الليلة المطيرة ولم يثبتهم إلا أبو بكر كما قالت عائشة^(١). وأمّا الليلة فهي ليلة الغار حينما كان مع النبي ﷺ ثاني اثنين؛ إذ هما في الغار، ولذلك كان عليّ رضي الله عنه يقول: ما سمعت برجل فضّلني على أبي بكر وعمر إلا جلدته^(٢). فأبو بكر هو ذلك الرجل، ومنزلته من رسول الله ﷺ كمنزلة قبره من قبره، اذهب إلى المسجد النبوي ترى قبر أبي بكر هو المجاور لقبر رسول الله ﷺ، ثمّ قبر عمر رضي الله عنه.

هؤلاء هم الرجال الذين صنعهم هذا الدين، هؤلاء هم الرجال الذين ربّاهم الإسلام فكانوا بحقّ خير أمة أخرجت للنّاس، لا نستطيع أن نفي أبا بكر حقّه في خطبة واحدة، وقد ألّفت في مناقبه الكتب، وقد أوسعه المؤرّخون فيما ذكروا من مناقب في حياة رسول الله وبعد وفاته، فرضي الله عن أبي بكر، ورضي الله عن الصحابة أجمعين، اللهم اجعلنا ممّن يرثونهم في فضائلهم، واجعلنا ممّن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، أولئك الذين هداهم الله، وأولئك هم أولى الألباب.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه؛ إنّه هو الغفور الرحيم، وادعوه يستجب لكم.

(١) السيرة النبويّة لابن هشام (٦٦٥/٢).
 (٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٤٢٢/٤)، نشر مجمع الملك فهد، المدينة المنورة، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

الخطبة الثانية

أمّا بعدُ، فيا أيُّها الإخوة المسلمون:

التفريط في قضية الأسرى المصريين:

في هذه الأيام ثارت قضية كبيرة وخطيرة، والعجيب أنّ الذي أثار هذه القضية وكشف اللثام عنها هم اليهود الإسرائيليون، تلك القضية الأسرى المصريين في حرب سنة ١٩٥٦م. وسنة ١٩٦٧م. كشف اليهود اللثام عن أنّهم قتلوا المئات، وفي بعض المعارك ألفاً من الأسرى المصريين، سلّطوا عليهم الرشاشات وأمروهم أن يحفروا قبورهم بأيديهم، ودفنوهم في هذه المقابر الجماعية.

وكنا نسمع أنّ هناك مفقودين في تلك الحرب، أسر كثير منهم. أناس كثيرون ظلوا يترقبون عودة أبنائهم المفقودين، عسى أن يكون قد تاهوا في الصحراء، أو لقيهم بعض الأعراب أو غير ذلك، ولا يدري هؤلاء المساكين أنّ هؤلاء الأبناء قُتلوا ودُفِنوا في هذه المقابر الجماعية.

والعجيب أنّنا نحن العرب ونحن المسلمين لا نبحت عن ضحايانا، اليهود إذا فقد لهم واحد أقاموا الدنيا ولم يقعدوها، في جلسة من الجلسات في نقابة الأطباء في مصر حدثنا أحد اللوآات العسكريين الذي كان مسؤولاً عن قضايا الأسرى والمفقودين، قال: جاءنا اليهود وقالوا: عندنا عدّة أشخاص مفقودين، ويقال: إنّ الطائرة سقطت في مزارع القرية الفلانية، ولا بدّ أن نبحت لعلنا نجد جثة أو ذراعاً، أو كفاً أو معصماً، أو ظفراً أو أي شيء من هذه الجثة؛ فإنّ عندنا أحكاماً لا يمكن أن تتم إلا بعد أن نجد الجثة، لا تستطيع المرأة أن تتخلّص من

زوجها، ولا أن يرثه ورثته، ولا كذا إلا بوجود الجثة. قال: واستجبنا لليهود، وجاؤوا بالبلدوزرات وحفروا وبحثوا ولم يجدوا شيئاً.

اليهود إذن يبحثون عن أي شيء من أثر قتيلهم، ولا يكفي أن تمر السنون والسنون لينسوا هذا الأمر.. قالوا ذلك بعد سنين من الحرب، ولكننا نحن لا نهتم بذلك، مات مَنْ مات، وقُتل مَنْ قُتل حتى كشفت إسرائيل أن هؤلاء المفقودين قُتلوا عمداً، وأجبروا أن يحفروا قبورهم بأيديهم!

ماذا تقصد إسرائيل من ذلك؟ هل تخوفنا؟ هل تقول: إننا يمكن أن نعيد الكرامة؟ هل تقول: إياك أعني واسمعي يا جارة. لا نعلم ماذا تريد من ذلك!

المهم أيها الإخوة أن مصر كلها تتحدث عن هذا الأمر، وكم عُقد من ندوات شاركت في بعضها، وأن العرب كلهم يتحدثون، وأن إسرائيل نفسها تشغلها هذه القضية في الصحافة، وهناك من الصهاينة مَنْ اعترف بهذا الأمر هناك، ولكنه قال: هذا أمر مضى عليه الزمن وسقط بالأقدمية!

كيف تسقط هذه المجازر والجرائم الجماعية بالأقدمية؟ ولماذا لم تسقطوا أنتم ما زعمتم أنه وقع لكم في عهد هتلر بالأقدمية، وظلتمت تلاحقون القضية، وتحاكمون كل من شارك فيها، وتطلبون التعويض بالمليارات؟ لماذا لم تسقط قضيتكم أنتم بالأقدمية وتريدون أن تسقطوا قضيتنا بالأقدمية؟

افتراء على الإسلام وعلى رسوله:

والمهم أن هناك مَنْ كتب في هذه القضية كتابة سفيهة رخيصة حدثنا عنها الأستاذ أحمد الجمال في عموده اليومي في جريدة (الشرق)

القطريّة، هناك رجل هو أستاذ جامعي، وفي أي جامعة؟ في جامعة الأزهر، في طب الأزهر، ويزعم أنه أمين جماعة التنوير، هكذا سمّاها، ويقول: لا تدخلوا الأبعاد الدينيّة في قضية الأسرى؛ فإنكم لو أدخلتم فيها الجانب الديني، فنحن سنكون المدينين والمُتَّهَمين، ستفضحنا الأحداث التاريخيّة؛ فالرسول ساوم الأسرى على حرياتهم، وطلب منهم الفداء، وقتل أسرى بني قُرَيْظَةَ، فعلينا أن نبعد الجانب الديني عن هذه القضية.

هذا الأفاك الجاهل الذي اتَّهم الرسول ﷺ، واتَّهم الأمة باطلاً وكذباً، لم يفهم دينه، ولم يفهم تاريخه، ولم يفهم القضية نفسها، وكان مدافعاً عن اليهود في هذه القضية، هذا الذي يقوله كذب صراح.

إنَّ النبي ﷺ ما قتل أسيراً إلا أن يكون مُجرم حرب، ولكنّه نفذ قول الله تعالى في شأن الأسرى: ﴿فَأَمَّا مَنْ بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد: ٤]. إمّا أن يمنّ على الأسرى بغير مقابل لوجه الله وترغيباً في الإسلام، وهذا ما فعله مع بعض الأسرى، وإمّا أن يفديهم ويقبل الفداء، والفداء قد يكون بمال، أو أسير مقابل أسير أو أسيرين، حسب ما يُتَّفَق عليه، وهذا أمر معمول به في سائر الأمم، وفي سائر العصور، والمعاملة فيه بالمثل.

وليس فيه شيء يُعَاب ولا يدعو إلى الخجل، الفداء أمر مقبول، وقد كان النبي ﷺ يتساهل فيه غاية التساهل، ولم يكن يُعامل الفقير كما يُعامل الغني؛ بل هناك بعض الناس الذين لم يستطيعوا أن يدفعوا الفداء، وكانوا يعرفون الكتابة، فجعل فداءهم أن يُعلِّم كل واحد منهم عشرة من أبناء المسلمين الكتابة^(١). هكذا كان رسول الله ﷺ.

(١) رواه أحمد (٢٢١٦)، وقال مخرّجه: حسن. والحاكم في الجهاد (١٤٠/٢)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، عن ابن عباس.

إِنَّ الْإِسْلَامَ جَاءَ بِالْإِحْسَانِ إِلَى الْأَسِيرِ، وَجَاءَ فِي الْقُرْآنِ وَصْفٌ
لِلْأَبْرَارِ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ إِنَّمَا نَطْعَمُكُمْ
لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نَزِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ﴿[الإنسان: ٨، ٩].

وقد قال الله لنبيه: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلٌّ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ
اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِيَكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧٠]. فهو
لم يقبل منهم الفداء فقط، ولكن أراد أن يُطمئنهم ويُبشِّرهم، ويقول: إِنَّ
اللَّهَ إِذَا عَلِمَ أَنَّ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا عَوَّضَكُمْ خَيْرًا مِمَّا دَفَعْتُمْ.

أَمَّا قِصَّةُ بَنِي قُرَيْظَةَ فَهَؤُلَاءِ قَوْمٌ خَوَّنُوا، هُمْ جُزْءٌ مِنْ أَهْلِ الدَّارِ دَارِ
الْمَدِينَةِ، هُمْ مَوَاطِنُونَ فِي الْمَدِينَةِ، عَقَدَ الرَّسُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ اتِّفَاقِيَّةً كُتِبَتْ
فِي صَحِيفَةٍ مَعْرُوفَةٍ أَشْبَهَ بِمَا نَسَمِيهِ الْآنَ (الدستور) الَّذِي يُحَدِّدُ
العلاقات، ولكن هؤؤلاء خانوا العهد، ونقضوا الميثاق، وانضموا إلى
الأعداء المغيرين على المدينة في الوقت الذي كان يجب أن يكونوا مع
رسول الله بالنفس والمال والسلاح؛ فما عقوبة الخائن لوطنه؟

إِنَّ عَقُوبَةَ الْخِيَانَةِ إِلَى الْيَوْمِ هِيَ الْإِعْدَامُ، وَمَعَ هَذَا فَإِنَّ الرَّسُولَ لَمْ
يُحْكَمْ عَلَيْهِمْ بِالْإِعْدَامِ، وَقَالَ لَهُمْ: اخْتَارُوا، حَكِّمُوا مَنْ شِئْتُمْ. فَقَالُوا:
نُحَكِّمُ سَعْدَ بْنَ مَعَاذٍ، وَقَدْ كَانَ حَلِيفَهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ. فَحَكَّمَ سَعْدَ بْنَ
مَعَاذٍ أَنْ تُقْتَلَ مَقَاتِلَتُهُمْ، وَتُسَبَى ذُرَارِيُّهُمْ^(١).

هَكَذَا نَفَّذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حُكْمَ الْحَكْمِ فِيهِمْ، وَلَوْ نَفَّذَ فِيهِمْ حَكْمَ
التوراة لقتل رجالهم ونساءهم وأطفالهم ومواشيهم وأبقارهم، فهذا
ما تحكّم به توراتهم إلى اليوم، زعموا أَنَّ اللَّهَ يَقُولُ لِمُوسَى: إِذَا أَعْطَاكَ

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٠٤٣)، ومسلم (١٧٦٨)، كلاهما في الجهاد والسير، عن أبي
سعيد الخدري.

ربك قرية من القرى، فخذ أهلها واذبحهم ذبحًا، واقتل صبيانها ورجالها ونساءها^(١). لم ينفذ فيهم النبي ﷺ حكم توراتهم المزعومة، وإنما نفذ فيهم حكم الحكم الذي اختاروه.

ومع هذا يأتي هذا الأفك يقول: لا تتحدثوا عن الأسرى شيئًا من منظور ديني فإن تاريخنا فضيحة لنا. وفعل الرسول ﷺ جريمة في نظره. هذا هو الذي يُعلّم أبناءنا في كلية الطب بجامعة الأزهر!

يا لضياع الأزهر وجامعة الأزهر إذا كان هذا من أساتذتها، وإذا كان هذا أمين جماعة التنوير! أي تنوير هذا؟! هي جماعة التظلم التي تُسود العقول بهذه الحُلْكة وبهذا الظلام، التي تُفسد العقول وتُضللها من هؤلاء المتغربين الذين يعيشون في الأمة أعداء لها من داخلها.

نسأل الله تعالى أن يعيننا على شهوات أنفسنا، وأن يصلح فساد قلوبنا، وأن يجير أمتنا من الضالين والمُضللين؛ إنه سميعٌ قريب.

* * *

(١) سفر التثنية (١٠/٢٠ - ١٨).



الصِّدِّيقُ وحروب الردَّة

الخطبة الأولى

أمَّا بعد، أيُّها الإخوة المسلمون:

خلافة أبي بكر:

أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه، أوَّل رجل آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم، وأوَّل خليفة خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم، والتي كانت خلافته القصيرة التي لم تدم أكثر من سنتين ونصف العام خيرًا وبركة على الإسلام، وعلى الأُمَّة الإسلاميَّة، وعلى التاريخ الإسلامي كُله.

أبو بكر رضي الله عنه ردَّ الله به النَّاسَ إلى حظيرة الإسلام، كانت خلافته كُلُّها خيرًا، من أوَّل يوم فيها إلى آخرها، بدأت بإقرار الإسلام في الجزيرة بعد أن انتشرت الردَّة، وكاد ينفرط العِقد، وانتهت باستخلاف عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه، الَّذي كان إسلامه فتحًا، وكانت إمارته رحمة، وكانت هجرته نصرًا، وكانت خلافته خلافة عدل ورحمة، وخلافة تمكين لهذا الدين، كما قال ابن مسعود رضي الله عنه ^(١).

(١) رواه ابن أبي شيبة في الفضائل (٣٢٦٥٢)، والطبراني (١٦٤/٩)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٤٤٦٩): رواه الطبراني من طرق، وفي بعضها عاصم بن أبي النجود، وهو حسن الحديث، وبقية رجالها رجال الصحيح، وبعضها منقطع الإسناد، ورجالها ثقات.

استخلف أبو بكر عمرَ وقال في كتاب الاستخلاف: هذا ما أوصى به أبو بكر بن أبي قحافة عند آخر عهده بالدنيا خارجاً منها، وأول عهده بالآخرة داخلاً فيها، حين يصدّق الكاذب، ويؤدّي الخائن، ويؤمن الكافر، إنني استخلفتُ بعدي عمر بن الخطّاب، فإن عدل فذاك ظني به ورجائي فيه، وإن جار وبدل فلا أعلم الغيب، والخير أردتُ، ولكلّ امرئ ما اكتسب، ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشُّعراء: ٢٢٧] (١).

أعراب الجزيرة العربيّة يرتدّون عن الإسلام:

أراد الخير أبو بكر، ووقع الخير بخلافة عمر رضي الله عن الجميع، هكذا كانت خلافة أبي بكر.

وقد طلب إليّ بعض الإخوة أن أتحدّث قليلاً عن حروب الردّة، التي هي منقبة من المناقب العظيمة، ومفخرة من المفاخر الكبيرة لأبي بكر رضي الله عنه.

نحن نعلم أنّ العرب قد ارتدّوا بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله، إلّا أهل مكّة والمدينة وأهل الطائف، وسائر العرب ارتدّوا عن الإسلام، لماذا ارتدّوا عن الإسلام؟

الأعراب كما جاء في القرآن الكريم: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٩٧]، كان هؤلاء الأعراب في جهالة جهلاء، وضلالة عمياء، كانوا يعيشون على تلك الجاهليّة التي لا تعرف حقّاً، لا يعرف الإنسان فيها حقّاً إلّا حقّاً

(١) رواه البيهقي في قتال أهل البغي (١٤٩/٨).

القبيلة، كما قيل عن أحد زعماء القبائل: هذا رجل إذا غضب غضب له
مائة ألف سيف لا يسألونه فيما غضب^(١).

وكما قال القائل:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا^(٢)

الرجل مع قومه في الحق وفي الباطل، في العدل وفي الظلم، انصر
أخاك - أي: ابن القبيلة - ظالمًا أو مظلومًا.

انصره ظالمًا أو مظلومًا، على ظاهر هذه الكلمة، هذا ما كان عليه
الحال قبل الإسلام، كانت هذه القبلية، وهذه العصبية، وهذه الأعرابية
غالبة على جزيرة العرب، البداوة هي الغالبة، الجهالة هي الغالبة، الفردية
هي الغالبة، كل فرد هو سيّد نفسه، إلا أمر القبيلة فقط، أمّا الفردية
والأنانية فهي السائدة، وهي المتحكّمة، لا يحكمهم نظام، ولا يسودهم
قانون، ولا يعرفون لهم حاكمًا ينضبطون بأمره.

من وهداة البداوة إلى نور الحضارة:

فلما جاء الإسلام أراد أن يُخرج هؤلاء النَّاس من البداوة والعصبية
إلى نور الإسلام، والإسلام علم وحكمة، ولذلك كان من أوصاف
النَّبِيِّ ﷺ في القرآن: أَنَّهُ يَعْلَمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ، ﴿هُوَ الَّذِي
بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ
وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

(١) قالها معاوية في الأحنف بن قيس وهو من المخضرمين، انظر: وفيات الأعيان (٢/٥٠٠)، نشر
دار صادر، بيروت.

(٢) من شعر قريط بن أنيف أحد بني العنبر، كما في الحماسة لأبي تمام (١/٥٨).

جاء الإسلام يرفع هؤلاء النَّاس من وهدة البداوة إلى نور الحضارة؛ ليتعلّموا الجماعة والجمعة، لينسوا هذه الفردية والعصبية، يقف أحدهم ليصلي فيناجي ربّه فيقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، ينادي ربّه بلسان الجماعة، ويدعوه بلسان الجماعة: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، يذوب في هذا الكيان العام.

وإذا خاطب الله تعالى النَّاس يخاطبهم بصيغة الجماعة: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ﴾، ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾؛ ليشعرهم أنّهم متكافلون، متضامنون في تنفيذ أحكام الله، مسؤولون مسؤوليّة تضامنية لإقامة شرع الله.

أُمَّة مَوْحِدَةٌ رَبَّانِيَّةٌ وَسَطِيَّةٌ حَضَارِيَّةٌ:

أراد الإسلام أن يصنع منهم أُمَّة، من هذه القبائل المتفرّقة، أراد أن يجعل منهم أُمَّة واحدة، أُمَّة رَبَّانِيَّة، الله هو صانعها، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، ﴿جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً مَجْعُولَةً، اللَّهُ جَاعِلُهَا وَصَانِعُهَا، ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، مَنْ الَّذِي أَخْرَجَ هَذِهِ الْأُمَّةَ لِلنَّاسِ؟

الله هو مخرجها؛ فهي أُمَّة رَبَّانِيَّة، وهي أُمَّة وَسَطٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ، لا تميل إلى الغلو ولا إلى التقصير، لا إلى الإفراط ولا إلى التفريط، لا تميل إلى الماديّة، ولا تُسرف في الروحانية، لا تميل إلى الإسراف في التحريم، ولا إلى الإسراف في التحليل، فهي أُمَّة وَسَطٌ.

وهي أُمَّة واحدة كما نصّ القرآن، ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢]، ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥٢]، إشارة إلى أنّ العبادة لا تتم، والتقوى لا تكتمل إلاّ

بوحدة الأمة، أراد الإسلام أن ينقل هؤلاء الأعراب في تلك البوادي نقلة جديدة، تجعل منهم أمة ذات رسالة، أمة ذات حضارة، أمة لا تتعصب إلا للحق، ولا تقاوم إلا الباطل والظلم، تقاوم الباطل ولو كان على نفسها، ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَٰٓى ءَلَّا تَعْدِلُوا ءَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨]، فهي تعدل مع نفسها، وتعدل مع غيرها، لا تدفعها عاطفة الحب إلى أن تتحيز، ولا عاطفة الكره إلى أن تجور وتحيف.

هذا ما جاء به الإسلام، جاء يرفع هؤلاء الأعراب في البوادي إلى مستوى الأمة الحضارية، أمة ذات رسالة جديدة، ولكنهم حينما أتحت لهم الفرصة بعد وفاة رسول الله ﷺ، أرادوا أن يتصلوا من هذا الميثاق الجديد، هذه الرسالة الجديدة، أرادوا أن يعودوا إلى جاهليتهم، إلى قبليتهم، إلى عصبيتهم، إلى فرديتهم، الإسلام فرض عليهم فروضاً دينية، فروضاً اجتماعية، فروضاً مالية، فروضاً سياسية، جعل لهم نظاماً، وجعل لهم حياة جديدة.

ومن هذه الفرائض الجديدة، فريضة الزكاة، الركن الثالث في الإسلام، الركن المالي، الركن الاجتماعي، الذي به يدخل الإنسان في الأخوة الدينية للأمة، ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: ١١].

لا تتم الأخوة الدينية إلا بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، هؤلاء بعد وفاة رسول الله ﷺ قال من قال منهم: نصلي ولا نركي، نقيم الصلاة ولا نؤتي الزكاة.

أرادوا أن يتمردوا على هذه الفريضة، التي هي مورد دائم لبيت مال الأمة، لخزانة الأمة، من أين تنفق الأمة على أبنائها، على جيوشها، وعلى قضاتها، على الفقراء والمساكين فيها، إن لم يكن لها مثل هذا المورد؟ ولكن هؤلاء لا يفقهون ذلك، إنهم تمردوا على النظام الذي جاء به الإسلام.

متنبئون كذّابون وأتباعهم يعلمون:

غلبت عليهم العصبية القبلية فظهر من ظهر من الأنبياء الكذبة، أنبياء كذّابون، ظهوروا في أقوام شتى، وكلهم من كهنة العرب، كهنة القبائل، كان هناك في الجاهلية كهان لهم صلة ما بالجنّ.

منهم من ظهر تنبؤه الكاذب في أواخر عهد رسول الله ﷺ، مثل الأسود العنسي في اليمن، وكان أول ما ظهر معه نحو سبعمائة فارس، وبدأ يقاتل عمّال رسول الله وولاته على الأقاليم هناك، وانتصر عليهم في أول الأمر، واستسلم من استسلم، وانهزم من انهزم، وسكت من سكت تقيّة له، وبعثوا إلى النبي ﷺ، فأرسل إليهم يأمرهم أن يصابولوا هذا العنسي، ولا يستسلموا له أبداً.

وظهر كذلك في أواخر عهد رسول الله ﷺ مسيلمة بن ثمامة من بني حنيفة، الذي اشتهر باسم: «مسيلمة الكذاب»، وذلك أنه بعث إلى النبي ﷺ رسالة يقول فيها:

من مسيلمة رسول الله إلى محمّد رسول الله.

أمّا بعد؛ فإنني أشركت في الأمر معك، وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض، ولكن قریشاً قوم لا يعدلون^(١).

(١) رواه الطبري في تاريخه (١٤٦/٣).

فبعث إليه النبي ﷺ يقول له: «بسم الله الرحمن الرحيم، من مُحَمَّد رسول الله، إلى مُسيلمة الكذاب، سلام على من أتبع الهدى.

أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ»^(١).

ولما قرأ رسول الله ﷺ كتاب مُسيلمة الكذاب، قال للرسولين: فما تقولان أنتما؟

قالا: نقول كما قال، أي: نشهد أن مسيلمة رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «والله لولا أن الرسل لا تُقتل لضربتُ أعناقكما»^(٢).

قال عبد الله بن مسعود: فمضت السُّنَّةُ أَنَّ الرُّسُلَ لَا تُقْتَلُ^(٣).

وفي صحيح البخاري أن بني حنيفة قد وفدوا على النبي ﷺ، وكان معهم هذا الكاهن الكذاب مسيلمة قبل أن يعلن دعوته، وذهب النبي ﷺ إليهم، ورأى النبي ﷺ مسيلمة هذا، وكان مع النبي ﷺ جريدة، فسأل مسيلمة النبي ﷺ شيئاً، فقال له النبي ﷺ: «لو سألتني هذه القطعة ما أعطيتُكها، ولن تعدو أمر الله فيك، ولئن أدبرت ليعقرنك الله، وإنِّي لأراك الَّذِي أُرِيْتُ فِيهِ مَا رَأَيْتُ».

لو سألتني هذه القطعة من الجريد ما أعطيتك إيَّها، ولئن أدبرت، أي: لئن ارتددت، ليعقرنك الله، أي: ليذبحنك وليُهْلِكَنَّك، وما أراك إلاَّ أحد هذين اللذين أُرِيْتُهُمَا.

(١) رواه ابن قانع في معجم الصحابة (١٤٨/٣)، عن نعيم بن مسعود، تحقيق صلاح بن سالم المصراطي، نشر مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة المنورة، ط ١، ١٤١٨هـ.

(٢) رواه أحمد (١٥٩٨٩)، وقال مخرَّجوه: صحيح بطرقه وشاهده. وأبو داود في الجهاد (٢٧٦١)، والحاكم في قسم الفياء (١٤٣/٢)، وصحَّحه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، عن نعيم بن مسعود.

(٣) رواه أحمد (٣٧٦١)، وقال مخرَّجوه: حديث صحيح.



فسأل ابن عباس أبا هريرة رضي الله عنه: ماذا رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم؟

فقال أبو هريرة: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بينما أنا نائم رأيتُ في يديَّ سوارين من ذهب، فأهمَّني شأنهما، فأوحى إليَّ في المنام أن انفُخهما، فنفختهما فطارا، فأولتُهما كذابين يخرجان بعدي». فكان أحدهما العنسيَّ صاحب صنعاء، والآخر مسيلمة الكذاب، صاحب اليمامة^(١).

فهذا كان شأن مسيلمة الكذاب الذي ادَّعى النبوة، وزعم أنه يُوحى إليه، وأن أمين الوحي يُقرئه قرآنًا كقرآن محمد.

وكلُّ قرآنه هذا تفاهات لا معنى له، صاغه على شكل القرآن، ولكن لا معنى له، كقوله: والطاحنات طحنًا، والعاجنات عجنًا، والخابزات خبزًا، والثاردات ثردًا، واللاقمات لقمًا.

أو قوله: ألم تر كيف فعل ربك بالفيل، له أذن طويل، وجسم ثقيل. وهكذا، كلام فارغ ليس له أي معنى.

كذاب ربيعة خير من صادق مضر:

ولكن قومه اتَّبعوه، بعضهم اتَّبعوه خداعًا، وأكثرهم اتَّبعوه عصبية، وهذا ما رأيناه في كثير ممَّن اتَّبعوا هؤلاء المتنبئين الكذابين، طليحة الأسدي من بني أسد، ظهر في بني أسد وغطفان، وانضمَّ إليه قوم من طيء، وانضمَّ إليه عيينة بن حصن الفزاري، وقالوا: نبي من أسد أحبُّ إلينا من نبي من بني هاشم.

(١) متَّفَق عليه: رواه البخاري في المناقب (٣٦٢٠، ٣٦٢١)، ومسلم في الرؤيا (٢٢٧٣، ٢٢٧٤)، عن ابن عباس.

المسألة كانت عصبية، هناك مَنْ اتبعوا هؤلاء الأنبياء الكذبة، وجاءت سجاح بنت الحارث التغلبية، وكانت نصرانيّة في الجاهليّة، جاءت تطمع في المسلمين، كان الكلُّ يرى أنّ المسلمين بعد رسول الله ﷺ أصبحوا قلةً، وقد رمتهم العرب عن قوس واحدة، فالكلُّ يريد أن يرث هذه التركة، حتّى إنّهم هدّدوا المدينة.

كبار الصّحابة يحرسون مداخل المدينة:

في أوائل خلافة أبي بكر كانت المدينة مهدّدة بالغزو من قبائل الأعراب القريبة، ولذلك أمر أبو بكر الصّحابة أن يكونوا حرّاساً على مداخل المدينة، ولا يدعوها ليلاً ونهاراً، فكان كبار الصّحابة يحرسون هذه المداخل، علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن مسعود، وغيرهم يحرسون هذه الأبواب.

وفعلًا جاء بعض الأعراب فأخبر الحرّاس أبا بكر الصديق وهو في المسجد مع الصّحابة، قالوا: أدركنا يا خليفة رسول الله.

فخرج أبو بكر ومن معه من الصّحابة في المسجد على النواضح - الإبل التي تستخدم في نقل الماء - راكبوها، لم تتوفر لهم رواحل أو خيول، فركبوا هذه الإبل وذهبوا وردّوا هؤلاء، وتبعوهم إلى ضواحي المدينة وأطرافها، ونكّلوا بهم^(١).

وهكذا استمرّ أبو بكر والصّحابة يردّون الأعراب من حول المدينة، ثمّ أراد أبو بكر أن يذهب بالصّحابة ويقودهم لحرب هؤلاء المرتدّين،

(١) البداية والنهاية (٤٤١/٩، ٤٤٢)، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، نشر دار هجر، ط١،

فقال علي بن أبي طالب: يا خليفة رسول الله، ابق هنا حتى ينتظم بك الأمر، ويجمع بك الشتيت، وابعث من شئت من أصحاب رسول الله ﷺ، فأنت نظام عقد الإسلام، لا ينفرد النظام بسببك^(١).

فأشار عليه بهذا الرأي واستمع إليه أبو بكر، وبقي في المدينة، وجَهَّز أحد عشر لواء لمحاربة المرتدين، كل إلى جهة من الجهات، شرحبيل بن حسنة، وعكرمة بن أبي جهل إلى مسيلمة الكذاب وبني حنيفة، وخالد بن الوليد إلى طليحة بن خويلد الأسدي، وهكذا.

واستطاع خالد بن الوليد بما من الله عليه به من المواهب القتالية والقدرة العسكرية: أن ينتصر على طليحة، وعاد طليحة إلى الإسلام بعد ذلك وحسن إسلامه، وذهب إلى العمرة، وكان طليحة لا يقدر أن يرى أبا بكر حياءً وخجلًا منه، فكان يفرض منه، ثم انضم إلى الجيوش بعد ذلك يقاتل في سبيل الله ويكفر عن خطيئة الردة.

ثم ذهب خالد إلى بني حنيفة، الذين ذهب إليهم قبله عكرمة وشرحبيل، ولكنهما لم يستطيعا أن يقاوما مسيلمة ومن معه؛ فقد كان مع مسيلمة أربعون ألف مقاتل من بني حنيفة، وانضمت إليه ساجح بمن معها، كانت في أول الأمر تطمح أن تحتل ديار بني حنيفة، ثم تحالفت هي ومسيلمة، وتزوجها مسيلمة، وقيل لها: ماذا دفع لك مسيلمة من مهر؟ قالت: لم يدفع لي شيئاً.

فقالوا لها: هذا عيب، لا بد أن يدفع لك شيئاً.

فقال لها: سأسقط عنكم صلاتين من الصلوات الخمس، هذا هو صداقك^(٢).

(١) البداية والنهاية (٤٤٦/٩).

(٢) انظر: الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني (٣٩/١٠، ٤٠)، نشر دار الفكر، بيروت، ط ٢.

ثبات الصَّحابة في معركة اليمامة:

ذهب خالد ومَن معه من الصَّحابة والمسلمين ليقاتلوا بني حنيفة، وقاتلوا قتالاً عنيفاً، قاتل بنو حنيفة قتالاً لم يُعهد مثله، والصَّحابة قاتلوا قتالاً لا نظير له، كانوا ينادون: يا أصحاب سورة البقرة^(١)، بطل السَّحر اليوم، قاتلوا عن دينكم^(٢).

وكان أبو حذيفة بن عتبة ينادي في النَّاس: يا أهل القرآن زيّنوا القرآن بالفعال، يا أهل القرآن زيّنوا القرآن بالفعال^(٣)، وظلَّ يقاتل حتَّى جرح جرحاً شديداً ﷺ.

وثابت بن قيس بن شماس من الأنصار، كان يسمَّى: خطيب رسول الله ﷺ، حفر ثابت لنفسه حفرة إلى نصف الساقين وبقي فيها حتَّى لا يتزحزح، وظلَّ يقاتل حتَّى قُتل ﷺ^(٤).

وكذلك فعل سالم مولى أبي حذيفة، سالم الَّذي كان على راية المهاجرين، ظلَّ يقاتل، وقال له بعض المهاجرين: يا سالم، نخشى أن نُؤتى من قبلك.

فقال: تخشون أن تؤتوا من قبلي؟! بس حامل القرآن أنا إن أوتيتم من قبلي، بس حامل القرآن أنا إن أوتيتم من قبلي^(٥). وهكذا كان المسلمون كالأسود في هذه المعركة.

(١) رواه عبد الرزاق في الجهاد (٩٤٦٥)، عن عروة بن الزبير.

(٢) البداية والنهاية (٤٦٨/٩).

(٣) البداية والنهاية (٤٦٨/٩).

(٤) المصدر السابق (٤٦٨/٩).

(٥) رواه الحاكم في معرفة الصَّحابة (٢٢٧/٣)، وسكت عنه هو والذهبي.

وقال البراء بن مالك للصَّحابة: ألقوني لأدخل حديقة بني حنيفة.
فقد كان بنو حنيفة قد دخلوا حديقة مسورة لتحصنهم من
المسلمين، فقال لهم البراء: ألقوني من فوق السور حتى أدخل عليهم
الحديقة^(١).

وفعلًا رفعوه على الرماح وألقوه قرب باب الحديقة، وظلَّ يقاتل
حتى استطاع أن يفتح باب الحديقة، ودخلها المسلمون مكبرين مهللين،
واستطاعوا أن ينتصروا في هذه المعركة الشرسة.

هزيمة الردة بهزيمة مسيلمة الكذاب:

قُتل قريب من عشرة آلاف من بني حنيفة، وقتل من المسلمين نحو
ستمائة فقط، وطعن وحشي بن حرب قاتل سيدنا حمزة بحربته مسيلمة
الكذاب، دخلت من صدره ونفذت من ظهره، ثم ذهب أحد الصحابة
فأكمل عليه وقطع رأسه، ولذلك قال وحشي: قتلت خير الناس، وقتلت
شرَّ الناس^(٢)؛ قتل حمزة في جاهليته، وقتل مسيلمة في إسلامه، فهذه
كفارة تلك.

انتصر المسلمون في معركة اليمامة، وانتصروا على طليحة، وانتصروا
على الأسود العنسي، وانتصروا على سجاح، وقد أسلمت سجاح بعد
ذلك في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وحسن إسلامها.

انتصروا على هؤلاء المتنبئين الكذابين، وانتصروا على مانعي الزكاة،
الذين قالوا: نصلي ولا نزكي، وقال أبو بكر قولته: والله لأقاتلن من فرق

(١) تاريخ الطبري (٢٩٤/٣).

(٢) رواه ابن أبي عاصم في الأحاد والمثاني (٤٨٣).

بين الصَّلَاة والزَّكَاة، والله لو منعوني عقلاً كانوا يُؤدُّونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه^(١).

وعاد هؤلاء وأولئك إلى حظيرة الإسلام تائبين، يقولون: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

ردّة وأبو بكر لها:

في أول فجر الإسلام، لو لم يقبض الله لهذه الفتنة رجلاً مثل أبي بكر وقف هذه الوقفة البطولية، هذا الرجل الذي عُرف ببرقته وبكائه وخشوعه، يقف هذه الوقفة العظيمة، بعد أن أراد بعض الصَّحابة أن يسلم الأمر ويتركه فلا طاقة له بحرب العرب جميعاً، فإذا هو يصرُّ على أن يقاتل، وقاتل هؤلاء حتّى أعادهم لحظيرة الإسلام.

كانت هذه مأثرة من المآثر العظيمة لأبي بكر رضي الله عنه، ولولا ذلك ما نعمنا نحن في رحاب الإسلام.

إنَّ الله تعالى له سنن، وله أسباب يسببها لينصر هذا الدين، وهذا يطمئننا أنّ هذا الإسلام بخير، وأن رايته لن تُنكس أبداً، والإسلام أقوى ما يكون وأصلب ما يكون عوداً في ساعات المحن والشدائد، حينما تحيط به الشدائد وتحلُّ بساحته المحن والكروب، هنا ينتفض الإسلام، هنا تبرز قوّته الذاتية، هنا يخرج عمالقة الإسلام، هنا تظهر هذه القوّة الذاتية لهذا الدين، وأول ما ظهرت في محنة الردّة، ومحنة منع الزَّكَاة، وقد نصر الله الإسلام، ورفع راية القرآن، وأعلى كلمة الإيمان.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الزَّكَاة (١٣٩٩، ١٤٠٠)، ومسلم في الإيمان (٢٠)، عن أبي هريرة.



﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٢، ٣٣].

أقول قولي هذا، وأستغفر الله تعالى لي ولكم، فاستغفروه؛ إنه هو الغفور الرحيم، وادعوه يستجب لكم.

* * *



الخطبة الثانية

أمّا بعد، فيا أيها الإخوة المسلمون:

اعتقال الدكتور موسى أبو مرزوق:

أتصل بي من الولايات المتحدة الأمريكية المحامون الذين يدافعون عن أخينا الدكتور موسى أبو مرزوق، الذي اعتقلته السلطات الأمريكية، وقد دخل باختياره إلى الولايات المتحدة الأمريكية؛ لأن أسرته وأولاده مقيمون هناك بصفة رسمية، دخل مختارًا فاعتقل، وهو ممثل حركة المقاومة الإسلامية (حماس).

الإخوة الذين يدافعون عن الدكتور موسى أبو مرزوق قالوا: إنهم طلبوا من القاضي الذي يحاكمه أن يُفرج عنه بكفالة، كما يُفرج عن سائر المتهمين في القضايا، وعندما يُطلب للمحاكمة يحضر للمحاكمة حتى يحكم له أو عليه، قد يبرأ أو يُدان، ولكن القاضي قال لهم: إننا نخشى أن يهرب إذا أطلقنا سراحه وخلصنا سبيله.

قالوا له: إنه رجل مسلم، وإذا أعطاكم كلمة أو أعطى عهدًا أو أقسم قسمًا إنه لن يهرب، فإنه لا يمكن أن يُخلّ بعهده، أو ينقض ميثاقه، أو يكذب في قسمه.

هذا شأن الإنسان المسلم، فقال القاضي: هاتوا لي فتوى من بعض علماء الإسلام تقول هذا.

فأرسلوا إليّ يطلبون هذه الفتوى، وقد أرسلتها إليهم.

احترام الكلمة واجب على المسلم:

قلتُ فيها: إنَّ المسلم إذا قال كلمة، فإنَّه يحترم كلمته، يصدق في حديثه، وإذا وعد وعدًا، فإنه لا بدَّ أن ينجزه، وإذا أعطى عهدًا، فلا بدَّ أن يوفِّيه، وإذا أقسم قسمًا، فلا بدَّ أن يبرَّه.

هذا هو شأن المؤمنين، الله وصف المؤمنين بقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [المؤمنون: ٨]، ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ [البقرة: ١٧٧]، ﴿الَّذِينَ يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق﴾ [الرعد: ٢٠]، ليس المؤمن بكذاب، قد يكون المؤمن جبانًا، وقد يكون بخيلًا، ولكنَّه لا يكون كذابًا، كما جاء في الحديث عن صفوان بن سليم، أنَّه قيل لرسول الله ﷺ: أيكون المؤمن جبانًا؟ قال: «نعم».

قيل: أيكون المؤمن بخيلًا؟ قال: «نعم».

فقيل له: أيكون المؤمن كذابًا؟ قال: «لا»^(١).

فلعنة الله على الكاذبين.

المسلم يحترم عهده، ويحترم موثقه، إذا أقسم لا بدَّ أن يبرَّ قسمه، الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٧].

هذا هو شأن الإنسان المؤمن.

(١) رواه مالك في الكلام (٣٦٣٠)، تحقيق الأعظمي، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٤٧٢)، وقال ابن عبد البر في التمهيد (٢٥٣/١٦): لا أحفظ هذا الحديث مسندًا بهذا اللفظ من وجه ثابت، وهو حديث حسن. عن صفوان بن سليم، مرسلًا.

أمَّا المنافق فهو الَّذِي إِذَا حَدَّثَ كَذِبًا، كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ الصَّحِيحِينَ: «آيَةُ الْمَنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذِبًا، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا أَوْثَمَنَ خَانَ»^(١)، وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرَ: «أَرْبَعٌ مَن كُنَّ فِيهِ كَانَ مَنَافِقًا خَالِصًا، وَمَن كَانَ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدْعَهَا: إِذَا أَوْثَمَنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذِبًا، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ»^(٢).

وهذا الرجل قد دخل البلد مستأمنًا - كما نقول في الفقه الإسلامي: طالبًا الأمان - ومعنى هذا أنه يحترم قوانين البلد التي دخلها، ويحترم النظام العام فيها؛ لأنَّه دخلها على هذا الشرط، والمؤمنون عند شروطهم، فلا يمكن أن يخلَّ بشرطه.

احترام الإسلام لعهد الأمان:

إنَّ الإسلام قد أوسع في هذا الأمر وأعطى المستأمنين الَّذِينَ يَدْخُلُونَ دِيَارَ الْإِسْلَامِ بِأَمَانٍ أَعْطَاهُمُ الْحَقُّ فِي أَنْ يَعِيشُوا فِي أَمَانٍ الْمُسْلِمِينَ، وَفِي حِمَايَتِهِمْ، لَهُمْ مَا لَهُمْ وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَيْهِمْ، بَلْ إِنَّ الْقُرْآنَ يَقُولُ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ ابْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ [التوبة: ٦]، هَذَا فِي سُورَةِ التَّوْبَةِ الَّتِي نَزَلَتْ فِي شَأْنِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَمَرَ الْإِسْلَامُ بِقِتَالِهِمْ بَعْدَ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ.

ومن حيل بعض علماء المعتزلة، أنه وقع في أسر بعض الخوارج الَّذِينَ كَانُوا يَسْتَحِلُّونَ دِمَاءَ النَّاسِ وَلَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ. فسأله: مَنْ أنت؟

فقال الرجل: مشرك مستجير.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩)، كلاهما في الإيمان، عن أبي هريرة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٤)، ومسلم (٥٨)، كلاهما في الإيمان، عن عبد الله بن عمرو.

فقال له: صدق الله العظيم: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ ابْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾. أين تريد أن تذهب؟
قال: أريد أن أذهب إلى مكان كذا.

فقرأ عليه القرآن وأسمعه كلام الله، ثم أوصله إلى مأمنه^(١).

هذا هو شأن المسلم، بل ورد أن أم هانئ بنت عم رسول الله ﷺ أجارت بعض أحمائها من المشركين، وكان ممن حارب النبي ﷺ، وقالت: يا رسول الله، قد أجرت فلانًا وفلانًا.

فقال النبي ﷺ: «قد أجرنا من أجرت، يا أم هانئ»^(٢).

فجعل للفرد أن يجير على الدولة، ويدخل في جواره من شاء، حتى المرأة، «قد أجرنا من أجرت، يا أم هانئ»، هذا هو الإسلام، وتسامح الإسلام. فرجو من دولة الولايات المتحدة، وهي دولة الحريات والحقوق الفردية، أن تراعي هذا الرجل الذي دخل إلى أرضها مختارًا مستأمنًا يعيش فيها مع أسرته، ألا تعامله كأنه مجرم حرب، وقد دخل إليها بقدميه، وأن يأخذ حقه أمام القضاء، كما يأخذ غيره من الناس.

نسأل الله تبارك وتعالى أن يجمع كلمة هذه الأمة على الهدى، وقلوبها على التقى، ونفوسها على المحبة، ونياتها على الجهاد في سبيله، وعزائمها على عمل الخير وخير العمل.

(١) هذه القصة حدثت مع واصل بن عطاء، رواها المبرد في الكامل في اللغة (١٢٢/٣)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، نشر دار الفكر العربي، القاهرة، ط ٣، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الصلاة (٣٥٧)، ومسلم في صلاة المسافرين (٣٣٦) عن أم هانئ.

اللهم اجعل يومها خيرًا من أمسها، واجعل غدها خيرًا من يومها،
وأحسن عاقبتها في الأمور كلها.

اللهم لا تهلكننا بما فعل السفهاء منا، ولا تسلط علينا بذنوبنا من
لا يخافك ولا يرحمنا.

اللهم اجعل هذا البلد آمنًا مطمئنًا، سحاء رخاء، وسائر بلاد الإسلام.
﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ
الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧].

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا
لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

عباد الله، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

اللهم صلِّ وسلِّم وبارك على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله
وصحبه، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ
اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥].



عمر بن الخطاب رضي الله عنه (١)

الخطبة الأولى

أَمَّا بَعْدُ، فَيَا أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمَسْلُومُونَ:

تَحَدَّثْتُ إِلَيْكُمْ فِي الْأَسْبُوعِ الْمَاضِي عَنِ الْخَلِيفَةِ الرَّاشِدِ، عَنِ خَامِسِ الرَّاشِدِينَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ، وَقَالَ لِي بَعْضُ الْإِخْوَةِ: لَيْتَكَ تَحَدَّثْنَا عَنِ عُمَرَ الْأَوَّلِ كَمَا حَدَّثْنَا عَنِ عُمَرَ الثَّانِي.

قُلْتُ لَهُ: لَا بَأْسَ؛ فَنَحْنُ فِي زَمَنِ أَحْوَجَ مَا نَكُونُ فِيهِ إِلَى أَنْ نُحْيِيَ النَّمَاذِجَ الرَّفِيعَةَ، أَنْ نُحْيِيَ الْأَسْوَةَ الْحَسَنَةَ، أَنْ نَضَعَ تِلْكَ الشَّخْصِيَّاتِ الْعَظِيمَةَ نَصَبَ أَعْيُنِنَا؛ لِنَقْتَفِي نَهْجَهَا، وَنَتَّبِعَ أَثْرَهَا، وَنُحْيِيَ سُنَّهَا.

مَا أَحْوَجُنَا أَنْ نَتَحَدَّثَ عَنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ بَعْدَ أَنْ تَحَدَّثْنَا عَنِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِدِ»^(٢).

(١) أَلْقَيْتُ فِي مَسْجِدِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ بِالذَّوْحَةِ، عَامَ ١٩٩٥ م.

(٢) رَوَاهُ أَحْمَدُ (١٧١٤٢)، وَقَالَ مَخْرَجُوه: حَدِيثٌ صَحِيحٌ بِطَرَقِهِ وَشَوَاهِدِهِ. وَأَبُو دَاوُدَ فِي السَّنَةِ (٤٦٠٧)، وَالتِّرْمِذِيُّ فِي الْعِلْمِ (٢٦٧٦)، وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ. وَابْنُ مَاجَةَ فِي الْمَقْدِمَةِ (٤٣)، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي صَحِيحِ ابْنِ مَاجَةَ (٤٠)، عَنِ الْعَرَبِاضِ بْنِ سَارِيَةَ.

وابن الخطاب هو أحد الخلفاء الراشدين المهديين، وسنته - أي منهجه في فهم الدين وفي تطبيقه - جزء من هذا الدين؛ ينبغي أن نعلمه، وأن نتبعه، وأن نُحييه، وأن نعصّ عليه بالنواجذ كما أمرنا النبي ﷺ. ابن الخطاب هو ذلك الرجل المُحدّث المُلهَم كما قال النبي ﷺ: «لقد كان فيمن كان قبلكم مُحدّثون - أي مُلهَمون - فإن يكن في أمّتي أحد فعمر»^(١).

وهو الذي قال فيه النبي ﷺ: «ما سلكت فجًا إلا سلك الشيطان فجًا آخر يا عمر». قال ذلك حينما دخل عمر على النبي ﷺ، وكان عنده بعض النسوة يكلمنه في أمر، فلما قدم عمر ابتدرن الحجاب، اختبان وراء الأستار، فدخل عمر والنبي ﷺ يضحك، فقال: أضحك الله سنك يا رسول الله. قال: حدث كذا وكذا، «إنهنّ يهبنك يا عمر». فذهب عمر يقول لهنّ: يا عدوات أنفسهن، تهبنني ولا تهبنّ رسول الله ﷺ! فقلن له: إنك أغلظ وأفظ. أي إنّنا نهاب غلظتك وشدّتك، فقال النبي ﷺ: «ما سلكت فجًا إلا سلك الشيطان فجًا آخر يا عمر»^(٢).

وقال النبي ﷺ: إنّهُ رأى في منامه أنّه أخذ قدحًا من اللبن، فشرب منه حتّى ارتوى، ثمّ أعطى ما بقي فيه إلى عمر فشربه. فقال له عمر: فما أوّلته يا رسول الله؟ قال: «أوّلته العِلْم»^(٣). أن عمر شرب العلم من بعده.

(١) رواه البخاري في أصحاب النبي (٣٦٨٩)، عن أبي هريرة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في بدء الخلق (٣٢٩٤)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٣٩٦)، عن سعد بن أبي وقاص.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في العلم (٨٢)، ومسلم في الفضائل (٢٣٩١)، عن ابن عمر.

ولذلك قال الصحابة: إِنَّه كان أفقهنًا في الدين، وكان تسعة أعشار العلم عند عمر^(١). لا يقصدون علم الرواية، فإنَّ عمر لم يروِ إلاَّ خمسمائة وبضعًا وثلاثين حديثًا، ولكنَّه علم الدراية، علم الفهم، فقد كان عمر أحد فقهاء الصحابة، وأحد المكثرين من الفتوى، وصاحب الرأي الصائب في كثير من الأمور، حتَّى إِنَّه كان يرى الرأي فينزل الوحي به، ويقول: وافقتُ ربي في كذا وكذا: في أسرى بدر، وفي حجاب نساء النبي ﷺ، وفي اتِّخاذ مقام إبراهيم مصلَّى، وفي تحريم الخمر، آيات شتَّى نزلت موافقة لرأي عمر رضي الله عنه .

يقول ابن مسعود: لقد كان إسلام عمر فتحًا، وهجرته نصرًا، وإمارته رحمة. ويقول: ما زلنا أعزَّة منذ أسلم عمر^(٢). لم يجهر الصحابة بالإسلام إلاَّ بعد أن أسلم عمر، أسلم عمر، وأسلم حمزة؛ فجهر المسلمون بالإسلام في ذلك الوقت. وقال عمر: لا يبقى مجلس كنت أجلس فيه بالكفر إلاَّ جلستُ فيه بالإسلام^(٣).

هذا مع أنَّ عمر كان شديدًا في أوَّل أمره على رسول الله ﷺ وعلى المسلمين، حتَّى إنَّ بعض المسلمات حينما كانت ذاهبة في الهجرة الأولى إلى الحبشة: لقيت عمر، فقال لها: إلى أين يا أم فلان؟ قالت له: نذهب إلى أرض الله؛ حيث نبعد عن أذاكم. فقال لها عمر برقة: صحبكم الله. سمعت المرأة هذه الكلمة من عمر فذهبت إلى زوجها تروي له كلمة

(١) الاستيعاب لابن عبد البر (١١٥٠/٣)، تحقيق علي محمد البجاوي، نشر دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

(٢) رواه ابن سعد الطبقات (٢٧٠/٣)، تحقيق إحسان عباس، نشر دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٦٨م.

(٣) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٨/٣٠).

عمر، أنه قال لها: صحبكم الله. فقال لها زوجها: ترجين أن يسلم؟ والله لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب^(١). إذا أسلم حماره يسلم هو، ولكن قلب المرأة كان أصدق من عقل الرجل، أحست المرأة بقلب عمر يتحوّل نحو الإسلام من هذه الكلمة: صحبكم الله.

ودخل عمر في الإسلام، وسُمّي (الفاروق)، وفرّق الله به بين الحق والباطل، وعاش قريباً من رسول الله ﷺ يُذكر دائماً بعد أبي بكر، يقول النبي ﷺ: «أومن بهذا أنا وأبو بكر وعمر»^(٢)، «ودخلت أنا وأبو بكر وعمر، وخرجت أنا وأبو بكر وعمر، وانطلقت أنا وأبو بكر وعمر»^(٣).

وصاهره النبي ﷺ، تزوج ابنته حفصة، فقد كان أصهر إلى علي وعثمان، زوج عثمان ابنتيه، وزوج علياً فاطمة، وتزوج هو ﷺ من عائشة بنت أبي بكر، فلم يبقَ إلا عمر؛ فتزوج ابنته حفصة، فكان عمر قريباً من النبي ﷺ.

كان إسلام عمر فتحاً، وكانت هجرته نصرًا، فقد أبى أن يهاجر مستخفياً كما فعل سائر الصحابة، أراد أن يخرج مستعلنًا أمام قريش، وحين عزم على ذلك خرج متنكبًا قوسه، حاملاً سيفه، وذهب إلى الكعبة وطاف بها والملاً من قريش حولها، فقال: يا معشر قريش، إنني مهاجر؛

(١) رواه الطبراني (٢٩/٢٥)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩٨٤٠): رواه الطبراني، وقد صرح ابن إسحاق بالسماع؛ فهو صحيح..

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٧١)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٣٨٨)، عن أبي هريرة.

(٣) سبق تخريجه ص ٩٦.

فمن أراد منكم أن تشكله أمه، وأن ترمّل زوجته، وأن ييتّم ولده فليتبعني وراء هذا الوادي^(١). فلم يتبعه أحد، ولذلك كانت هجرته نصرًا.

وكانت إمارته رحمة، كانت خلافته رحمة للمسلمين، السنوات العشر التي قضاها عمر في الخلافة بعد وفاة أبي بكر رضي الله عنه كانت رحمة، وكانت بركة على الأمة، حينما أراد أبو بكر أن يوليه، كتب هذا الكتاب في أواخر حياته: هذا ما كتبه أبو بكر في الساعة التي يودع فيها الدنيا، ويستقبل فيها الآخرة: قد وليت عليكم عمر بن الخطاب، فإن برّ وعدل فذلك علمي به، وظني فيه، وإن جار وبدل فلا علم لي بالغيب، والخير أردت، ولكل امرئ ما اكتسب من الإثم، وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون^(٢). وقد كانت فراسة أبي بكر في عمر صادقة.

وهو لم يؤلّه إلا بعد أن استشار المسلمين، واستشار رؤوسهم، وعلم أنّهم راضون عنه، كان بعضهم يتخوّف من شدّته فقال لهم أبو بكر: إنّه يراني ليّنًا رقيقًا فيشدّد، ولكنّه حين يتحمل المسؤولية سيكون رؤوفًا رحيمًا بالمسلمين. وقد كان.

توليه عمر الخلافة:

وُلّي عمر الخلافة بعد أبي بكر رضي الله عنه؛ فقام بالعدل، كان أعدل النّاس، لا يستحل من مال المسلمين شيئًا إلا كما قال: أنا من هذا المال كوليّ اليتيم من ماله؛ إن استغنيت استعفت، وإن افتقرت أكلت

(١) رواه ابن عساکر في تاريخ دمشق (٥١/٤٤، ٥٢).

(٢) إعجاز القرآن للباقلاني ص ١٣٧، ١٣٨، تحقيق السيد أحمد صقر، نشر دار المعارف، مصر، ط ٥، ١٩٩٧م.

بالمعروف^(١). وقال لهم: افرضوا لي كأوسط رجل من قريش: حُلَّة في الصيف، وحُلَّة في الشتاء، وما يكفي رجلاً من أوساط قريش، ثمَّ بعد ذلك أنا رجل من المسلمين.

كان عمر شديداً على نفسه، شديداً على أهله، يقول لهم: إنَّ الناس ينظرون إليكم نظر الطير إلى اللحم، فإذا أمرت الناس أمراً فكونوا أوَّل المنفذين له، وإذا نهيت الناس عن شيء فكونوا أوَّل المنتهين عنه، وإلَّا ضاعفت عليكم العقوبة.

رأى جارية في الطريق تتمايل من ضعفها فقال: مَنْ هذه الجارية؟ فقال ابنه عبد الله: إنَّها ابنتي يا أمير المؤمنين، أصابها ما أصابها من جرَّاء تضيقك علينا. فقال له: والله ما أعطيكم إلَّا ما أعطي المسلمين، ليس لكم عندي غير ذلك.

وحينما أصابت المسلمين المجاعة حرَّم عمر على نفسه أن يأكل سمناً أو سميئاً حتَّى اسودَّ جلده من كثرة ما أكل من الطعام الخشن، التي لا سمن فيها ولا زيت.

وكانت بطنه تُقرقر فيقول لها: قرقرى أو لا تقرقرى، فوالله لا نأكل شهياً إلَّا بعد أن يحيا الناس^(٢). أي بعد أن يصيبهم الغيث فيحيون به، هكذا كان عمر رضي الله عنه، كان الذي يعنيه أمر المسلمين لا أمر نفسه ولا أمر أهله.

قال له بعضهم: لو أنَّك أكلت بعض الطيب، ولبست بعض الحسن. فقال: يا قوم، إنَّ صاحبيّ مضيا على جادَّة، وأنا سائر فيها، فأخشى إن

(١) رواه ابن سعد في الطبقات (٢٧٦/٣).

(٢) نفح الطيب (١٦٤/٥)، تحقيق إحسان عباس، نشر دار صادر، بيروت.

تركت هذه الجادة ألا أبلغهما في المنزل. يقصد بصاحبيه رسول الله ﷺ وأبا بكر، فهو يسير على نفس الجادة، جادة النبوة، وجادة أبي بكر، هكذا أخذ نفسه بهذه الشدة.

وكان يقول للناس: مرحبًا بالناصح أبد الدهر، مرحبًا بالناصح غُدًّا وعشيًّا، رحم الله امرأً أهدي إليّ عيوب نفسي^(١). يقول ذلك على المنبر.

ولما جاءه رجل يقول له: اتَّقِ الله يا أمير المؤمنين. فغضب عليه بعض أصحابه، وقال له: كيف تقول ذلك لأمير المؤمنين؟ قال: دَعُهُ، لا خير فيكم إذا لم تقولوها، ولا خير فينا إذا لم نسمعها^(٢).

من كلمات عمر الشهيرة:

ومن كلماته الشهيرة على المنبر: أيُّها النَّاس، مَنْ رَأَى مِنْكُمْ فِيَّ اعوجاجًا فليَقُومْني. فقال له أحد الحاضرين من الأعراب: والله لو رأينا فيك يا ابن الخطاب اعوجاجًا لَقُومناه بسيوفنا. فما غضب عمر، ولا أمر بالقبض عليه، ولا قال: خذوا هذا الإرهابي. ولا منع عنه ما يستحق من العطاء، ولكنَّه قال: الحمدُ لله الَّذي جعل في المسلمين مَنْ يَقُوم اعوجاج عمر بحدِّ سيفه^(٣). هكذا كان عمر رضي الله عنه.

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة للراغب الأصفهاني ص ٢١٧، تحقيق د. أبو اليزيد العجمي، نشر دار السلام، القاهرة، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.

(٢) رواه ابن شبة في تاريخ المدينة (٧٧٣/٢)، تحقيق فهيم محمد شلتوت، طبع على نفقة: السيد حبيب محمود أحمد - جدة، ١٣٩٩هـ.

(٣) ذكره على بن خلف في كفاية الطالب الرباني على رسالة ابن أبي زيد (١٩١/١)، تحقيق محمد محمد تامر، نشر مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة. ورواه ابن أبي شيبة في الزهد (٣٥٦٢٩) بنحوه بدون ذكر السيف.

كان قويًّا في دين الله، ويرى الإسلام دينَ القوَّة في كل شيء، فقد رأت الشفاء بنت عبد الله العدوية جماعة من الشباب متموتين متهاكين، يمشون الهوينى، ويتكلمون رويدًا، فلم يعجبها هذا الهوان وهذا الضعف من سلوكهم؛ فسألت عنهم، فقالوا: هؤلاء نَسَاك. أي عبَّاد، فقالت: كان عمر والله إذا مشى أسرع، وإذا تكلم أسمع، وإذا ضرب أوجع، وكان هو الناسك حقًّا^(١). كانت فيه مظاهر القوَّة كلها، في مشيه، وفي كلامه، وفي حركته، وفي عدله. ورأى عمر رجلًا يُصلي وقد نكس رأسه، وطأ رقبته، فقال: يا هذا، ارفع رأسك؛ فإنَّ الخشوع في القلوب، ليس الخشوع في الرقاب^(٢). وكان يستعيد بالله من خشوع النفاق. قيل له: يا أمير المؤمنين، وما خشوع النفاق؟ قال: أن يرى البدن خاشعًا، والقلب ليس بخاشع^(٣). هذا هو خشوع النفاق.

وكان يستعيد بالله من المنافق العليم، قيل له: يا أمير المؤمنين، كيف يكون منافقًا وعليمًا؟ قال: عالم اللسان، جاهل القلب^(٤).

كان يكره كل ألوان النفاق، وما كان يحب إلا الخلوص والصراحة، هكذا كان دأبه مع رسول الله ﷺ حتى تُوفِّي، وكان دأبه مع أبي بكر حتى تُوفِّي، وكان دأبه في خلافته كلها، عاش أمرًا بالعدل، داعيًا إلى القسط، مُطبِّقًا له، آخذًا نفسه بالقوة والشدة.

(١) مدارج السالكين (٥١٧/١).

(٢) رواه الدينوري في المجالسة وجواهر العلم (١٦٩١)، تحقيق مشهور بن حسن آل سلمان، نشر دار ابن حزم، بيروت، ١٤١٩هـ.

(٣) مدارج السالكين (٣٦٥/١).

(٤) رواه المروزي في تعظيم قدر الصلاة (٦٨٣)، تحقيق د. عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي، نشر مكتبة الدار، المدينة المنورة، ط ١، ١٤٠٦هـ.

رآه عليُّ بن أبي طالب يوماً يعدو في الظهيرة، في وقدة الحر، فسأله: لماذا تركض يا أمير المؤمنين، وفيم تعدو؟ قال: ندَّ بعير من إبل الصدقة، فأردت أن آتي به. فقال: والله لقد أتعت مَنْ بعدك^(١).

أمير المؤمنين بنفسه يركض وراء بعير شرد، لا يُكلِّف غلاماً من غلمانهِ، أو تابعاً من أتباعه يقوم بهذه المهمة، ولكن هو الذي يركض وراءه، ويقول: لو هلك جديّ بشطّ الفرات لرأيتني مسؤولاً عنه أمام الله يوم القيامة^(٢).

اهتمام عمر بالرعية:

وطالما عسَّ بالليل؛ يتحسَّس الآلام، يسمع الشكاوى، يرى ما يحدث بالناس، فكم رأى، وكم سمع، وكم وجد من أشياء أسرع في نجاتها ووضع العلاج لها، مرَّ بالليل وسمع امرأة تنشد وتقول:

تَطَاوَلَ هَذَا اللَّيْلُ وَأَسْوَدَ جَانِبُهُ وَأَرْقَنِي أَنْ لَا حَيْبَ الْأَعْبِئِهِ
فَوَاللَّهِ لَوْلَا اللَّهُ تُخَشَى عَوَاقِبُهُ لِحُرِّكَ مِنْ هَذَا السَّرِيرِ جَوَانِبُهُ

ففرغ عمر وسأل عن هذه المرأة، فعلم أن زوجها غائب في الجيش، ثم جاء عمر إلى ابنته حفصة وسألها: كم تصبر المرأة عن زوجها؟ فخفضت رأسها واستحيت، فقال: لا حياء في الحق، قولي لي. قالت: أربعة أشهر. فأمر بعد ذلك ألا يُغيَّب رجل عن زوجته أكثر من أربعة أشهر^(٣).

(١) البداية والنهاية (١٨٧/١٠).

(٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٥٣/١).

(٣) رواه البيهقي في السير (٢٩/٩).

هكذا كان يحيا مع النَّاس، يعيش مع الواقع، لا يعيش في برج عاجي، لا يحيا في صومعة منعزلة، لا يعزل نفسه عن النَّاس، لا، بل هو مع الناس في صباحهم ومساءهم، في نهارهم وفي ليلهم؛ يتعبّد بذلك لله وَعَلَىٰ، ويرى أنّ ذلك من خير العبادة لله سُبْحَانَ اللَّهِ.

محاسبة عمر للولادة:

وكذلك كان يُرَبِّي وُلّادته وعُمَّاله على الأمصار والأقاليم، كان يرَبِّهم ويوجِّههم ألاّ ينزلوا عن النَّاس، وحينما علم أنّ الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص قد بنى لنفسه قصرًا، ووضع له بابًا، ولا يستطيع الناس أن يصلوا إليه، ولا يستطيع صوت المظلومين والشاكين أن يصل إليه أرسل إليه محمد بن مسلمة، وأمره أن يُحرِّق باب سعد.

وفعلًا بمجرد أن وصل محمد بن مسلمة أوقد النَّار في الباب حتّى يفتح الطريق للناس^(١)، فلا ينبغي لوالٍ أن يحتجب عن رعيته، كما صحّت بذلك الأحاديث عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فعمر يُصدّق السنن، ويطبّق الأحاديث، ولا تأخذه في الله لومة لائم. فسعد بن أبي وقاص، وهو أحد العشرة المُبشّرين بالجنّة، وأحد السابقين الأولين في الإسلام، وهو من بني زُهرة؛ فيُعتبر خالًا للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومع هذا لم يهبه عمر في الله!

وحينما كان عمر يُوزع بعض الأموال، والناس مزدحمون عليه، جاء سعد فشقّ الطريق، وترك الناس حتّى وصل إلى عمر، فعلاه عمر بُدْرته، فاستغرب سعد، فقال له: أتيت لا تهاب سلطان الله؛ فأحبتُّ أن أعلمك أن سلطان الله لا يهابك^(٢).

(١) رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٦٢/٥).

(٢) المصدر السابق (٢٨٧/٣).

هكذا كان قويا، وكان الصحابة يقبلون منه ذلك؛ لأنه كان قويا على نفسه وأهله قبل أن يكون قويا عليهم.

رأى عمرُ أبي بن كعب يمشي وعدد من الناس يمشون خلفه؛ فعلاهم بدرته! فقال: ما هذا يا أمير المؤمنين؟ قال: إنَّ هذه ذلة للتابع، وفتنة للمتبوع^(١). أن يمشي الرجل، ووراءه جماعات من الناس يتبعونه كأنهم عبيد عنده، لا، هذه ذلة للتابع، وفتنة للمتبوع، ما كان أحد يجروا على هذه الأمور إلا عمر.

قال للناس: أيُّها النَّاس، إنِّي لم أبعث عمالي عليكم ليضربوا أبشاركم، ولا ليأخذوا أموالكم، إنَّما بعثتهم مُعلِّمين، يعلموكم دينكم وسنة نبيكم. ثمَّ أعلن أنَّ من اعتدى على رعيته فمن حق رعيته أن يشكوه. قال: والله لأُقصنَّهم منهم. فقال عمرو بن العاص: يا أمير المؤمنين، أئذا أدب والٍ رعيته بشيء تقصنَّهم منه؟ قال: وما لي لا أفعل، وقد رأيت رسول الله ﷺ يقصُّ من نفسه؟ ألا لا تضربوا المسلمين فتذلُّوهم، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم^(٢).

ومن هنا رأينا ذلك الرجل القبطي الذي جاء من مصر إلى المدينة، يشكو عمرو بن العاص الوالي: أن ابنه ضرب ابن ذلك القبطي بغير حق،

(١) رواه ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول (٥١)، تحقيق محمد عبد القادر أحمد عطا، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

(٢) رواه أحمد (٢٨٦)، وقال مخرَّجوه: فيه أبو فراس النهدي، لم يرو عنه غير واحد، ولم يوثقه غير ابن حبان، وباقي رجاله ثقات رجال الشيخين. وحسن إسناده الشيخ أحمد شاکر في تعليقه على المسند. وابن أبي شيبة في السير (٣٣٥٩٢)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩٠٦٨): في الصحيح طرف منه - صحيح البخاري (٢٦٤١) - وأبو فراس لم أر من جرحه ولا وثقه، وبقيه رجاله ثقات.

حينما سابقه فسبقه فضربه وقال: أتسبق ابن الأكرمين؟! فبعث عمر إلى عمرو بن العاص وإلى ابنه فجاء بهما، وأقام العدل فيهما، وقال للرجل: اضرب ابن الأكرمين كما ضربك. ثم قال: أدرها على صلعة عمرو؛ فما ضربك ابنه إلا بسُلطان أبيه. فقال الرجل: يا أمير المؤمنين، إنما أضرب من ضربني. ثم استدار عمر إلى عمرو وقال كلمته التاريخية: يا عمرو، متى استعبدتم الناس، وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً^(١)؟!!

العبرة في هذه القصة هي أن هؤلاء الناس في مصر كانوا من قبل يُضربون، وكانوا يُهانون، وكانوا يُذلون، وكانت تُنتهك حرمتهم، وتُغصب أموالهم، وتُتهتك أعراضهم، وتسفك دماؤهم، وما كانوا يُحركون ساكنًا، ولا يرفعون رأسًا؛ فما الذي حدث اليوم؟ ما الذي جعل هذا الرجل يذهب من الفسطاط في القاهرة إلى المدينة؛ نحو شهر على الأقل، راكبًا ناقته أو بغلته، ما الذي حرّكه حتى وصل إلى عمر يشكو ما أصابه؟!!

الذي حدث أنه يعتقد أن الإسلام جاء بالعدل، وأن هناك خليفة يقيم القسط بين الناس، ويأخذ للمظلوم حقه من ظالمه، ولو كان هذا الظالم واليه على الناس، هذا المعنى: شعور الإنسان بكرامته، شعوره بحريته، اعتقاده أن هناك دينًا عادلًا، وأن هناك من يطبق عدل هذا الدين: هو الشيء الجديد في هذه القصة.

كان ولاية عمر على مرأى ومسمع منه، كأنهم يعيشون عنده، كان رسله يأتونه بالأخبار، وكانوا يهابون عمر وهو على بُعدٍ عنهم، ويخشونه

(١) فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم ص ١٩٥، وحسن المحاضرة للسيوطي (٥٧٨/١)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، نشر دار إحياء الكتب العربية، مصر، ط ١، ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م.

في الله وَعَجَلًا . ولذلك انتشر العدل، وأخذ كل ذي حق حقه، واتسعت الفتوحات، وانتشر الإسلام شرقًا وغربًا.

انتصر المسلمون على الفرس، وانتهت دولة المجوس، انتهت عبادة النار، انتهت الثنوية، عبادة إلهين اثنين: إله للخير وإله للشر، إله للنور وإله للظلام، انتهى هذا كله بقيام الإسلام وانتشاره في فارس، كما قصت أجنحة دولة الروم، فتحت بلاد الشام، وفتحت مصر، فتحت إفريقيا، انتشر الإسلام شرقًا وغربًا والحمد لله، وقام العدل في تلك الديار كلها، عدل الإسلام الذي يطبقه عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

التكافل الاجتماعي:

كما انتشر التكافل الاجتماعي بين الناس، حتى إن عمر كان يضع في الطرق الدقيق والزيت والسمن لأبناء السبيل، يضعها في أماكن إذا جاء فيها المنقطع عن ماله وعن أهله وعن وطنه، واتخذ دارًا للدقيق في المدينة، وقال لسعته عن الأعراب: كرروا عليهم الصدقة، وإن راح على أحدهم مائة من الإبل، إذا أعطيتم فأغنوا^(١). أي: لا تعطوا في الزكاة الحفنة والحفنتين، والدرهم والدرهمين، لا، بل إذا أعطيتم فأغنوا، يحل مشكلة الفقر من جذورها، وقال عن نفسه: والله لأكررنَّ عليهم الصدقة وإن راح على أحدهم مائة من الإبل^(٢). وهو ما يساوي عشرين نصابًا من أنصبة الزكاة.

وفرض عمر لكل مولود يُفطم في الإسلام، لم يكن يفرض للرضيع، يكفيه لبن أمه، فإذا فطم كان له عطاء من بيت مال المسلمين، ولكن في

(١) رواه عبد الرزاق (٧٢٨٦)، وابن أبي شيبة (١٠٥٢٦)، كلاهما في الزكاة.

(٢) رواه أبو عبيد في الأموال (١٧٨٠)، تحقيق خليل محمد هراس، نشر دار الفكر، بيروت.

ليلة جاء تجار بقافلتهم إلى المدينة، فقال عمر لعبد الرحمن بن عوف: هل لك أن نبيت الليلة حُرَّاسًا لهؤلاء الناس من اللصوص والسُّرَّاق؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين. فباتوا يحرسون هذه القافلة بالقرب منهم، وهم لا يعرفونهما، ولكنه سمع صبيًا يبكي بشدة، فذهب عمر إلى أمه وقال لها: يا أيتها الأم، ما لابنك يبكي؟ ثم سكت الصبي، وفي آخر الليل وجده يبكي بشدة فقال: يا لك من أم سوء، ما لك تتركين ابنك هكذا؟ فقالت: إنني أحمله على الفطام وهو لا يريد. قال: كم عمره؟ قالت: كذا وكذا شهرًا. قال: وما لك تُبكرين بفطامه؟ قالت له: إن أمير المؤمنين لا يفرض العطاء إلا للفطيم، فأنا أستعجل العطاء. فقال عمر في نفسه: يا بؤسًا لعمر؛ كم قتل من أطفال المسلمين! ثم في صلاة الفجر نادى في الناس: لا تعجلوا فطام أولادكم؛ إننا سنفرض لكل مولود في الإسلام^(١). فأصبح العطاء لكل من وُلِد.

كان عمر يتخذ قراراته، ويصنع لوائحه وتنظيماته من خلال حاجات الناس ومعاشتها وتحسُّسها، لم يكن يعيش بعيدًا عن النَّاس، وإنما يعيش في وسط النَّاس، في قلب الحياة، في قلب المعركة، هكذا كان عمر رضي الله عنه.

التكافل المكاني:

أقرَّ عمر التكافل بين النَّاس، أقر التكافل المكاني، التكافل بين البلاد الإسلامية بعضها وبعض، في عام المجاعة قال لعمر بن العاص: ابعث لي كذا وكذا من مصر. حتَّى يُمكن للناس أن يُغاثوا في ساعة الشدة، وفي ساعة المحل والقحط.

(١) رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٣/٣٠١).

وقد بعث معاذ بن جبل إلى اليمن، فأرسل إليه معاذ ثلث الزكاة في أوّل سنة فراجع عمر، وقال له: فرّقها عندك. فالأصل في الزكاة أن تؤخذ من أغنياء الإقليم وتُفَرَّق في فقرائه، فقال: يا أمير المؤمنين، ما بعثت إليك شيئاً وعندي من يستحق. وفي العام الذي بعده أرسل إليه ثلثي الزكاة، وفي العام الذي بعده أرسل إليه الزكاة كلها، وقال: لقد أغنى الله الناس بعدل الإسلام. هكذا وصل الرخاء في عهد عمر إلى أنه لا يوجد فقير يستحق الزكاة، أغنى الله الناس بعدل الإسلام الذي أقامه عمر.

التكافل الزمني:

كما أقرَّ عمر التكافل الزمني، التكافل بين الأجيال الإسلامية بعضها وبعض، فحينما فتح عمر بلاد العراق أو سواد العراق، كانوا يسمونها أرض السّواد لكثرة خضرتها، من رآها من بعيد رأى شيئاً أسود لكثافة الخضرة، لما فتح عمر سواد العراق اختلف هو وعدد من الصحابة، كان عدد من الصحابة أو أكثرهم يرون أن تُقسم هذه الأرض على الفاتحين أخذاً بعموم قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ حُمُسَهُ﴾ [الأنفال: ٤١]. أي: والأربعة أخماس للفاتحين.

ولكن عمر توقف في هذا الأمر، وظل يستخير الله تعالى، ويستشير الصحابة، وكان عمر من أكثر الناس مشاورة لأصحابه، ومعظم الإجماعات التي أجمع عليها الصحابة كانت في عهد عمر، كان يجمع رؤوس الناس ويستشيرهم في المسائل؛ من عرف شيئاً من كتاب الله غاب عنه فليذكره، ومن عرف شيئاً من سنة رسول الله فليروها، وإلا أخذ الرأي، فكثيراً ما كانوا يُجمعون، فعمر كان أكثر الناس مشاورة للصحابة.

وهنا في هذه القضية استشار عمر الصحابة واختلفوا عليه، ولكنه اهتدى إلى آيات سورة الحشر التي تحدّثت عن الفيء وقسمته وتوزيعه؛ فجعلت نصيباً منه للجيل الحاضر: ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ﴾ [الحشر: ٧]، ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ﴾ [الحشر: ٨]، ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْتُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر: ٩]، وبعد المهاجرين والأنصار قالت الآيات: ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ﴾ [الحشر: ١٠].

هنا قال عمر: إنّ هذه الآيات لم تدع أحداً إلا وجعلت له حقاً، والله ليأتين الراعي بجبل صنعاء حظه من هذا المال لم يعرق له فيه جبين^(١). وعزم على أن يجعل الأرض وقفاً، ويجعلها في أيدي أهلها، أيدي أربابها، ويكون نتاجها لأجيال المسلمين من بعد، يكون نتاجها خراجاً يدفعه أرباب هذه الأرض لبيت مال المسلمين، يصرف منه المسلمون على الجهاد، وعلى ما يحتاجونه في أمور شتى، وقال للصحابة المطالبين بقسمة الأرض: أتريدون أن يأتي آخر الناس وليس لهم شيء؟ إنني أردت أمراً يسع أول الناس وآخرهم^(٢).

وهذا يعني أنّ هناك تكافلاً بين الأجيال، لا ينبغي لجيل أن يستأثر بالمنافع والخيرات لنفسه، على حساب الأجيال القادمة، يستمتع بالثروة

(١) رواه أحمد (٢٩٢)، وقال مخرّجوه: إسناده ضعيف. وصحح إسناده أحمد شاكراً في تخريجه للمسند.

(٢) رواه أبو عبيد في الأموال (١٤٧).

ويُسرف فيها، ولا يُبالي ما يصيب الناس من بعد، هذا لا يجوز، لا بدّ من أمر يسع أوّل الناس وآخرهم، لا بدّ من التكافل بين الأجيال بعضها وبعض، هذا تكافل زمني، كما أنّ هناك تكافلاً مكانياً بين الأقطار بعضها وبعض، هناك تكافل زمني بين الأجيال بعضها وبعض، وهذا من فقه عمر رضي الله عنه.

وممّا وفقّ الله تعالى إليه عمر أنّ خلافته رضي الله عنه كانت عدلاً ورحمة، لو ظللنا نتحدث عن عدل عمر، ورحمة عمر، وفقه عمر في إقامة الدولة وتأسيسها على أعدل المبادئ وأفضل القواعد؛ لطلال بنا الحديث.

كان عمر مبتكراً، يذكر المؤرخون أنّه أوّل مَنْ فعل كذا، وأوّل من فعل كذا، أوّل من سُمّي بأمير المؤمنين، وأوّل من دوّن الدواوين، وأوّل من مصّر الأمصار، وأوّل من استقضى القضاة، إلى آخره، أي إنّهُ ابتكر أشياء كثيرة كان هو البادئ بها، فمن سنّ سنّة حسنة؛ فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة.

رحم الله ابنَ الخطّاب، لقد عاش في سبيل الإسلام، ومات في سبيل الإسلام، قتله رجل مجوسي يُسمّى أبو لؤلؤة، طعنه بخنجر مسموم ذي رأسين ثلاث طعنات أو ست طعنات، وسأل: مَنْ القاتل؟ فقيل له: إنّهُ فيروز المجوسي أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة. قال: قاتله الله، لقد أمرنا به معروفًا. كان قد جاء يشكو سيده إليه فأنصفه عمر، وأراد أن يكلم المغيرة في شأنه، ولكنّه قال لعمر: لأصنع لك رحيّ تتحدّث بها المشارق والمغرب. فقال: لقد تهدّدتني العبد أنفًا. أحسّ أن هذه الكلمة تهديد له، فلما عرف أنّ قاتله هذا المجوسي قال: الحمد لله أن لم يقتلني رجل يدّعي الإسلام أو سجد لله سجدة^(١).

(١) البداية والنهاية (١٠/١٨٩، ١٩٠).

جاء إليه رجل يقول له: يا أمير المؤمنين، لقد كنت كذا وكذا من رسول الله، وصنع الله بك كذا وكذا. فقال: والله لو ددت أن أخرج منها كفافاً لا لي ولا عليّ^(١).

وقال لابن عباس: والله لو كان لي مثل الأرض ذهباً لافتديت به من هول العذاب^(٢). هكذا كان عمر أخوف الناس على نفسه، ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

وكان له خطّان أسودان من البكاء^(٣)، وكان يقوم لله تعالى معظم الليل، بعض الليل ينامه، وبعضه يصلية، وبعضه يتعسّس على الرعية، وكان في آخر حياته يسرد الصوم سرداً، لا يكاد يفطر، هكذا كان عمر.

عندما أصيب وقال له هذا الشاب ما قال وولى، فرأى إزاره يجر في الأرض فقال: ردّوا عليّ الغلام. فقال: يا غلام، ارفع إزارك؛ فإنه أنقى لثوبك، وأتقى لربك^(٤). فهو في هذه الحالة لا ينسى التوجيه، ثم يوصي بالخلافة لستّة من أصحاب النبي ﷺ توفي عنهم وهو راضٍ، ووضع عمر لذلك هذا المنهج: أنّ العبرة بالأغلبية، من وافقت عليه الأغلبية فهو الأمير، وضع بهذا أساساً لمبدأ الترجيح بالكثرة عند التساوي.

هكذا كان عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، نسأل الله ﷻ أن يتقبّله في الشهداء، وأن يجعله من الراضين المرضيين، وأن يجعلنا ممّن يحيون سنّته ويعضون عليها بالنواجذ، اللهم آمين، ادعوا الله يستجب لكم.

* * *

(١) رواه البخاري في الأحكام (٧٢١٨)، عن ابن عمر.

(٢) رواه البخاري في أصحاب النبي ﷺ (٣٦٩٢)، عن ابن عباس.

(٣) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٥١/١).

(٤) تاريخ الطبري (٣٣٠/٤).



طلحة بن عبّيد الله

الخطبة الأولى

أمّا بعد، فيا أيّها الإخوة المؤمنون:

لا يزال حديثنا موصولاً عن أفضل أجيال البشرية، أفضل أصحاب الأنبياء، مع الرعيل الأوّل الذي حمل الرسالة، وأدى الأمانة، وفتح الفتوح، ونشر نور الإسلام في الآفاق، ونقل لنا القرآن، وروى لنا السنن.

لا نزال مع جيل الصّحابة - رضوان الله عليهم - الذين قال الله فيهم: ﴿هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٢، ٦٣].

طلحة والزبير قرينان:

حديثنا اليوم عن طلحة بن عبّيد الله بن عثمان التيمي القرشي، وهو صنو وقرين الزبير بن العوّام، وإذا ذكر أحدهما ذكر الآخر؛ دائماً يقال: طلحة والزبير، فكلاهما قرشي، الزبير من بني أسد، وطلحة من بني تيم، كلاهما من قریش، وكلاهما أسلم مبكراً، أسلما على يد سيدنا أبي بكر رضي الله عنه، كلاهما كان دون العاشرة من عمره، كلاهما أوزي في الله من

أجل دينه، آذته أسرته وآذاه أهله، فصبر وصابر، ولم يبال بما يلقي في سبيل الله، كلاهما هاجر، وكلاهما نصر رسول الله ﷺ في غزواته المختلفة، وكلاهما كان من الذين بشرهم الرسول ﷺ بالجنة، فهما من العشرة المشهود لهم بالجنة، وكلاهما من الستة أصحاب الشورى، الذين جعل عمر رضي الله عنه الشورى لاختيار الخليفة من بعده منهم، وكلاهما بايع علياً رضي الله عنه بعد مقتل عثمان، وكلاهما خرج على عليٍّ وحاربه في موقعة الجمل؛ ولذلك اقترن اسم كل واحد منهما بالآخر.

اختلافهما من ناحية الصفات الجسدية:

ولكن طلحة والزبير يختلفان من ناحية الصفات الجسدية؛ فقد قالوا: طلحة كان أقرب إلى القصر، وكان الزبير رجلاً طويلاً؛ شديد الطول، حتى إنه كان إذا ركب دابة كالحمار لمست رجلاه الأرض، وكان طلحة أشعر كثير الشعر، وكان الزبير كثيف اللحية كثيف العارضين، كانت صفاتهما الجسميّة مختلفة.

قلّة روايتهما للحديث:

ولكنهما اتفقا في أشياء كثيرة، كلاهما كان من المقلين الحديث عن رسول الله ﷺ، هناك صحابة رووا عن رسول الله ﷺ أكثر من ألف حديث، أكثر الصحابة حديثاً عن رسول الله ﷺ هو أبو هريرة رضي الله عنه، ثم هناك عائشة وابن عباس وابن عمر وأبو سعيد الخدري وجابر بن عبد الله وأنس بن مالك، هؤلاء السبعة رووا أكثر من ألف حديث عن النبي ﷺ، ولكن طلحة والزبير ممن رووا أحاديث معدودة^(١) عن رسول الله ﷺ.

لطلحة في (مسند بقي بن مخلد) بالمكرر: ثمانية وثلاثون حديثاً، وله حديثان متفق عليهما، وانفرد له البخاري بحديثين، ومسلم بثلاثة أحاديث.

وقد قيل لطلحة يوماً: هذا اليماني - يعنون: أبا هريرة - يروي عن رسول الله ﷺ ما لا تروون، ونسمع منهما لا نسمع منكم؟

فقال: أمّا إنّه قد سمع ما لم نسمع، ولا أشكّ في ذلك؛ فقد كنّا أهل بيوت إنّما نأتي رسول الله ﷺ غدوة وعشية، وهو كان رجلاً مسكيناً لا دار له ولا مال له، فكان على باب رسول الله ﷺ يلزمه ويسير معه حيثما سار، فسمع منه ما لم نسمع، ولا أشكّ في ذلك، ثمّ قال: وهل هناك رجل فيه خير يقول على رسول الله ﷺ ما لم يقل^(١)؟

يستبعد أن يكذب أبو هريرة رضي الله عنه على رسول الله ﷺ.

تحمله الأذى في سبيل الله:

عاش طلحة بن عبّيد الله في مكّة ثلاثة عشر عاماً يتحمّل البلاء والأذى في سبيل الله وفي سبيل الإسلام، ودخل الشعب مع النبي ﷺ وسائر الصّحابة، ووصل الأمر بهم حتّى أكلوا أوراق الشجر وجلود الأنعام! لم يكن عندهم شيء من الحبوب ولا الثمار، فأكلوا أوراق الشجر حتّى دميت أشداقهم.

جهاده في سبيل الله:

هاجر طلحة إلى المدينة، فشهد المشاهد وحضر الغزوات مع رسول الله ﷺ، ولكنّه لم يحضر وقعة بدر؛ فقد بعثه النبي ﷺ مع سعيد بن زيد - وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة أيضاً - يستطلع أخبار المشركين وأخبار العير القادمة من الشام، فذهبا وأبعدا حتّى اقتربا من

(١) رواه الترمذي في المناقب (٣٨٣٧)، وقال: حسن غريب. وأبو يعلي (٦٣٧)، والحاكم في معرفة الصّحابة (٥١١/٣)، وصحّحه على شرط الشيخين، وقال الذهبي: على شرط مسلم.

الشام، وكان ذلك قبل بدر بعشر ليال، حتَّى مرَّت بهم عير قريش وبلغ خبرها رسول الله ﷺ ثمَّ عادا، فلمَّا عادا كانت وقعة بدر انتهت، فقال له النَّبِيُّ ﷺ: «لَكَ سَهْمُكَ».

قال: وأجري يا رسولَ الله!

قال: «وَلَكَ أَجْرُكَ»^(١).

فجعل له نصيبًا من الأجر ونصيبًا من المثوبة.

جهاده في غزوة أُحد:

أمَّا في غزوة أُحد فكان طلحة بن عُبَيْدِ اللهِ مَمَّنْ ضربوا بسهم وافر، مَمَّنْ كانت لهم القُدْحُ المَعْلَى في الدفاع عن رسول الله ﷺ.

تعلمون أنَّ المسلمين انتصروا في الجولة الأولى في معركة أُحد، ثمَّ رأوا الغنائم أمامهم، فترك الرُّماة الَّذِينَ جعلهم النَّبِيُّ ﷺ فوق أحد لحماية ظهر الجيش، احتفى الجيش بأحد وقال لهم الرسول ﷺ: «إِنْ رَأَيْتُمُونَا تَخَطَّفْنَا الطَيْرُ فَلَا تَبْرَحُوا مِنْ مَكَانِكُمْ هَذَا حَتَّى أُرْسَلَ إِلَيْكُمْ، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا هَزَمْنَا الْقَوْمَ وَأَوْطَأْنَا هُمْ فَلَا تَبْرَحُوا حَتَّى أُرْسَلَ إِلَيْكُمْ»^(٢).

فلَمَّا رَأَى الرُّماة هزيمة قريش أمام المسلمين، ورأوا الغنائم، سال لعابهم وطمعوا في الدنيا، فتركوا أماكنهم، وقال لهم قائدهم عبد الله بن جبير: أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ؟

فلم يسمعوا له، ونزلوا من أماكنهم، وأخلوا مواقعهم.

(١) رواه الحاكم في معرفة الصحابة (٣/٣٦٨)، عن ابن شهاب الزهري.

(٢) رواه البخاري في الجهاد والسير (٣٠٣٩)، عن البراء بن عازب.

وانتهز هذه الفرصة الفارس المغوار والعسكري العبكري خالد بن الوليد، وكان لا يزال على دين قومه، وكان على خيل المشركين، انتهزها فرصة والتف من حول المسلمين، وأخذ يعمل فيهم السيف من الخلف، فشاع الذعر، وشاعت شائعة أنّ محمدًا ﷺ قد قُتل، ففتّ هذا في عضدهم، وأدخل اليأس على نفوس كثير منهم، وفرّ منهم من فرّ، ولكن هناك رجالًا ثبتوا ووقفوا كالجبال الشّم لا تتزعزع ولا تتزعزع، من هؤلاء طلحة بن عبّيد الله.

في هذه الغزوة فدى طلحة رسول الله ﷺ بنفسه، كان في اثني عشر رجلًا أحاطوا برسول الله ﷺ، وقد اقترب منه المشركون وكادوا يفتكون به ﷺ، فقال ﷺ: «مَن للقوم؟».

فقال طلحة: أنا.

قال رسول الله ﷺ: «كما أنت».

فقال رجل من الأنصار: أنا يا رسول الله.

فقال: «أنت».

فقاتل حتّى قُتل، ثمّ التفت فإذا بالمشركين قال: «مَن للقوم؟».

قال طلحة: أنا.

قال: «كما أنت».

فقال رجل من الأنصار: أنا.

فقال: «أنت».

فقاتل حتّى قُتل، ثمّ لم يزل يقول ذلك ويخرج إليهم رجل من الأنصار فيقاتل قتال من قبله حتّى يُقتل، حتّى بقي رسول الله ﷺ وطلحة بن عبّيد الله، فقال رسول الله ﷺ: «مَن للقوم؟».

فقال طلحة: أنا.

فقاتل طلحة قتال الأحد عشر حتى ضربت يده فقطعت أصابعه، فقال: حس.
فقال رسول الله ﷺ: «لو قلت: باسم الله لرفعتك الملائكة والناس ينظرون»^(١).

قاتل عن رسول الله ودافع عنه دفاعًا مجيدًا حتى قطعت أصابعه،
وشلت يده دفاعًا عن رسول الله ﷺ.

وكان على النبي ﷺ درعان يوم أحد، فنهض إلى الصخرة، فلم
يستطع، فأقعد طلحة تحته، فصعد النبي ﷺ عليه حتى استوى على
الصخرة، فقال: سمعت النبي ﷺ يقول: «أوجب طلحة»^(٢)، يعني: قد
استوجب الجنة بدفاعه عن رسول الله ﷺ، فكان من المؤمنين الذين
صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه، أي: وفى بعهده.
يقول طلحة: إن أصحاب رسول الله ﷺ قالوا لأعرابي جاهل: سله
عن من قضى نحبه من هو؟

وكانوا لا يجترئون على مسأله، يوقرونه ويهابونه، فسأله الأعرابي،
فأعرض عنه، ثم سأله، فأعرض عنه، ثم سأله، فأعرض عنه، ثم إنني
اطلعت من باب المسجد وعليّ ثياب خضر، فلما رأني رسول الله ﷺ
قال: «أين السائل عمّن قضى نحبه؟».

قال الأعرابي: أنا يا رسول الله.

(١) رواه النسائي في الجهاد (٣١٤٩)، والبيهقي في دلائل النبوة (٢٣٦/٣)، عن جابر بن عبد الله.

(٢) رواه أحمد (١٤١٧)، وقال مخرّجوه: إسناده حسن. والترمذي في الجهاد (١٦٩٢)، وقال: حسن

غريب. وابن حبان في مناقب الصحابة (٦٩٧٩)، والحاكم في المغازي والسرايا (٢٥/٣)،
وصحّحه على شرط الشيخين، وقال الذهبي: على شرط مسلم. عن الزبير بن العوام.

قال رسول الله ﷺ: «هذا ممّن قضى نَحْبَهُ»^(١).

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

هكذا كان طلحة رضي الله عنه في حياة النبي ﷺ، كان أحد المغاوير الأبطال الذين أدوا دورهم في الغزوات كلها ما عدا غزوة بدر كما ذكرت من قبل، وظلّ وفيًا لرسول الله ﷺ وللإسلام حتى توفي النبي ﷺ وبويع أبو بكر رضي الله عنه.

وقد مرّ به عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فرآه متغيرًا فقال: ما لي أراك قد شعثت واغبررت منذ توفي رسول الله ﷺ، لعلك ساءك يا طلحة إمارة ابن عمك!؟

قال: معاذ الله، إنني لأجدركم ألا أفعل ذلك؛ إنني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنني لأعلم كلمة لا يقولها رجل عند حضرة الموت إلا وجد رُوحه لها رُوحًا حين تخرج من جسده، وكانت له نورًا يوم القيامة»، فلم أسأل رسول الله ﷺ عنها، ولم يخبرني بها، فذلك الذي دخلني.

قال عمر: فأنا أعلمها.

قال: فله الحمد.

قال: فما هي؟

قال: هي الكلمة التي قالها لعمّه: لا إله إلا الله.

قال طلحة: صدقت^(٢).

هكذا كان طلحة رضي الله عنه.

(١) رواه الترمذي في التفسير (٣٢٠٣)، وقال: حسن غريب. والبرّار (٩٤٣)، وأبو يعلى (٦٦٣)، وصحّحه الألباني في الصحيحة (١٢٥)، عن طلحة بن عبيد الله.

(٢) رواه أحمد (١٨٧)، وقال مخرّجوه: حديث صحيح بطرقه. وابن ماجه في الأدب (٣٧٩٥).

إنفاقه في سبيل الله:

وقد تزوج طلحة رضي الله عنها من أم كلثوم بنت أبي بكر، فاشترك - أيضًا - مع الزبير، الزبير تزوج أسماء ذات النطاقين، وتزوج طلحة بعد ذلك بمدة بأم كلثوم بنت أبي بكر الصديق، رضي الله عن جميع الصحب الكرام.

جاءه يومًا مال من حضرموت سبعمائة ألف، فبات ليلته يتململ، فقالت له زوجته: يا أبا محمد، مالي أراك منذ الليلة تمللمل؟ أراك منّا أمر فنعبتك^(١)؟

قال: لا، لعمرى، لنعم زوجة المرء أنت، ولكن تفكرت منذ الليلة فقلت: ما ظن رجل بربه يبيت وهذا المال في بيته؟

قالت: فأين أنت عن بعض أخلائك؟

قال: وما هو؟

قالت: إذا أصبحت دعوت بجفان وقصاع، فقسمتها على بيوت المهاجرين والأنصار على قدر منازلهم.

قال: فقال لها: يرحمك الله، إنك ما علمت موقفة بنت موق.

فلما أصبح دعا بجفان وقصاع فقسما بين المهاجرين والأنصار، فبعث إلى علي بن أبي طالب منها بجفنة، فقالت له زوجته: أبا محمد، أما كان لنا في هذا المال من نصيب؟

قال: فأين كنت منذ اليوم؟ فشأنك بما بقي.

(١) أي: نزيل عتبك ونرضيك.

قال: فكانت صرة نحو من ألف درهم^(١).

وكان يبعث في كل سنة من غلته إلى عائشة رضي الله عنها بعشرة آلاف درهم، وكانت رضي الله عنها لا تنفق على نفسها شيئاً ممّا يأتي إليها، ما يأتيها تنفقه في الحال.

طلحة الفياض:

كان طلحة رضي الله عنه يُسمّى: «طلحة الفياض» أو «طلحة الخير»؛ لكثرة جوده وعطائه وسخائه على الناس.

قال بعضهم: ما رأيت أعطى لجزيل من غير سؤال، إلا طلحة بن عبّيد الله، يعطي ويعطي الجزيل ومن غير أن يسأله أحد^(٢).

هكذا كان وصفه رضي الله عنه.

وكان بنو تيم عشيرته لا يرى فيهم أحداً فقيراً أو غارماً أو سائلاً يسأله إلا أعطاه ما يريد.

عن طلحة بن يحيى - حفيد طلحة -، حدثني جدتي سعدى بنت عوف المريّة، قالت: دخلت على طلحة يوماً وهو خائر النّفس. فقلت: ما لك، لعلّ رابك من أهلك شيء؟

قال: لا والله، ونعم حليلة المسلم أنت، ولكن مال عندي قد غمني.

فقلت: ما يغمك؟ عليك بقومك.

قال: يا غلام، ادع لي قومي، فقسّمه فيهم.

فسألْتُ الخازن: كم أعطى؟

(١) رواه ابن عساکر في تاريخ دمشق (٩٩/٢٥).

(٢) رواه أبو نعيم في معرفة الصحابة (٣٧٥).

قال: أربعمائة ألف^(١).

كان رضي الله عنه أشدَّ ما يؤلمه أن يبقى عنده مال ولا يفرِّقه، كأنَّ هذا المال يؤذيه، كأنَّه شيء يأكل في جسمه، لا يستريح حتَّى يوزَّع هذا المال.

وهذا على خلاف الأشحَّاء الذين كلَّما جاءهم شيء من المال ضنُّوا به وبخلوا به وشحُّوا به عن أهله، ووضعوه شيئاً على شيء شيئاً على شيء.

لم يكن هؤلاء الأبرار الأخيار الفضلاء النُّجباء من أصحاب محمد صلَّى الله عليه وآله على هذه الوتيرة، كانوا يجودون بالخير، تنبسط أيديهم بالخير، ينطبق عليهم قول الشاعر:

تعوَّد بسط الكفِّ حتَّى لو أنَّه
تراه إذا ما جئتُه مُتَهلِّلاً
هو البحرُ من أيِّ النواحي أتيتَه
ولو لم يكن في كفِّه غير رُوِّحه
ثناها لقبضٍ لم تُطعُه أناملُه
كأنَّك تُعطيه الَّذي أنت سائلُه
فلجَّته المعروفُ والجودُ ساحلُه
لجاد بها فليتَّق الله سائلُه^(٢)

كانوا أجواداً أسخياء، ليست الدُّنيا أكبر همِّهم، ولا مبلغ علمهم، شاركوا في الفتوح التي فتحوا بها البلدان، وكان لهم من ورائها فيء وغنائم وسَّعت عليه دنياهم، وجعلت عندهم غلَّات، وكان لطلحة أموال تدرُّ عليه في الشهر آلافًا وعشرات الآلاف، وربما مئات الآلاف، ولذلك قُدِّرت ثروة طلحة بعد موته بمبالغ كبيرة، بالغ فيها بعضهم، قال الإمام

(١) رواه الطبراني (١١٢/١)، وحسَّن إسناده المنذري في الترغيب والترهيب (١٣٦٧)، وقال الهيثمي

في مجمع الزوائد (١٤٨٠٨): رواه الطبراني ورجاله ثقات.

(٢) ديوان أبي تمام أبي بشرح الخطيب التبريزي (١٥/٢)، نشر دار الكتاب العربي، بيروت،

ط ٢، ١٩٩٤م.

الذهبي: أعجب ما مر بي قول ابن الجوزي وهو يشرح حديثاً من الأحاديث يقول: خَلَفَ طَلْحَةَ ثَلَاثِمِائَةَ حَمَلٍ مِنَ الذَّهَبِ^(١).

هذا من المبالغات، وبعض النَّاسِ يأخذ هذا الكلام ويصدِّقه وينشره. ليس هذا بصحيح هؤلاء كانت لهم عقارات ودور وأراض، فتغيرت المواقع واتسعت المدن، فدخلت هذه الأراضى والعقارات في قلب المدينة، فبيعت بمبالغ طائلة، وهذا توسعة من الله عليهم، الله تعالى كافأهم، هم لم يجاهدوا مع رسول الله ولا بعد رسول الله من أجل دنيا.

لا والله، هم يعلمون أنَّ من دخل المعركة من أجل دنيا، من أجل مال، من أجل أي غرض من الأغراض التي يسعى إليها النَّاسُ فليس في سبيل الله، «مَنْ قَاتَلَ لَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(٢)، ولكنَّ الله عَوَّضَهُمْ وكافأهم عمَّا أصابوه في أزمنة كانوا يضعون فيها الحجارة على بطونهم من شدة الجوع، عوضهم الله بهذا كله.

الفتنة الكبرى:

ثمَّ كانت الفتنة، كانت الفتنة الكبرى التي بدأت في حياة سيدنا عثمان رضي الله عنه، واستغلَّها خصوم الإسلام، استغلَّوا بعض الأخطاء وبعض التجاوزات من بعض ولاة سيدنا عثمان ونفخوا فيها، وكبَّروا الأمر، وجعلوا من الحبة قُبَّةً، ورموا بالشرر ليصبح ناراً مستعرة هنا وهناك، وانتهت هذه الفتنة بقتل عثمان رضي الله عنه.

(١) سير أعلام النبلاء (٤٠/١)، تحقيق مجموعة بإشراف الشيخ شعيب الأرنؤوط، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٣، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

(٢) متَّفَق عليه: رواه البخاري في العلم (١٢٣)، ومسلم في الإمارة (١٩٠٤)، عن أبي موسى الأشعري.

ظلَّ عثمان اثنتي عشرة سنة، الستة الأولى كانت من أروع ما يكون؛
 لئنه ورفقه بالنَّاس، ثمَّ بدأت الفتن، والفتن صمَّاء عمياء بكماء، في
 زمن الفتن لا يرى النَّاس الحقائق كما هي، تلتبس عليهم الأمور وتشتبه
 عليهم الحقائق، ويرون الحقَّ باطلاً والباطل حقًّا، ويرون الصغيرة كبيرة
 والكبيرة صغيرة، ويرون الشرارة نارًا، حدث ما حدث.

موقفه رضي الله عنه من الفتنة:

كان للصَّحابة مواقف شتى، منهم من وقف يدافع عن عثمان، ومنهم
 من سكت عنه، منهم طلحة، كان يرى أنَّ عثمان أعطى لأقاربه
 ما لا يجوز إعطاؤه، فنقم عليه ولم يدافع عنه، ولكن لم يكن يظنُّ أنَّ
 الأمر سينتهي إلى مصرع عثمان على يد هؤلاء، كان يظنُّ أنَّها ثورة
 سلمية لا يمكن أن تنتهي بالدماء، ولكنَّها انتهت بالدماء، وقُتل عثمان
 وهو يقرأ القرآن.

قُتل عثمان، فندم طلحة رضي الله عنه؛ ولهذا ظلَّ يشعر بهذا الإثم، وبأنَّه
 يحمل شيئاً من دم عثمان.

فبعد أن بايع عليًّا هو والزُّبير رضي الله عنهما، حملة الخارجون على حكم
 عثمان، حتَّى دفعوه لبياع عليًّا وبايعه، وبعد مدة خرج طلحة هو والزُّبير
 مع عائشة يطالبون بدم عثمان، ويطالبون من عليٍّ رضي الله عنه أن يقتصَّ من قتلة
 عثمان، وعليٍّ رضي الله عنه لم يستتب له الأمر حتَّى يطلب منه هذا الأمر، فهو
 طلبٌ فيه إجحاف، لا بدَّ أولاً أن يقرَّ الأمور حتَّى تستتب ويتمكن ويصبح
 هو صاحب القدرة، أمَّا قتلة عثمان فلا يزالون هم المسيطرين، فلا يملك
 أن يقيم فيهم الحدَّ، ولا أن يقيم عليهم القصاص.

ولكن هكذا انتهى الأمر، وذهب الفريقان إلى البصرة: فريق عائشة رضي الله عنها، ومعها طلحة والزبير، وفريق علي رضي الله عنه، وكانت فتنة عظيمة استغلها أعداء الإسلام، كلما اقترب الفريقان من الصلح، كلما اقترب بعضهما من بعض، كلما حاول العقلاء أن يكفوا الدماء، سارع هؤلاء برمي سهم من هنا وسهم من هنا؛ لتشتعل النار مرة أخرى.

وعن علقمة بن وقاص الليثي، قال: لما خرج طلحة والزبير وعائشة رضي الله عنهم رأيت طلحة وأحب المجالس إليه أخلاها، وهو ضارب بلحيته على زوره، فقلت: يا أبا محمد، أرى أحب المجالس إليك أخلاها، وأنت ضارب بلحيتك على زورك، إن كرهت شيئاً فاجلس.

قال: فقال لي: يا علقمة بن وقاص، بينا نحن يد واحدة على من سوانا، إذ صرنا جبلين من حديد يطلب بعضنا بعضاً، إنّه كان مني في عثمان شيء، ليس توبتي إلا أن يُسفك دمي في طلب دمه^(١).

وقال أبو رجاء: رأيت طلحة بن عبيد الله التيمي على دابته وهو يقول: يا أيها الناس! أنصتوا، فجعلوا يركبونه ولا ينصتون فقال: أف، فراش النار وذبان طمع^(٢).

ولكن العوام الذين يستغلهم أصحاب الأغراض لا يسمعون لأحد. وعن الأحنف بن قيس: لما التقوا يوم الجمل خرج كعب بن سور ناشراً مصحفه، يذگر هؤلاء، ويذگر هؤلاء، حتى أتاه سهم فقتله^(٣).

(١) رواه الحاكم في معرفة الصحابة (٣/٣٧١، ٣٧٢)، وسكت عنه، وقال الذهبي: سنده جيد.

(٢) رواه ابن عساکر في تاريخ دمشق (١٠٨/٢٥).

(٣) رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٩١/٩).

مقتله ﷺ :

وفي وسط هذه (الهوة) قُتل كعب، وقُتل الزُّبير، وقُتل من بعده طلحة. ولمَّا بلغ ذلك عليًّا مقتل الزُّبير قال: بشّر قاتل ابن صفية بالنَّار. ثمَّ قال علي: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيًّا، وَحَوَارِيِّي الزُّبَيْرُ»^(١)، وكان الَّذي قتله مروانُ بنُ الحَكَم، رماه بسهم فأصاب رُكْبَتَهُ، فما زالت ركبته تنزف حتَّى مات، وقال لأَبَانِ بنِ عثمان: قد كفيناك بعض قَتَلَةِ أَبِيكَ^(٢).

والعجيب أنَّ مروان بن الحکم لم يكن في جيش عليّ، كان في جيش طلحة، كأنما قتله غدراً.

وقد جاء عمران بن طلحة إلى عليّ ﷺ بعد أن انتهت وقعة الجمل فرحَّب به وأدناه منه، وقال له: إنِّي لأرجو أن يجعلني الله وأباك من الَّذِينَ قال: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مَُّنْقَلِبِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

فقال رجلان جالسان إلى ناحية، أحدهما الحارث الأعور: الله أعدل من ذلك؛ أن نقتلهم ويكونوا إخواننا في الجنة!

قال: قوما أبعد أرض الله وأسحقها، فمن هو إذا لم أكن أنا وطلحة؟ يا ابن أخي إذا كانت لك حاجة فأتنا^(٣).

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مَُّنْقَلِبِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

(١) متَّفَق عليه: رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٤٦)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤١٥)، عن جابر.

(٢) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (١١٣/٢٥).

(٣) رواه الحاكم في معرفة الصحابة (٣٧٦/٣)، وصحَّح إسناده، ووافقه الذهبي. والبيهقي في قتال أهل البغي (١٧٣/٨)، عن أبي حبيبة مولى طلحة.

كانت فتنة عظيمة - أيها الإخوة، قُتل فيها طلحة رضي الله عنه بعد أن ندم على خروجه، وقُتل فيها الزبير رضي الله عنه أيضًا بعد أن ندم على خروجه، ولم يدع الهائجون والمهيجون فرصة لهؤلاء العقلاء ليطفئوا النار، لم يدع هؤلاء فرصة أبدًا تحقن بها الدماء.

كان طلحة رضي الله عنه أحد المشهود لهم بالجنة، وأحد الذين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض، وأحد الذين لهم فضلهم وسبقهم في هذا الدين العظيم.

نسأل الله تعالى أن يجعلنا في زمرة هؤلاء الذين قال الله فيهم: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

ادعوا الله تعالى يستجب لكم.

* * *

الخطبة الثانية

أمّا بعد، فيا أيّها الإخوة المسلمون:

دعوة إلى حقن الدماء في العراق:

لا يزال سيل الدماء يتدفّق في العراق الشقيق، لا تزال نسمع كلّ يوم عن قتلى وجرحى يسقطون من هذا الفريق أو ذاك، لا تزال الدماء تُسفك، ولا تزال الحُرّمات تُنتهك، ولا تزال الأملاك تُدمّر، ولا أدري من المستفيد من هذا كلّهُ؟!!

آخر ما رأيناه من ذلك كان أوّل أمس، تفجير قُتل فيه أكثر من مائتي قتيل، ونحوهم أو أكثر منهم من الجرحى والمصابين.
كان هؤلاء في مدينة الصدر، أي: من الشيعة، ولكن أيّاً كان المقتولون من الشيعة أو من السنة، أو كانوا من النصارى، فهم جميعاً من المدنيين الذين لا يحملون السلاح ولا يقاتلون.

إلى متى تظلُّ هذه الدماء تُسفك؟ إلى متى تظلُّ هذه الحُرّمات تُهتك؟ إلى متى تظلُّ هذه المعركة مشتعلة؟

هذا الشعب له أربع سنوات أو تزيد وهو يقدم يومياً من دماء أبنائه ومن أرواحهم العشرات والمئات والآلاف، إلى متى هذا؟

والله إنّ هذا لا يُرضي أحداً، لا بدّ للعقلاء من أبناء العراق، لا بدّ لرؤساء العشائر، لا بدّ لزعماء الطوائف، لا بدّ لشيوخ الدين، لا بدّ لقادة الفصائل، لا بدّ لكلّ ذي رأي وكلّ ذي مكانة، لا بدّ لهؤلاء جميعاً أن يجتمعوا على كلمة سواء، يكفُّ بها النَّاس بعضهم عن بعض، لا بدّ أن يجتمعوا على شيء واحد، على أن يتردوا الاحتلال.

والاحتلال يريد أن يخرج اليوم قبل الغد، فهو لم يحقق نصرًا، ولم يكسب غنمًا، فضلًا عمَّا خسر من أبنائه وأمواله.

على أبناء العراق أن يتقوا الله في أنفسهم وأهليهم، إِنَّ الْإِسْلَامَ يَبْسُطُ يَدَهُ بِالسَّلَامِ دَائِمًا كَلَّمَا وُجِدَ السَّلَامُ، ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَدْخُلُوا فِي السَّلَامِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨]، ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنفال: ٦١]، ﴿فَإِنْ أَعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقِنِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٩٠].

لا بدّ من السعي إلى السلم، لا بدّ من السعي إلى كفّ الأيدي، لا بدّ من التفاوض، أمّا أن يتفاوض النَّاسُ بالمفخخات وبالقنابل تُلقى على الأبرياء والأمينين هنا وهناك فهذا ليس منطقيًا، ليس منطق العقلاء، منطق العقلاء أن يجلس بعضهم إلى بعض، ويستمع بعضهم إلى بعض، ويحاجّ بعضهم بعضًا، ويقيموا الحجّة على من لا حجّة له.

هذا هو المنطق، خصوصًا أبناء البلد الواحد، هذا البلد الذي كان بلدًا واحدًا وشعبًا واحدًا رغم اختلاف أديانه واختلاف مذاهبه، لم يكن هناك فرق بين سُنيّ وشيوعي، كان السُّنيّ يتزوج من الشيعية، والشيعي يتزوج من السُّنية، وكانت العشيرة الواحدة فيها هذا وذاك، لماذا لا يعود هذا الشعب إلى أصله؟!

أنا أدعو العراقيين بكلّ أطيافهم وبكلّ اتجاهاتهم أن يلقى بعضهم بعضًا، ويجلس بعضهم إلى بعض، ويتفاوض بعضهم مع بعض، ويتفاهموا، كفى ما سال من دماء، كفى ما أزهد من أرواح، كفى ما دُمّر من ممتلكات، إلى متى يظلُّ هذا الشعب يخسر الأرواح والأموال؟

هذا - والله - يؤلم كلّ مؤمن وكلّ عاقل.

العنف في أمريكا:

أنا أكره ما أكره سفك الدماء بغير حقّ، حتّى إنّي تألمت أشدّ الألم لما حدث في أمريكا، أن يقتل طالب مسلّح ثلاثًا وثلاثين طالبًا من زملائه وإخوانه، ما هذا؟

هذه فلسفة العنف، نتيجة أفلام العنف، نتيجة العنف الذي تستعمله أمريكا، إنّها تجعل القوة هي الحكم في كلّ شيء، تستخدم قوتها في إكراه الشعوب على ما تريد.

هذه الفلسفة أثّرت أثرها في مدارس أمريكا، حتّى المدارس الثانوية والإعدادية، نرى في الشباب من يقتل زملاءه، يقتل كلّ هذا العدد لغير سبب مفهوم، ما هذا؟

إنّها فلسفة العنف، نتاج الفلسفات المادية والإباحية، التي لا تورث الشباب دينًا، لا تورثهم الإيمان، لا تورثهم القيم الأخلاقية، لا تورثهم الرحمة، لا تورثهم الأخوة، إنّما تورثهم الأنانية والعنف وتحكيم البندقية أو الرشاش.

هذه هي فلسفة الحضارة الأمريكية التي تورثها لأبنائها.

لقد تألمت حينما وقعت هذه الحادثة وقالوا: ثلاث وثلاثون قُتلوا في جامعة، أمسكت قلبي بيدي وقلت: ليت شعري من القاتل؟ خشية أن يكون مسلمًا، ولكن وجدت أنّهم لا يتحدثون، لمّا عرفوا أنّه كوري جنوبي صمتوا!

لو كان عربيًا لو كان مسلمًا فماذا كان سيكون الحال؟ لو كان عربيًا مسلمًا قتل ثلاثة وليس ثلاثة وثلاثين فماذا كان سيحدث؟

ستنقلب الدنيا رأسًا على عقب، ستثور الثائرة، ويهيج الهياج، وتشتعل النار، ولكن لأنه غير عربي وغير مسلم قابلوا الأمر بما يشبه الصمت، لم يتحدثوا عنه، ولم يطيلوا الحديث.

هذا هو الازدواج في المعايير كما يسمونه، الكيل بكيلين أو بثلاثة أكيال، أو بأكثر من ذلك.

هذه هي أمريكا، ونحن لا نحبُّ سيلان الدماء، نحبُّ أن تعيش الإنسانية كلها في سلام.

هذا هو ديننا الذي يعقب على معركة لم يحدث فيها دماء ولا قتال، فيقول: ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ [الأحزاب: ٢٥].

نحن لسنا هواة قتال، لسنا متعطشين للدماء، الدين الذي يقول عن صلح الحديبية: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ [الفتح: ١]، كان فتحًا سلميًا.

هذا هو الذي يسعى إليه الإسلام، الإسلام لا يسعى إلى السيف إلا مضطرًا؛ ليدافع عن نفسه ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

هذا هو الدين العظيم الذي أكرمنا الله تعالى به، ونسأله تعالى أن يثبتنا عليه، وأن يرزقنا حسن الفقه له، وحسن العمل به، وحسن الدعوة إليه، إنه سميع قريب.

اللهم هب لنا من أمرنا رشداً، اللهم لا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا أقل من ذلك.

اللهم إننا نسألك العفو والعافية في ديننا ودنيانا، وأهلينا وأموالنا، اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا، واحفظنا من بين أيدينا ومن خلفنا، وعن أيمننا وعن شمائلنا، ونعوذ بعظمتك أن نغتال من تحتنا.

اللهم انصرنا على أعدائك أعداء الإسلام، اللهم انصرنا على أعدائك أعداء الإسلام، اللهم رُدَّ عَنَّا كَيْدَهُمْ، وَفُلَّ حُدَّهْمَ، وَأَزَلْ دَوْلَتَهُمْ، وَأَذْهَبْ عَن أَرْضِكَ سُلْطَانَهُمْ، وَلَا تَدْعَ لَهُمْ سَبِيلًا عَلَى أَحَدٍ مِّنْ عِبَادِكَ الْمُؤْمِنِينَ، اللَّهُمَّ إِنَّا نَجْعَلُكَ فِي نَحْوِهِمْ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شُرُورِهِمْ.

اللهم يا منزل الكتاب، ويا مجري السحاب، ويا سريع الحساب، ويا هازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم، اللهم اهزمهم وانصرنا عليهم.

اللهم انصر إخوتنا المجاهدين في سبيلك حيثما كانوا، اللهم انصر إخوتنا المجاهدين في فلسطين، اللهم انصر إخوتنا في فلسطين، وانصر إخوتنا في العراق، وانصر إخوتنا في كل مكان، اللهم افتح لهم فتحًا مبينًا، واهدهم صراطًا مستقيمًا، وانصرهم نصرًا عزيزًا، وأتم عليهم نعمتك، وأنزل في قلوبهم سكينتك، وانشر عليهم فضلك ورحمتك.

اللهم ارفع مقتك وغضبك عَنَّا، اللهم ارفع مقتك وغضبك عَنَّا، اللهم ارفع مقتك وغضبك عَنَّا.

اللهم اجعل هذا البلد آمنًا مطمئنًا، سخيًا رخاءً، وسائر بلاد المسلمين.

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر: ١٠].

عباد الله:

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٦].



اللهم صلّ وسلّم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلّم
تسليماً كثيراً.

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ
اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥]

وأذكر الإخوة بدرس التفسير اليوم بعد المغرب في جامع الشيوخ -
إن شاء الله.

* * *



الزبير بن العوام رضي الله عنه (١)

الخطبة الأولى

أَمَّا بَعْدُ، فَيَا أَيُّهَا الإِخْوَةُ الْمُسْلِمُونَ:

لا زلنا نعيش في صحبة الرعيل الأول، في صحبة خير أجيال البشرية، في صحبة الجيل القرآني الفريد: تلاميذ مدرسة محمد صلى الله عليه وسلم ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ، وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَأَتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ، أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، خير أصحاب الأنبياء.

هذا الجيل العظيم الذي أودى فصر، والذي جاهد فانتصر، والذي أعطي فشكر، والذي حكم فعدل، والذي فتح الفتوح وأقام في الدنيا دولة العدل والإحسان.

لا زلنا مع هذا الجيل العظيم، جيل الصحابة رضوان الله عليهم، تحدثنا عن عدد منهم، واليوم نتحدث عن واحد من هؤلاء، هو الزبير بن العوام رضي الله عنه. هو الزبير بن العوام بن خويلد الأسدي القرشي. عمته خديجة بنت خويلد، وهو أحد السابقين الأولين من المهاجرين، وأحد العشرة

(١) ألقى في مسجد عمر بن الخطاب بالدوحة، بتاريخ ٣ نوفمبر ٢٠٠٦م.

المُبَشَّرِينَ بِالْجَنَّةِ، وَأَحَدَ السِّتَّةِ أَصْحَابِ الشُّورَى، وَأَحَدَ أَهْلِ بَدْرٍ، وَأَحَدَ الَّذِينَ بَايَعُوا تَحْتَ الشَّجَرَةِ بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ، ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨]، هُوَ وَاحِدٌ مِنْ هَؤُلَاءِ جَمِيعًا.

بداية إسلامه:

أسلم الزُّبَيْرُ وهو ابن ثمانين سنين، وفي رواية: وهو ابن خمس عشرة سنة. ولكن الراجح أنَّ هَؤُلَاءِ الأربعة: علي، والزبير، وطلحة، وسعد بن أبي وقاص أسلموا صغارًا قبل العاشرة من أعمارهم، وكانوا أترابًا، يُقال: إنهم وُلِدُوا فِي سَنَةٍ وَاحِدَةٍ.

أسلم الزبير، وسعد، وعثمان، وعبد الرحمن بن عوف على يد أبي بكر الصديق رضي الله عنه. كان أبو بكر يذهب إلى هَؤُلَاءِ الشباب الصغار ويدعوهم إلى الإسلام، ويعلم أنَّ هَؤُلَاءِ الشباب سيكونون رجال الغد فأسلموا من صغرهم، وكان عم الزُّبَيْرِ يُعَذِّبُهُ وَيُعَلِّقُهُ وَيُدْخِنُ عَلَيْهِ لِيَرْجِعَ عَنِ الْإِسْلَامِ، فيقول له: والله يا عم، لا أرجع إلى الكفر أبدًا. فكان الزُّبَيْرُ مِنْ أَوَائِلِ الَّذِينَ أُسْلِمُوا وَدَخَلُوا فِي هَذَا الدِّينِ، وَتَحَمَّلُوا الْأَذَى فِي سَبِيلِهِ.

شجاعة الزبير وقوته:

وكان الزُّبَيْرُ مِنَ الشُّجْعَانِ، رَبَّتْهُ أُمُّهُ عَلَى الشَّجَاعَةِ، فَأُمُّهُ هِيَ صَفِيَّةُ بِنْتِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ عَمَةِ رَسُولِ اللَّهِ، الَّتِي عُرِفَتْ بِالشَّجَاعَةِ وَالْقُوَّةِ، وَقَدْ قَتَلَتْ يَهُودِيًّا اقْتَرَبَ مِنَ الْمَنْطِقَةِ الَّتِي يَتَحَصَّنُ بِهَا النِّسَاءُ يَوْمَ الْخَنْدَقِ، ضَرَبَتْهُ بِعَمُودٍ فَقَتَلَتْهُ.

رَبَّتْ صَفِيَّةُ الزُّبَيْرِ عَلَى الْخَشُونَةِ، وَكَانَ يَتِيمًا، وَعَادَةُ تَرْبِيَةِ النِّسَاءِ أَنْ تَكُونَ فِيهَا اللَّيُونَةُ وَالرَّقَّةُ، وَلَكِنْ صَفِيَّةُ رَبَّتْهُ عَلَى الْخَشُونَةِ، وَكَانَتْ تَضْرِبُهُ، وَتَشْتَدُّ

عليه في ضربه، حتّى قال لها بعض جيرانها: قتلت الغلام، أهلكته. قالت: إنّما أضربه لكي يدب ويهزم الجيش ويأتي بالسلب^(١). تريد أن تُعوّده الخشونة من صغره، حتّى إنّّه تصارع مع غلام في صغره فكسر يده؛ لشدة بأسه.

كان الزُّبَيْر يُعتبر من الأربعة الأشداء من الصحابة: عمر، وعليّ، والزبير، وسعد. وكان يُعتبر من أصحاب النجدة، يقال: نجدة الصحابة: حمزة، وعليّ، والزُّبَيْر^(٢).

نشأ الزُّبَيْر بن العوّام في الإسلام من صغره في مكّة، حتّى إنّّه سمع أنّ رسول الله أخذ في أعلى مكّة، أي: خُطف بلغة عصرنا، خطفه خاطفون، فانطلق الزُّبَيْر يحمل سيفه وهو ابن اثني عشر عامًا، ومر على الناس فقالوا: غلام يحمل سيفًا! فذهب حتّى وجد رسول الله ﷺ، فرآه النبي ومعه السيف، فقال: «ماذا يا زبير؟» قال: سمعت أنّك أخذت يا رسول الله. قال له: «فكنت صانعًا ماذا؟» قال: كنت أضرب بسيفي هذا من أخذك. فدعا له الرسول ﷺ ولسيفه^(٣)، هذا السيف الذي أبلى بلاءً حسنًا في سبيل الله في الغزوات كلها، هذا السيف الذي ورثه أبناؤه من بعده. قال ابنه عروة: قَوْمنا بكذا ألفًا - ثلاثين ألف أو نحوها لا أذكر - وأخذه بعضنا، وكم وددت لو أنّه كان لي^(٤).

هجرة الزبير ومشاركته في الجهاد:

هاجر الزُّبَيْر إلى الحبشة، ولم يُطل الإقامة بها، وعاد ليهاجر مع مَنْ هاجر من الصحابة إلى المدينة، وآخى النبيُّ بينه وبين بعض

(١) سير أعلام النبلاء (٤٥/١).

(٢) سير أعلام النبلاء (٥٢/١).

(٣) رواه أبو نعيم في معرفة الصحابة (٤٢٥).

(٤) رواه البخاري في المغازي (٣٩٧٣)، عن عروة بن الزبير.

الأنصار، وشهد الغزوات كلها مع رسول الله ﷺ، لم يتخلف عن غزوة منها.

في بدر كان في المسلمون ثلاثمائة وبضعة عشر ليس معهم إلا فارسان: الزبير بن العوام على فرس في الميمنة، والمقداد بن الأسود على فرس في الميسرة، وقد قتل الزبير أحد المشركين، ضربه بسيفه حتى وصل إلى كربوس الفرس أي مُقدّم سرجه، فقال له مَنْ قال: ما أجود سيفك. فغضب الزبير لأن الفضل ليس لسيفه، وإنما ليدِه^(١)، ليس المهم هو السيف، إنما اليد التي تحمل السيف وتضرب به، وقد قال الطغرائي:

وَشِيْمَةُ السَّيْفِ أَنْ يُزْهَى بِجَوْهَرِهِ وَلَيْسَ يَعْمَلُ إِلَّا فِي يَدَيْ بَطْلٍ^(٢)

خاض الزبير معركة بدر، وأصيب منها بضربتين إحداهما في عاتقه، وكانت لها نُقرة غائرة، وقال ابنه عروة: كنت ألعب فيها^(٣). يجد منطقة غائرة في عاتقه فيضع فيها يده ويلعب فيها، هكذا كان الزبير رضي الله عنه.

وبعد غزوة أحد خشي النبي ﷺ، أو لعله سمع أن المشركين يريدون أن يعودوا إلى المدينة مرة أخرى، فانتدب بعض أصحابه ليلحقوا بهم، ليمضوا في أثرهم، فكان على رأسهم أبو بكر والزبير، ولذلك قالت عائشة رضي الله عنها لعروة بن أختها أسماء، وكان الزبير زوج أسماء رضي الله عنها: كان أبواك - تعني أبا بكر والزبير - ممن انطبق عليهم قول

(١) رواه الدينوري في المجالسة (١١٤١). وانظر: سير أعلام النبلاء (٥١/١).

(٢) ديوان الطغرائي ص ٣٠٧، قصيدة لامية العجم، تحقيق د. علي جواد طاهر ود. يحيى الجبوري، نشر مطابع الدوحة الحديثة، ط ٢، ١٩٨٦م.

(٣) رواه البخاري في المغازي (٣٩٧٣).

الله تعالى: ﴿ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿ [آل عمران: ١٧٢، ١٧٣] (١).

حواري الرسول:

وفي غزوة الخندق، غزوة الأحزاب التي هاجم المشركون فيها رسول الله وأصحابه في عقر دارهم، يريدون استئصال جذورهم وإبادتهم عن آخرهم، وانضمَّ إلى هؤلاء المغيرين من الخارج اليهود من الداخل، يهود بني قُرَيْظَةَ الَّذِينَ كان بينهم وبين رسول الله معاهدة واتفاقية مكتوبة: أن يكونوا مع الرسول وأصحابه إذا هاجمهم مهاجم يمدونه بالمال وبالرجال وبالسلاح، ولكن هؤلاء اليهود انتهزوها فرصة، والمغبيرون أكثر من عشرة آلاف متسلحون متحمسون، قالوا: فرصة لنقضي على محمد وأصحابه. وغدروا برسول الله، وعرف الرسول ذلك، فقال: «مَنْ يذهب إلى القوم إلى بني قُرَيْظَةَ ليأتيني بخبرهم؟» فسكت الصحابة، ولكن واحدًا نطق وقال: أنا يا رسول الله. كان هذا هو الزبير، فذهب وأتاه بخبرهم، وبعد فترة أراد الرسول أن يتبع أخبارهم، فقال: «مَنْ يأتيني بخبر القوم؟» فسكت الصحابة ونطق واحد منهم وقال: أنا يا رسول الله. وكان هو الزبير، وذهب وأتى بخبرهم، وفي المرة الثالثة كرَّر الرسول قوله، وكان الزُّبَيْرُ هو الفارس الَّذِي يُعَدُّ نفسه للملمات، كان يُعْتَبَرُ من أشجع الناس. كان الزُّبَيْرُ أشجع النَّاسِ، ذهب وأتى بخبر القوم، وحينما قال ذلك دعا له النبي ﷺ، وقال: «إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيًّا - أَي: ناصِرًا

(١) متَّفَقٌ عَلَيْهِ: رواه البخاري في المغازي (٤٠٧٧)، ومسلم في فضائل الصَّحَابَةِ (٢٤١٨)، عن عائشة.

مخلصًا له - وإنَّ حوارِيَّ الزُّبَيْرَ»^(١). كما كان لعيسى حوارِيون كان لمُحمَّد حوارِيون، وحواريه الزبير، وقال: «الزُّبَيْرُ حوارِيٌّ من أمتي وابن عمَّتِي»^(٢). هكذا وصفه رسول الله ﷺ.

قال ابنه عبد الله: كان للزبير أربع نساء: أولاهنَّ أسماء بنت أبي بكر: ذات النطاقين، هي التي زوّجها له أبو بكر أولاً، ثم تزوّج عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل، ثم تزوّج أم خالد، ثم تزوّج أم مصعب الكلبيّة.

وكان له من أسماء عبد الله وعروة، ويُعتبر عبد الله بن الزُّبَيْرِ أوَّل مولود في المدينة، أشاع المشركون أنَّ المسلمين لا ينجبون لأنَّهم ظلُّوا عدَّة أشهر لم يلد منهم أحد، فقالوا: إنَّ المسلمين أصيبوا بالعقم. ثمَّ وُلد عبد الله بن الزُّبَيْرِ فكَبَّرَ أهل المدينة. وفي غزوة الخندق كان عمره نحو أربع سنين، كان هو وعمر بن أبي سلمة صبيَّين صغيرين، يرفع أحدهما الآخر ليرى من فوق السور يطل على الصحابة، فرأى أباه، وقال له: يا أبت، لقد رأيتك تحمل سيفك وتفعل كذا وكذا. قال: رأيتني يا بني؟ قال: نعم يا أبي. قال: لقد جمع لي رسول الله ﷺ أبويه في ذلك اليوم، قال: «ارمِ فداك أبي وأُمِّي»^(٣). قالها لسعد بن أبي وقاص في أحد، وقالها للزبير بن العوام في الخندق.

وفي فتح مكَّة كان الزُّبَيْرُ يحمل لواءً، وأعطاه الرسول ﷺ لواءً آخر هو لواء سعد بن عبادَةَ الأنصاري فدخل الزُّبَيْرُ بلواءين.

(١) سبق تخريجه ص ١٦٢.

(٢) رواه أحمد (١٦١١٣)، وقال مخرَّجوه: حديث صحيح، عن عبد الله بن الزبير.

(٣) متَّفَق عليه: رواه البخاري في أصحاب النبي ﷺ (٣٧٢٠)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤١٦).

ومما ذكره كُتَّاب السيرة أَنَّ الزُّبَيْرَ رضي عنه في غزوة بدر كان يلبس
عِمامة صفراء، فنزلت الملائكة تلبس عمامة صفراء^(١)، فاعتبروا هذا منقبة
للزبير رضي عنه.

موضع ثقة الصحابة:

عاش الزُّبَيْرُ حياته كلها أقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثمَّ عاش بعد
رسول الله صلى الله عليه وسلم يشارك في الفتوح: شارك في فتح مصر، وشارك في معركة
اليرموك، وكان له فيها بلاء حسن، كان يشقُّ جيش الروم من أوله إلى
آخره، لأنَّه كان أشجع الناس لا يبالي أوقع الموت عليه أو وقع على
الموت، لا يبالي بالموت ولا يبالي بأحد، كانت للزبير مواقف عظيمة
في الفتوح كلها.

وكان الزُّبَيْرُ نِعْمَ المشير ونِعْمَ العون للخلفاء بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم،
لصهره أبي بكر، ولعمر، ولعثمان رضي عنه، وكان ممَّن دافعوا عن عثمان يوم
حُوصِر.

وكان موضع ثقة الصحابة رضوان الله عليهم فأوصى سبعة من
الصحابة إلى الزُّبَيْرِ أن يرعى ذريَّتهم من بعدهم، منهم عبد الرحمن،
وعثمان، وابن مسعود، قالوا: فكان ينفق على هؤلاء الذرية من ماله،
ويحفظ لهم أموالهم.

قلة الحديث وكثرة الصدقة:

كان كثير الصدقة في سبيل الله، قالوا: كان له ألف مملوك يُدرون
عليه الخراج. أي أنَّه تركهم يعملون ويأتونه بما يفيض من أجورهم،

(١) رواه ابن أبي شيبة في اللباس والزينة (٢٥٢٤٧)، والحاكم في معرفة الصحابة (٣/٣٦١).

قالوا: فلم يكن يُدخل في بيته من خراجهم درهماً، بل كان يتصدَّق بها كلها^(١). هكذا كان ﷺ.

وكان من أقل الناس حديثاً عن رسول الله ﷺ، قال له ابنه عبد الله - أكبر أبنائه - وكان له أربعة أبناء، هم: عبد الله، وعروة أحد الفقهاء السبعة في المدينة، وأحد الرجال الورعين المُحدثين الفقهاء والرواة عن عائشة رضي الله عنها، ومن أبنائه: مصعب وجعفر. سأله ابنه عبد الله: ما لك يا أبت لا تكثر الرواية عن رسول الله كما يفعل فلان وفلان؟ قال: يا بني، والله ما فارقت رسول الله ﷺ منذ أسلمت، ولكنني سمعت منه كلمة، قال ﷺ: «مَنْ كَذَبَ عَلِيَّ مُتَعَمِّدًا فليتبوأ مقعده من النار»^(٢). وفي رواية: «مَنْ كَذَبَ عَلِيَّ»^(٣). وليس فيها كلمة (متعمداً). فهذا سبب قلّة روايته عن رسول الله ﷺ.

وقبل أن يستشهد عمر رضي الله عنه، بعد أن ضربه أبو لؤلؤة المجوسي أوصى عمر إلى ستّة من الصحابة أن تكون الخلافة في واحد منهم، أحدهم الزُّبير بن العوام؛ وهم عثمان، وعلي، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد، وطلحة، والزبير، ولكن الزُّبير وطلحة وسعداً وعبد الرحمن تنازلوا عن الترشيح، وتركوا الأمر بين اثنين: عثمان، وعلي، فكان الزُّبير من هؤلاء الذين رُشِّحوا للخلافة، وهو أهل لها، فقد رشح عمر الستّة الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ، لا خلاف عليهم في ذلك الوقت، وكان ما كان أن اختار معظم الصحابة سيّدنا عثمان رضي الله عنه.

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٩٠/١).

(٢) رواه أحمد (١٤١٣)، وقال مخرّجوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، وهو حديث متواتر.

(٣) رواه البخاري في العلم (١٠٧).

ولمّا مات عبد الرحمن بعد ذلك بقي الزُّبَيْرُ وطلحة وسعد وعليّ، وجاء بعض الناس مرة إلى عثمان وقالوا له: يا أمير المؤمنين، استخلف. فسألهم: هل تقول الناس ذلك؟ قالوا: نعم. قال: مَنْ؟ فسكتوا، ثمّ جاء رجل آخر وقال: يا أمير المؤمنين، استخلف. فسأله: هل قال الناس ذلك؟ قال: نعم. قال: مَنْ؟ قال: الزبير. قال: إذا قلت ما قلت فإنّه كان أخيرهم، وكان أحب الناس إلى رسول الله ﷺ^(١).

موقعة الجمل:

هذا هو الزُّبَيْرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الَّذِي عاش ما عاش للإسلام، ثمّ بعد أن قُتل عثمان، وبعد أن وُلِّيَ عليّ كانت الفتنة الكبرى، وأول هذه الفتن (وقعة الجمل) التي كانت فيها عائشة أم المؤمنين رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وكان فيها طلحة والزُّبَيْرُ المُبَشَّرَيْنِ بِالْجَنَّةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، ذهب الثلاثة ليطالبوا بدم عثمان، ويلاقوا عليًّا في معركة هي أوّل معارك الفتن في الإسلام.

كانت هذه الفتنة من عمل الدسائس اليهوديّة التي تكيد كيدها للمسلمين، كلما اتفق الطرفان على أن يكفّ بعضهما عن بعض قام من هؤلاء الفتنين والدسّاسين مَنْ يرمي سهمًا على الآخرين فتشتعل المعركة.

قاتل الزبير في النار:

المهم أنّ الزُّبَيْرَ ترك المعركة وعاد، ولكن أحد الناس قتله يسمى ابن جرموز، قالوا: قتله وهو نائم. وقالوا: قتله وهو يصلي. وقالوا: تجمّع عليهم بعضهم فقتلوه. اختلف في ذلك، قالوا: إنّ القاتل جاء إلى عليّ يُبشّره بأنه قتل الزبير. فقال: لا تدخلوه عليّ، وبشّروه أنّه في النار،

(١) رواه البخاري في أصحاب النبي ﷺ (٣٧١٧).

سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قاتل الزُّبَيْر في النار»^(١). وفي رواية: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لكل نبيٍّ حواريٍّ، وحواريِّي الزبير»^(٢). فهل قول: «قاتل الزُّبَيْر في النار». من قول عليٍّ أم من قول رسول الله ﷺ؟ اختلفت الروايات في هذا.

دَيْن الزُّبَيْر:

وقبل أن يُقتل الزُّبَيْر وهو في المعركة دعا ابنه عبد الله، وقال له: يا بني، ما أظنني إلا مقتولاً في هذه المعركة، وليس يُقتل فيها إلا ظالم أو مظلوم، وأحسب أنني سأقتل مظلوماً، وإنَّ الذي يهمني هو الدَّين الَّذي عليّ. وكان عليه دَيْن كبير: ألفا ألف ومائة ألف، اثنان مليون ومائتا ألف درهم، وهذا مبلغ كبير بالقوة الشرائية للدرهم في تلك الأيام، حيث تشتري الخمس دراهم منه شاة.

وكان دَيْن الزُّبَيْر كما يقول ابنه عبد الله: أَنَّ الرجل يأتيه يستودعه ماله.. كان ثقة عند الصحابة، مَنْ عنده مال يريد أن يحفظه يأتي إلى الزبير، فيقول: اجعله سلفاً؛ فإنني أخشى عليه الضياع. لأنَّ الوديعة إذا ضاعت لا يضمنها المُودِع عنده، تضيع على صاحبها، أمَّا السلف أو القرض فهو على صاحبه إن ضاع يتكفَّل به، فقال: اجعله سلفاً، أسلفه لي. فتكاثرت السُّلف عنده حتَّى بلغت هذا المبلغ، وكان كثير الصدقات فصار عليه هذا المبلغ الكبير، ولم يترك ديناراً ولا درهماً، ولكنَّه ترك عقارات، ترك أرضاً بالغابة منطقة بالمدينة فيها أشجار، وداراً بالمدينة،

(١) رواه أحمد (٦٨١)، وقال مخرّجوه: إسناده حسن، والطبراني (١٢٣/١)، والحاكم في معرفة الصحابة (٣٦٧/٣)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي. عن علي بن أبي طالب.

(٢) سبق تخريجه ص ١٦٢.

ودارًا بالبصرة، ودارًا بالكوفة، ودارًا بمصر، كلها عقارات، وشاء الله أن ترتفع قيمة هذه العقارات كما يحدث في عصرنا، ويتضاعف ثمنها بالآلاف والآلاف.

قال الزبير لابنه عبد الله: ليكن همك سداد ديني، فإن عجزت فاستعن بمولاي. قال عبد الله: ولم أدر ماذا عنى؟ قلت له: يا أبت، من مولاك الذي أستعين به؟ ظن أنه أحد الصحابة، قال: يا بني، إن مولاي هو الله الذي يتولى الصالحين. قال عبد الله: فكنت إذا وقعت في كربة من كرب دين الزبير أقول: يا مولى الزبير اقض عنه دينه، فيقضيه^(١). هكذا كان الزبير رضي عنه.

عاش الزبير للإسلام، ومات الزبير للإسلام، وحينما قضى عبد الله بن الزبير الدين أراد إخوته أن يقسموا التركة، فقال لهم: لا والله إلا بعد أربع سنين أنادي في موسم الحج: من كان له على الزبير دين فليأت فليأخذه. وبعد أربع سنين أعطيتكم حقكم^(٢). هكذا كان الصحابة رضوان الله عليهم

لا يقتص من ابن جرموز للزبير:

حينما وُلِّي عبد الله بن الزبير الخلافة بعد وفاة يزيد بن معاوية قام وقال: أنا أولى الناس بالخلافة. وبُوع له بالخلافة، ونُودي بأمير المؤمنين تسع سنوات في مكة والعراق وما حولها، وكان واليه على العراق أخوه مصعب بن الزبير، وجيء بابن جرموز قاتل أبيه فحبسه،

(١) رواه البخاري في فرض الخمس (٣١٢٩).

(٢) جزء من الحديث السابق.



وأرسل إلى أخيه عبد الله: إنَّ ابن جرموز في السجن عندي أفأقتص منه بما قتل الزبير؟ فقال: لا والله لا يُقتص من ابن جرموز بالزبير، ولا بشسع نعله، خلَّ سبيله^(١). أهذا الذي نقتله بالزبير؟! وخلَّى سبيله.

رضي الله عن الزبير، ورضي الله عن الصحابة أجمعين، ونسأل الله أن يحشرنا في زمرةهم؛ إنَّه سميع مجيب، ادعوا الله يستجب لكم.



(١) سير أعلام النبلاء (٦٤/١).

الخطبة الثانية

أمّا بعدُ، فيا أيُّها الإخوة المسلمون:

منذ ما قبل رمضان وأحداث الأُمَّة العربية والإسلامية كما هي، لا تكاد الأحداث تتحرك، لا تزال تدور في مدارها، لا يزال المرء حينما يرى نشرات الأخبار يرى المآسي والآلام كلها في بلاد الإسلام، الأخبار المؤسفة والمؤلمة كلها في بلادنا العربية والإسلامية، أحداث ما قبل رمضان هي أحداث اليوم، لا زالت قضية فلسطين كما هي، لا زالت قضية العراق كما هي، لا زالت قضية كشمير كما هي، لا تزال قضية أفغانستان كما هي، لا تزال قضية الصومال كما هي، لم تنته أحداث لبنان، ولم تنته المشكلة فيها بعد، كل ما كنا نشكو منه لا زال قائماً كما هو.

وأشد ما نشكو منه، وأمرُّ ما نشكو منه، وأخطر ما نشكو منه هو قضية القضايا، أمُّ القضايا قضية فلسطين، قضية أرض النبتات، أرض المقدّسات، أرض الإسراء والمعراج التي تتعرض للأخطار باستمرار، ويزداد الخطر يوماً بعد يوم على المسجد الأقصى، لا تزال هذه القضية في مكانها.

الحرب على الحكومة المنتخبة في فلسطين:

لا تزال الحكومة التي انتخبها الشعب الفلسطيني بإرادته الحرّة، لم يؤثر عليها أحد، السلطة هي التي أقامت الانتخابات واختار الشعب الفلسطيني البطل الصامد الصابر المُضحّي: اختار الإخوة في حماس؛ ليحكموه بأمانة وطهارة واستقامة، ولكن لا تزال الحرب مُعلنة على الحكومة التي جاءت نتيجة الديمقراطية.

أين الديمقراطية الذي يتغنى العالم بها؟! لقد عُقد في قطر منذ أيام مؤتمر عالمي دولي للديمقراطيات حضره المئات من الشخصيات، ومن الحكومات، ومن الهيئات، ومن البرلمانات، ومن مؤسسات المجتمع المدني، وأشادوا بالديمقراطية، ولكن أين الديمقراطية في فلسطين؟ أين العالم الذي اجتمع من أجل الديمقراطية؟ أين صوته المسموع، أين لواءه المرفوع، الذي يؤيد الحكومة التي جاءت بالديمقراطية؟ هل الديمقراطية مجرد كلام في كلام، شعارات في شعارات؟ مؤتمرات تجتمع ثم تنفض، وقرارات تُكتب ثم تبقى حبراً على ورق؟ أين الديمقراطية؟

أين العالم العربي؟ أين جامعة الدول العربية لتشدّ أزر الحكومة الديمقراطية المنتخبة لتهيئ الطريق لتصل إليها الأموال؟ أين العالم العربي؟ أين العالم الإسلامي؟ أين الحكومات؟ أين مؤسسات المجتمع المدني؟ لا نجد الصوت العالي، هناك أصوات ولكنها أصوات خافتة، والصوت الخافت ينيم اليقظان، والصوت الصارخ يوقظ النائم.

نريد صرخات من شعوبنا، من مؤسساتنا: تؤيد الحق ضد الباطل، تؤيد النظام ضد الفوضى، تؤيد الطهارة ضد التلوث، تؤيد الاستقامة ضد الانحراف، نريد أصواتاً قوية تقف مع إخواننا، أين هذه الأصوات؟ لماذا لا نرى هذه الأصوات في عالمنا؟

لا زال إخواننا يُحاربون إلى اليوم ولم تقم الأمة بما يجب عليها نحو هؤلاء الإخوة. إسرائيل في كل يوم تقتل، تُذبح، تُدمر، تُحرق، تقتلع

أشجارًا، وهي ماضية في طريقها، وآخرها الاجتياح الأخير في بيت حانون، بالأمس استشهد ثلاث عشر شهيدًا، ولا ندري ماذا كان اليوم؟ فأين صراخ العالم العربي والعالم الإسلامي، وعالم الديمقراطيات الجديدة والمستعادة والمستفاد؟ أين هذا العالم؟

نحن لا يسعنا إلا أن نقف بقوة وراء الحق الفلسطيني، وراء إخوتنا في فلسطين، وراء اختيار الشعب الفلسطيني، لا يجوز أبدًا أن نُضَيِّع اختياره، الشعب الفلسطيني اختار بملء إرادته، وبكامل حرته، فلا يجوز أبدًا أن يضيع هذا الاختيار هباءً، أن يذهب سُدىً.

على الأمة كلها أن تقف وراء الشعب الفلسطيني، الأمة إذا اجتمعت كانت شيئًا كبيرًا، أمّتنا العربية ثلث مليار، وأمّتنا الإسلامية مليار ونصف المليار، هذه الأمة تستطيع أن تفعل شيئًا، لا يجوز أبدًا أن نتخلى عن إخوتنا في محنتهم، إننا نستطيع أن نأكل نصف بطوننا، كما قال عمر رضي الله عنه في أيام المجاعة، أعطى كل بيت واحدًا من أهل المجاعة، وقال: لن يهلك الناس على أنصاف بطونهم^(١). فنحن نستطيع أن نعيش على أنصاف بطوننا ونعطي لإخوتنا.

وقد قلت: إننا نستطيع أن نعطيهم من الزكاة، وأن نُعجّل لهم الزكاة، وأن نعطيهم من الصدقات التطوعيّة، وأن نعطيهم من وصايا الأموات، ومن عوائد الأوقاف، ومن الأموال التي فيها شبهة، ونمد إخوتنا بما نستطيع حتّى يصمدوا في موقفهم، حتّى لا يستسلموا للإرادة الصهيونية الظالمة والأمريكان من ورائهم.

(١) رواه ابن سعد في الطبقات (٣/٣١٦).



نسأل الله وَعَلَيْكَ أن يؤيّد إخوتنا في فلسطين، اللهم أيّدهم بروح من عندك، اللهم أيّدهم بجند من جندك، اللهم احرسهم بعينك التي لا تنام، واكلاًهم في كنفك الذي لا يُضام، اللهم افتح لهم فتحاً مبيّناً، واهددهم صراطاً مستقيماً، وانصرهم نصرًا عزيزاً، وأتم عليهم نعمتك، وأنزل في قلوبهم سكينتك، وانشر عليهم فضلك ورحمتك؛ إنك سميعٌ مجيبٌ.

* * *



سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه

الخطبة الأولى

أمّا بعد، فيا أيّها الإخوة المسلمون:

ما زال الحديث موصولاً عن صحابة رسول الله ﷺ، تحدثنا في الخطبة الماضية عن أحد هؤلاء الأصحاب، عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، ونتحدث اليوم عن صحابي آخر، هو أيضاً من العشرة المبشرين بالجنة، ومن الستة أصحاب الشورى الذين رُشّحوا للخلافة، ومن السابقين الأولين من المهاجرين، الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه، وأعدّ لهم جنات تجري تحتها الأنهار، ومن الذين شهدوا بدرًا، وقد قال الله تعالى في شأنهم: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٢٣]. وقال ﷺ: «ما يُدريك يا عمر، لعلّ الله قد اطلع على أهل بدرٍ فقال: اعملوا ما شئتم فأني قد غفرتُ لكم»^(١).

وهو من الثابتين الذين شهدوا معركة أحد، ولم يفروا منها، ودافعوا عن رسول الله ﷺ، وهو من الذين شهدوا معركة الخندق: غزوة الأحزاب، وهم الذين شهدوا فتح مكّة، ومن الذين شهدوا المشاهد كلّها

(١) سبق تخريجه ص ٨٣.

مع رسول الله ﷺ، أتدرون من هو؟ إنه سعد بن أبي وقاص، أو سعد بن مالك، اسم أبيه مالك، وكنيته أبو وقاص.. أحد الذين سبقوا إلى الإسلام حتى قال: لقد ظللت مدة وأنا أرى نفسي ثلث الإسلام^(١).

كأنه لم يكن يرى إلا الرسول ﷺ وأبا بكر؛ لأن الذين دخلوا في الإسلام في ذلك الوقت دخلوه سرًّا، فلم يكونوا في الأيام الأولى يعرف بعضهم بعضًا، فكان يقول: أراني ثلث الإسلام.. أسلم وعمره سبع عشرة سنة.

نسبه:

وهو قرشي زهري، من بني زهرة.. بنو زهرة الذين منهم آمنة بنت وهب أم رسول الله ﷺ، فهم أحوال النبي ﷺ، ولذلك أشار إليه الرسول ﷺ يوماً وقال: «هذا خالي، فليُرني امرؤ خاله»^(٢). وقال له عمر يوماً بعد ذلك: لا يُعزّنك أن قيل: خال رسول الله وصاحبه^(٣). هو قرشي زهري.

إسلامه:

دخل الإسلام في شبابه، ودخل في الإسلام من أيامه الأولى، وحمل العبء مع السابقين الأولين، حتى قال: «لقد رأيتني سابع سبعة مع رسول الله ﷺ، وما لنا طعام إلا ورق الشجر»^(٤). وفي رواية: «ورق السمُر»^(٥). وهو شجر ذو شوك، أحسب أن ذلك كان في أيام المقاطعة

(١) رواه البخاري في المناقب (٣٧٢٧)، وابن ماجه في المقدمة (١٣٢).

(٢) رواه الترمذي في المناقب (٣٧٥٢)، وقال: حديث غريب. والحاكم في معرفة الصحابة

(٣/٤٩٨)، وصحّحه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وصحّحه الألباني في المشكاة

(٦١٢٧)، عن جابر بن عبد الله.

(٣) تاريخ الطبري (٤٨٣/٣).

(٤) متفق عليه: رواه البخاري في أصحاب النبي ﷺ (٣٧٢٨)، ومسلم في الزهد والرقائق (٢٩٦٦).

(٥) رواه النسائي في الكبرى في الرقائق (١١٧٨٩).

حينما قاطعتهم قريش، فلا تبيع لهم، ولا تشتري منهم، فأكلوا من أوراق الشجر حتى دमित أشداقهم؛ سالت دمًا، كان سعد بن أبي وقاص من هؤلاء السابقين الأولين.

أَوَّلُ مَنْ رَمَى بِسَهْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ:

و حينما هاجر مع رسول الله ﷺ إلى المدينة، كان أوَّل من رمى بسهم في سبيل الله، بعثه النبي ﷺ في سرية، تحت إمرة عبدة بن الحارث بن عبد المطلب، فهاجمهم المشركون، فحماهم سعد بسهامه، وكان رضي الله عنه رامياً مصيباً، يرمي السهم فلا يكاد يخطئ، حمى أصحابه بسهامه، وشهد بدرًا مع رسول الله ﷺ، وأبلى فيها بلاءً حسنًا، حتى قال ابن مسعود: شهدت بدرًا أنا وسعد وعمار بن ياسر، فجاء سعد بأسيرين، ولم نجى أنا وعمار بشيء^(١).

قتاله في غزوة أحد:

وشارك في غزوة أحد، وكان من الذين حموا رسول الله ﷺ من المشركين، وكان النبي ﷺ ينفذ جعبته (ينفض كنانته التي فيها السهام والنبال) ويناوله السهام ويقول له: «ارم فداك أبي وأمي يا سعد»^(٢). يقول رضي الله عنه: أنا من جمع لي الرسول ﷺ أبويه - فداني بأبويه؛ «ارم فداك أبي وأمي» - ولم يجمع ذلك لأحد إلا لسعد^(٣).

(١) رواه أبو داود في البيوع (٣٣٨٨)، والنسائي في المزارعة (٣٩٣٧)، وضعفه الألباني في إرواء الغليل (١٤٧٤).

(٢) رواه البخاري في المغازي (٤٠٥٥)، والترمذي في الأدب (٢٨٣٠).

(٣) رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٠٥)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤١١)، عن علي بن أبي طالب.

وفي رواية أنه جمع ذلك للزبير بن العوام رضي الله عنه أيضًا^(١)، ولكن في أحد انفرد بها سعد رضي الله عنه، وكان يرمي ذودًا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد دعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم في أحد وقال: «اللهم استجب لسعدٍ إذا دعاك»^(٢)، فكان مجاب الدعوة، لا يدعو دعوة إلا فُتحت لها أبواب السماء، وإذا دعا على شخص انتظر المصيبة أن تنزل به، وقد حدث له حوادث في ذلك^(٣). كان مجاب الدعوة رضي الله عنه.

موقفه في غزوة الخندق:

وشهد غزوة الخندق، غزوة الأحزاب التي جاءت فيها قريش وغطفان وأحابيشهما تهاجم المدينة، تهاجم الرسول وأصحابه في عقر دارهم، في هذه الغزوة كان له بلاء حسن، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في ليلة وقد أصابه الأرق وطار منه النوم: «ألا ليت رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسني الليلة؟!» قالت عائشة: فما زال يقول هذا حتى سمعنا صوتاً، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: من؟ فقال: أنا سعدٌ يا رسول الله، جئت لأحرسك الليلة. فحرس رسول الله صلى الله عليه وسلم وسهر عليه، قالت عائشة: ونام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سمعنا غطيطه^(٤). اطمأن أن هناك من يحرسه من أصحابه، وهو حارس شجاع، ونام الرسول صلى الله عليه وسلم، حتى غط في نومه.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في أصحاب رسول الله (٣٧٢٠)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤١٦)، عن عبد الله بن الزبير.

(٢) رواه الترمذي (٣٧٥١)، وابن حبان (٦٩٩٠)، كلاهما في المناقب، وقال الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين. والحاكم في معرفة الصحابة (٤٩٩/٣)، وقال: صحيح الإسناد. ووافقه الذهبي. وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٦١٢٥).

(٣) من ذلك ما سيأتي، من دعائه على من ادعى عليه أموراً من أهل الكوفة.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري في التمني (٧٢٣١)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤١٠).

«الثالث والثالث كثير» فكان هذا أصلاً في تحديد الوصية بالثالث، فالإنسان يوصي في أواخر حياته، بما شاء من ماله بعد موته بما لا يزيد عن الثالث، وألاً يوصي لوارث؛ لأنَّ الورثة لهم نصيبهم الذي قدره الله لهم في كتابه، إلا أن يجيز ذلك بقية الورثة، فهذا حقهم. ثم قال سعد: يا رسول الله، إنني أخاف أن أموت هنا في مكة في أرض هاجرت منها، فلا يثبت لي ثواب الهجرة. قال: أنا هاجرت من هذه الأرض في سبيل الله، ولا أريد أن أموت هنا في مكة بعد الفتح، فلا أحسب من المهاجرين في سبيل الله، فقال له ﷺ: «يا سعد، لعلك أن تُخلف حتى ينتفع بك أقوام، ويضرُّ بك آخرون، اللهم أمض لأصحابي هجرتهم، ولا تردهم على أعقابهم»^(١).

خاف الرجل أن يموت في مكة، وهو يريد أن يموت بالمدينة مهاجراً، كما قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ * لِيَدْخُلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ، وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ * [الحج: ٥٨، ٥٩] فطمأنه ﷺ أنه لن يموت، بل سيعيش، وينتفع به أقوام ويتضرر به آخرون، وقد عاش سعد بعد ذلك لم يمُتْ إلا في سنة خمسة وخمسين من الهجرة، أي بعد خمس وأربعين سنة من وفاة الرسول ﷺ.

عاش سعد ولم يكن له إلا ابنة واحدة، فرزقه الله عدداً من البنين، رزقه عامراً، ورزقه عُمرًا، ورزقه مصعباً، وقد دعا الله تعالى وقال: اللهم أجل موتي حتى يكبر أولادي. فعاش سنين حتى كبروا، هكذا كانت سيرة سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الدعوات (٦٣٧٣)، ومسلم في الوصية (١٦٢٨).

يروى عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال - وهم جلساء معه - : «يَطْلُع عليكم الآنَ رجلٌ من أهل الجنة»، فما هي إلا لحظات حتى قدم من الباب الذي أشار إليه النبي ﷺ رجلاً، فإذا هو سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه (١). سعد بن أبي وقاص رجلٌ من أهل الجنة.

من مواقفه في غزوة أحد:

في غزوة أحد قال: التقيتُ أنا وعبد الله بن جحش - عبد الله ابن أخي زينب بنت جحش، زوج النبي ﷺ، أم المؤمنين رضي الله عنها - فقال: تعال ندعو الله. فخلوا في ناحية، فدعا سعد فقال: يا رب، إذا لقينا القوم غدًا فلقني رجلاً شديداً بأسه، شديداً حرّده (٢)، أقاتله فيك، ويقاتلني، ثمّ ارزقني عليه الظفر، حتى أقتله وأخذ سلبه. قال: فأمن عبد الله بن جحش، ثمّ قال عبد الله: اللهم ارزقني غداً رجلاً شديداً بأسه، شديداً حرّده، فأقاتله ويقاتلني، ثمّ يأخذني فيجدع أنفي وأذني، فإذا لقيتك غداً قلت لي: يا عبد الله، فيم جدع أنفك وأذناك؟ فأقول: فيك وفي رسولك. فتقول: صدقت.

وفي اليوم التالي لاقى سعد رضي الله عنه عدوّ الله فقاتله فقتله وأخذ سلبه، وأخذ سيفه، وقاتل عبد الله بن جحش وقتل. قال سعد بن أبي وقاص: لقد رأيته آخر النهار، وإن أذنه وأنفه لمعلق في خيط.. قطعوا أذنه، في غزوة أحد كان هناك تمثيل من المشركين، تمثيل بجث المسلمين، فقطعوا أذنه، وقطعوا أنفه، وعلقوها بخيط. قال سعد: كانت دعوة عبد الله بن

(١) رواه أحمد (٧٠٦٩)، وقال مخرّجوه: إسناده ضعيف. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٤٨٦٣): إسناده حسن.

(٢) أي غضبه وغيظه.

جحش خيراً من دعوتي^(١). طلب الجنة وطلبت النصر، والنصر إحدى الحسينين ﴿هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾ [التوبة: ٥٢] النصر حسنى، والشهادة في سبيل الله حسنى، كل منهما طلب إحدى الحسينين.

قيادة الجيش الإسلامي في القادسية:

بعد رسول الله ﷺ، عاش سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه مشيراً وعاوناً للخلفاء: لأبي بكر، ولعمر، ثم كانت حرب فارس، انتصر المسلمون أولاً في فارس، ثم حدثت بعض المعارك: معركة الجسر وغيرها، ثم قتل أبو عبيدة الثقفي في معركة الجسر، وأصيب المثنى بن حارثة القائد المعروف، واستشهد بعد ذلك من أثر جراحه، وخاف المسلمون أن يذهب ما فتحوه من بلاد الفرس.

وعزم عمر رضي الله عنه أن يذهب هو بنفسه؛ ليقود الجيوش ويحارب الأكاسرة، ووافق الصحابة على ذلك إلا واحدا منهم، وهو عبد الرحمن بن عوف قال: يا أمير المؤمنين، لا أرى أن تذهب أنت بنفسك فإذا كُسِرَتْ أصابت المسلمين كسرة شديدة، ولكن تبقى هنا، ومن كُسِرَ من المسلمين يأوي إليك، ويعود إليك.. ابعث أحد أصحابك، وهنا وافق المسلمون على هذا الرأي: ألا يذهب عمر رضي الله عنه ليقود الجيوش بنفسه، وأن يذهب أحد أصحابه.

فقال: من ترشح يا عبد الرحمن؟ قال: وجدته يا أمير المؤمنين، إنه الأسد في برائته، إنه سعد بن أبي وقاص. قال: أصبت. وأرسل سعد بن أبي وقاص لملاقاة الفرس في أعظم المعارك، في إحدى المعارك الحاسمة في التاريخ الإسلامي، إنها معركة القادسية، التي فتحت الباب

(١) رواه الحاكم في الجهاد (٧٦/١)، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

على مصراعيه بعد ذلك لفتح المدائن، وفتح جلولاء الذي يسمونه فتح الفتوح، وفتح المدن الأخرى: نهاوند وغيرها من المدن.

ذهب سعد بن أبي وقاص ومن معه من الصحابة، وفتح الله على يديه القادسية، وبقية مدن الفرس، ودانت بلاد الفرس للإسلام، وذهب الأكاسرة، وذهبت عبادة النار، وذهبت المجوسية، وانتشرت لا إله إلا الله محمد رسول الله، في بلاد فارس، وكان ذلك بفضل الله تعالى، ثم بفضل سعد بن أبي وقاص رضي عنه، ومن معه من الأبطال المؤمنين الذين باعوا أنفسهم لله، ونذروا حياتهم لله.

ولايته رضي عنه على الكوفة:

وبعد ذلك ولّاه عمر إمارة الكوفة، إنّ عمر رضي عنه في عهده خط مدينتين، أنشأ مدينتين: البصرة، والكوفة، وذهب من ذهب من الصحابة والقبائل المختلفة ليسكنوا هاتين المدينتين، وأمر سعدًا على مدينة الكوفة، وظلّ فيها عدة سنين، ثمّ جاء من يشكوه إلى سيدنا عمر رضي عنه، ويدعي عليه دعاوى باطلة، حتّى قالوا: إنّ لا يحسن الصلاة!

فأرسل إليه عمر، فأرسل سعدٌ إليه يقول: يا أمير المؤمنين، إنني أصلي بهم صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم أطيل في الركعتين الأوليين، وأخفف في الركعتين الأخيرين، لا آلو أن أصلي بهم، ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي. قال: هذا هو الظن بك يا أبا إسحاق، ثمّ أرسل سيدنا عمر رضي عنه أناسًا يسألون عنه أهل الكوفة.

كان عمر رضي عنه يتحرى، سعد صاحب رسول الله، وهو أحد المبشرين بالجنة، ولكن سيدنا عمر من سياسته أن يتحرى، ويحاول أن يعرف كلّ

شيء بنفسه، فأرسل رسلاً يسألون الناس عن سعد، حتى يرى هذه الشكوى، هل هي شكوى كيدية أم حقيقية؟

فسألوا عنه الناس في كل مكان، والناس يثنون عليه خيراً، كما هو الظنُّ بمثل هذا الصحابي، إلا رجلاً من بني عبس، يقال له: أسامة بن قتادة، يُكنى أبا سعدة قال: أمّا إذ نشدتنا، فإن سعداً كان لا يسير بالسرية، ولا يقسم بالسوية، ولا يعدل في القضية. قال سعد: أمّا والله لأدعون بثلاث: اللهم إن كان عبدك هذا كاذباً، قام رياء وسمعة، فأطل عمره، وأطل فقره، وعرضه بالفتن. وكان بعد إذا سئل يقول: شيخ كبير مفتون، أصابني دعوة سعد. قال عبد الملك: فأنا رأيت بعد، قد سقط حاجباه على عينيه من الكبر، وإنه ليتعرض للجواري في الطرق يغمزهن^(١).

موقفه من الخلافة:

وعندما طعن عمر، رشح رضي الله عنه ستة من كبار الصحابة؛ ليختاروا أحداً منهم خليفة للمسلمين، وسُمِّي الستة أصحاب الشورى، كان منهم سعد بن أبي وقاص، ولكن أربعة منهم تنازلوا عن هذا الترشيح، طلحة، والزبير، وسعد، وعبد الرحمن بن عوف.. عبد الرحمن عزل نفسه، وهؤلاء الثلاثة تنازلوا، وبقي التنافس بين عثمان وعلي، المهم كان سعد بن أبي وقاص مرشحاً للخلافة، وهو أهل لها، وقال عمر: إن أصابها سعد فيها، وإلا فليستعن به الخليفة من بعدي، فإنني لم أعزله عن الكوفة عن ضعف ولا خيانة، ما كان ضعيفاً ولا خائناً، ليستعن به الخليفة من بعدي^(٢).

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الأذان (٧٥٥)، ومسلم في الصلاة، (٤٥٣). عن جابر بن سمرة.

(٢) رواه البخاري في أصحاب النبي (٣٧٠٠)، عن عمرو بن ميمون.

لأنَّ عمر بعد فترة من الزمن بُعدًا عن الشبهات، وعن القيل والقال؛ عزل سعدًا، وردّه عثمان بعد ذلك إلى إمارة الكوفة. ولكن سعدًا ترك الخلافة، وتنازل عنها.

موقفه رضي الله عنه من الفتنة:

وفي أيام الفتنة الكبرى بين الصحابة لم يشارك فيها سعد، لا مع هؤلاء ولا مع هؤلاء، رأى أنَّ الاعتزال خير، جاءه أحد أبنائه - عمر بن سعد - وهو يرعى غنمًا له في البادية، فلمَّا رآه أبوه قادمًا من بعيد، استعاذ بالله من شر هذا القادم، فجاء وقال له: يا أبتِ، أتظل هنا أعرابيًا ترعى غنمك، والناس في المدينة يتنازعون الملك؟ أين أنت منهم؟ فقال له: اسكت، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ التَّقِيَّ، الْغَنِيَّ، الْخَفِيَّ»^(١). التقي: الذي يخشى الله. والغني: الذي عنده مال. والخفي: البعيد عن الأضواء والشهرة.. رفض أن يشارك في هذا.

وكم جاءه من يقول له: ألا تُقاتل؟ فيقول لهم: اتُّوني بسيف سميع بصير، له عيان ولسان، ينطق ويقول: هذا مؤمن وهذا كافر، أضرب به الكافر فيقتله، وأضرب به المؤمن فينبو عنه. فقالوا له: من أين نأتي لك بهذا السيف؟ قال: إذن لا أشارك في قتال^(٢). واعتزل القتال، هكذا اعتزل هو، وأسامة بن زيد، وبعض الصحابة، وكان هذا اجتهادًا منهم رضي الله عنهم.

(١) رواه مسلم في الزهد والرقائق (٢٩٦٥).

(٢) رواه الطبراني (١٤٤/١)، عن ابن سيرين. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٢٣١٨): رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح.



موقفه مع معاوية:

وبعد ذلك، بعد أن ولي معاوية إمارة المؤمنين دخل عليه يوماً وسلّم عليه، لم يقل له يا أمير المؤمنين، بل قال: «السلام عليك أيُّها الملك». فقال معاوية: «أوغير ذلك؟ أنتم المؤمنون وأنا أميركم». فقال سعد: «نعم، إن كُنَّا أمْرَنَاكَ^(١) - نحن لم نُؤمِّرَكَ - والله ما أحب أني وليتها بما وليتها به»^(٢)، أنت أخذت هذا بالدماء، وأنا لا أحبُّ أن أشارك في قطرة دم، أو محجمة دم من مسلم. هكذا كان سعد رضي الله عنه.

موقفه من أمه:

عاش سعد رضي الله عنه حياته للإسلام: عاش بالإسلام، ومات على الإسلام، ولا بدّ أن أذكر لكم هنا قصة في أوّل إسلامه، حينما دخل الإسلام، حلفت أمه ألا تكلمه أبداً حتّى يكفر بدينه، ولا تأكل ولا تشرب، قالت: زعمت أنّ الله وصّاك بوالديك، وأنا أمُّك، وأنا أمرك بهذا. قال: مكثت ثلاثاً حتّى غشيّ عليها من الجهد، فقام ابن لها يقال له عمارة، فسقاها، فجعلت تدعو على سعد، فأنزل الله عز وجل في القرآن هذه الآية: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي﴾ وفيها ﴿وَصَاحِبَهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥]^(٣).

وفاته رضي الله عنه:

عاش سعد رضي الله عنه للإسلام، ومات على الإسلام، مات وهو ابن أكثر من ثمانين سنة، في سنة خمس وخمسين، أو ست وخمسين من الهجرة،

(١) رواه أحمد في فضائل الصحابة (١٩٥٥).

(٢) رواه البلاذري في أنساب الأشراف (٢٤/٥)، تحقيق سهيل زكار ورياض الزركلي، نشر دار الفكر، بيروت، ط ١، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

(٣) رواه مسلم في فضائل الصحابة (١٧٤٨)، عن سعد بن بي وقاص.



عُمِّرَ بعد رسول الله ﷺ، فكان آخر من مات من المهاجرين بعد رسول الله ﷺ، بكته أم سلمة أم المؤمنين رضي الله عنها؛ لما عرفت عنه من فضل، وكان قبره على ثمانية أميال من المدينة، فنقل إليها، حُمِلَ إلى المدينة ودفن بها رضي الله عنه.

هذا واحد من أصحاب رسول الله ﷺ، هذا واحد من تلاميذ المدرسة المحمدية، هذا من الرعيل الأول، من الذين بهم يُقتدى فيهِتدى، من الذين أثنى عليهم القرآن في سوره، وأثنى عليهم الرسول ﷺ في أحاديثه، وسجل لهم التاريخ بطولاتهم وروائع مواقفهم بأحرف من نور، هذا هو جيل الصحابة رضوان الله عليهم.

نسأل الله تعالى أن يحشرنا في زمرةهم، وأن يجعلنا من الذين بهم اقتدوا فاهتدوا، إنه سميع قريب.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم، فاستغفروه، إنه هو الغفور الرحيم، وادعوه يستجب لكم.

* * *

الخطبة الثانية

أمّا بعد:

ورد أنه في يوم الجمعة ساعة إجابة لا يدعو فيها عبد مسلم يدعو الله بخير إلا استجاب الله له^(١)، ولعلها تكون هذه الساعة.

اللهم نسألك الهدى والتقى، والعفاف والغنى، اللهم إنا نسألك العفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة، اللهم إنا نسألك العفو والعافية في ديننا ودنيانا، وأهلينا وأموالنا، اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا، واحفظنا من بين أيدينا ومن خلفنا، وعن أيمننا وعن شمائلنا، ومن فوقنا، ونعوذ بعظمتك أن نغتال من تحتنا، اللهم انصر الإسلام وأعز المسلمين، اللهم عليك بأعدائك أعداء الإسلام، الله ردّ عنا كيدهم، وفلّ حدهم، وأذهب عن أرضك سلطانهم، ولا تجعل لهم سبيلاً على أحد من عبادك المؤمنين، اللهم اجعل هذا البلد آمناً مطمئناً، سخاء رخاء، وسائر بلاد المسلمين، ربنا اغفر لنا ذنوبنا، وإسرافنا في أمرنا، وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين.

عباد الله: يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦] اللهم صل وسلم وبارك على نبيك وعبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

وأقم الصلاة ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٩٣٥)، ومسلم (١٥٢)، كلاهما في الجمعة عن أبي هريرة.



عبد الرحمن بن عوف

الخطبة الأولى

أمَّا بعد، فيا أيُّها الإخوة المسلمون:

فضل أصحاب النبي ﷺ:

تحدَّثنا في الخطبة الماضية عن الصَّحابة، أصحاب محمد ﷺ الذين اختارهم الله لصحبة نبيه، ونصرة دينه، وقال تعالى عنهم في قرآنه المكي: ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ، أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وقال في قرآنه المدني: ﴿هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٢، ٦٣].

﴿أَيْدِكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾، هؤلاء المؤمنون الذين آتاهم الله بهم نبيه محمداً وأعزَّ بهم دينه، هم أصحاب رسول الله ﷺ.

هؤلاء كانوا في الجزيرة العربية كالأرض التي تحتاج إلى الماء، وحينما نزل عليها الماء اهتزت وربت وأنتت من كل زوج بهيج.

كان هؤلاء معادن ثمينة أخفتها الجاهلية، جنت عليهم الجاهلية، فلمَّا

جاءهم الإسلام، حرّر الله عقولهم من الوثنيّة بالتوحيد، وحرّر قلوبهم من القسوة إلى الرحمة، وألّف بين قلوبهم، وجمعهم على الإسلام، بعد أن كانوا أعداء، كما قال تعالى: ﴿وَأذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

هذا الجيل الذي لم تر الدنيا مثله: إيماناً وأخلاقاً، وصفاء نفوس، ونقاء سريرة، وحسن سلوك، وزهداً في الدنيا، ورغبةً في الآخرة، وإقبالاً على الله، وتضحية بالنفس والنّفس، وبدلاً لكلّ شيء في سبيل الله.

هؤلاء هم الصّحابة - رضوان الله عليهم، نحاول في الجمعيات المقبلة أن نتحدّث عن بعض هؤلاء الصّحابة.

ولقد ألفت في سيرتهم الكتب، ألف ابن عبد البر كتابه: «الاستيعاب في معرفة الأصحاب»، وألف ابن الأثير كتابه: «أسد الغابة في معرفة الصّحابة»، وألف ابن حجر العسقلاني كتابه: «الإصابة في تمييز الصّحابة»، وألفت كتب قديمة وحديثة في فضل هؤلاء الأصحاب.

ويكفينا في فضلهم ما ذكره القرآن عنهم؛ فقد قال تعالى في سورة التوبة: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ ليسوا هم وحدهم، حتّى الذين اتبعوهم بإحسان أُلحقوا بهم، هؤلاء هم السابقون الأولون.

وفي سورة الأنفال نجد قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٤].

ويقول الله تعالى في سورة الحج: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ ﴿الحج: ٥٨، ٥٩﴾.

هؤلاء هم المهاجرون، هؤلاء هم الذين جاء فيهم آخر سورة الفتح: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾ وكان الكفار في ذلك الوقت هم البادئون بالعدوان، الذين يفتنون الناس عن دينهم ويصدونهم عن سبيل الله، ويعذبون المؤمنين بكل ألوان العذاب، فهم أشداء على الكفار ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ ترى الثور على وجوههم ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ، فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سَوْقِهِ يَعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ ﴿الفتح: ٢٩﴾.

ولهذا قال العلماء: كل من اغتاز من أصحاب محمد ﷺ فهو كافر؛ لأنهم لا يغيظون إلا الكفار ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾، أمّا المؤمنون فتشرح منهم صدورهم، وتطمئن بهم قلوبهم، وتبتسم لهم ثغورهم؛ لأنهم أنصار الله ورسوله، الذين أعزوا هذا الدين.

هؤلاء هم الصحابة.

في سورة الحشر يقول الله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ ﴿الحشر: ٨﴾، أولئك هم الصادقون: الصادقون في دينهم، الصادقون في إيمانهم، الصادقون في إسلامهم، الصادقون في أقوالهم، الصادقون في

أعمالهم، الصادقون في نياتهم، وقد أمرنا الله تعالى أن نكون دائماً مع الصادقين: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].
هؤلاء هم المهاجرون.

ثم تحدّث عن الأنصار فقال: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ﴾ دار الهجرة ﴿وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ وتبوءوا الإيمان - أيضاً - ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ يقدمون إخوانهم على أنفسهم ولو كان بهم حاجة.. ولو كان بهم مجاعة، يجودون بالشيء وهم أحوج إليه، ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

هؤلاء هم أصحاب رسول الله ﷺ.

من هؤلاء الصحابة: عبد الرحمن بن عوف:

تحدّث عن واحد منهم اليوم: هو عبد الرحمن بن عوف، أحد هؤلاء الأصحاب، وأحد السابقين الأولين من المهاجرين، أحد الثمانية الذين سبقوا إلى الإسلام، أحد أصحاب دار الأرقم بن أبي الأرقم، تلاميذ هذه المدرسة الذين خصّهم النبي ﷺ بتعاليمه وتربيته سنين طويلة، فتخرّجوا على يديه، وتعلّموا منه مباشرة.

هذا عبد الرحمن بن عوف أحد السابقين الأولين، أحد العشرة المبشّرة بالجنة، أحد الستة أصحاب الشورى، الذين وكل إليهم أمر شورى المسلمين: أن يختاروا واحداً من بينهم؛ ليكون أميراً للمؤمنين، وخليفة للمسلمين، أحد الذين تُوفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض.

هذا هو عبد الرحمن بن عوف، أحد أهل بدر الذين قال عنهم النبي ﷺ: «ما يُدريك يا عمر، لعلَّ الله قد أطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فأني قد غفرت لكم»^(١).

أحد أصحاب بيعة الرضوان، الذين بايعوا النبي ﷺ يوم الحديبية، تحت الشجرة، بايعوه أن ينصروه، أو يموتوا في سبيل الله، بايعوه على الموت في سبيل الله، وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

نسبه ﷺ:

عبد الرحمن بن عوف من بني زُهرة، أخوال رسول الله ﷺ، فكلنا يعلم أن آمنة بنت وهب أم رسول الله ﷺ كانت من بني زُهرة.

مولده ﷺ:

وُلد في السنة العاشرة بعد عام الفيل، عام الفيل الذي غزا فيه الحبشة الكعبة بأفيالهم، ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ [الفيل: ١].

وُلد ﷺ في عام الفيل، ووُلد عبد الرحمن بن عوف بعده بعشرة أعوام.

مناقبه ﷺ:

كان من الذين سبقوا إلى الإسلام، وتحملوا الأذى مع المسلمين الأولين؛ حتى إنه هاجر إلى الحبشة، هاجر إلى الحبشة مرتين، وهو من هو من قريش، ومن بني زُهرة.

(١) سبق تخريجه ص ٨٣.

هاجر كما هاجر عثمان بن عفان مع زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ .
هاجر عبد الرحمن بن عوف إلى الحبشة؛ ولذلك يقولون عنه: إنه
ممن هاجر الهجرتين، وصلى إلى القبلتين.

هناك أناسُ صلّوا إلى القبلتين: صلّوا إلى بيت المقدس قبل أن تُنسخ
بالصلاة إلى الكعبة؛ فعبد الرحمن بن عوف من هؤلاء، صلّى إلى القبلتين،
وهاجر الهجرتين، هاجر إلى الحبشة، وهاجر إلى المدينة، فاز بالحسينين.
وكان ممن أسرع بالهجرة من الحبشة إلى المدينة، بعض الصحابة
بقوا في الحبشة فلم يحضروا إلا بعد فتح خيبر، مثل جعفر بن أبي
طالب رئيس المهاجرين إلى الحبشة، لم يأت إلا بعد فتح خيبر، ولكنَّ
عبد الرحمن بن عوف جاء وهاجر إلى المدينة مع المهاجرين.

بين عبد الرحمن وسعد بن الربيع:

وكان له قصة معروفة، حين آخى النبي ﷺ بينه وبين أحد الأنصار،
أحد النقباء الذين بايعوا النبي ﷺ ليلة العقبة: سعد بن الربيع، أحد
السعود، سعود الأنصار: سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، وسعد بن الربيع.
سعد بن الربيع هذا، آخى النبي بينه وبين عبد الرحمن بن عوف،
وقد كان النبي ﷺ يراعي في هذا الإخاء أن يكون مشرب كلٍّ منهما قريباً
من مشرب الآخر.

كان سعد بن الربيع من أكثر الأنصار مالاً، وكذا كان ابن عوف
قبل هجرته، ولكنّه كغيره من المهاجرين هاجر من مكة ولا شيء
معه، الله تعالى يقول: ﴿أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾ [الحشر: ٨]، أي:
تركوا الأموال، تركوا الدُّور، تركوا العقارات، تركوا كلَّ ما يملكون،

وهاجروا في سبيل الله: ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ [الحج: ٤٠].

نظر سعد بن الربيع إلى عبد الرحمن بن عوف فقال له: إنني أكثر الأنصار مالاً، فأقسم لك نصف مالي - طعام الواحد يكفي الاثنين، ومال الواحد يكفي الاثنين، خذ نصفه وأنا نصفه - وانظر أي زوجتي هويت نزلت لك عنها، فإذا حلت، تزوجتها!

انظر إلى هذا الإيثار، يؤثر الرجل بماله، ويؤثره بنصف دوره، بإحدى داريه، ويؤثره حتى بإحدى زوجتيه، رأيتم مثل هذا في العالم؟! رأيتم صحابة نبي من الأنبياء، أو زعيم من الزعماء، أو فيلسوف من الفلاسفة، أو مُصلِح من المصلحين، رأيتم له أنصاراً وتلاميذ ارتقوا إلى هذا المستوى؟

والله ما رأينا مثل هذا من قبل أبداً، هذا الإيثار العظيم من سعد الربيع وهو له أهل، وهو أحقُّ به، من يعرف سيرة سعد بن الربيع يعرف أنه جديرٌ بهذا الإيثار.

ولكن عبد الرحمن بن عوف قابل هذا الإيثار الكريم، بتعفف نبيل، لم ينتهزها فرصة ويقول: جزاك الله خيراً، ثم يأخذ ما عرض عليه.

لا، ولكنّه قال له: بارك الله لك في أهلك ومالك، دلوني على السوق^(١).

أنا لا أريد منك إلا شيئاً واحداً، أن تعرّفني بالسوق، أين السوق في

مدينتكم؟

(١) رواه البخاري في البيوع (٢٠٤٩)، عن أنس بن مالك.



أعطني شيئاً من المعلومات عنه.

وكانت السوق في ذلك الحين يسيطر عليها بنو قينقاع، إحدى قبائل اليهود الثلاث التي تسكن في ضواحي المدينة: بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة.

كان بنو قينقاع هم المسيطرون على هذه السوق قبل أن يبني النبي ﷺ للمسلمين سوقاً خاصة، وهذا ما صنعه النبي ﷺ بعد أن بنى المسجد لعبادة المسلمين، أنشأ لهم سوقاً خاصة بهم، وقد قسمها ﷺ هذا لبيع الثياب، وهذا لبيع الطعام، وهذا لبيع الحبوب، وهذا لبيع الأنعام، وهذا لبيع كذا، وهذا لبيع كذا، قسمها أقساماً.

ذهب عبد الرحمن بن عوف إلى السوق؛ ليبيع ويشترى، فوقفه الله، وكان كلما اشترى شيئاً ربح فيه، كان رجلاً مجدوداً، أي: صاحب جَدٍّ وحظٍّ، يقول: فلقد رأيتني ولو رفعت حجراً لرجوت أن أصيب ذهباً أو فضةً^(١).

يده مبروكة كما يقولون، ما يتاجر في شيء إلا ربح فيه.

فسرعان ما ربح، وسرعان ما ظهرت عليه آثار النعمة، وجاء إلى النبي ﷺ ورائحته تفوح، وعرف منه أنه تزوج على وزن نواة من ذهب، فقال له ﷺ: «هل أولمت؟»

قال: لا.

قال ﷺ: «أولم ولو بشاة»^(٢).

(١) رواه أحمد (١٣٨٦٣)، وقال مخرّجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم. عن أنس.

(٢) جزء من الحديث قبل السابق.

أُولِمَ، أُولِمَ عن زواجك، اصنع وليمة، وادعُ النَّاسَ؛ حتَّى يعرفوا أنَّكَ قد تزوّجتَ، «أُولِمَ ولو بشاةٍ»، وهذا من سنن الإسلام.

موقفه في غزوة بدر:

كان عبد الرحمن بن عوف من أقرب النَّاسِ إلى رسول الله ﷺ، شهد غزوة بدر التي قال الله فيها للمؤمنين: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣]، حام حوله بعض شباب الأنصار^(١) وقالوا له: يا عمّ، أين أبو جهل؟ أرنا أبا جهل.

فقال لهما: ما حاجتكم إليه؟

قالا: سمعنا أنه كان يؤذي رسول الله ﷺ، فلا نريده أن يفوت منا. فدلّهما عليه، فذهبا إليه وقتلاه، ورجعا إليه، وكلاهما يزعم أنه قتله، كلاهما سارع إلى ضربه، واحتكما إلى النبي ﷺ فقال: «كلاكما قتله»^(٢)، كلاكما بادرتما إليه، اشتركتما في هذا القتل.

حضر عبد الرحمن بن عوف غزوة بدر، وحضر أحدًا، وحضر بيعة الرضوان، وحضر فتح مكّة، وحضر المشاهد كلّها، لم يتغيّب عن رسول الله ﷺ.

قيادته سرية إلى دومة الجندل:

ومن مناقبه رضي الله عنه أن النبي ﷺ بعثه في سرية إلى أهل دومة الجندل، في سبعمئة من الصحابة، على رأس سبعمئة من الصحابة، وتعمّم

(١) هما: معاذ بن عمرو بن الجموح، ومعوذ بن عفراء، انظر: سيرة بن هشام (٧١٠/١).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في فرض الخمس (٣١٤١)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٥٢)، عن

عبد الرحمن بن عوف.

عبد الرحمن بن عوف بعمامة، فنقضها رسول الله ﷺ وعممه بنفسه، بعمامة سوداء، وأرخی عذبة منها على كتفيه، وأمره أن يذهب إلى هؤلاء القوم، وكانوا نصارى، فعرض عليهم الإسلام لمدة ثلاثة أيام فأبوا.

ثم شرح الله صدر رئيسهم وزعيمهم الأصبغ الكلبي، فدخل في الإسلام، فبعث عبد الرحمن إلى النبي ﷺ يبشره بإسلام الأصبغ.

وتزوج عبد الرحمن ثماضر بنت أصبغ، وأصبح صهره، وأنجب منها ابنه الشهير في رواية الحديث أبا سلمة بن عبد الرحمن بن عوف.

هكذا كان عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه^(١).

صلاة النبي ﷺ خلفه:

ومن مناقب عبد الرحمن بن عوف أن النبي ﷺ صلى وراءه مرة من المرات ركعة من الركعات.

كان عبد الرحمن إمام النبي ﷺ، فقد تأخر النبي عن الصلاة، أبعده هو وبعض أصحابه، فلما جاؤوا كانت الصلاة أقيمت، وقدم الناس عبد الرحمن ليصلي بهم، فلما رجعوا أراد صاحبه أن يؤذنه أن النبي ﷺ قد حضر، فأشار إليه النبي ﷺ أن دعه، يترك الأمور كما هي، وأدرك النبي ﷺ ركعة وراء عبد الرحمن، ثم أكمل الركعة الأخرى، وكانت صلاة الصبح.

وقد جاء ذلك في حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: «تخلفت مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فتبرز رسول الله ﷺ، ثم رجعت إلي ومعي الإداوة. قال: فصبت على يدي رسول الله ﷺ، ثم استنثر. قال يعقوب: ثم

(١) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (١٢٩/٣).

تمضمض، ثمَّ غسل وجهه ثلاث مرّات، ثمَّ أراد أن يغسل يديه قبل أن يخرجهما من كمي جُبَّتِه، فضاق عنه كُمّاهما، فأخرج يده من الجبّة، فغسل يده اليمنى ثلاث مرّات، ويده اليسرى ثلاث مرّات، ومسح بخُفَّيه ولم ينزعهما.

ثم عمد إلى النَّاس، فوجدهم قد قدّموا عبد الرحمن بن عوف يصلي بهم، فأدرك رسول الله ﷺ إحدى الركعتين، فصلّى مع النَّاس الركعة الآخرة بصلاة عبد الرحمن.

فلَمَّا سلّم عبد الرحمن قام رسول الله ﷺ، يتم صلاته فأفزع المسلمين، فأكثرُوا التّسبيح.

فلما قضى رسول الله ﷺ صلاته، أقبل عليهم، فقال: «قد أحسنتم، وأصبتهم»؛ يغبطهم أن صلوا الصّلاة لوقتها^(١).

وهذه منقبة عظيمة، أن يصلي النبي ﷺ خلف هذا الصّحابي الجليل، هذه من مآثر عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه.

الغني الشاكر:

كان عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه من أغنياء المسلمين، ولكنّه كان من الأغنياء الشّاكرين، هناك من الصّحابة: الغني الشاكر، مثل: عبد الرحمن بن عوف، وعثمان بن عفّان، وهناك الفقير الصابر: مثل أبي ذر الغفاري، وأبي الدرداء وأمثالهم.

كان عبد الرحمن بن عوف من هؤلاء الأغنياء الشّاكرين، الرجل الذي بدأ من الصفر، وقال: دلوني على السوق، وكان رجلاً تاجراً،

(١) رواه أحمد (١٨١٧٥)، وقال مخرّجوه: حديث صحيح. وأصل الحديث متّفق عليه: رواه البخاري في المغازي (٤٤٢١)، ومسلم في الصّلاة (٢٧٤).

فبورك له في تجارته، ولكنه جعل ماله في سبيل الله، لم يبخل على الإسلام، ولا على رسول الله، ولا على المسلمين بشيء من ماله، تبرع بأربعة آلاف وكانت شطر ماله، ثم تصدق بأربعين ألفاً، ثم تصدق بما هو فوق ذلك.

قال الزهري - وهو من بني زهرة، من قبيلة عبد الرحمن بن عوف: إن سيدنا عبد الرحمن حمل على خمسمائة فرس في سبيل الله^(١).

خمسمائة حصان، خمسمائة جواد جعلها في سبيل الله، يجاهد المسلمون عليها في معاركهم، وليس كل فرس يصلح للسفر والقتال، لذلك قال النبي ﷺ: «تجدون الناس كإبل مائة، لا يجد الرجل فيها راحلة»^(٢).

خمسمائة فرس من أفضل الخيل.

لقد بذل من الأموال الكثير، وقالوا: إنه في يوم من الأيام - بعد وفاة رسول الله ﷺ - جاءت قافلة لعبد الرحمن بن عوف مكوّنة من سبعمائة بعير، تحمل الدقيق والطعام والأشياء التي جلبت من الشام، وهي تحمل النّفائس، فحينما قدمت المدينة كانت لها رجّة، تأتي القوافل أحياناً ومعها الطبول وهذه الأشياء، إشعاراً بأنّ القافلة عادت بسلام ونجاة، فكانت لها رجّة، فقالوا: ما هذه؟

قالوا: عير لعبد الرحمن بن عوف وصلت المدينة، سبعمائة بعير؛ فجعلها بأقتابها، وأحمالها في سبيل الله ﷻ.

(١) رواه الطبراني (١٢٩/١)، وأبو نعيم في الحلية (٩٩/١)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٤٩٠٠): رواه الطبراني، وهو مرسل، ورجاله ثقات.

(٢) رواه مسلم في فضائل الصحابة (٢٥٤٧)، وأحمد (٥٦١٩)، عن ابن عمر.

هكذا كان المال عند عبد الرحمن بن عوف هيناً عليه، لم يكن شحيح النفس، لم يكن بخيل اليد، بل كان يجود بما عنده لله وَعَجَلٌ، وكان الله يعوضه أكثر منه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّزَاقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩]، وكما قال ﷺ: «ما من يوم يُصْبِحُ العباد فيه، إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعطِ مُنْفِقًا خَلْفًا. ويقول الآخر: اللهم أعطِ مُمَسِكًا تَلْفًا»^(١).

﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾ [البقرة: ٢٦٨]، ﴿مَّغْفِرَةً﴾ في الآخرة، ﴿وَفَضْلًا﴾، أي: سعة وزيادة في الدنيا.

فكان عبد الرحمن ممن يُصدِّق وعد الرحمن، ولا يُصدِّق وعد الشيطان، كان يبذل ماله في سبيل الله.

وما ذكر عن عبد الرحمن، أنه لا يدخل الجنة إلا حبواً بعد سائر أصحابه^(٢)؛ فقد قال الإمام الحافظ المنذري في كتابه «الترغيب والترهيب»: «إن هذه الأحاديث وإن كثرت طرقها، لم تأت من طريق واحد صحيح، كلُّ طرقها ضعيفة الإسناد، وهي لا تُقبل في مثل هذا الصحابي من السابقين الأولين، ومن أهل بدر، ومن أهل بيعة الرضوان، فكيف يتأخر عن سائر أصحابه؟!»

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٤٤٢)، ومسلم (١٠١٠)، كلاهما في الزكاة، عن أبي هريرة.
 (٢) رواه أحمد (٢٤٨٤٢)، وقال مخرجه: منكر باطل. والطبراني (١٢٩/١)، والبخاري (٦٨٩٩)، وقال الشوكاني في الفوائد المجموعة (١٤٧): رواه أحمد، وفي إسناده عمارة، وهو يروي المناكير، وقد قال أحمد: هذا الحديث: كذب منكر. قال ابن حجر: لم يتفرد به عمارة بن زاذان؛ فقد رواه البخاري من طريق أغلب بن تميم، وأغلب شبيهه عمارة بن زاذان في الضعف، لكن لم أر من اتهمه بالكذب، وقد روي من طريق أخرى فيها متروك. وقال النسائي: الحديث موضوع. عن عائشة.

وإنَّ ماله بالمثابة التي قال فيها النَّبِيُّ ﷺ لبعض أصحابه: «نعم المال الصَّالِح للرجل الصَّالِح»^(١)، فكيف يدخل الجنَّة زحفاً؟!

ولذلك ردَّ هذا الحديث على كثرة طرقه، ولكنَّها كلُّها طرق ضعيفة^(٢).

وأنا مع هذا الاتجاه، أرى أنَّ هذه الأحاديث التي جاءت في أنَّ عبد الرحمن يدخل الجنَّة حبواً أو زحفاً، ويدخلها بعد غيره من الصَّحابة بكذا وكذا من الأعوام، هذا ليس صحيحاً.

عبد الرحمن بن عوف أوصى بماله في سبيل الله، ترك بعده مالاً كثيراً، قال ابن سعد: ترك ذهباً قُطِع بالفؤوس، حتَّى مَجَلَّتْ أيدي الرجال منه^(٣).

الرجل الَّذي لم يكن معه درهمٌ واحد حينما جاء إلى المدينة، ترك ذهباً قُطِع بالفؤوس حتَّى مَجَلَّتْ أيدي الرجال! والمجل: هو التنفط الَّذي يصير في اليد من العمل بفأس أو نحوها، ويصير كالقبة فيه ماء قليل.

أخلاقه ﷺ:

هذا عبد الرحمن بن عوف، كان رجلاً متواضعاً، لا يعرفه النَّاس من بين عبيده، يقف بين عبيده، فلا يُعرف من بينهم؛ لأنَّه لم يكن من أهل الترف أو السرف، أو التعالي على الآخرين، كان رجلاً متواضعاً، وكان رجلاً موقناً صديقاً، كما عرَّف النَّبِيُّ ﷺ؛ روى سعيد بن زيد - أحد

(١) رواه أحمد (١٧٧٦٣)، وقال مخرَّجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم. والحاكم في البيوع

(٢/٢)، وصحَّحه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في تخريج مشكلة

الفقر (١٩)، عن عمرو بن العاص.

(٢) انظر: الترغيب والترهيب للمنذري (٤٥٧٦)، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد.

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد (١٣٦/٣).

العشرة المبشرين بالجنة - أن النبي ﷺ وقف على حراء - جبل حراء - وقال: أيها الجبل اثبت.

كأن الجبل حدث له زلزلة أو هزة أو شيء من هذا القبيل.

فقال ﷺ: «اثبت أيها الجبل؛ فإنما عليك نبي أو صديق أو شهيد»^(١).

وكان الذين يقفون مع رسول الله ﷺ على الجبل أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وعبد الرحمن، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة، والزبير، وسعيد بن زيد.

من هؤلاء من مات شهيداً: عمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير.

ومنهم من عاش ومات صديقاً، فهم بين صديق وشهيد، فعبد الرحمن وأبو بكر وسعيد بن زيد، هؤلاء صديقون.

هذا هو عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه.

وصيته لأزواج النبي ﷺ وأهل بدر:

أوصى رضي الله عنه لأزواج النبي ﷺ بمال كثير، حتى أتى إلى عائشة رضي الله عنها

فقالت: رضي الله عن عبد الرحمن بن عوف وسقاه السلسيل^(٢).

وأوصى لأهل بدر، وكانوا مائة، فأصاب كل واحد منهم أربعمائة

دينار، فأخذوها حتى كان منهم عثمان، وعلي، أخذوا بوصية

(١) رواه أحمد (١٦٣٠)، وقال مخرجه: إسناده قوي. وأبو داود في السنة (٤٦٤٨)، والترمذي في

المناقب (٣٦٩٩)، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) رواه أحمد (٢٤٧٢٤)، وقال مخرجه: حديث حسن. والترمذي في المناقب (٣٧٤٩)، وقال:

حديث حسن غريب. وحسنه الألباني في المشكاة (٦١٢١)، عن عائشة.

عبد الرحمن، كأنما هي بركة من هذا الرجل، عثمان وهو خليفة من أصحاب الثروة أخذ من وصية عبد الرحمن بن عوف^(١).

موقفه رضي عنه من الخلافة:

كان عبد الرحمن بن عوف من الستة أصحاب الشورى، الذين أوصى عمر رضي عنه أن يكون الأمر شورى بينهم، ولكنه نزع نفسه، تخلى من أصحاب الشورى، سعد بن أبي وقاص، وتخلي طلحة والزبير، وبقي ثلاثة: عثمان، وعلي، وعبد الرحمن.. عبد الرحمن قال: أنزع نفسي منها، أترضون أن أنزع نفسي منها وأختار من يرضاه الناس؟ قالوا: رضينا.

عثمان رضي، وعلي رضي، وظلّ عبد الرحمن يستشير الناس، حتى استشار المخبات في بيوتهن، ثم عرض الأمر بعد ذلك، وكان الأمر إلى عثمان رضي عنه^(٢).

هكذا كانت سيرة عبد الرحمن بن عوف رضي عنه، والأمر يستحق أكثر من ذلك.

وفاته رضي عنه:

ثمّ مات رضي عنه، سمع أنّ عثمان بن عفان يريد أن يعهد إليه بالخلافة من بعده، فقال: اللهم إن كان هذا من عثمان فأمتني قبله^(٣).

(١) البداية والنهاية (٢٥٥/١٠).

(٢) سير أعلام النبلاء (٨٧/١، ٨٨).

(٣) انظر: سير أعلام النبلاء (٨٨/١).

فمات بعد ستّة أشهر، لم يكن يريد هذا الأمر، مات وهو ابن خمس
وسبعين سنة، سنة اثنتين وثلاثين من الهجرة.
فرضي الله عنه وأرضاه، وتقبّله في الصالحين.
اللهم اغفر لنا وله، اللهم اجعلنا من الذين اتبعوا هؤلاء الصّحابة
بإحسانٍ إلى يوم الدين.
اللهم آمين.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم، فاستغفروه؛ إنّه هو
الغفور الرحيم، وادعوه يستجب لكم.

* * *

الخطبة الثانية

أمّا بعد، فيا أيّها الإخوة المسلمون:

يحتار الإنسان في الخطبة الثانية عن ماذا يتكلّم، وقد تعودت أن أتكلّم عن المحن التي تمرّ بالمسلمين، وأختار أشدّها هولاً، وأكثرها إثارة لأتحدّث عنه، وأحسب أنّه لا يوجد أكثر إثارة، وأشدّ هولاً، وأعظم خطراً، وأبعد أثراً، من محنة الإخوة في فلسطين، في أرض النّبات، أرض الرسالات والمقدّسات، ليس هناك أخطر ممّا يُبيّت لفلسطين من مؤامرات ومكايد.

آخر هذه المكايد والمؤامرات ما يُبيّت للمسجد الأقصى: أولى القبلتين، وثالث المسجدين العظيمين، الذي بارك الله حوله، منتهى الإسراء، ومبتدأ المعراج، ما يُبيّت لهذا المسجد ممّا يُبيته اليهود من قديم، ولا يزالون يعملون ليل نهار؛ ليهدموا هذا المسجد في يوم من الأيام، والمسلمون في غفلة لاهون، وفي غمرة ساهون!

الآن يريدون أن يدخلوا من باب المغاربة من جهة أخرى؛ ليدخلوا إلى هذا المسجد، ويتسللوا إليه، ويأخذوا جزءاً منه: مسجد البراق وغير ذلك.

وقد استغاث مفتي القدس الشيخ عكرمة صبري، نادى العرب والمسلمين، والحكّام والشعوب، وأبناء فلسطين.. نادى أبناء فلسطين أن يأتوا زرافات ووحداً؛ ليكونوا في بيت المقدس، في المسجد الأقصى يوم الأحد القادم؛ حتّى يمنعوا هذه المأساة أن تحدث.

وكذلك الأخ المجاهد الشيخ رائد صلاح، رائد الحركة الإسلامية لعرب الداخل، داخل الكيان الصهيوني، نادى بأعلى صوته العرب والمسلمين أن ينقذوا بيت المقدس.

هذا ما يجري في الساحة الفلسطينية، المسجد الأقصى في خطر، المسجد الأقصى يريدون أن يستولوا على جزء منه، أن تكشف عورته من بعض الجهات، أن يتسلل اليهود إليه من جهة، ثم من جهة أخرى وهكذا.

ومع هذا نرى الإخوة في الساحة الفلسطينية يقتتلون فيما بينهم!
يا قومنا، ما هذا؟ اتقوا الله.

يا قوم، كيف يقاتل بعضكم بعضاً؟! كيف يرفع المسلم السلاح على أخيه المسلم؟

إنَّ النَّبِيَّ ﷺ يقول: «لا يشير^(١) أحدكم إلى أخيه بالسَّلاح؛ فإنه لا يدري أحدكم لعلَّ الشيطان ينزِعُ في يده، فيقع في حفرة من النَّار»^(٢)، وحتى ولو كان ذلك على سبيل المزاح، فكيف يسفك دمه بسلاحه؟!

كان المعهود عند الفلسطينيين سنين طويلة أنَّ الدم الفلسطيني حرامٌ على الفلسطينيين، والآن ظهرت فئات من النَّاس لا ترقب في مؤمنٍ إلا ولا ذمَّة، ولا ترعى لأحد عهداً ولا حرمة، لا يخافون الله، ولا يستحون

(١) قال النووي: هكذا هو في جميع النسخ: «لا يشير» بالياء بعد الشين، وهو صحيح، وهو نهي بلفظ الخبر... وقد قدمنا مرات أن هذا أبلغ من لفظ النهي. شرح النووي على مسلم (١٧٠/١٦)، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ٢، ١٣٩٢هـ.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الفتن (٧٠٧٢)، ومسلم في البرِّ والصَّلة (٢٦١٧)، عن أبي هريرة.



من النَّاسِ، أولئك الذين يعملون لحساب الآخرين، لا أريد أن أسمِّي أحداً، ولكن أرى أن هناك أناساً لا يحبون أن يسود الأمن والسَّلام بين الفلسطينيين.

الصَّحابة حارب بعضهم بعضاً في حرب الجمل، حينما التقى الصَّحابة بعضهم مع بعض، علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأصحابه، وطلحة والزُّبير وعائشة وأصحابهم، وكلِّما سعى السَّاعون والمصلحون ليصلحوا ذات البين، ليتفقوا، يُرى أناسٌ يرمون السهام من جانب على الجانب الآخر، فتشتعل المعركة، دون أن يدري أحدٌ من الذي بدأ المعركة، من الذي بدأ السهام.

هكذا أيُّها الإخوة.

* * *





أبو عبيدة بن الجراح^(١)

الخطبة الأولى

أَمَّا بَعْدُ، فَيَا أَيُّهَا الإِخْوَةُ الْمُسْلِمُونَ:

لا زلنا مع الجيل الرباني، الجيل القرآني، الجيل المُحمّدي، تلاميذ مدرسة محمد ﷺ، غرس يده، وثمار تربيته، لا زلنا مع أصحاب محمد ﷺ الذين أثنى عليهم القرآن، وأثنى عليهم مربيهم ومعلمهم ﷺ، وأثنى عليهم التاريخ، وكُتبت في مناقبهم ومآثرهم المدونات، الذين حفظوا لنا القرآن، ورووا لنا السنن، وفتحوا الفتوح، وأدخلوا الناس في دين الله، فلولا هؤلاء الصحابة ما كنا نحن مسلمين، هم الذين نشروا الإسلام في الأرض، نشروا هذا النور مضحين بأنفسهم وأموالهم، وأهليهم وكل ما يملكون في سبيل الله، لا زلنا مع هذا الرعيل الأول.

تحدثنا عن عدد من الصحابة، واليوم نتحدث عن واحد منهم، من أفذاذهم، من خيرتهم، من السابقين الأولين، من المهاجرين الذين ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

(١) أُلقيت في مسجد عمر بن الخطاب بالدوحة، بتاريخ ٢٧ أبريل ٢٠٠٧م.

أحد العشرة المبشرين بالجنة:

هذا الصحابي هو أبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح، أحد العشرة المبشرين بالجنة، وأحد الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ، وأحد الذين أسلموا مبكرًا، قبل أن يدخل النبي ﷺ وأصحابه دار الأرقم، دار التربية المحمدية التي تخرج فيها الجيل الأول، الذي قاد الدنيا بعد ذلك. كان أبو عبيدة من الخمسة الذين ذهبوا إلى النبي ﷺ: عثمان بن مظعون، وعبيدة بن الحارث، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو سلمة بن عبد الأسد، وأبو عبيدة بن الجراح، ذهبوا إلى النبي ﷺ فعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن، وأنبأهم بشرائع هذا الدين فأسلموا في ساعة واحدة^(١).

من السابقين الأولين:

هذا أبو عبيدة من السابقين الأولين، أتعرفون ما معنى السابقين الأولين؟ أي الذين صحبوا محمدًا ﷺ منذ فجر الإسلام، صحبوا هذا الرسول العظيم، صحبوا هذا المعلم الأول، عاشوا في نفحات محمد ﷺ، تلقوا القرآن من فمه غضًا طريًا، ينزل القرآن من فم جبريل إلى محمد، ومن محمد إلى أصحابه، هؤلاء الذين تلقوا القرآن غضًا طريًا، وعاشوا في القرآن، وعاشوا مع رسول الله ﷺ قبل أن يشغل الناس بما يشغلون به بعد ذلك، عاشوا في ظلال هذه التربية العظيمة، التربية المثلى التي تربي الروح والجسد، التي تربي العقل والقلب، التي تنمي العلم والإيمان، التي تُكوّن الشخصية المتكاملة، تكاملت تربية هؤلاء روحياً بالعبادة، وعقلياً بالعلم، وجسدياً بالرياضة، واجتماعياً بالمشاركة،

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد (٣/٣٩٣).

كانت هذه هي النخبة الأولى التي تعلمت في مكّة المكرمة وفي دار الأرقم بن أبي الأرقم على يد محمد ﷺ.

هكذا كان أبو عبيدة من هذه الصفوة الأولى خريجي مدرسة الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي، التي كانت قرب جبل الصفا، وكان كل من دخل في الإسلام لجأ ليتعلم في هذه المدرسة، التي لها معلم أوحده، هو محمد ﷺ، ولها مصدر أول، هو كتاب الله ﷻ. كان أبو عبيدة من هؤلاء.

وقد قيل: إنّ أبا عبيدة هاجر إلى الحبشة ولكنه لم يُطل اللبث بها وعاد، وظل مع رسول الله وأصحابه يلقون الأذى من قريش ويتحملونه. دخل مع من دخل من الصحابة في شعب أبي طالب؛ حيث حاصروهم المشركون: حاصروهم اجتماعيًا فلا يتزوجون منهم ولا يُزوّجونهم، وحاصروهم اقتصاديًا فلا يبيعون لهم ولا يشترون منهم، حتّى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وحتى اضطروا أن يأكلوا أوراق الشجر، وهو شجر ذو شوك، دميت أفواههم، وجُرحت أشداقهم من هذا الذي يأكلونه، عاش مع الرسول ﷺ والصحابة خلال السنين الثلاثة عشرة التي قضّاها في مكّة قبل الهجرة.

قتل أبي عبيدة لأبيه يوم بدر:

ثم هاجر أبو عبيدة مع من هاجر من الصحابة، وكان ممن شارك في غزوة بدر، وشارك في كل الغزوات، ولكن في غزوة بدر كان له موقف سجله التاريخ، فقد تعرّض له أبوه، وكان أبو عبيدة مع رسول الله ﷺ، وكان أبوه مع أبي جهل، وقد تعرّض له أبوه في هذه الغزوة، وحاول أبو عبيدة أن يُعرض عنه ويبعد عنه، ولكن أباه لم يتركه، وظل يطارده ويلاحقه؛ مما اضطّر الابن أن يقتل أباه، وفيه نزل

قوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولِيَّكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

نزع حلقتي المغفر من وجنتي رسول الله:

وفي غزوة أحد كان له موقف معروف مشهور، فإن رسول الله ﷺ بعد أن أشاع المشيعون أن محمداً قُتل، وُقِّت في أعضاء المسلمين، وحاول المشركون أن يحيطوا برسول الله ﷺ ليقتلوه، ولكن الله تعالى هياً لرسوله بعض جنوده الأبطال، الذين يقدونه بأرواحهم، وبكل ما يمتلكون من غالٍ ورخيص، مثل سعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله، ومثل أبي عبيدة بن الجراح.

ذكروا أن النبي ﷺ أصابته ضربة فدخلت في وجنتيه حلقتان من المغفر، والمغفر درع يتكون من حلقات حديدية، ولكن أبا عبيدة أمسك بأسنانه هاتين الحلقتين وانتزعهما بقوة؛ فكسرت ثنيتاه فكان أهتم، قالوا: ما رأينا هتماً زان صاحبه مثلما زان هتم أبي عبيدة أبا عبيدة^(١). قالوا: أحسن هتم رأيناه هتم أبي عبيدة. صار وجهه أحسن مما كان من قبل، هكذا كانوا يقدون رسول الله ﷺ.

مشاركته في الجهاد:

شهد أبو عبيدة المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وأرسله رسول الله ﷺ أميراً في بعض السرايا التي كان يبعثها من أصحابه هنا وهناك. من هذه السرايا سرية كانت مدداً لعمر بن العاص في

(١) معرفة الصحابة لأبي نعيم (١٤٩/١).

معركة ذات السلاسل، التي كانت على مشارف الشام، استمد عمرو بن العاص النبي ﷺ وقال له: أرسل لي مددًا. فأرسل له مددًا من صفوة من المسلمين، من سراة المهاجرين، فيها أبو بكر وعمر، وأمر عليهم أبا عبيدة، وذهبوا إلى عمرو بن العاص، فقال عمرو بن العاص: أنا أميركم. قالوا: أنت أمير أصحابك، أمّا نحن فأمرنا أبو عبيدة. قال: إنّما أمدني رسول الله بكم؛ فأنتم مدد لي وأنا أميركم. وكان أبو عبيدة رجلًا سهلًا لينًا، كان من أوصافه أنّه شديد التواضع، وأنّه حسن الخلق، وأنّه ذو حلم زائد، وأنّه غير راغب في الدنيا، لا يريد أن يثبت ذاته، ولا أن يتأمر على أحد؛ فسلم لعمرو بن العاص بالإمرة^(١).

أمّره النبي ﷺ على سرية قرب ساحل البحر الأحمر، وكان معه ثلاثمائة من الصحابة؛ فأصابهم الجوع، ونفذ ما عندهم من زاد، وتساءلوا: أليس مع أحدكم شيء؟ فوجدوا عند أحدهم مزودًا من تمر، فكانوا يوزعون على كل واحد ثمرة في اليوم، ويقولون: ما تغني التمرة؟! فلما فقدوا التمرة قالوا: ليت التمرة بقيت. ثمرة أحسن من لا شيء، ثمّ عثروا بالساحل على حوت كبير يسمونه «العنبر»، فعرفوا أنّه نعمة سبقت لهم من الله ﷻ، وقد قال تعالى: ﴿أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ، مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ [المائدة: ٩٦]. حتّى الميتة من البحر جائزة، وظل ثلاثمائة رجل من الصحابة يأكلون من هذا الحوت الكبير ثمانية عشر يومًا، وقد جاء أبو عبيدة بضلعين من أضلع هذا الحوت، وأمر أحد الصحابة أن يركب راحلته ويمر من تحت هذين الضلعين فمر من

(١) سيرة ابن هشام (٢/٦٢٣).

تحتهما، لتنظروا أي حوت هذا^(١)! يعتبر الحوت من أكبر الكائنات الحية، فكان هذا من بركات هذه الغزوات والسرايا، وبركات أصحاب النبي ﷺ.

في سقيفة بني ساعدة:

وحينما مات النبي ﷺ اجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة ليولوا منهم رجلاً، وعرف أبو بكر وعمر وأبو عبيدة هذا الاجتماع؛ فذهبوا إليهم وأقنعوهم أن العرب لا تدين إلا لهذا الحي من قريش: رهط رسول الله ﷺ، واقتنع الأنصار، وقال أبو بكر: أمامكم أحد هذين الرجلين: عمر وأبو عبيدة، فبايعوا أحدهما. رشح أبو بكر أبا عبيدة للخلافة؛ لكمال أهليته لذلك في نظر أبي بكر، وهو أهل لها، وقال كل من عمر وأبو عبيدة: والله لا نتقدم عليك أبداً. وبايعا أبا بكر، وبايعه المسلمون^(٢).

كان أبو عبيدة رجلاً من خيار المسلمين، كان رجلاً نحيفاً، طويل القامة، قليل الشعر، خفيف اللحية، ولكنه كان عظيم الخلق، مقتدياً برسول الله ﷺ الذي قال له ربه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

أمين الأمة:

عاش مشيراً وعاوناً لأبي بكر، عينه أبو بكر أميناً على بيت المال، والمقصود أنه عينه أميناً على المال، فلم يكن بيت المال أنشئ بعد، إنما

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الشركة (٢٤٨٣)، ومسلم في الصيد والذبائح (١٩٣٥)، عن جابر بن عبد الله.

(٢) رواه البخاري في الحدود (٦٨٣٠)، عن ابن عباس.

أنشئ في عهد عُمر، ولكن جعله أميناً على ما يأتي من أموال المسلمين، وهو نعم الأمين، فحينما جاء النبي ﷺ أسقفا نجران، سألاه أن يرسل إليهم رجلاً أميناً من أصحابه، فقال: «أرسل إليكم أميناً حق أمين». فاستشرف لها الصحابة من يكون هذا؟ كل واحد يقول: لعله يرسلني، فأرسل إليهم أبا عبيدة بن الجراح^(١)، ولذلك قال ﷺ: «لكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح»^(٢).

وكان من الملازمين لرسول الله ﷺ، وكان ممن جمع القرآن الكريم كله في حياة النبي ﷺ، وكان من أحب الناس إلى رسول الله، سُئل النبي ﷺ: من أحب الناس إليك؟ قال: «أبو بكر». قيل: ثم من؟ قال: «عمر». قيل: ثم من؟ قال: «أبو عبيدة»^(٣). وذلك لسمو أخلاقه رضي الله عنه، وزهده في الدنيا، وإقباله بكلية على هذا الدين، هو واحد من هذا الجيل العظيم.

قتال المرتدين والمشاركة في الفتوح:

هكذا عاش في حياة النبي ﷺ، وعاش كذلك بعد وفاة النبي ﷺ، أرسله أبو بكر بعد انتصار المسلمين في حرب الردة على القبائل المرتدة، التي تبعت المتنبئين الكذبة، بعد انتصارهم على مسيلمة الكذاب، وسجاح بنت الحارث، والأسود العنسي وغير هؤلاء: وجههم أبو بكر إلى العراق والشام، وكانت هذه حكمة من أبي بكر، هؤلاء

(١) متفق عليه: رواه البخاري في أخبار الأحاد (٧٢٥٤)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٢٠)، عن حذيفة.

(٢) رواه البخاري في المغازي (٤٣٨٢)، عن أنس.

(٣) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٧٠/٢٥) موقوفاً على عائشة..

الجنود الذين أبلوا بلاء حسنًا في حرب الردة: لا ينبغي أن يتوقفوا، وإنما ينبغي أن توجه طاقاتهم إلى حيث ينشغلون بنشر الإسلام، بمقاومة هذه الإمبراطوريات العتيقة، التي سُلطت على خلق الله، واتخذت عباد الله عبيدًا لها، لا بدّ من وقفة أمام هذه الإمبراطوريات التي تتحكم في رقاب الناس وفي عباد الله.

وفعلًا أرسل أبو بكر جنوده ورجاله، بعضهم ذهب إلى العراق، وبعضهم ذهب إلى الشام، وفي الشام كان أبو عبيدة على رأس هؤلاء الناس الفاتحين، حُصر أبو عبيدة، واشتد به وبإخوانه الكرب؛ فأرسل سيّدنا أبو بكر إلى قائده في العراق خالد بن الوليد: أن يأخذ جنوده ويذهب لينجد أبا عبيدة وإخوانه بالشام.

واستجاب خالد للأمر، واجتاز الصحراء برية السماوة، في أخطر رحلة عسكرية في التاريخ، وكان خالد رجلًا عبقرياً، وكان في غاية الشجاعة يجازف ولا يبالي، وفي غاية الدهاء أيضا والعقل، اجتاز هذه البرية حتّى وصل إلى دمشق، وعمل مع أبي عبيدة، وقد كان أبو بكر أمّره على الجيوش كلها؛ فتأمر عليهم.

قيادة الجيوش الإسلامية:

ثم مات أبو بكر رضي الله عنه، وتولّى الخلافة عمر من بعده، وكانت لعمر ملاحظات على خالد بن الوليد، وأنّه أحيانا يتجاوز في بعض الأشياء، فعزله عمر عن منصبه، وولّى أبا عبيدة قيادة الجيوش الإسلامية، وصل هذا الأمر إلى أبي عبيدة، ولكن أبا عبيدة كتمه، ولم يبلغ به أحداً، وترك الأمر لخالد يقود الجيوش في هذا الوقت حتّى فتحت دمشق، ثمّ أطلع الجميع على الأمر الذي جاءه من عمر رضي الله عنه.

وتنازل له خالد راضياً طائعاً، لم يُثر فتنة، ولم يتمرد، ولم يقل: أنا صاحب هذه الانتصارات. ما كانوا يفعلون شيئاً لأنفسهم، لقد باعوا حياتهم، ونذروا أنفسهم لهذا الدين، كانت صلاتهم ونسكهم ومحياهم ومماتهم لله رب العالمين، فلم يضر أحدهم أن يعمل جندياً أو يعمل قائداً، «إن كان في الساقة كان في الساقة، وإن كان في المقدمة كان في المقدمة»^(١)، هكذا كانوا، قبل خالد رضي الله عنه بأن يعمل مع أبي عبيدة مشيراً له، وجندياً في طاعته.

هؤلاء هم أصحاب رسول الله، المستشرقون والغربون حين يتناولون هذه القضايا يتناولونها بروح هذا العصر، يقولون: إن عمر كان يغار من خالد، وإن كذا وإن كذا. هؤلاء الناس يفكرون بعقلية غير عقلية هذا الجيل الرباني، الذي صدق الله ما عاهده عليه، فمنهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر، وما بدلوا تبديلاً.

هكذا كان أبو عبيده رضي الله عنه، فتح الفتوح، كان قائد المسلمين في اليرموك، فتح إجنادين، وفتح دمشق، وفتح عدة بلاد في الشام، ودانت الشام كلها للإسلام، تركها هرقل إمبراطور بيزنطة، ترك الإمبراطور الشهير سوريا وقال: سلام عليك يا سوريا، سلاماً لا لقاء بعده^(٢). انتهى الأمر، خرجنا من الشام.

هكذا طارد الإسلام هؤلاء، انتصر على الأباطرة، وعلى الأكاسرة، وعلى القياصرة، وعلى الجنود المجندة، على عشرات ومئات الآلاف، لم يكن عند المسلمين مثل هذه الجيوش الكبيرة، ولكنهم بجيوشهم

(١) جزء من حديث رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٨٧)، عن أبي هريرة.

(٢) تاريخ الطبري (٦٠٣/٣).

الصغيرة، وبسيوفهم وبرماحهم وسهامهم، لم يكن عندهم أفيال كأفيال الفرس والروم، ولكن كان عندهم سيوفهم في أيديهم، وإيمانهم في قلوبهم، وعزائمهم المتوكله على ربهم، بهذا انتصر الإسلام.

مقام أبي عبيدة بالشام:

ظلّ أبو عبيدة في الشام، ومعه من خيار الصحابة من معه، مثل معاذ بن جبل، وجاء عمر بن الخطّاب إلى بلاد الشام ليتسلم مفاتيح بيت المقدس من بطريك هذه المدينة صفرنيوس، قال: لا أسلمها إلا لرئيس المسلمين. وسلم المفاتيح لأمير المؤمنين عمر بن الخطّاب^(١).

وصل عمر بن الخطّاب إلى الشام فاستقبله العظماء والكبراء، وسأل: أين أخي أبو عبيدة؟ فأتى أبو عبيدة، لم يأت على فرس بسرجه كشأن الفاتحين العظماء، أتى على ناقة مخطومة بحبل؛ كأنه أعرابي من الأعراب، ونزل على عمر؛ فتصافحا وتعانقا، ثم قال عمر للناس: انصرفوا عنا، دعونا وحدنا.

لم تغيره الدنيا:

وقال لأبي عبيدة: أين منزلك؟ فأخذه إلى منزله، فنظر عمر يمينه ويسرة؛ فلم ير في البيت إلا سيفه وترسه ورحل ناقته، لم ير أثاثاً، ولا ريشاً، ولا طعاماً، ولا شراباً، ولا شيئاً مما يعيش به الناس، فقال له: يا أخي، لو اتخذت لك متاعاً. قال: يا أمير المؤمنين، يكفيننا هذا، إنه هذا سيبلغنا المقيّل. نحن تحت شجرة نقيّل تحتها ثمّ نودعها، فقال عمر:

(١) تاريخ الطبري (٣/٦٠٨، ٦٠٩).

كلنا غيرتنا الدنيا غيرك يا أبا عبيدة^(١). يرى عمر أنّ الدنيا غيرته بالنسبة لما يراه من حال أبي عبيدة!

هؤلاء هم الفاتحون الذين فتحوا الفتوح، لم يكونوا يطلبون المغنم، لم يكونوا ينشؤون القصور، لم يكونوا ينهبون ثروات الشعوب، لم يكونوا يعملون على فتح الأسواق للتجارة، إنّما كانوا يعملون لنشر كلمة الله في الأرض: كلمة التوحيد، يريدون أن يرفعوا الجباه حتى لا تطأ غير الله، حتى لا تسجد إلا لله، حتى لا تنحني الظهر إلا لله، ﴿يَتَأَهَّلَ الْكُتُبِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٦٤].

هكذا كان أبو عبيدة، أرسل إليه عمر رضي الله عنه بأربعة آلاف درهم أو أربعمئة دينار، وقال للرسول الذي أرسله: انظر ماذا يصنع بها؟ فلما ذهب بها إليه أمر أبو عبيدة بتفريقها، خمسة لفلان، وعشرة لفلان، وعشرون لفلان حتى انتهى منها، وأرسل مثلها لمعاذ بن جبل؛ ففعل مثلما فعل أبو عبيدة، فقال عمر: إنهم إخوة بعضهم من بعض، الحمد لله الذي جعل في أمة محمد من يصنع هذا^(٢).

صفوة أصحاب النبي:

هؤلاء هم النخبة، هم الصفوة، لم يكونوا يعيشون للدنيا، ولا عجب فقد اجتمع عمر يوماً مع بعض أصحابه، فقال لجلسائه: تمنوا. فقال أحدهم: أتمنى أن تمتلئ هذه الدار فضة فأنفقها في سبيل الله. ثم قال: تمنوا. فقال

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب (١٧١/٣).

(٢) الطبقات الكبرى (٤١٣/٣).

ثانٍ: أتمنى أن تمتلئ هذه الدار ذهبًا فأنفقه في سبيل الله. ثم قال: تمنوا. فقال ثالث: أتمنى أن تمتلئ هذه الدار بالجواهر النفيسة فأنفقها في سبيل الله. ثم قال: تمنوا. فقالوا: ما ندري يا أمير المؤمنين؟ تمنينا. قال: أمّا أنا فأتمنى أن تمتلئ هذه الدار برجال أمثال أبي عبيدة بن الجراح، ومعاذ بن جبل، وسالم مولى أبي حذيفة؛ فاستعملهم في طاعة الله^(١). لم يتمن مالا ولكن تمنى رجالا، فبالرجال تُبنى النهضات، بالرجال تُنصر الرسالات، بالرجال تُشاد الحضارات، بالرجال المؤمنين الصادقين يتحقق هذا.

هكذا كان عمر خبيرًا بما تحتاجه الأمم، تمنى رجالًا مثل أبي عبيدة بن الجراح، ولذلك قال يومًا: إن أدركني أجلي وأبو عبيدة حي لأستخلفنّه. فإذا قيل لي: لم استخلفته؟ قلت: استخلفت عليكم أمين الله وأمين رسوله^(٢). «لكلّ أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبّيدة بن الجراح»^(٣)، هكذا قال ﷺ، يقول: كنت أستخلف عليكم أبا عبيدة وأنا مطمئن، ولا يستطيع أحد أن يجادلني، لأنّ هذا أمين الله وأمين رسوله. هكذا كان أبو عبيدة عند عمر رضي الله عنه.

طاعون عمّواس:

في السنة الثامنة عشرة للهجرة أصيب الناس في الشام بوباء يُسمونه (طاعون عمّواس)، لأنّه أوّل ما ظهر في بلد اسمها (عمّواس) بين الرملة وبيت المقدس، وشاع وانتشر، وبدأ هذا الطاعون يصيب الصحابة واحدًا

(١) رواه أحمد في فضائل الصحابة (١٢٨٠)، والحاكم في معرفة الصحابة (٢٢٦/٣)، وسكت عنه،

وصحّحه الذهبي على شرط الشيخين.

(٢) رواه أحمد (١٠٨)، وقال مخرّجوه: حسن لغيره.

(٣) سبق تخريجه ص ٢٢٦.

واحدًا، وأسرة أسرة، وجماعة جماعة، قالوا: وكان أبو عبيدة في ستّة وثلاثين ألفًا من الجنود، لم يبقَ منهم إلا ستّة آلاف. حصد الطاعون خمسة أسداس جنود المسلمين وبقي السدس، ستّة آلاف من ستّة وثلاثين، وكان من هؤلاء أبو عبّيدة بن الجرّاح قائد المسلمين^(١).

حينما علم عمر في المدينة أنّ الطاعون بدأ ينتشر، ويأخذ المسلمين واحدًا فآخر: أرسل إلى أبي عبيدة يقول له: إنني في حاجة إليك، لا غنى بي عنك، أرجو أن تحضر إليّ. وشدد عليه، وعزم عليه أن يحضر، فقرأ أبو عبيدة الكتاب وقال: إن أمير المؤمنين يريد أن يستبقي من ليس بباقي.

هو يحسُّ بأنَّ أجله قد قرب، ويريد أن يستبقي ما ليس بباقي، وكتب إليه: يا أمير المؤمنين، إنني عرفت حاجتك فحللني من عزيمة، فإنني هنا مع جند من أجناد المسلمين، لا أريد ولا أحب أن أرغب بنفسي عنهم، يصيبني ما أصابهم. فقرأ عمر الكتاب وبكى، فقال من حوله: أمات أبو عبيدة يا أمير المؤمنين؟ قال: لا، وكأن قد^(٢). يعني يوشك أن يموت، وفعلاً ظهرت بثرة في خنصره، فكان ينظر إليها ويُسِرُّ بها ويقول: ما أحب أن لي مكانها حُمْر النّعم^(٣).

ولكنّه أراد قبل أن يموت أن يصلي في بيت المقدس فاستخلف معاذ بن جبل، وانطلق إلى بيت المقدس، ولكن أجله أصابه في الطريق؛ فمات في قرية اسمها (الفحل)^(٤) قرب بيسان، ولقي ربه راضيًا مرضيًّا.

(١) تاريخ دمشق لابن عساکر (٤٨٥/٣٥).

(٢) الكامل في التاريخ لابن الأثير (٢٣٧٧)، وانظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (١٨/١).

(٣) تاريخ دمشق لابن عساکر (٤٦٠/١١).

(٤) تاريخ أبي زرعة الدمشقي ص ٥٩٤، تحقيق شكر الله نعمة الله القوجاني، نشر مجمع اللغة العربية، دمشق.



هكذا عاش أبو عُبَيْدَةَ بن الجَرَّاح لله، وفي سبيل الله، ومن أجل دين الله، لم يُنشئ دنيا، لم تكن له دنيا، لم تكن له أموال، كان من الزاهدين كما قال الإمام الذهبي: هذا والله هو الزهد، وليس زهد الفقير المُعَدَم^(١). الفقير المعدم لا يجد شيئاً ولكن هذا أمير، كان يستطيع أن يجمع من الغنائم والفيء وهذه الأشياء الكثير، ولكنه لم يكن يريد الدنيا، هذا هو الزهد حقاً.

هؤلاء هم أصحاب رسول الله ﷺ الذين شهد لهم بالجنة، والذين نصرُوا هذا الدين، وفتحوا هذه الفتوح، وأقاموا دولة العلم والإيمان، رأت الدنيا الجيل العادل، الذي كان يقيم عدل الله على كل عباد الله، لم يكن يعدل بين المسلمين فقط؛ بل يعدل بين المسلمين والنصارى واليهود والمجوس وكل أبناء الملل والنحل، رضي الله عن الصحابة، ورضي الله عن أبي عبيدة، ورضي الله عن المؤمنين جميعاً، اسألوا الله تعالى أن يرضى عنهم، واسألوا الله تعالى النصر في الدنيا والسعادة في الآخرة، ادعوا الله تعالى يستجب لكم.

* * *

(١) سير أعلام النبلاء (١٧/١).

الخطبة الثانية

أمّا بعدُ، فيا أيُّها الإخوة المسلمون:

نتابع بكل قلق وأسى ما يجري في الصومال الشقيق، هذا البلد الذي مر له نحو ستّة عشر عامًا، وهو يعاني حروبًا بعد حروب، أمراء الحرب وتجار الموت لا زالوا يعملون عملهم في هذا الشعب، لا يكاد يفيق في صدمة إلاّ ليقع في صدمة أخرى، ولا يكاد ينفض من حرب إلاّ وتقع حرب أخرى.

في فترة وجيزة قامت المحاكم الشرعية الإسلامية في الصومال تنادي بوحدة هذا الشعب، والتف حولها الشعب الصومالي، ودخلت المدن مدينة بعد مدينة معهم دون قتال، الناس يسلمون لهم بسهولة ويسر وبثقة.

ولكن خصوم الإسلام وأعداء الصومال، والذين يتربصون بهذه الأمة الدوائر لا يحبون أن يرتفع اسم الإسلام، محاكم إسلامية؟! بهذا العنوان وبهذا الاسم؟! هذا شيء لا تقبله نفوس المرضى، ولا قلوب الحاقدين؛ فكادوا مكايدهم، وفعلوا أفاعيلهم لضرب هذه المحاكم، التي لم تسفك دمًا، ولم تقتل أحدًا، دان الناس لها باختياراتهم وطواعيتهم، وكان التدخل الأثيوبي الصليبي، تدخلت أثيوبيا بجيوشها القوية، المدعومة من أمريكا!

بل الحقيقة إن أثيوبيا إنّما تحارب بالوكالة عن أمريكا، أمريكا التي هُزمت في العراق، وكما قال الكونجرس: يستحيل على أمريكا أن تحقق نصرًا في العراق. تركت العراق وذهبت إلى الصومال، لم تنس هذا البلد الذي ذقت فيه الهزيمة يومًا ما، ولم تُرد أن تدخله بنفسها، وكّلت أثيوبيا لتحارب الصوماليين نيابة عن أمريكا.

ويقول زيناوي: إننا في حدود أسبوعين سنظهر مقديشيو من المسلحين. لحساب من هذا؟! من هم المسلحون؟ هم الذين يدافعون عن استقلال بلدهم، عن تراب أرضهم، عن سيادة بلدهم، هؤلاء هم المسلحون! أثيوبيا هي الموكلة بتطهير مقديشيو من هؤلاء.

ما هذا الذي يحدث؟ أين العرب؟ أين المسلمون؟ أين الجامعة العربية؟ أين منظمة المؤتمر الإسلامي؟ أين الأمم المتحدة؟ أين الاتحاد الأوروبي؟ أين الذين يغارون على حقوق الإنسان؟ كيف يُترك بلد يدخل بلدا آخر ليحتله، وليقتل من أبنائه بالعشرات والمئات والألوف؟ أين العالم الحر؟ أين العالم الحديث؟ أتعجب مما يحدث، العالم الذي قيل عنه: إنه تقارب وصار قرية واحدة!

ما أبعد ما بين هذا العالم بعضه وبعض، رغم قربه المادي، رغم ثورة الاتصالات؛ فالعالم لا يزال بين بعضه وبعض مسافات ومسافات، هناك صدام الأديان، وصدام الحضارات، وصدام الأقسام، هذا هو الصراع الذي يُغذّي الآن من أمريكا، ومن يتبع أمريكا!

إننا نقف مع إخوتنا هؤلاء في الصومال الشقيق، ونشد على أيديهم، ونقول لهم: اثبتوا واصبروا، وصابروا وربطوا، والله معكم، ولن يترككم أعمالكم، وسيجزى الله الظالمين جزاء ظلمهم، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون، فإن نعمة الله لا بد أن تلحق الظالمين، وكما قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لِيَمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يَفْلِتْهُ». ثم تلا قول الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢] (١).

(١) متفق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٦٨٦)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٣)، عن أبي

اللهم امكر لنا ولا تمكر علينا، وانصرنا ولا تنصر علينا، وكُنْ لنا
ولا تكن علينا، وأعنا ولا تُعن علينا، واهدنا ويسر الهدى إلينا، وانصرنا
على من بغى علينا، اللهم انصرنا على أعدائك أعداء الإسلام حيثما
كانوا، اللهم رُدِّعنا كيدهم، وفُلِّحْهم، وأدل دولتهم، وأذهب عن
أرضك سلطانهم، ولا تدع لهم سبيلاً على أحد من عبادك المؤمنين،
اللهم أنزل عليهم بأسك الذي لا يُرد عن القوم المجرمين، اللهم إنا ندرأ
بك في نحورهم، ونعوذ بك من شرورهم، اللهم يا منزل الكتاب، ويا
مُجري السحاب، ويا سريع الحساب، ويا هازم الأحزاب، اهزمهم
وانصرنا عليهم، اللهم انصُرْ إخواننا المجاهدين في سبيلك حيثما كانوا،
اللهم انصُرْ إخواننا في فلسطين، وانصُرْ إخواننا في العراق، وانصُرْ إخواننا
في الصومال، وانصُرْ إخواننا المجاهدين والمضطهدين في كل مكان،
اللهم خذ بأيديهم إلى مواطن النصر، اللهم افتح لهم فتحاً مبيناً، واهدهم
صراطاً مستقيماً، وانصرهم نصرًا عزيزاً، وأتم عليهم نعمتك، وأنزل في
قلوبهم سكينتك، وانشر عليهم فضلك ورحمتك، اللهم ارفع مقتك
وغضبك عنا، ولا تهلكننا بما فعل السفهاء منا، ولا تسلط علينا بذنوبنا
من لا يخافك ولا يرحمنا، اللهم اجعل هذا البلد آمناً مطمئناً سخاءً رخاءً
وسائر بلاد المسلمين، اللهم أكرمنا ولا تهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وزدنا
ولا تنقصنا، وآثرنا ولا تُؤثر علينا، وارض عنا وأرضنا، ربنا آتنا في الدنيا
حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار.



عبد الله بن مسعود (١)

الخطبة الأولى

أمّا بعد، فيا أيّها الإخوة المسلمون:

لا يزال حديثنا متصلًا حول خير أجيال البشرية، خير أصحابٍ لخير نبي، وخير تلاميذٍ لخير معلم، أولئك أصحاب محمد ﷺ ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۗ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وحديثنا اليوم عن عالم من علماء الأُمَّة، من المهاجرين، إنّه عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، الإمام الحَبْر كما قال الحافظ الذهبي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، الإمام الحَبْر فقيه الأُمَّة، أحد أذكى العلماء، أحد جامعي القرآن الكريم، أحد معلمي هذه الأُمَّة.

عبد الله بن مسعود الهذلي؛ من بني هذيل، أسلم مبكرًا؛ فهو من السابقين الأولين في الإسلام.

أسلم قبل أن يدخل النبي ﷺ وأصحابه دار الأرقم بن أبي الأرقم،

حتّى قال ابن مسعود: لقد رأيتني سادس ستة، ما على الأرض مسلم غيرنا^(١).

سادس ستة في الإسلام، هكذا كان عبد الله بن مسعود.

قصة إسلامه:

ويحكى رضي عنه قصة إسلامه، وكيف دخل الإسلام قلبه، يقول: كنت غلامًا يافعًا أرعى غنمًا لعقبة بن أبي معيط، فجاء النبي صلى الله عليه وسلم، وأبو بكر رضي عنه، وقد فرّا من المشركين، فقالا: «يا غلام، هل عندك من لبنٍ تسقينا؟». قلت: إنني مؤتمنٌ، ولستُ ساقيكما.

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «هل عندك من جذعةٍ لم ينزُ عليها الفحلُ؟».

قلت: نعم، فأتيتُهما بها، فاعتقلها النبي صلى الله عليه وسلم ومسح الضرع، ودعا، فحفل الضرع، ثمّ أتاه أبو بكر رضي عنه بصخرةٍ مُنقَعرة، فاحتلب فيها، فشرب، وشرب أبو بكر، ثمّ شربتُ، ثمّ قال للضرع: «اقلص» فقلص.

هنا لاحظ ابن مسعود أنّ هذا ليس رجلًا عاديًّا، فكيف يضع يده على ضرع الشاة التي لم تحمل قط ولم ينز عليها كبش؟! لاحظ أنّه رجل مبارك، وأنّه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال: فأتيته بعد ذلك فقلت: علّمني من هذا القول؟ - يعني: القرآن - قال: «إنّك غلامٌ مُعلّم».

(١) رواه ابن أبي شيبة في الفضائل (٣٤٥٨١)، وابن جرّان في المناقب (٧٠٦٢)، وقال الأرنؤوط: إنسانه صحيح على شرط الصحيح. والحاكم في معرفة الصحابة (٣١٣/٣)، وصحّح إسناده، ووافقه الذهبي.



قال: فأخذت من فيه سبعين سورة، لا ينازعني فيها أحد^(١).
فكان رضي عنه من قرّاء القرآن المجدين.

كان من قرّاء القرآن:

كان رضي عنه من قرّاء القرآن المجدين؛ ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول:
«خذوا القرآن من أربعة: من ابن أمّ عبد...».

كان عبد الله بن مسعود يُلقَّب بابن أمّ عبد، وكان يكنى بأبي عبد الرحمن، بدأ به رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال صلى الله عليه وسلم: «خذوا القرآن من أربعة: من عبد الله بن مسعود، وسالم مولى أبي حذيفة، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب»^(٢).

اثنان من المهاجرين واثنان من الأنصار، وبدأ بابن أمّ عبد القارئ المجيد، ابن القرآن الكريم.

قال له النبي صلى الله عليه وسلم يوماً: «اقرأ عليّ القرآن».

فقلت: يا رسول الله، اقرأ عليك وعليك أنزل؟

قال: «إنني أحبُّ أن أسمع من غيري».

قال: فقرأت عليه سورة النساء حتّى جئت إلى هذه الآية:

(١) رواه أحمد (٤٤١٢)، وقال مخرّجوه: إسناده حسن. وابن أبي شيبة في الفضائل (٢٢٧٤٣)، وأبو يعلى (٥٣١١)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩٨١٦): رواه أحمد، وأبو يعلى، ورجالهما رجال الصحيح.

(٢) متّفق عليه: رواه البخاري في المناقب (٣٨٠٨)، ومسلم في فضائل الصّحابة (٢٤٦٤)، عن عبد الله بن عمرو.

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَتُّوْلَاءٍ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٤١] قال: «حسبك الآن». فالتفت إليه، فإذا عيناه تذرفان^(١).

الآية تتحدث عن موقف النبي ﷺ يوم القيامة ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَتُّوْلَاءٍ شَهِيدًا ﴾ هو شهيد على كل الأمم وعلى كل الخلق، فدمعت عيناه رسول الله ﷺ.

كان عبد الله بن مسعود من قراء القرآن، قال عنه النبي ﷺ: «من سره أن يقرأ القرآن غضًا كما أنزل، فليقرأه على قراءة ابن أم عبد»^(٢). هكذا كان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

من أصحاب الهجرتين:

أسلم عبد الله في مكة، وتحمل الأذى من المشركين، وصب عليه من البلاء ما صب، فهاجر مع من هاجر من الصحابة إلى الحبشة، ثم عاد قبل أن يهاجر الصحابة إلى المدينة، فهاجر الهجرتين، وصلى إلى القبلتين. هكذا كان ابن مسعود رضي الله عنه.

جهاده في سبيل الله:

هاجر إلى المدينة مع أصحاب رسول الله ﷺ، وشهد المشاهد مع رسول الله ﷺ، شهد بدرًا وغيرها من الغزوات، حتى إن النبي ﷺ بعد غزوة بدر قال: «من ينظر ما صنع أبو جهل؟»^(٣).

(١) متفق عليه: رواه البخاري في فضائل القرآن (٥٠٥٥)، ومسلم في صلاة المسافرين (٨٠٠).
 (٢) رواه أحمد (٤٢٥٥)، وقال مخرجه: صحيح بشواهده. وابن ماجه في المقدمة (١٣٨)، عن ابن مسعود.
 (٣) متفق عليه: رواه البخاري في المغازي (٣٩٦٢)، ومسلم في الجهاد والسير (١٨٠٠)، عن أنس بن مالك.



فانطلق ابن مسعود، فوجده قد ضربه ابنا عفراء، حتّى بَرَكَ.

ابنا عفراء: معاذ ومُعَوِّذ، من الأنصار، شابان من الأنصار، يحكي عبد الرحمن بن عوف قصّة قتلها لأبي جهل قال: بينا أنا واقف في الصفّ يوم بدر، نظرت عن يميني وشمالي، فإذا أنا بين غلامين من الأنصار، حديثه أسنانهما، تمنّيت لو كنتُ بين أضلعَ منهما^(١)، فغمزني أحدهما، فقال: يا عمّ، هل تعرف أبا جهل؟

قلت: نعم، وما حاجتكُ إليه يا ابن أخي؟

قال: أَخْبِرْتُ أَنَّهُ يَسُبُّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لئن رأيتُهُ لا يفارق سوادي سواده حتّى يموتَ الأعجلُ منّا^(٢).

قال: فتعجبتُ لذلك.

فغمزني الآخر، فقال: مثلها.

قال: فلم أنشَب^(٣) أن نظرتُ إلى أبي جهل يزول^(٤) في النَّاسِ. فقلت: أَلَا تَرَيَانِ؟ هَذَا صَاحِبُكُمَا الَّذِي تَسْأَلَانِ عَنْهُ.

قال: فابتدراه فضرباه بسيفيهما حتّى قتلاه^(٥).

وهذا قبل أن يذهب ابن مسعود ويأتي بالخبر إلى النَّبِيِّ ﷺ.

يقول ابن مسعود رضي الله عنه: انتهيتُ إلى أبي جهل وهو صريع، وهو يذبُّ النَّاسَ بسيفه، فقلتُ: الحمد لله الذي أخزأك يا عدوّ الله!

(١) أي: أقوى.

(٢) أي: الأقرب أجلاً.

(٣) أي: لم أمكث ولم أحدث شيئاً حتى نظرت.

(٤) أي: يكثر الحركة ولا يستقر.

(٥) سبق تخريجه ص ٢٠٨.

قال: هل هو إلا رجل قتله قومه؟

فجعلت أتناوله بسيفٍ لي، فأصبتُ يده، فندر^(١) سيفه، فأخذته، فضربته به حتى برد، ثم خرجتُ حتى أتيتُ النبي ﷺ، وكانما أُقلُّ من الأرض^(٢)، فأخبرته فقال: «الله الذي لا إله إلا هو؟».

فقام معي حتى خرج يمشي معي حتى قام عليه فقال: «الحمد لله الذي أخزأك يا عدو الله، هذا كان فرعون هذه الأمة»^(٣).

قربه من رسول الله ﷺ وقيامه بحاجته:

حضر عبد الله بن مسعود الغزوات، وشهد المشاهد مع رسول الله ﷺ، وكان قريباً من رسول الله ﷺ، يراه الرائي الذي لا يعرفه فيحسب أنه من آل بيت رسول الله ﷺ؛ يقول سيدنا أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: قدمتُ أنا وأخي من اليمن، فمكثنا حيناً ما نرى إلا أن عبد الله بن مسعود رجلٌ من أهل بيت النبي ﷺ؛ لما نرى من دخوله ودخول أمه على النبي ﷺ^(٤).

وكان ابن مسعود يحمل سواك النبي ﷺ، ويحمل له نعليه، ويحمل له مطهرته (ما يتوضأ فيه)، ويحمل له وسادته، كان يحمل وساده

(١) أي: سقط من يده.

(٢) أي: أرفع منها وأحمل، من السرعة في المشي والفرح بقتله.

(٣) رواه أحمد (٤٢٤٦)، وقال مخرّجوه: إسناده ضعيف لانقطاعه. وابن أبي شيبة في المغازي (٣٧٨٥٢)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩٩٦١): هو من رواية أبي عبيدة عن أبيه، ولم يسمع منه، وبقية رجاله رجال الصحيح.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري في أصحاب الرسول (٣٧٦٣)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٦٠)، عن أبي موسى الأشعري.

وسواكه، كما قال الصَّحابة رضوان الله عليهم، صاحب الوساد الذي ينام عليه رسول الله ﷺ.

وكان صاحب السرِّ^(١)؛ كان النَّبي ﷺ يُسِرُّ إليه ما لا يُسِرُّ إلى غيره؛ ولذلك حينما كان يفتي بعض الصَّحابة في أشياء يجهلها صحابة آخرون يقولون: حُقَّ له، كان يؤذن له إذا حُجبتنا، ويشهد إذا غبنا^(٢).

جمعه بين الحفظ والفهم:

كان الصَّحابة يشهدون له بالعلم، ويشهدون له بقراءة القرآن، كان يجمع بين الحفظ والفهم، بين الرواية والدراية، بعض الصَّحابة أُوتوا سعة الحفظ مثل أبي هريرة، ولكنه لم يُؤتَ من الفقه والفهم ما أُوتي ابن مسعود وابن عباس وغيرهما من الصَّحابة.

ابن مسعود أُوتي الأمرين معًا: الرواية والدراية؛ الحفظ العجيب، والفهم الثاقب والعميق، فكان من علماء الأمة حقًا، كما قال الإمام الذهبي رَحِمَهُ اللهُ: فقيه الأمة^(٣).

كان الصَّحابة يشهدون له بذلك.

يقول عنه عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: كُنَيْفٌ مُلِيََ عِلْمًا^(٤). أي: وعاء ملئ علمًا.

ويقول عليٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: علم القرآن وعلم السنَّة ثمَّ انتهى وكفى بذلك علمًا^(٥).

(١) رواه البخاري في أصحاب النَّبي (٣٧٦١)، عن أبي الدرداء.

(٢) رواه مسلم في فضائل الصَّحابة (٢٤٦١).

(٣) سير أعلام النبلاء (٤٦١/١).

(٤) رواه ابن سعد في الطبقات (٣٤٤/٢).

(٥) رواه يعقوب الفسوي في المعرفة والتاريخ (٥٤٠/٢)، تحقيق أكرم ضياء العمري، نشر مؤسسة

الرسالة، بيروت، ط ٢، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

هكذا كان الصّحابة رضوان الله عليهم.

معاذ بن جبل رضي الله عنه حينما مرض مرض وفاته كان بعض أصحابه يبكي، فقال: ما يبكيك؟

قال: والله ما أبكي على دنيا أصبتها منك، ولكنني أبكي على العلم الذي أصبته منك، أخشى أن أحرم مثله.

فقال معاذ: لا تبك؛ فإن إبراهيم عليه السلام كان في زمن ليس فيه علم، ولكن الله آتاه علمًا، إذا أنا مت فاطلب العلم عند أربعة: عند عبد الله بن مسعود، وسلمان الفارسي، وعبد الله بن سلام، وعويمر أبي الدرداء^(١).

أول ما نصحه أن يطلب العلم عند ابن مسعود، هكذا كان ابن مسعود عند الصّحابة.

سُئل أبو موسى عن بنت وابنة ابن وأخت، فقال: للبنت النصف، وللأخت النصف، وأت ابن مسعود، فسيتابعني.

فسئل ابن مسعود، وأخبر بقول أبي موسى فقال: لقد ضللت إذن وما أنا من المهتمدين، أقضي فيها بما قضى النبي صلى الله عليه وسلم: للابنة النصف، ولابنة ابن السدس تكملة الثلثين، وما بقي فللأخت.

فأتينا أبا موسى فأخبرناه بقول ابن مسعود، فقال: لا تسألوني ما دام هذا الخبر فيكم^(٢).

(١) رواه ابن عساکر في تاريخ دمشق (٤٧٦/٢٢).

(٢) رواه البخاري في الفرائض (٦٧٣٦).

أقرب النَّاسِ إِلَى هَدْيِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ :

كان ابن مسعود مرجعًا للصَّحابة - رضوان الله عليهم - بما تعلَّم من القرآن، وبما تعلَّم من السُّنَّة، وبقربه من رسول الله ﷺ حتَّى كان أقرب النَّاسِ إِلَى هَدْيِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قال عبد الرحمن بن يزيد: سألتنا حذيفة عن رجل قريب السميت والهدْي من النَّبي ﷺ حتَّى نأخذ عنه، فقال: ما أعرف أحدًا أقرب سمًّا وهدْيًا ودلًّا^(١) بالنَّبي ﷺ من ابن أمِّ عبد^(٢).
أقرب النَّاسِ إِلَى هَدْيِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وإلى هيئته، وإلى كلامه؛ هو عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

هكذا كان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، هذه منزلته بين أصحاب النَّبي ﷺ.

صفاته الخلقية:

إذا نظرت إلى ابن مسعود هذا ونظرت في أوصافه وجدت رجلاً شديد الأدمة (السمر)، قصير القامة، دقيق الجسم، قليل اللحم، عديم الشحم، أحمش الساقين (أي: نحيل الساقين)؛ فعن زر بن حبيش عن ابن مسعود، أنَّه كان يجتني سواكًا من الأراك، وكان دقيق الساقين، فجعلت الريح تكفؤه، فضحك القوم منه، فقال رسول الله ﷺ: «مَمَّ تضحكون؟». قالوا: يا نبيَّ الله، من دقَّة ساقيه.

فقال: «والَّذي نفسي بيده، لهما أثقلُ في الميزان من أُحد»^(٣).

(١) أي: الحالة التي يكون عليها الإنسان من السكينة والوقار، وحسن السيرة والطريقة، واستقامة المنظر والهيئة.

(٢) رواه البخاري في أصحاب النبي ﷺ (٣٧٦٢).

(٣) رواه أحمد (٣٩٩١)، وقال مخرَّجوه: صحيح لغيره، والطبراني (٨٤٥٢)، والبيزار (٣٣٠٥)، وابن حبان في مناقب الصحابة (٧٠٦٩)، وحسنه الألباني في غاية المرام (٤١٦)، عن ابن مسعود.

أثقل من جبل أحد، هاتان السّاقان الدقيقتان النحيلتان أثقل من جبل أحد!
الرجال لا يقاسون بالطول والعرض، لا يقاسون بالوزن، الله تعالى
قال عن المنافقين: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ [المنافقون: ٤].

وقال العرب في أمثالهم:

تري الفثيان كالنخل وما يُدريك بالدخل^(١)؟

وقال الشاعر العربي:

لا بأس بالقوم من طولٍ ومن قصرٍ جسمُ البغالِ وأحلامُ العَصافيرِ^(٢)

وقال الشاعر:

تري الرجلَ النحيفَ فتزدريه وفي أثوابه أسدٌ هصُورُ
ويُعجبُكَ الطيرُ إذا تراه فيخلفُ ظنك الرجلُ الطيرُ^(٣)

وقال الإمام الشافعي:

عليّ ثيابٌ لو تقاس جميعها وفيهن نفسٌ لو يُقاسُ ببعضها
وما ضرَّ نضالَ السيفِ إخلاقُ^(٤) غمده إذا كانَ عضبًا^(٥) حيثُ وجّهته فرى^(٦)

(١) من قول عثمة بنت مطرود، والدخل بالفتح: الداء والعيب والريبة، وهو مثل يُضرب في ذي المنظر الذي لا خير عنده. انظر: تاج العروس، مادة (د. خ. ل).

(٢) ديوان حسان بن ثابت ص ١٢٩، شرح عبد أ. مهنا، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢، ١٩٩٤م.

(٣) من شعر العباس بن مرداس السلمي. انظر: إكمال تهذيب الكمال (٢١٩/٧)، تحقيق عادل بن محمد، وأسامة بن إبراهيم نشر دار الفاروق الحديثة، مصر، ط ١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، وذكره ابن كثير في البداية والنهاية (٩٥/١٣) منسوباً إلى كثير عزة.

(٤) أخلق: أي قدم وبلي.

(٥) العضب: السيف القاطع.

(٦) الدر الفريد (٢٥٧/٧)، تحقيق كامل سلمان الجبوري، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١،

كان ابن مسعود - هذا الرجل القصير النحيل الدقيق الساقين -
ممتلئاً علماً، ممتلئاً فقهاً، ممتلئاً إيماناً، ممتلئاً حكمة، كان رضي عنه معلماً
للأمة حقاً.

خوفه من الله:

كان إذا هدأت العيون ونام النَّاس في فرشهم، يقوم من الليل ليتهدج،
وكان يقول في دعائه: خائف مستجير، تائب مستغفر، راغب راهب^(١).
ويقول زيد بن وهب: رأيت بعيني عبد الله أثرين أسودين من
البكاء^(٢).

وكان يقول لأصحابه: لو تعلمون ذنوبي ما وطئ عقبي رجلان،
ولحثيتم على رأسي التراب، ولوددت أن الله غفر لي ذنباً من ذنوبي،
وإنِّي دعيت عبد الله بن روثة^(٣).

ابن روثة، لا ابن مسعود ولا ابن أمّ عبد!

هكذا كان رضي عنه.

عبد الله بن مسعود يُؤسس مدرسة الكوفة:

وحينما فُتحت الفتوح، ومُصرت الأمصار، وأنشئت الكوفة، أمدَّ
عمر بن الخطاب أهل الكوفة بما فيها من الصحابة والقبائل قائلًا: إنِّي قد
بعثت عمارًا أميرًا، وعبد الله بن مسعود معلماً ووزيرًا، وهما من النُّجباء

(١) رواه ابن عساکر في تاريخ دمشق (١٧٠/٣٣).

(٢) رواه الخرائطي في اعتلال القلوب (٣٦٤)، تحقيق حمدي الدمرداش، نشر نزار مصطفى الباز،
الرياض، ط ٢، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

(٣) رواه الحاكم في معرفة الصحابة (٣١٦/٣)، وصحَّح إسناده، ووافقه الذهبي.

من أصحاب محمد ﷺ، من أهل بدر وأحد، فاقتدوا بهما، واسمعوا من قولهما، وقد آثرتكم بعبد الله على نفسي^(١).

أنا فضلتكم بعبد الله على نفسي، كنت أودُّ أن يكون معي بالمدينة مستشاراً لي، خصوصاً في مسائل الفقه، وفي المشاكل التي يسأل عنها الناس، آثرتكم بعبد الله على نفسي.

وذهب ابن مسعود إلى الكوفة، وأنشأ فيها مدرسة علمية، كان فيها عمالقة من التابعين، من أمثال: الأسود النخعي، وعلقمة، ومسروق، وأبي وائل، وغيرهم من الرجال العلماء الفطاحل، الذين تتلمذ عليهم التابعي الجليل إبراهيم النخعي، فقد جمع علم هؤلاء إلى علم ابن مسعود، وعليه تتلمذ حماد بن سليمان شيخ أبي حنيفة، فأبو حنيفة تلميذ المدرسة المسعودية التي أسسها عالم الأمة عبد الله بن مسعود رضي عنه، حتى إن أمير المؤمنين علي بن طالب رضي عنه حينما دخل الكوفة وجد فيها علماً جمّاً، وجد فيها علماء كثيرين من أصحاب ابن مسعود وتلاميذ مدرسته فقال: رحم الله ابن أمّ عبد قد ملأ هذه القرية علماً^(٢).

ملأ الكوفة علماً، هذا هو ابن مسعود رضي عنه.

موقفه من جمع القرآن في عهد عثمان:

في عهد عثمان حدثت مشكلة بين ابن مسعود وسيدنا عثمان رضي عنه؛ لقد رأى عثمان رضي عنه ومعه الصحابة عامة أن يجمعوا الأمة على مصحف

(١) رواه الطبراني (٨٦/٩)، والحاكم في معرفة الصحابة (٣/٣٨٨)، وصحّحه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٥٥٧٢): رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح؛ غير حارثة، وهو ثقة.

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (٤/١٦٩). وانظر: المبسوط للسرخسي (١٦/٦٨)، نشر دار المعرفة، بيروت، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

واحد، بعد أن حكى له حذيفة بن اليمان اختلاف الناس في قراءة القرآن، يقول هذا: قراءتي خير من قراءتك، ويقول آخر: قراءتي خير من قراءتك. كان ذلك في إحدى المعارك.

فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين، أدرك هذه الأمة، قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى^(١).

ف رأى مع الصحابة أن يجمعوا الأمة على مصحف واحد، أن يجمعوا الأمة على لغة قريش، وكان في هذا الخير كل الخير، فأمر عثمان بأن يُكتب المصحف الإمام، وأن يُكتب منه عدة نسخ، فَرَقَهَا فِي الْأَمْصَارِ، وَأَحْرَقَ الْمَصَاحِفَ الْأُخْرَى الَّتِي فِيهَا تَفْسِيرَاتٌ وَتَعْلِيقَاتٌ وَأَيَاتٌ مَنْسُوخَةٌ وَغَيْرَ ذَلِكَ، وَبَقِيَ النَّاسُ عَلَى ذَلِكَ.

ولكن ابن مسعود عَزَّ عَلَيْهِ أَنْ تَكُونَ لَجْنَةً لِكِتَابَةِ الْمَصْحَفِ لَيْسَ هُوَ فِيهَا وَلَا عَلَى رَأْسِهَا، فَقَالَ: قَرَأْتُ مِنْ فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ سَبْعِينَ سُورَةً، وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ لَهُ ذُؤَابَةٌ فِي الْكُتَابِ^(٢).

وغضب ابن مسعود رضي الله عنه، وما كان له أن يغضب؛ فقد كان الذي اختاره عثمان هو الخير، وقال سيدنا علي رضي الله عنه: لو كنت مكان عثمان لفعلت ما فعل^(٣).

غضب ابن مسعود، وكان الحق مع عثمان؛ لأن زيد بن ثابت من

(١) رواه البخاري في فضائل القرآن (٤٩٨٧)، عن أنس بن مالك.

(٢) رواه أحمد (٣٦٩٧)، وقال مخرجه: حديث صحيح. عن ابن مسعود.

(٣) المرشد الوجيز لأبي شامة، ص ٥٣، تحقيق طيار التي قولاج، نشر دار صادر، بيروت،

كُتِّبَ الوحي، فهو إمام في الرسم والكتابة، وابن مسعود إمام في التلاوة والأداء، فأولى الناس بأن يكتب المصحف إمام الرسم، لا إمام الأداء.

ثمَّ إنَّ أبا بكر كان قد اختاره لجمع المصحف في عهده، وجمع المصحف (مصحف حفصة)، ولم يعترض ابن مسعود على أبي بكر، فلماذا اعترض على عثمان؟!!

ثمَّ إنَّ ابن مسعود من هذيل وليس من قريش، ولغة قريش تخالف لغة هذيل، فلا يؤمن أن يُكْتَبَ شيءٌ بلغة هذيل.

على كلِّ حال بعث عثمان إلى عبد الله بن مسعود يأمره بالقدوم عليه بالمدينة، وكان بالكوفة، فاجتمع النَّاسُ عليه، فقالوا: أقم، ونحن نمنعك أن يصل إليك شيءٌ تكرهه.

فقال عبد الله: إنَّ له حقَّ الطاعة، وإنَّها ستكون أمور وفتن، فلا أحب أن أكون أوَّل من فتحها، فرد النَّاسُ وخرج إليه^(١).

هدأ النَّاسُ وذهب إلى عثمان، وحدث ما حدث، وتقول بعض الروايات: إنَّه اقتنع بما ذهب إليه عثمان والصَّحابة ورجع ابن مسعود إلى قول الصَّحابة أو عامَّة الصَّحابة، وهذا الَّذي نصدقه.

وإن كانت هناك روايات أخرى بغير هذا، فلعلها سابقة عليه؛ لأنَّنا نعلم أنَّ من القراء السبعة اثنين من رواة القرآن عن ابن مسعود، حمزة وعاصم، كلاهما أخذ القرآن عن ابن مسعود.

نحن هنا في بلاد الشرق نقرأ برواية حفص عن عاصم عن زر بن

(١) الاستيعاب لابن عبد البر (٩٩٣/٣).

حبيش عن ابن مسعود رضي الله عنه ، نحن نقرأ برواية ابن مسعود، فكيف يقال: إن ابن مسعود عنده قرآن آخر ومصحف آخر؟

لا، لعل ما كان عند ابن مسعود كان بعض التفسيرات، أحياناً يضع تفسيرا كما روي عنه أن كان يقرأ: ﴿فَكَفَّرْتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا نَظَعُمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كَسَوْتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾ قالوا: كان ابن مسعود يقرأ: «فصيام ثلاثة أيام متتابعات»^(١).

العلماء يقولون: كلمة متتابعات هذه تفسير، يعني هو يقول: إن صيام هذه الأيام يجب أن يكون متتابعاً، وليس من نص القرآن، فلم يقل بذلك أحد غيره، وليست ممّا كُتِبَ في المصاحف، فكان هناك بعض تفسيرات أو تعليقات، أو لعلها أشياء نسخت.

هذا ما كان في مصحف ابن مسعود رضي الله عنه .

جاء رجل إلى عمر رضي الله عنه فقال: إنني جئتك من عند رجل يُملّي المصاحف عن ظهر قلب، قال: ففزع عمر وغضب، فقال: ويحك انظر ما تقول! فقال: ما جئتك إلا بالحق!

قال: من هو؟

قال: عبد الله بن مسعود.

قال: ما أعلم أحداً أحقّ بذلك منه، وسأحدثك عن عبد الله: إننا سمرنا ليلة في بيت عند أبي بكر رضي الله عنه في بعض ما يكون من حاجة النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم خرجنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم يمشي بيني وبين أبي بكر، فلما انتهيت إلى المسجد إذا رجل يقرأ فقام النبي صلى الله عليه وسلم يستمع إليه.

(١) رواه عبد الرزاق في الأيمان والندور (١٦١٠٣).

فقلت: يا رسول الله: أعتمت، فغمزني بيده اسكت.

قال: فقرأ وركع وسجد وجلس يدعو ويستغفر.

فقال النبي ﷺ: «سل تعطه»، ثم قال: «من سره أن يقرأ القرآن رطبًا كما أنزل فليقرأ قراءة ابن أم عبد».

فعلمتُ أنا وصاحبي أنه عبد الله، فلما أصبحتُ غدوتُ إليه لأبشّره، فقال: سبقك بها أبو بكر. وما سابقته إلى خير إلا سبقني إليه^(١).

«من أراد أن يقرأ القرآن غضًا كما أنزل، فليقرأه بقراءة ابن أم عبد» هكذا كان هذا الحبر وهذا الإمام، وهذا الفقيه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

مرضه ووفاته:

وقد مرض رضي الله عنه، فأتاه أنس بن مالك يعبده، يقول أنس: دخلنا على عبد الله بن مسعود نعبده في مرضه، ومعه بعض أصحابه وهو مريض، فقالوا له: كيف أصبحت أبا عبد الرحمن؟

قال: أصبحنا بنعمة الله إخوانًا.

قلنا: كيف تجدك يا أبا عبد الرحمن؟

قال: أجد قلبي مطمئنًا بالإيمان.

قلنا له: ما تشكي أبا عبد الرحمن؟

قال: أشتكى ذنوبي وخطاياي.

قلنا: ما تشتهي شيئًا؟

(١) رواه أحمد (١٧٥)، وقال مخرّجوه: إسناده صحيح. وابن خزيمة في الصلّاة (١١٥٦).



قال: أشتهي مغفرة الله ورضوانه.

قلنا: ألا ندعو لك طبيبًا؟

قال: الطبيب أمرضني^(١).

ودخل عليه عثمان بن عفان فقال: ما تشتكي؟

قال: أشتكي ذنوبي.

قال: فما تشتهي؟

قال: أشتهي رحمة ربي.

قال: أفلا ندعو لك طبيبًا؟

قال: الطبيب أمرضني.

قال: أفلا نأمر لك بعطائك.

قال: لا حاجة لي به.

قال: تتركه لبناتك.

قال: لا حاجة لهنّ به، قد أمرتهن أن يقرأن سورة الواقعة؛ فإنني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ سورة الواقعة لم تُصِبْه فاقةٌ أبدًا»^(٢).

ثمّ مات ﷺ وعمره ثلاث وستون أو أربعة وستون سنة، في سنة اثنتين وثلاثين من الهجرة، وقيل: في أوائل سنة ثلاثة وثلاثين للهجرة، وصلى عليه الصّحابة - رضوان الله عليهم.

(١) رواه ابن أبي الدنيا في المحتضرين (٣٦٠)، تحقيق محمد خير رمضان يوسف، نشر دار ابن حزم، بيروت، ط ١، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٢٢٦٧، ٢٢٦٨)، تحقيق عبد العلي عبد الحميد حامد، نشر مكتبة الرشد، الرياض، ط ١، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

وانتقل إلى جوار الله هذا الصحابي الجليل الذي أورث الأمة علمًا،
وأورث الأمة هديًا، وأورث الأمة فقهاً، وأورث الأمة قرآنًا تلقاه عن
رسول الله ﷺ، فرضي الله عنه وأرضاه وتقبّله في الصالحين.

اللهم آمين.

ادعوا الله يستجب لكم، واستغفروه يغفر لكم.

* * *



الخطبة الثانية

اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها معادنا، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير، واجعل الموت راحة لنا من كل شر.

اللهم طهر أعمالنا من الرياء، وطهر قلوبنا من النفاق، وطهر حياتنا من العبث، وطهر ألسنتنا من الكذب، وطهر أنفسنا من الضعف، وطهر أعيننا من الخيانة، إنك تعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

اللهم هيئ لنا من أمرنا رشداً.

اللهم اجعل يومنا خيراً من أمسنا، واجعل غدنا خيراً من يومنا، وأحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

اللهم اجعل هذا البلد آمناً مطمئناً، سخاء رخاء، وسائر بلاد المسلمين.

اللهم انصرنا وانصر بنا، اللهم أعزنا وأعز بنا، اللهم أعز الإسلام والمسلمين، اللهم اجعل كلمة الإسلام هي العليا، وكلمة أعداء الإسلام هي السفلى.

اللهم انصرنا على أعدائك أعداء الإسلام، اللهم انصرنا على اليهود المعتدين الغادرين الغاصبين، اللهم انصرنا على أعدائك أعداء الدين، اللهم ردّ عنا كيدهم، وقلّ حدهم، وأزل دولتهم، وأذهب عن أرضك سلطانهم، وأنزل عليهم بأسك الذي لا يرد عن القوم المجرمين.

اللهم هب لنا من أمرنا رشداً، ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفه عين
ولا أقل من ذلك.

اللهم ولّ أمورنا خيارنا، ولا تولّ أمورنا شرارنا، وارفع مقتك
وغضبك عنا، ولا تهلكنا بما فعل السفهاء منا، ولا تسلط علينا بذنوبنا
من لا يخافك فينا ولا يرحمنا، واجعل هذا البلد آمناً مطمئناً، سخاء
رخاء، وسائر بلاد المسلمين.

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ
الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧].

عباد الله:

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

اللهم صلّ وسلّم وبارك على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله
وصحبه، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

اللهم آمين.

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ
اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

سعد بن معاذ سيّد الأوس^(١)

الخطبة الأولى

أمّا بعد، فيا أيّها الأخوة المؤمنون:

ما زال حديثنا موصولاً حول هذا الجيل الربّاني، الجيل القرآني، الجيل المحمدي، الذي لم ترَ عين الدُّنيا مثله في أتباع المصلحين، ولا أتباع الأنبياء طوال التاريخ، إنّه جيل الصحابة الذين حملوا هذا الدين، ونشروه في الآفاق، وعاشوا به، وعاشوا له، وماتوا عليه، ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، فعاشوا وهم مسلمون، وماتوا وهم مسلمون.

تحدثنا في الجمعة الماضية عن أحد أفذاذ هذا الدين، عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، فاتح القادسية، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، وأحد الستة أصحاب الشورى، والذين شهدوا المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم.

واليوم نتحدّث عن سعدٍ آخر، ولكنه ليس من المهاجرين، وإنّما هو

من الأنصار، والأنصار كثيرًا ما ظلموا في التاريخ، ولم يأخذوا حقهم من الإعلام والتعريف كما أخذ غيرهم؛ ولهذا نحاول أن ننصف الأنصار، نُعرِّف بالأعلام، وبالنجوم الذين بهم يُقتدى فيهمتهدى.

نسبه:

أحدثكم اليوم أيها الإخوة عن سعد بن معاذ الأنصاري الأوسي، سيّد الأوس رضي الله عنه وأرضاه، هو أحد شهداء الإسلام في عصر النبوة، سعد بن معاذ من الأنصار الذين أثنى الله عليهم في كتابه، كما أثنى على المهاجرين، فقال عَبَّكَ: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨] ثمّ تحدّث عن الأنصار فقال: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩] هؤلاء هم الأنصار.

أثنى الله على المهاجرين والأنصار في سورة الأنفال في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَأُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٤]، وقال سبحانه في سورة التوبة: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم ورضوا عنهم ورضي الله عنهم، فضلهم لم يكن مقتصرًا عليهم، وإنما من تتلمذ عليهم من التابعين، رضي الله عنهم، ورضوا عنه.



إسلامه:

سعد بن معاذ أحد هؤلاء الأنصار، أسلم على يد الداعية الأول، المبعوث الأول لرسول الله ﷺ إلى المدينة: مصعب بن عمير رضي الله عنه، بعد بيعة العقبة الأولى بعث النبي ﷺ مع الوفد الذي دخل في الإسلام: مصعب بن عمير، يدعو الناس إلى الإسلام، ويتلو عليهم القرآن، فدخل على يديه كثيرون في دين الله، وكان من هؤلاء سعد بن معاذ رضي الله عنه.

قصة إسلام سعد:

وقصة إسلامه ينبغي أن تُروى، فإنه حينما علم أن ابن خالته أسعد بن زرارة يجمع الناس في بيته، ويأتي إليهم بمصعب بن عمير يدعوهم إلى الإسلام، فيدخلون في هذا الدين الجديد، غضب وقال: ما هذا الذي يجري في بيوتنا وديارنا وبين ظهرانينا؟ يفتنون الضعفاء منا، ويخرجونهم من دينهم ودين آبائهم، وأخذ حربته وذهب إلى ابن خالته أسعد بن زرارة؛ ليقف وجهًا لوجه أمام مصعب بن عمير، هذا الذي جاء يفتن الناس من مكة، وعندما وقف أمام أسعد وأمام مصعب، وقف متشتمًا يتكلم بكلام شديد عنيف، وهو رجلٌ كان فيه شيء من الحدة، فقال: ما هذا الذي جئتمونا به؟!

اتركوا ديارنا، لا تفتنونا عن ديننا، فقال له مصعب: أو غير ذلك. قال: وما غير ذلك؟ قال: تجلس فتسمع، فإن رضيت أمرًا قبلته، وإن لم ترض كففنا عنك ما تكره. قال: أنصفت. فجلس، وتلا عليه القرآن، وعرض عليه الإسلام.

قال أسعد ومصعب: فعرفنا الإسلام في وجهه قبل أن يعلنه، انفرجت أساريره.. ظهر عليه التأثر بما يسمع، فقال: ماذا تفعلون عندما يريد

الإِنسان أن يدخل في هذا الدين؟ قال له: تذهب فتغتسل وتتطهر، وتتطهر ثوبك، وتشهد شهادة الحق، وتصلي ركعتين. ففعل ذلك، وشهد أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمدًا رسول الله، ثمَّ عاد إلى قومه الذين خرج من عندهم مُغضبًا، وحينما رأوه من بعيد قالوا: لقد عاد سعد بغير الوجه الذي ذهب به، عاد بوجه آخر، فجمع قومه في داره، وقال لهم: ما تعدونني فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا رأيًا، وأيمننا نقيبة. قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم عليَّ حرام حتَّى تؤمنوا بالله ورسوله. فقالوا جميعًا: آمنا بالله ورسوله: فلم يك رجلٌ أيمَنَ وأبركَ على قومه من سعد بن معاذ، لم يبقَ بيتٌ في بني الأشهل من رجلٍ أو امرأةٍ إلا دخل في الإسلام^(١).

ومنذ ذلك اليوم نذر سعد بن معاذ أن يكون رجل الإسلام، أن يكون جندي الإسلام، أن يجنِّد نفسه لهذا الدين العظيم؛ ولذلك كان له مواقفه في الغزوات التي شهدها، وهو لم يشهد إلا ثلاث غزوات ثمَّ استشهد: شهد بدرًا، وشهد أحدًا، وشهد الخندق، وفي الخندق وافته الشهادة.

مواقف سعد في غزوة بدر:

الموقف الأول:

شهد غزوة بدر وكان له فيها مواقف مشهودة، من هذه المواقف: أن النبي ﷺ حينما خرج مع بعض الصحابة وكان منهم الكارهون كما قال تعالى: ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ ﴾ [الأنفال: ٥]؛ لأنهم خرجوا في أوَّل الأمر لملاقاة العير: القافلة التجارية التي يقودها أبو سفيان وهي قادمة من الشمال،

(١) تاريخ دمشق (٩/٨٣، ٨٤).

يريدون أن يضربوا قريشًا ضربةً اقتصادية يعرضون بها ما خسروه في مكة، خرجوا لملاقاة العير، ومع العير أربعون رجلاً.

لم يخرج المسلمون لملاقاة قريش، ولهذا حينما سَلِمَت العير ونجا بها أبو سفيان، وخرجت قريشٌ على بكرة أبيها، بقضها وقضيضها لتلاقي محمدًا، حينما أُخبرت أن محمدًا يتعرض لقافلته التجارية، فخرجوا، وحينما علموا أن قافلتهم نجت، قال عقلاؤهم: لقد نجت القافلة فهيا نعود إلى مكة. فأبى أبو جهل وقال: لا، حتى نذهب ونرد ماء بدر، وننحر الجُزر، ونشرب الخمر، وتعزف علينا القيان، ويسمع بنا العرب، فلا يزالون يهابوننا أبد الدهر. وأبى إلا أن يتحدّى الرسول وأصحابه.

وكان لا بدّ للرسول أن يقابل هذا التحديّ بمثله، فلا بدّ أن يلقي جيش المشركين، ولا يأخذ جماعته ويرجع إلى المدينة ويدع أبا جهلٍ يُظهر قوته أمام العرب ويَهَابُهُ العرب أبد الدهر، كان لا بدّ من اللقاء.

الرسول ﷺ يستشير أصحابه:

ولكن حينما تبين أن اللقاء لا بدّ منه، أراد النبي ﷺ أن يستشير الناس، وكان أمره شورى المشاورة، يشاور في الأمور كلها، فقال لمن معه: «أشيروا عليّ أيها الناس». فقام أبو بكر وتكلّم وأحسن، وقام عمر وتكلّم وأحسن، وقام المقداد بن الأسود من المهاجرين وأحسن، وقال: والله، لا نقول لك يا رسول الله، كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]، ولكن نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك. يقول ابن مسعود: فرأيتُ النبي ﷺ أشرق وجهه وسرّه^(١).

(١) رواه البخاري في المغازي (٣٩٥٢)، وأحمد (٣٦٩٨)، عن ابن مسعود.

لم يكتف رسول الله ﷺ بما سمع؛ لأنَّ هذا كلُّه قول المهاجرين، والأنصار هم أكثرية القوم، فلا بدَّ أن يسمع رأيهم، فقال: «أشيروا عليَّ أيُّها الناس». فقال سعد بن معاذ رضي الله عنه: كأنَّك تقصدنا يا رسول الله؟! قال ﷺ: «أجل». فقال: لقد آمنا بك وصدَّقناك، وشهدنا أنَّ ما جئتَ به هو الحقُّ، وأعطيناك على ذلك عهدنا وموآثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لِمَا أردتَ، فوالَّذي بعثك بالحقِّ لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنَّا لصُبْرٌ في الحرب، صُدُقٌ عند اللقاء، ولعلَّ الله يُريك منا ما تقرُّ به عينك، فسرَّ على بركة الله.

سرَّ النبيُّ ﷺ من مقالة سعد بن معاذ واستنار وجهه كأنَّه فلقة قمر، ونشَّطه ذلك فقال ﷺ: «سيروا وابشروا، فإنَّ الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم»^(١).

وذهبوا إلى بدر، وكان لقاء بدر، كان يومُ بدر، يومُ الفرقان، يوم التقى الجمعان: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣]

الموقف الثاني:

كان لسعد بن معاذ موقف آخر في غزوة بدر؛ قال: يا رسول الله، ألا نبني لك عريشاً، تظلُّ فيه، وتُشرف على المعركة؟ فإن ظفّرنا الله بعدونا فهذا ما نحبُّ، وإن كانت الأخرى - وقد وضع بجانب العريش رواحل الإبل للركوب - وإن كانت الأخرى ولم يُكتب لنا النصر، تركب هذه

(١) رواه البيهقي في دلائل النبوة (٣/٣١)، تحقيق عبد المعطي قلجعي، نشر دار الكتب العلمية، وصحَّحه الألباني في تخريج فقه السيرة ص ٢٢٣.

الركائب وتعود إلى المدينة؛ فإنَّ فيها والله لقومًا يحبونك أكثر ممَّا نحُبُّك، ويذودون عنك بأكثر ممَّا نذود عنك، ولو عَرَفُوا أَنَّ هناك حربًا ما تخلف منهم رجلٌ واحد، فاستحسن النبي ﷺ هذا الرأي، وبُني له العريش، وبقي النبي ﷺ فيه يُطلُّ على المعركة من هذا العريش^(١).

الموقف الثالث:

وكان لسعد موقف ثالث في غزوة بدر، فقد كان يقف بجوار رسول الله ﷺ عند العريش الذي بُني له، ورأى الصحابة يأسرون، اهتموا بأسر المشركين، فرأى رسول الله ﷺ في وجه سعد ما يشبه الكراهية لهذا الأمر، فقال له ﷺ: «كأنِّي أراك تكره هذا يا سعد؟» قال: إي والله يا رسول الله، هذه أوَّل معركة نلقى فيها المشركين، فكان الإثخان أحبَّ إليَّ من أسر الرجال^(٢). وبهذا نزل القرآن: ﴿ مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثَخِّنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٦٧]، هذه مواقف سعد بن معاذ في غزوة بدر.

موقف سعد بن معاذ في غزوة أحد:

كان سعد بن معاذ أحد الذين ثبتوا في هذه المعركة، وذاذوا عن رسول الله ﷺ، لم يفر حينما سمع إشاعة موت النبي ﷺ: مات محمد.. قُتِلَ محمد، ففتَّ ذلك في عضد كثيرين وفرّوا، ولكنَّ سعد بن معاذ لم يفر.

لقي أنس بن النضر، فقال له أنس: يا سعد، والله إنَّها الجنَّة، والله إنِّي أجد ريحها من وراء أحد. واستشهد أنس بن النضر، ووجدوا في جسمه

(١) رواه البيهقي في دلائل النبوة (٤٤/٣).

(٢) تاريخ الطبري (٤٤٩/٢).

بضعاً وثمانين، ما بين ضربة بسيف، وطعنة برمح، ورمية بسهم، فما عرفه أحدٌ إلا أخته، عرفته بعلامة في بنانه، في طرف أصابعه، وفيه نزل قول الله تعالى: ﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَجْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣] (١).

موقف سعد في غزوة الأحزاب:

ثمّ كانت غزوة الأحزاب: غزوة الخندق، هذه الغزوة التي جاءت فيها قريش وأحابيشها، وغطفان وأتباعها، في عشرة آلاف مقاتل ليغزوا النبي ﷺ وأصحابه في عقر دارهم، هذا الجيش الكثيف المجهّز بالأسلحة، المليء بالحماسة، يريد استئصال شأفة الإسلام، يريد الإبادة الجسدية، التصفية التامة لرسول الله ﷺ وأصحابه، لا يريدون أن يبقوا فيهم باقية، جاء هؤلاء إلى المدينة، وقد عرف النبي ﷺ، فأشار عليه سلمان الفارسي أن يحفر خندقاً حول المدينة، خصوصاً الجهة التي يُخشى أن يقتحموا منها المدينة ويدخلوها، فقد كان هناك جهة محمية بالجبال، وجهة محمية بالحرّة، وجهة واحدة هي التي يُخشى منها الدخول إلى المدينة، فحفر الخندق بها، وكان المفروض في هذه الغزوة أن يكون يهود بني قريظة الذين يعيشون في ضواحي المدينة في أطرافها، وبينهم وبين الرسول ﷺ معاهدة، كان المفروض أن يكونوا مع رسول الله ﷺ ضدّ المهاجمين، أن يكونوا معه بالمال وبالسلاح وبالرجال إذا احتاج الرجال، ولكن اليهود انتهزوها فرصة، وقالوا هذا جيش عرمرم يغزو المدينة، إنّها فرصة لا تعوض، أن ننضم لهذا الجيش ونطبق على

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٠٥)، ومسلم في الإمارة (١٩٠٣)، عن أنس بن مالك.

محمد وأصحابه، فلا تقوم لهم قائمة، ولا تبقى لهم باقية، وأعلنوا غدريهم برسول الله ﷺ، ونقضهم للمعاهدة، وجأهروا بذلك ولم يبالوا! وأرسل إليهم النبي ﷺ بعض من كانوا حلفاءهم في الجاهلية، كانوا حلفاء الأوس، وسيّد الأوس سعد بن معاذ، ذهب سعد بن معاذ، ومعه جماعة من قومه؛ ليكلّموا هؤلاء اليهود عسى أن يتوبوا إلى رشدهم، ويراجعوا أنفسهم، ويعودوا إلى الصواب، ويحترموا الاتفاقية التي بينهم وبين النبي محمد ﷺ، فحدثوهم عن عهدهم إلى رسول الله، وعهد رسول الله، فشاتمواهم وقالوا: من رسول الله؟! لا نعرف أحدًا اسمه رسول الله! ليس بيننا وبين أحد عهد! وأسأؤوا القول، وأسأؤوا الفعل، وردّوا أسوأ الرد.

فعاد سعد رضي الله عنه وهو يدعو عليهم، ويسأل الله أن ينتقم منهم، وأخبر رسول الله ﷺ بغدريهم المعلن المجاهر، فقال ﷺ: «الله أكبر، أبشروا يا معشر المسلمين»^(١)؛ فدائمًا من نكث فإنما ينكث على نفسه، ولا يحق المكر السيئ إلا بأهله، فهذا دليل أن الله ﷻ لن يتخلى عن المسلمين، ولن يدع هؤلاء في غدريهم وخيانتهم.

وعاش المسلمون أيامًا حتّى جاءت قريش وغطفان، حاول بعضهم أن يقتحموا الخندق، لكنهم لم يفلحوا، قُتل منهم من قُتل، وكُسِر منهم من كُسِر، واشتدّ الأمر على رسول الله ﷺ وأصحابه، حتّى فكّر النبي ﷺ أن يُفرّق المهاجمين، يعزل بعضهم عن بعض، يضرب بعضهم ببعض، فأرسل إلى سادة غطفان، يفاوضهم في أن يدفع لهم ثلث ثمار المدينة، المدينة كانت معروفة بالنخيل والتُّمور، يدفع لهم

(١) سيرة ابن هشام (٢/٢٢٢).

ثلث هذه الثمار ويرجعوا عن المدينة، ويتركوا قريشًا وحدها، كانت المفاوضات تجري مع النبي ﷺ وغطفان على هذا الأساس، وعلم السعدان، سعد بن معاذ: سيّد الأوس، وسعد بن عبادة: سيّد الخزرج، علموا بهذه المفاوضات، فأسرعا القدوم إلى رسول الله ﷺ، وقالوا: سمعنا ما قمت به يا رسول الله، أهذا وحي أوحاه الله إليك، ليس لنا أن نتقدم عنه ولا أن نتأخر؟ أم هو أمرٌ رأيت شفقة علينا ولمصلحتنا؟ قال: «بل هو شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا لأني رأيت العرب رمتكم عن قوس واحدة، من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما». فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة إلا قري أو بيعا، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه، نعطيهم أموالنا! (والله) ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم، قال رسول الله ﷺ: فأنت وذاك.

فتناول سعد بن معاذ الصحيفة، فمحا ما فيها من الكتاب، ثم قال: ليجهدوا علينا^(١).

رفض سعد بن معاذ وسعد بن عبادة، أن يقدموا لهؤلاء الكفار شيئاً من ثمارهم؛ ليعودوا إلى ديارهم، هذا كان موقف سعد.

وقد أعجب النبي ﷺ بجوابه وبموقفه، وتبين له منه ارتفاع معنوية الأنصار واحتفاظهم بالروح المعنوية العالية، فألغى بذلك ما بدأ به من الصلح مع غطفان.

(١) سيرة ابن هشام (٢/٢٢٣).

هياً سعد بن معاذ نفسه لهذه المعركة، فلبس درعاً ومرّ على عائشة رضي الله عنها، فرأت - وقد كانت تجلس مع أمّ سعد - أنّ درع سعد لا تغطي ذراعيه كليهما، هناك من ذراعه جزء مكشوف، فقالت لأمه: يا أمّ سعد، وددت والله لو أنّ درع سعد أسبغ من هذا، لأنّ ذراعه مكشوف غير مغطى، فلا يؤمن أن يصيبه سهم. وهذا ما كان، وكانّ عائشة رضي الله عنها كانت تقرأ الغيب، فأرسل رجل من قريش سهمه في ذراع سعد، فأصاب أكحله، والأكحل: عرق مهم في الذراع. وانفجر الدم من هذا العرق، أصابه ابن العرقة، وكان رجلاً هدّافاً، نظر إلى الجزء المكشوف، ورماه بالسهم فأصابه، وقال: خذها وأنا ابن العرقة. قال سعد: عرّق الله وجهك في النار^(١).

انفجر الدم من عرقه، وكواه النبي صلى الله عليه وسلم فلم يفلح الكي، فأخذه النبي صلى الله عليه وسلم إلى المسجد، وكان هناك امرأة من المسلمين اسمها رُفيدة تمرّض الجرحى وتسعفهم، يعتبرونها أول ممرضة في الإسلام، وقامت على أمر سعد رضي الله عنه، فسكن جرحه، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يمر عليه في الصباح يقول له: «كيف أصبحت؟» ويمرّ عليه في المساء فيقول: «كيف أمسيت؟»^(٢).

ثمّ بعد أن ردّ الله المشركين عن المدينة، أرسل عليهم الريح: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩]، أرسل الله عليهم الريح،

(١) رواه مسلم في الجهاد والسير (١٧٦٩)، بدون ذكر القصة.

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد (١١٢٩)، وصحّح إسناده الحافظ ابن حجر في الإصابة

(١٣٦/٨)، عن محمود بن لبيد.

أرسل عليهم جنودًا غير مرئية، أرسل عليهم جنودًا من الملائكة: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥]

عادت قريش وعادت غطفان، وعاد أتباعهما معهما، وهنا تفرغ النبي ﷺ لأمر قريظة، كان لا بدَّ أن تلقى قريظة جزاءها، لقد نكثت قبل ذلك نكثة مع بني النضير، ولم يأخذهم النبي ﷺ بتلك النكثة، وتلك الغدرة، وأعطاهم فرصة، فأعادوا الكرة مرّة أخرى، و«المؤمن لا يُلدغ من جحرٍ واحد مرّتين»^(١). واليهود لا يُعاملون إلاّ بالشدة؛ لأنّ الشاعر يقول: إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا^(٢)

ولهذا استشار النبي ﷺ سعد بن معاذ في أمر حلفائه في الجاهليّة بني قريظة، وفرح بنو قريظة أن يستشار فيهم سعد؛ لأنهم ظنوا أنه سوف يجاملهم، وقالوا: رضينا بحكم سعد بن معاذ، فقال ﷺ: احكم فيهم يا سعد. فقال: «أما إنني أحكم أن تُقتل مقاتلتهم». من جرت عليه المواسي، من نبت شعر حول عورته، بهذا يعرف البلوغ. «تقتل مقاتلتهم، وتُسبى ذراريهم ونسأؤهم، وتُغنم أموالهم». فقال ﷺ: «لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات، حكمت فيهم بحكم الملك»^(٣).

كان لا بدَّ أن يُؤخذ هؤلاء القوم بالشدة، لو تركوا لعاثوا في الأرض فسادًا، ولغدروا مرّة بعد مرّة، وهكذا نفذ رسول الله ﷺ فيهم الحكم.

(١) رواه مسلم في الزهد والرقائق (٢٩٩٨)، عن أبي هريرة.

(٢) ديوان المتنبي ص ٣٧٢، نشر دار بيروت للطباعة والنشر، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٣٠٤٣)، ومسلم (١٧٦٨)، كلاهما في الجهاد والسير، عن أبي سعيد الخدري.

ثمَّ إنَّ سعد بن معاذ ظلَّ جرحه بعد أن سكن فترة يثعب دمًا - يسيل دمًا - ونظر سعدٌ إلى جرحه وقال: اللهمَّ إن كنتَ قد أبقيت من حرب قريش شيئًا، فأبقني حتَّى أشهدَها؛ فإنَّه ليس أحبَّ إليَّ من غزوٍ أغزو قومًا كذبوا رسولك وآذوه، وعذبوه وأخرجوه، وإن كنت لم تبقي بيننا وبين قريشًا حربًا، فافجر هذه الجراحة واجعل موتي فيها. ثمَّ قال: ولا تمثني يا رب حتَّى تُقرَّ عيني من بني قريظة، فما إن حكم حكمه في بني قريظة، حتَّى انفجر جرحه، وكان فيه شهادته، ولقي ربه^(١).

إن كنت لم تبقي من حرب قريش شيئًا، افجر هذه الجراحة، أمتني بها، اجعلها شهادة لي، واستجاب الله دعاء سعد بن معاذ واستشهد من هذه الجراحة.

من فضائل سعد:

اهتزاز عرش الرحمن لموته:

كان من شهداء هذه الغزوة، وقال النبي ﷺ: «لقد اهتزَّ عرشُ الرحمن لموت سعد بن معاذ»^(٢). أي رجل هذا الذي يهتز عرش الرحمن لموته؟! لقد اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ! لأنَّه والله عاش صادقًا، عاش خالصًا، عاش مخلصًا، عاش مصفًى للإسلام، في حياته القصيرة هذه، فقد مات وهو ابن سبعٍ وثلاثين أو ثمانٍ وثلاثين سنة! ثمانٍ وثلاثون سنة، أو سبعٍ وثلاثون سنة، عاش سعد بن معاذ سنوات قليلة، ولكنها حافلة بالخيرات، حافلة بالبطولات، حافلة بجلال الأعمال.

(١) سيرة ابن هشام (٢/٢٢٧).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في مناقب الأنصار (٣٨٠٣)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٦٦)، عن جابر.

مشاركة الملائكة في تشييعه:

صَلَّى النبي ﷺ وأصحابه على سعد بن معاذ، ذهب الرسول ﷺ ومعه أبو بكر رضي الله عنه وعمر وهم يبكون، يقول أبو بكر: وانكسار ظهره بموت سعد. ويقول عمر: إنا لله وإنا إليه راجعون^(١).

تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: كنت أعرف وأميز بكاء عمر من بكاء أبي بكر وأنا في حجرتي، أعرف أن هذا بكاء عمر، وأن هذا بكاء أبي بكر، قالت: كانوا كما وصفهم الله رحماء بينهم^(٢).

ودَّع النبي ﷺ وأصحابه سعد بن معاذ رضي الله عنه، وقال الذين حملوه: وقد كان سعد بن معاذ متين الجسم، عظيم البنية، كان طوالاً، رجلاً طويل القامة، حسن الوجه، حسن اللحية، ومع هذا قالوا: لم نرَ ميتاً أخف منه، كأنه لم يكن في النعش أحدٌ ونحن نحمله، فقال رسول الله ﷺ: «وما يمنعه أن يخفَّ، وقد هبط من الملائكة كذا وكذا لم يهبطوا قطُّ قبل يومهم قد حملوه معكم»^(٣).

هذا الذي استبشرت به الملائكة، واهتزَّ عرش الرحمن لموته، وكما قال الإمام الذهبي: عرش الرحمن: هو خلق من خلق الله، يهتز لمن يشاء الله أن يهتزَّ له^(٤)، كما قال ﷺ عن أحد: «أُحْدُ جِبَلٍ يُحِبُّنَا وَنَحْبُهُ»^(٥)، وهو

(١) سير أعلام النبلاء (٢٨٥/١).

(٢) تاريخ الطبري (٥٩٢/٢).

(٣) رواه ابن سعد في الطبقات (٤٢٧/٣، ٤٢٨)، وحسن إسناده الأرنؤوط في تعليقه على سير أعلام النبلاء (٢٨٧/١)، عن محمود بن لبيد.

(٤) سير أعلام النبلاء (٢٨٧/١).

(٥) متفق عليه: رواه البخاري في الزكاة (١٤٨٢)، ومسلم في الحج (١٣٩٢)، عن أبي حميد الساعدي.



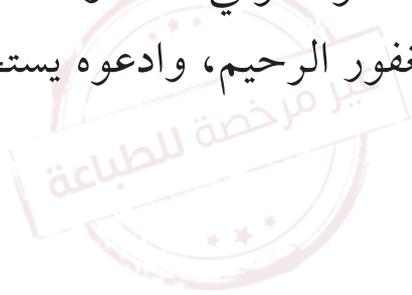
خلق من خلق الله جماد، اهتز له عرش الرحمن، حملته الملائكة فيمن حملة من المؤمنين.

أُهدي للنبي ﷺ جُبَّةٌ سُندسٌ وكان ينهى عن الحرير، فعجب الناس منها فقال: «والَّذي نفسُ مُحَمَّدٍ بيده لَمناديلِ سعدِ بنِ معاذٍ في الجنةِ أحسنُ من هذا»^(١).

هذا هو سعد بن معاذ رضي الله عنه، سيّد الأنصار، الَّذي عاش هذه السنوات من أجل الإسلام، وودّع هذه الدُّنيا تاركًا وراءه هذه الروائع من المواقف والبطولات، فرضي الله عنه وأرضاه، وتقبله في الصّدّيقين والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم، فاستغفروه، إنّه هو الغفور الرحيم، وادعوه يستجب لكم.

* * *



(١) متَّفَق عليه: رواه البخاري في الهبة (٢٦١٥)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٦٩)، عن أنس بن مالك.

الخطبة الثانية

أمّا بعد، فيا أيّها الإخوة المسلمون:

قضية فلسطين:

لا تزال قضايانا التي نشكو منها معلقة لم تحل قضية منها، لا تزال قضية فلسطين، ونحن ننتظر حكومة الوحدة الوطنية على أحرّ من الجمر، نرجو من الإخوة الفلسطينيين أن ينتصروا على كلّ العقبات، وألا يستجيبوا لوساوس الموسوسين، ومكايد الكائدين، التي تريد أن تعطل مسيرتهم.

الأمريكان لا يحبون أن يتفق الفلسطينيون.. الفلسطينيون اتفقوا عند الكعبة المشرفة، في مكة المكرمة، اتفقوا اتفاقاً لا رجعة فيه، ولكن الأمريكان يقولون لهم: لا تتفقوا، هذا الاتفاق مصيبة علينا؛ لا بدّ أن تختلفوا، لا بدّ أن تتقاتلوا، لا بدّ أن يقف بعضكم ضدّ بعض! أرايتم مثل هذا الموقف الغريب؟!

أي شيطان ركب رؤوس هؤلاء الذين يعيشون على الفتنة بين الناس، وإفساد العلاقات بين الناس، نرجو من الإخوة الفلسطينيين أن يكونوا فوق مكايد الشياطين: شياطين الإنس، وشياطين الجن، ويسيروا في مسيرتهم، وقيموا حكومتهم، وإنّ الله لناصرهم إن شاء الله؛ لأنّه مع المؤمنين: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

قضية العراق:

ولا تزال قضية العراق وما يجري في العراق من دماء تسفك، وإنّي والله ليسوؤني كلّ السوء أن أرى دمًا يُسفك، من سنيّ أو من شيوعي،

لا أحبُّ دماءً تسفك، لا أحبُّ للسُّنَّة أن يسفكوا دماء الشيعة، ولا للشيعة أن يسفكوا دماء السُّنَّة، نحن نقف بين هؤلاء وهؤلاء، لقد أنكرت أن يُقتل زوّار كربلاء، وأن يُقتل الإخوة من الشيعة، ليس هذا هو أسلوب التفاهم والتفاعل بين بعضنا وبعض.

إنَّ أعداءنا يريدون أن تقوم حربٌ أهلية لا تُبقي ولا تذر، يقف فيها الفريقان وجهًا لوجه، يتقاتلون ويسفك بعضهم دماء بعض، ويعيدون جاهليَّة حذر منها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حجة الوداع حين قال: «لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض»^(١). أي ككفار الجاهليَّة، يضرب بعضكم رقاب بعض.

نحن نوذُّ أن يعود العراق كما كان، وطنًا واحدًا، وشعبًا واحدًا، بعربه وأكراده، بسُنَّته وشيئته، بمسلميه ومسيحييه.. يعود شعبًا واحدًا يظله السلام والتفاهم، ولا يتكلم بلغة السلاح، هناك لغة أخرى يستطيع أن يتفاهم بها الناس غير لغة السلاح.

إنِّي أدعو إخواني في هذا البلد، في العراق: أن يدعوا السلاح، يدعوا لغة السلاح، يدعوا لغة القنابل والقذائف، والنار والحديد، ويتكلّموا باللسنة تفهم وتُفهم، وتُبين عن نفسها، ويقول كلُّ امرئ ما في نفسه، ويتفق الناس على ما يمكن أن يجمعهم على كلمة سواء.

هذا هو الذي يفرضه علينا ديننا: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١] ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤]،

(١) متفق عليه: رواه البخاري في العلم (١٢١)، ومسلم في الإيمان (٦٥)، عن جرير بن عبد الله.

﴿ وَإِن طَافَيْنَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَقْتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقْتِلُوا الَّتِي تَبَغَى حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الحجرات: ٩، ١٠].

نسأل الله تعالى أن يجمع كلمة هذه الأمة على الهدى، وقلوبها على التقى، ونفوسها على المحبة، وعزائمها على عمل الخير وخير العمل، اللهم أصلح ذات بيننا، وألف بين قلوبنا، وأخرجنا من الظلمات إلى النور، وهب لنا من أمرنا رشداً، ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا أقل من ذلك، اللهم أكرمنا ولا تُهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وزدنا ولا تنقصنا، وأثرنا ولا تؤثر علينا، وارض عنا وأرضنا، ربنا اجعلنا مقيمي الصلاة ومن ذرياتنا ربنا وتقبل دعاء، ربنا اغفر لنا ولوالدينا وللمؤمنين يوم يقوم الحساب. اللهم عليك بأعدائك أعداء الإسلام، اللهم عليك باليهود الغاصبين الظالمين، المعتدين الغادرين، وعليك بحلفائهم من الصليبين الحاقدين الكائدين، اللهم إنا نجعلك في نحورهم، ونعوذ بك من شرورهم، اللهم أدل دولتهم، وأذهب عن أرضك سلطانهم، ولا تدع لهم سبيلاً على أحد من عبادك المؤمنين، وأنزل عليهم بأسك الذي لا يرد عن القوم المجرمين، اللهم انصر إخوتنا في فلسطين، وانصر إخوتنا في العراق، وانصر إخوتنا في أفغانستان، وانصر إخوتنا في كشمير، وانصر إخوتنا في كل مكان، اللهم افتح لهم فتحاً مبيناً، وانصرهم نصراً عزيزاً، واهدهم صراطاً مستقيماً، واحرسهم بعينك التي لا تنام، واكلاهم بكنفك الذي لا يرام، ولا تجعل للكافرين عليهم سبيلاً يا رب العالمين، ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٧].



عباد الله: يقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]، اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، وأقم الصلاة: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

* * *



معاذ بن جبل رضي الله عنه (١)

الخطبة الأولى

أَمَّا بَعْدُ، فَيَا أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُسْلِمُونَ:

لا زال حديثنا موصولاً عن صحابة رسول الله ﷺ، أفضل أجيال البشر، وأعظم تلاميذ النبوات، لم يُعرف عن نبيٍّ من الأنبياء أَنَّهُ كان له من الصحابة مثل ما لمحمد ﷺ، هذا الجيل الرباني القرآني المحمّدي الذي لم تكتحل عين الدنيا برؤية مثله إيماناً وعلماً، وعملاً وزهداً، وغيره على الحق، وجهاداً في سبيل الله، وتضحية بالنفس والنفيس، والغالي والرخيص في سبيل إعزاز هذا الدين.

تحدّثنا عن عدد من هؤلاء الصحابة، واليوم نتحدّث عن واحد منهم، تحدّثنا في الجمعة الماضية عن سعد بن معاذ من الأنصار، واليوم نتحدّث عن أنصاري آخر، إنّه معاذ بن جبل.

(١) أُلقيت في مسجد عمر بن الخطاب بالدوحة، بتاريخ ١٦ مارس ٢٠٠٧م.



إسلام معاذ وشهوده بيعة العقبة:

أسلم معاذ بن جبل الأنصاري الخزرجي، وشهد بيعة العقبة الثانية مع السبعين الذين بايعوا رسول الله ﷺ في موسم الحج في مكة، بايعوه على أن يستقبلوه في ديارهم، ويمنعوه ويحموه مما يمنعون منه أنفسهم ونساءهم وذرائعهم، يحمونه بكل ما يملكون من قوة، كان معاذ بن جبل أحد السبعين الذين شهدوا هذه البيعة العظيمة، التي تُكتب في سجل الخالدين، ويقال: فلان ممن بايع بيعة العقبة.

كان معاذ ممن بايع بيعة العقبة، وكان معاذ شابًا أمرد لم تنبت في لحيته شعرة، وعاد إلى قومه ينشر فيهم الإسلام، وكان من قومه عمرو بن الجموح، كان من أشرفهم، وكان له صنم في بيته يُعزّه ويكرمه ويطهره ويطيّبه، فكان معاذ بن جبل وبعض أبناء عمرو يذهبون إلى هذا الصنم ويطحونه في أماكن قدرة يُلوث بها، ثم يعودون به في مكانه، ثم يأتي عمرو بن الجموح وينظر إلى إلهه هذا ويقول: مَنْ فعل بك هذا؟ فعل الله به كذا وكذا. ويأخذه ويغسله ويطهره ويطيّبه، ويجري على هذا عدة أيام، ثم في يوم من الأيام علّق سيفه في عنقه، وقال: هذا السيف معك، تستطيع أن تدفع به عن نفسك مَنْ يؤذيك ويُلوثك. ولكن هذا الحجر لا يستطيع أن يدفع عن نفسه، فسرعان ما أخذه معاذ بن جبل ومعه بعض الشباب وعلّقوا فيه كلبًا ميتًا، وفعلوا به ما فعلوا، ثم عاد عمرو فوجده على هذه الحالة فقال: بئس الإله أنت؛ لم تستطع أن تدفع عن نفسك. وشهد أن لا إله إلا الله، وأن مُحَمَّدًا رسول الله^(١).

(١) البداية والنهاية (٤/٤١٣، ٤١٤).

شهوده الغزوات مع رسول الله:

ظلَّ معاذ بن جبل على عهده مع رسول الله ﷺ، حضر بدرًا، وحضر أحدًا، وحضر الخندق، وحضر فتح مكة، وحضر المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وحضر معاركه مع اليهود، وحينما ذهب إلى بني النضير دعاهم إلى الإسلام، وقال لهم: أليس هذا هو النبي الذي كنتم تتوعدوننا بمجيئه، وأنكم ستحاربوننا معه وتتصرون علينا، وكنتم تستفتحون علينا به. فيكذب اليهود ويقولون: ما قلنا لكم شيئًا من هذا^(١). وينزل قول الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

استخلافه بمكة لتعليم القرآن:

حينما فتح النبي ﷺ مكة المكرمة استخلف على أهل مكة عتاب بن أسيد شابًا في عمر العشرين، يُصلي بأهل مكة ويؤمهم، واستبقى معه معاذ بن جبل يفقههم في دينهم، ويعلمهم القرآن، فقد كان معاذ ممن حفظوا القرآن وجمعه على عهد النبي ﷺ، وكما قال أنس: جمع القرآن على عهد النبي ﷺ أربعة، كلهم من الأنصار، أحدهم: معاذ بن جبل^(٢).

وقال النبي ﷺ: «خذوا القرآن من أربعة: من ابن مسعود، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت»^(٣). هكذا كان معاذ أحد جامعي القرآن.

(١) تفسير ابن كثير (٣٢٦/١).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في فضائل القرآن (٥٠٠٣)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٦٥)، عن أنس بن مالك.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في المناقب (٣٨٠٨)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٦٤)، عن عبد الله بن عمرو.



مؤاخاته مع ابن مسعود:

كما كان معاذ أحد فقهاء هذه الأمة، ولذلك آخى النبي ﷺ بينه وبين عبد الله بن مسعود، بعد الهجرة إلى المدينة آخى النبي بين المهاجرين والأنصار، وكان يُراعي في هذا الإخاء تقارب المشارب والأمزجة والاهتمامات، فأخى بين سعد بن الربيع وعبد الرحمن بن عوف، كلاهما من أكثر الناس مالاً، وآخى بين سعد بن معاذ من الأنصار وأبي عبيدة بن الجراح، كلاهما أمين: هذا أمين الأنصار، وهذا أمين المهاجرين، وآخى بين عبد الله بن مسعود ومعاذ بن جبل، كلاهما من فقهاء الأمة، ومن جامعي القرآن.

أعلم الأمة بالحلال والحرام:

كان معاذ كما قال النبي ﷺ: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدُّهم في أمر الله عمر، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل»^(١). كان عالماً بالحلال والحرام، من فقهاء الأمة، هكذا عرفه النبي ﷺ، وهكذا عرفه الصحابة، كانوا يلجؤون إليه في الملمات.

في عهد عمر رضي الله عنه جاء رجل وأتته امرأته بأنها حبلى من الزنى، وأنه غاب عنها مدة طويلة وجاء فوجدها حاملاً، فهمَّ عمر بأن يرحمها، فقال له معاذ بن جبل: يا أمير المؤمنين، إن كان لك سبيل عليها؛ فليس لك

(١) رواه أحمد (١٣٩٩٠)، وقال مخزّجوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين. والترمذي في المناقب (٣٧٩١)، وقال: حسن صحيح. وابن ماجه في المقدمة (١٥٤)، والحاكم في معرفة الصحابة (٤٢٢/٣)، وصحَّحه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي. وقال ابن حجر في الفتح (٩٣/٧): وإسناده صحيح إلا أن الحفاظ قالوا: إن الصواب في أوله الإرسال، والموصول منه ما اقتصر عليه البخاري. يعني: «وإنَّ لكل أمة أميناً وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح». وصحَّحه الألباني في الصحيحة (١٢٢٤)، عن أنس.

سبيل على ما في بطنها، دعها حتى تلد. فلما ولدت كان الولد أشبه الناس بأبيه، فقال أبوه: هذا ابني. فقال عمر: لولا معاذ لهلك عمر^(١). كان سيرجم المرأة وهي مظلومة، عجزت النساء أن يلدن مثل معاذ.

كان معاذ قريباً من النبي ﷺ، وإذا وجد الفرصة يسأله، كما قال: كنتُ في سفر قريباً من النبي ﷺ، فقلت: يا رسول الله، أخبرني عن أمرٍ يُقربني من الجنة، ويباعدني من النار. قال: «يا معاذ، لقد سألت عن عظيم، وإنه ليسيرٌ على من يسره الله تعالى عليه: تعبد الله، لا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت». ثم قال: «ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، وصلاة الرجل في جوف الليل». ثم تلا ﴿تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾، حتى بلغ ﴿يَعْمَلُونَ﴾. ثم قال: «ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟» قلت: بلى يا رسول الله! قال: «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد». ثم قال: «ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟» قلت: بلى يا رسول الله! فأخذ بلسانه، ثم قال: «كفَّ عليك هذا». قلت: يا رسول الله، وإنَّا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: «ثكلتك أمك، وهل يكبُ الناس في النار على وجوههم - أو قال: على مناخرهم - إلاَّ حصائدُ ألسنتهم؟»^(٢). إلا هذا اللسان الذي يحصد كالمنجل.

(١) رواه عبد الرزاق في الطلاق (١٣٤٥٤)، وابن أبي شيبة في الحدود (٢٩٤٠٨).

(٢) رواه أحمد (٢٢٠١٦)، وقال مخرجه: صحيح بطرقه وشواهده. والترمذي في الإيمان (٢٦١٦)، وقال: حسن صحيح. وابن ماجه في الفتن (٣٩٧٣)، والحاكم في التفسير (٤١٣، ٤١٢/٢)، وصححه على شرطهما، ووافقه الذهبي، عن معاذ بن جبل.

وكان عليه الصلاة والسلام يخصُّه أحياناً بالعلم، كان ركباً رديف النبي صلى الله عليه وسلم على حمار يقال له: عُفَيْر. فقال: «يا معاذ، أتدري ما حقُّ الله على العباد، وما حقُّ العباد على الله؟» قال: الله ورسوله أعلم. قال: «حقُّ العباد على الله: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وحقُّ العباد على الله: ألا يعذب من لا يشرك به شيئاً». قال: يا رسول الله، ألا أبشُر الناس؟ قال: «لا تبشُرهم فيتكلوا»^(١). ولكن معاذاً قبل أن يموت أخبر بهذا الحديث بعض أصحابه تأثماً، خشية أن تضيع هذه الحقيقة، أن يضيع هذا العلم الذي سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، أراد أن يبلغ العلم ولا يكتمه، وهذا من فقهه رضي عنه.

قال له النبي صلى الله عليه وسلم: «والله يا معاذ إنني لأحبُّك». فقال: وأنا والله يا رسول الله أحبُّك. قال: «أوصيك يا معاذ، لا تدعَنَّ دُبْرَ كلِّ صلاةٍ أن تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»^(٢). هكذا خصَّه النبي صلى الله عليه وسلم، وقال له: «إنني لأحبُّك». فقال: وأنا والله يا رسول الله أحبُّك في الله.

أسمح الناس كفاً:

هذا الصحابي الجليل كان من أسمح الناس كفاً، لا يردُّ مَنْ سألَه، مَنْ سألَه شيئاً أعطاه، فسبب له هذا الكرم وهذا الجود، وهذا السخاء أنه أصبح مديناً بديون لا قبل له بها، وجاء (الديانة) يسألون عنه فاستحيا أن يقابلهم، واختفى في بيته عدة أيام، ثم سأل النبي صلى الله عليه وسلم أن يكفهم عنه، أن يكلمهم يمهلوه، فكلمهم النبي صلى الله عليه وسلم، فتنازل بعضهم، وأمهل بعضهم،

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٥٦)، ومسلم في الإيمان (٣٠)، عن معاذ بن جبل.

(٢) رواه أحمد (٢٢١١٩)، وقال مخرَّجوه: إسناده صحيح. وأبو داود في الصلاة (١٥٢٢)، والنسائي في السهو (١٣٠٣)، وابن خزيمة (٧٥١)، وابن حبان (٢٠٢٠)، كلاهما في الصلاة، عن معاذ بن جبل.

وقال بعضهم: لا نتنازل عن حقنا. فجمعه النبي ﷺ بغرمائه، وقال لهم: «خذوا ما شئتم من ماله». فخلعه النبي ﷺ من كل ماله وأعطاه لهؤلاء، فكفى خمسة أسباع الديون، وبقي سُبْعان لم يستطع أن يسددها، قالوا: بعه لنا يا رسول الله. قال: «ليس لكم إليه من سبيل». ثم قال له النبي ﷺ: «لعلنا نبعثك في بعثٍ يجبرك الله فيه». فبعثه إلى اليمن^(١).

بعثته إلى اليمن:

وبعثته إلى اليمن قصة طويلة، قال له النبي ﷺ حينما بعثه إلى اليمن مُعَلِّمًا وقاضيًا وداعيًا وواليًا، كان الولاية مُعَلِّمين، يؤمُّون الناس في الصلاة، ويفقهون الناس في الدين، لم يكونوا مجرد سياسيين أو حكماء إداريين، لا، بل كانوا يُعَلِّمون الناس مربين، كل واحد منهم مربِّ داعية، عالم فقيه، وهكذا كان معاذ رضي الله عنه.

سأله النبي ﷺ حينما أرسله إلى اليمن: «بِمَ تقضي يا معاذ؟» قال: بكتاب الله. قال: «فإن لم يكن في كتاب الله؟» قال: فبما قضى به رسول الله ﷺ. قال: «فإن لم يكن فيما قضى به رسول الله؟». قال: أجتهد رأبي لا آلو. أي: أعمل اجتهادي مراعيًا مقاصد الشريعة ومصالح الخلق التي جاءت الشريعة لتحقيقها وإقامتها، في المعاش والمعاد، أجتهد رأبي لا أقصر، لا أدخر وسعًا. فضرب النبي على صدره وقال: «الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله»^(٢).

(١) سير أعلام النبلاء (٤٥٣/١).

(٢) رواه أحمد (٢٢٠٠٧)، وقال مخرَّجوه: إسناده ضعيف؛ لإبهام أصحاب معاذ، وجهالة الحارث بن عمرو. وأبو داود في الأفضية (٣٥٩٢)، والترمذي في الأحكام (١٣٢٨)، وقال: هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وليس إسناده عندي بمتصل. وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود (٧٧٠).

ثم قال له: «يا معاذ، إنَّك تأتي قومًا أهل كتاب». يعني أن هؤلاء ليسوا من الوثنيين الذين ليس عندهم علم، بل هؤلاء أهل كتاب عندهم علم ورثوه من النبوات السابقة، «فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله». هذه هي مفتاح الإسلام، «فإن هم أطاعوا لذلك، فأعلمهم أن الله تعالى افترض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة أموالهم؛ تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لذلك فأياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم، فإنها ليس بينها وبين الله حجاب»^(١). علمه منهج التدرج في الدعوة والتربية، والتعليم والتشريع؛ فالتدرج منهج إسلامي، وسنة إسلامية؛ كما أنه سنة كونية.

وكان مع معاذ أبو موسى الأشعري، كلاهما كان مبعوثًا إلى اليمن،

= وقال الخطيب: فإن اعترض المخالف بأن قال: لا يصح هذا الخبر، لأنه يروى عن أناس من أهل حمص لم يسموا؛ فهم مجاهيل، فالجواب: أن قول الحارث بن عمرو، عن أناس من أهل حمص من أصحاب معاذ، يدلُّ على شهرة الحديث، وكثرة رواته... على أن أهل العلم قد قبلوه، واحتجوا به، فوقفنا بذلك على صحته عندهم - وذكر أحاديث - وإن كانت هذه الأحاديث لا تثبت من جهة الإسناد، لكن لما تلقتهما الكافة عن الكافة غنوا بصحتها عندهم عن طلب الإسناد لها. انظر: الفقيه والمتفقه (٤٧١/١)، تحقيق عادل بن يوسف الغرازي، نشر دار ابن الجوزي، السعودية، ط ٢، ١٤٢١هـ.

وقال ابن القيم نحو هذا ثم قال: كيف وشهرة أصحاب معاذ بالعلم والدين والفضل والصدق بالمحل الذي لا يخفى، ولا يعرف في أصحابه متهم ولا كذاب ولا مجروح، بل أصحابه من أفاضل المسلمين وخيارهم، لا يشك أهل العلم بالنقل في ذلك. كيف وشعبة حامل لواء هذا الحديث، وقد قال بعض أئمة الحديث: إذا رأيت شعبة في إسناد حديث، فاشدد يدك به. انظر: إعلام الموقعين (١٥٥/١)، تحقيق محمد عبد السلام إبراهيم، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٤١هـ - ١٩٩١م.

وجود إسناده ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٣٦٤/١٣)، وابن كثير في التفسير (٧/١).

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الزكاة (١٤٩٦)، ومسلم في الإيمان (١٩)، عن ابن عباس.

فقال لهما النبي ﷺ: «يَسِّرَا وَلَا تُعَسِّرَا، وَبَشِّرَا وَلَا تُنْفِرَا، وَتَطَاوَعَا وَلَا تَخْتَلِفَا»^(١). وصيَّة جامعة، التيسير والتخفيف على النَّاس، لا التَّعسير والتَّشديد، والأمر الثاني التبشير لا التنفير، لا تُنفر النَّاس، لا تبغض الله إلى النَّاس، حبَّ الله إلى النَّاس، حبَّ الله إلى خلقه؛ بأن تكون مبشِّراً لا مُنفرًا، والأمر الآخر «تطاوعا ولا تختلفا»، ليكن كل منكما لينا في يد صاحبه حتى تستطيعا أن تديرا الأمور بالتعاون والتساهل، لا بالتشاحن ولا بالخشونة ولا بالتشدد والتصلب.

وهكذا بقي معاذ رضي الله عنه في اليمن يعمل بوصايا رسول الله ﷺ، وكان يبعث إليه أحيانا بالمنسوجات اليمنية، لا يبعث إليه بالذرة والشعير، يقول لأهل اليمن: إيتوني بهذه الأشياء من منسوجاتكم؛ فهي أهون عليكم، وأنفع لأصحاب رسول الله ﷺ بالمدينة^(٢). فحين يبعث إليهم بهذه المنسوجات غير ما يبعث إليهم بالذرة والشعير والقمح؛ فهذه يحتاج نقلها إلى نفقات، فهكذا كان من فقه معاذ أنه يأخذ الزكاة بالقيمة، كما كان يأخذ الجزية بالقيمة، لأن الرسول أمره أن يأخذ الجزية من غير المسلمين دينارا أو عدله معافر^(٣)، أي: قيمته من أشياء أخرى، هكذا كان معاذ رضي الله عنه في حياة النبي ﷺ، كان من الأنصار المعلمين القراء للقرآن.

- (١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٠٣٨)، ومسلم (١٧٣٣)، كلاهما في الجهاد، عن أبي موسى.
- (٢) ذكره البخاري في صحيحه تعليقا بصيغة جزم قبل الحديث (١٤٤٨) قال: وقال طاوس: قال معاذ رضي الله عنه، ورواه الدارقطني في الزكاة (١٩٣٠)، وقال: هذا مرسل، طاوس لم يدرك معاذًا. والبيهقي في الزكاة (١١٣/٤). وقال الحافظ ابن حجر في تغليق التعليق (١٣/٣): هو إلى طاوس إسناد صحيح، لكنّه لم يسمع من معاذ فهو منقطع. وانظر كتابنا: فقه الزكاة (٨١٩/٢)، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٢٥، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.
- (٣) رواه أحمد (٢٢٠١٣)، وقال مخرّجوه: إسناده صحيح. وأبو داود (١٥٧٦)، والترمذي (٦٢٣)، وقال: حسن. والنسائي (٢٤٥٠)، ثلاثتهم في الزكاة، وصحّحه الألباني في الإرواء (١٢٥٤). والمعافر نوع من الثياب تنسب إلى (معافر) قبيلة باليمن.

وحيثما عاد معاذ من اليمن كان رسول الله ﷺ قد لحق بربه بالرفيق الأعلى، جاء في عهد أبي بكر، وجاء إلى موسم الحج، وكان عمر هو أمير هذا الموسم أمره أبو بكر على الحجيج في تلك السنة، والتقى معاذ وعمر رضي الله عنهما فتعانقا، وبكىا طويلاً؛ فقد افترقا ورسول الله ﷺ حي، وجبريل غداً رواح بآيات الله بالوحي، والآن انقطع وحي السماء، انقطع خبر السماء، وتوفي رسول الله ﷺ، فبكىا طويلاً.

ووجد عمر مع معاذ غلماناً، عبيداً، قال: ما هذا يا معاذ؟ قال: هؤلاء أهدوا إليّ. فقال: أرى أن تُسلمهم لأبي بكر، فإن طيبها لك فخذها، وإلا فدعها. قال: لماذا أسلمهم لأبي بكر؟ الرسول بعثني إلى اليمن ليحبرني الله فيها حتى أسدّد ديوني وكذا. ولكنه ما لبث حتى جاء إلى عمر وقال: يا ابن الخطاب، والله ما أراني إلا مُطيعك، فقد رأيت نفسي في المنام وكأنني أُجرُّ إلى النار جرّاً، وأنت آخذٌ بحجزتي تمنعني من اقتحام النار، فوالله إنني لمُسلم هذا كله إلى أبي بكر رضي الله عنه. فلما ذهب إلى أبي بكر قال: هذا المال طيب لك، فقد سمعت النبي ﷺ يقول: «إنني أبعثك إلى اليمن لأجبرك». وأعطاه له، وقال له عمر: الآن طاب هذا لك. كل منه هنيئاً مريئاً، واستمتع بهؤلاء الغلمان، أو بعهم، أو ما شئت^(١).

ولكن معاذ بن جبل وقف مرة يُصلي، فلما انصرف من صلاته وجد هؤلاء الغلمان خلفه يصلون، فسألهم: لمن تصلون؟ قالوا: لله ورسوله. قال: اذهبوا فأنتم عتقاء لله الذي صليتم لله^(٢). هؤلاء الذي جرى بينه وبين عمر في شأنهم سرعان ما حرّرههم لوجه الله ﷻ، هذا هو معاذ بن جبل رضي الله عنه.

(١) سير أعلام النبلاء (١/٤٥٣، ٤٥٤).

(٢) رواه البيهقي في دلائل النبوة (٥/٤٠٦، ٤٠٧)، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٠٥هـ.

كان معاذ مستشارًا لأبي بكر، ومستشارًا لعمر، حينما ذهب عمر إلى الجابية قال: مَنْ أراد المال فليأتني، ومن أراد القرآن فليذهب إلى فلان، ومن أراد الفقه فليأت معاذ بن جبل^(١). مَنْ يريد أن يتفقه في دين الله فليذهب إلى معاذ، حتّى إن عمر رضي الله عنه قال: لئن أدركني أجلي ومعاذ بن جبل حيّ لاستخلفته، فإن سألتني ربي: لماذا استخلفته؟ قلت: سمعت نبيك صلى الله عليه وسلم يقول: «يُحشر معاذ بن جبل أمام العلماء برتوة»^(٢). أي بمنزلة، يتقدّم علماء الأمة يوم القيامة، فلهذا رشّحه عمر للخلافة رغم أنّه أنصاري، وهذا يجعل قضية اشتراط القرشية للإمامة فيها كلام!

أمنية عمرية:

وجلس عمر مع بعض الصحابة في إحدى دور المدينة، فقال لهم: تمنّوا. فقال أحدهم: أتمنى أن يكون لي ملء هذه الدار فضة أنفقها في سبيل الله. وقال آخر: أتمنى أن يكون لي ملء هذه الدار ذهب أنفقها في سبيل الله. وقال ثالث: أتمنى أن يكون لي ملء هذه الدار أحجار وجواهر نفيسة أنفقها في سبيل الله. فقال عمر: أمّا أنا فأتمنى أن تمتلئ هذه الدار برجال مثل أبي عبيدة بن الجراح، ومعاذ بن جبل، وحذيفة بن اليمان، فأستعملهم في طاعة الله^(٣).

لم يتمنّ عمر مالاً وإنّما تمنى رجالاً؛ لأنّه يعلم أن نهضات الأمم لا تقوم بالمال، إنّما تقوم بالرجال، الرجال يأتون بالمال، ولكن المال

(١) رواه الحاكم في معرفة الصحابة (٢٧١/٣).

(٢) رواه أحمد (١٠٨)، وقال مخرّجوه: حسن لغيره. وقال الهيثمي مجمع الزوائد (١٤٩١٢): هو

مرسل، راشد وشريح لم يدركا عمر. وقال ابن حجر: إسناد رجاله ثقات. فتح الباري

(١١٩/١٣)، نشر دار المعرفة، بيروت.

(٣) سبق تخريجه ص ٢٣١.

لا يأتي بالرجال، الرجال هم الذين تحيا بهم الأمم، وتنهض بهم الرسالات، ولذلك تمنى عمر رجلاً مثل أبي عبيدة ومعاذ وحذيفة ليستخدمهم في سبيل الله، وفي إعزاز دين الله وَعَجَّلَ.

عاش معاذ رضي الله عنه في حياة أبي بكر، وفي حياة عمر، ولكنه في عهد أبي بكر استأذنه ليذهب إلى الشام، كانت معارك الجهاد الإسلامية في الشام وفي العراق، كان المسلمون يقاومون أعتى إمبراطوريتين في الأرض، إمبراطورية الفرس في الشرق الذين يعبدون النار، ويقولون بالهين: إله للنور وإله للظلمة، وإمبراطورية الروم البيزنطيين في الغرب، كانت جيوش المسلمين تواجه هاتين الإمبراطوريتين، وأراد معاذ أن يكون له حظه من الجهاد في سبيل الله لعل الله يرزقه الشهادة؛ فاستأذن أبا بكر رضي الله عنه، فأذن له.

ولكن عمر كان رأيه غير رأي أبي بكر، وقال: لقد أخلّ خروج معاذ بالفقه في المدينة، وفيما يفتي الناس به، وكنت كلمت أبا بكر، وقلت له: استبق معاذاً أحبسه عن الخروج. فقال: رجل أراد وجهاً كيف أحبسه عنه. يعني أراد الشهادة، فهل أحبسه عن نيلها^(١)؟

إنّ الرجل ليُرزق الشهادة وهو على فراشه، كما جاء في صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم: «مَنْ سَأَلَ اللَّهَ الشَّهَادَةَ بِصَدَقٍ؛ بَلَغَهُ اللَّهُ مَنَازِلَ الشَّهَدَاءِ، وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ»^(٢). فكان أبو بكر يؤمن بحرية الأفراد، مَنْ أَرَادَ أَنْ يَفْعَلَ شَيْئًا لَا يَقِفُ فِي وَجْهِهِ، وَكَانَ عَمْرٌ يُوْمِنُ بِأَنَّ حَقَّ الْجَمَاعَةِ مُقَدَّمٌ عَلَى حَقِّ الْفَرْدِ، وَأَنَّ مَصْلَحَةَ الْجَمَاعَةِ أَهْمُ مِنْ حَرِيَةِ

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٤٥٢/١).

(٢) رواه مسلم في الإمارة (١٩٠٩)، وأبوداود في الصلاة (١٥٢٠)، عن سهل بن حنيف.

الأفراد، فكان عمر يفعل هذا، وأبو بكر يفعل هذا، ولكل وجهة هو موليها، وهم جميعًا يستبقون الخيرات.

في معركة اليرموك:

وذهب معاذ إلى الشام، وحضر معركة اليرموك، وكان على اليمين، جعله أبو عبيدة أمير المسلمين على هذه المعركة في ذلك الوقت على اليمين، ولكنه لم يكتف بأن يقف على اليمين، كان يرى أن عليه واجبًا للمسلمين جميعًا، كان يخرج إلى المسلمين ما بين الحين والحين يعظهم ويذكرهم، ويوقد في صدورهم الحماسة، ويثبت عزائمهم، فكان هكذا دائمًا ﷺ حتى انتصر المسلمون في هذه المعركة، مع أنهم كانوا أقل بكثير من أعدائهم في العدد والعدد، ولكن جند الله انتصروا على أعداء الله كما قال الله تعالى لرسوله: ﴿هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِبَصِيرَةٍ وَالْمُؤْمِنِينَ * وَالْفَتْحَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٢، ٦٣]. كان معظم الذين قُتلوا من الروم في هذه المعركة لم يُقتلوا بسيف المسلمين، لعل أقلهم من قُتل بسيف المسلمين، ولكن كانوا يربطون بعضهم ببعض، كل عشرة في سلسلة واحدة، فلو قُتل منهم اثنان يجران الآخرين الهاوية، وهكذا انتصر الإسلام في هذه المعركة، وكان لمعاذ ﷺ دوره وجهده في هذه المعركة.

طاعون عمّواس:

ثم أصاب المسلمين في السنة الثامنة عشرة من الهجرة طاعون خطير عُرف باسم (طاعون عمّواس)، هذا الطاعون الذي استهلك الآلاف من الصحابة، لم يكن هناك مصل ولا لقاح يستطيعون أن يقوا به الناس، ولم

يكن هناك علاج يُعالجونه به، وهذه الطواعين إذا ظهرت تسري في الناس كأنها النار في الهشيم، تأكل الناس أكلاً، تلتهمهم التهاماً، ذهب ثلاثة أرباع الصحابة الذين كانوا مع سيّدنا أبي عبيدة بن الجراح في طاعون عمّواس، لم يُقتلوا بسيف الأعداء، ولكن قُتلوا بهذا الطاعون الذي كان بعضهم يسميه (رماح الجن)، كأنما الجن هي التي تطعنهم فتقتلهم من حيث لا يشعرون، وهو جنُّ فعلاً من حيث إنه شيء خفي، هذه الفيروسات والميكروبات هي نوع من الجن، والجن هو ما خفي عن الإنسان ودقّ عن عينه فلم يُر، وكان هذا الطاعون يُعتبر شهادة لمن قُتل به، وخصوصاً أن هؤلاء ذاهبون في سبيل الله، فإذا أصيبوا بمثل هذا المرض كان لهم شهادة.

أصيب الكثيرون بهذا الطاعون، ثمّ أصيب به أمير القوم أبو عبّيدة بن الجراح أمين هذه الأمة فاستخلف على الناس من بعده معاذ بن جبل، وأوصاه بتقوى الله وبرعاية شأن المسلمين، وكان نعم الخليفة هو، فهما كما قال عمر: أبو عبّيدة ومعاذ إخوة، بعضهم من بعض.

فقد أرسل عمر في خلافته إلى أبي عبّيدة وإلى معاذ صرّة من المال، أرسل أولاً بأربعمائة دينار ذهبية إلى أبي عبّيدة، وقال للغلام الذي أرسله بها إليه: تلهّى في البيت ساعة، تشاغل بشيء؛ انظر ماذا يفعل؟ فأعطها له وقال: هذه من عمر لك. قال: وصله الله ورحمه. ثمّ نادى: يا جارية، ابعثي إلى آل فلان بكذا، وابعثي إلى آل فلان بكذا. وهكذا حتّى انتهى من الأربعمائة دينار كلها، لم يبق منها درهماً واحداً.

وعاد الغلام إلى عمر، وقصّ عليه ما جرى، وكان عمر قد جهّز مثلها إلى معاذ، فقال للغلام: اذهب إلى معاذ، وتلهّى في البيت ساعة حتّى

تري ماذا يفعل؟ فأعطاها له وقال: هذه من عمر لك. قال: وصله الله ورحمه. ثم نادى: يا جارية، اذهبي بهذه العشرة إلى فلان، واذهبي بهذه العشرة إلى فلانة. وهكذا حتى قالت له امرأته في النهاية: ونحن والله مساكين فأعطنا منها. فنظر في الخرقه فوجد فيها دينارين فألقى بهما إليها، وعاد الرجل إلى عمر يحكي له ما حدث من معاذ، فسُرَّ عمر وقال: أبو عبيدة ومعاذ إخوة بعضهم من بعض^(١). ولا عجب أن يستخلف أبو عبيدة بعده على المسلمين معاذ بن جبل.

وقد قام معاذ بن جبل خير قيام على المسلمين، يصلي بهم، ويُقرئهم القرآن، ويُفقههم في دين الله، ويعظهم بالصبر، ويعظهم بتذكر الآخرة، ويعظهم بالثبات في هذا الموقف الذي يموت فيه الناس من حولهم، يجد الإنسان هذا أخاه قد مات بجواره، وهذا صديقه، وهذا جاره، فكان يُثبَّتْهم.

إصابته بالطاعون:

وجاء بعضهم يقول له: ألا تدعو الله أن يُبعد عنا هذا الرَّجْس، هذا العذاب، هذا الطاعون. فقال: أمّا إنّه ليس برجس، ولكنّه رحمة من الله ﷻ أراد أن يرحمنا بها، وشهادة في سبيل الله؛ اللهم اجعل لمعاذ وآل معاذ الحظ الأوفر من هذه الرحمة!

فما إن قال ذلك حتى وجد ابنه عبد الرحمن قد أُصيب بالطاعون، فدخل عليه وقال: كيف تجدك يا بُني؟ قال: يا أبت، الحق من ربك فلا تكونن من الممترين. اصبر لا تأخذك الفجيعة بي وتفقد صبرك،

(١) رواه الطبراني (٣٣/٢٠)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٢٣٧/١)، وقال المنذري في الترغيب والترهيب (١٣٦٩): رواه الطبراني في الكبير، ورواه إلى مالك الدار ثقات مشهورون، ومالك الدار: لا أعرفه، وكذا قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤٦٨٧).

فقال: ستجدني إن شاء الله من الصابرين. وودّع ابنه عبد الرحمن، ثم أصيبت امرأتان له كانتا معه، وبقي معاذ وحده، وإذا به في يوم من الأيام يُصاب في إصبعه السبابة، فكان ينظر إلى إصبعه ثم يقول: اللهم بارك فيها، والله ما يسرني أن لي بها حُمر النعم^(١). الإبل الحمراء التي كان العرب يعتبرونها أغلى أنواع الإبل وأنفسها، ثم كان ما قدّر الله وعَجَلٌ، ومات بهذه الإصابة معاذ بن جبل مع من مات من المسلمين في هذا الطاعون، رضي الله عنه وأرضاه.

سيرة حافلة:

هكذا كان معاذ بن جبل، له سيرة حافلة، لا تكفي خطبة من الخطب لتملأ هذا الفراغ، لتحدّث عن هذا العملاق، هذا الرجل الذي مات وهو ابن ثلاث وثلاثين، كما قال بعضهم. حتّى قال سعيد بن المسيب: رُفِعَ عيسى ابن مريم وهو ابن ثلاث وثلاثين، ومات معاذ بن جبل وهو ابن ثلاث وثلاثين^(٢). وبعضهم قال: إنّه مات وهو ابن ثمان وثلاثين. لم يبلغ الأربعين على كل حال، مات في العقد الرابع من عمره رضي الله عنه.

هذا معاذ بن جبل أحد الصحابة الغرّ الميامين، وأحد الأنصار الذين آووا ونصروا كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٤]. هؤلاء الذين قال فيهم القائل يمدح الأنصار: إنهم يكثرون عند الفزع، ويقلون عند الطمع^(٣).

(١) رواه البيهقي في الدلائل (٣٨٥/٦).

(٢) رواه ابن سعد في الطبقات (٥٩٠/٣).

(٣) غريب الحديث (٦٨٢/١).

انظروا ما أروع الوصف، وما أروع الموصوف، يكثرون عند الشدائد، ويقولون عندما تُقبل الدنيا وتأتي الغنائم، كان معاذ بن جبل أحد هؤلاء الأنصار الذين وصفهم الله في القرآن بقوله: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]. اللهم اغفر لهم. وارحمهم وارض عنهم وأرضهم، وتقبل منا إنك أنت السميع العليم، وادعوا الله تعالى يستجب لكم.



أم المؤمنين خديجة بنت خُوَيْلِد

الخطبة الأولى

أمَّا بعدُ، فيا أيُّها الإخوة المسلمون:

لا زلنا نعيش مع الرعيل الأول، مع الجيل الرَّبَّانِي، مع الجيل القرآني، مع الجيل المحمَّدي الَّذِي تخرَّج في مدرسة النبوة، جيل الصحابة الَّذين أثنى الله عليهم في كتابه، وأثنى الرسول عليهم في أحاديثه، وسجَّل التاريخ بطولاتهم ومواقفهم بأحرف من نور.

تحدثنا في الجمع الماضية عن عدد من أصحاب النَّبِيِّ ﷺ، ولم نكمل الحديث عنهم، فلا زال في الجعبة كثير من السهام، ولكننا أثرنا اليوم أن ندع الرجال ونتحدث عن النساء، فالمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض، وكما قام هذا الدين على الرجال، قام أيضًا على النساء، فمما يتَّضح فيما سجَّله السيرة النبوية، وسجَّله التاريخ: أنَّ أوَّل صوت ارتفع بالاستجابة إلى رسول الله ﷺ كان صوت امرأة: صوت خديجة بنت خُوَيْلِد، وأول شهيد استشهد من أجل هذا الدين، أوَّل دم أريق في الإسلام كان دم امرأة: دم سمية أم عمار، وزوجة ياسر.

أول امرأة في الإسلام:

ولهذا أحببنا أن نتحدّث عن الصحابيات رضوان الله عليهن، وأن نبدأ بأُمَّهات المؤمنين، أو ببعض أُمَّهات المؤمنين، أوّل ما نبدأ به أم المؤمنين الأولى، والمسلمة الأولى، أوّل امرأة في الإسلام، بل أوّل إنسان في الإسلام، وهي خديجة بنت خُوَيْلِد الأَسَدِيَّة القرشيَّة رضي الله عنها.

أوّل ما تعرّف النبي صلى الله عليه وسلم على خديجة تعرّف عليها ليعمل تاجرًا معها، أو شريكًا لها، أو مضاربًا لها في تجارتها، وكان العرب في الجاهليّة قد عرفوا المضاربة التي أقرّها الإسلام بعد ذلك، والمضاربة أن يعطي الرجل ماله لمن يتجر له فيه، هناك رجل عنده مال، وليست عنده خبرة أو قدرة على الاتّجار فيه، وهناك رجل ليس عنده مال، وعنده الخبرة والقدرة على الاتّجار في هذا المال وتنميته، فإذا اشترك الطرفان كان من وراء ذلك الخير، وهذا ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم، وفعلته خديجة، أن ضارب لها في مالها في التجارة.

اشتغل النبي صلى الله عليه وسلم في أوّل أمره برعي الغنم، ولم تكن غنمه، لم يكن صلى الله عليه وسلم يملك إبلاً ولا بقرًا ولا غنمًا، فقد كان يتيمًا فقيرًا، آواه عمّه أبو طالب، وكان قليل المال، كثير الأولاد، فكان صلى الله عليه وسلم يكسب رزقه بكدّ اليمين، وعرق الجبين، لم يقل: أنا ابن بني هاشم، أنا حفيد عبد المطلب سيّد مكّة. لم يتكل على نسبه، ولا على شرف أسرته، ولكن اتّكل على جهده وجهده، وعمل في رعي الغنم، وجاء في حديثه: «ما بعث الله نبيًا إلا ورعى الغنم»^(١).

(١) رواه البخاري في الإجارة (٢٢٦٢)، عن أبي هريرة.

ثم أراد أن يتخفف من هذه المهنة الثقيلة، أو أراد عمه أبو طالب أن يخرج من هذه المهنة المُجهدة، القليلة العائد، فقال له: يا ابن أخي هذه عير قريش - قافلة قريش التجارية - أوشكت أن تخرج إلى الشام، وخديجة بنت خُوَيْلد تبعث رجالاً من قريش يتجرون لها في مالها، وتعطيهم نصيبهم، فلعلك تعرض نفسك عليها لتشاركها، وتعطيك نصيبك من هذا المال. فقال: لعلها تُرسل إليَّ. أبى أن يذهب إليها، ويعرض نفسه عليها. فقال: أخشى أن تُولي غيرك.

وما هي إلا أيام، كأنما بلغ خديجة هذا الحوار بين أبي طالب وابن أخيه، وأرسلت إليه، قالت: لقد بلغني عنك من حُسن السمعة، ومحاسن الأخلاق، وصدق الحديث، والأمانة في التعامل ما رغبتني أن أشاركك - أن أرسلك لتتجر ببعض مالي - وأعطيك أفضل مما كنت أعطيه للآخرين. فرحب النبي ﷺ بذلك، وبعثت معها غلامها ميسرة، وذهب ﷺ ليتجر بمالها في الشام، يشتري لها من السلع والبضائع ما يحتاج إليه أهل مكة.

التجارة بمال خديجة:

وعاد الرسول ﷺ بعد أشهر من هذه الرحلة بالربح الوفير، فربحت ضعف ما كانت تربح مع التجار الآخرين.

كسبت هذا الربح الوفير، ولكن غلامها ميسرة جاءها بما هو أهم من الربح الوفير، حدّثها عن أخلاق هذا الرجل، عن فضائل هذا الرجل، عن الآيات التي ظهرت وهو رفيق له في هذه الرحلة، فهفا قلبها إليه، وتعلقت به، وتمنت أن يكون شريكها في الحياة كما كان شريكها في التجارة، ولكن ماذا تفعل؟ إنَّ الرجل يستطيع أن يخطب المرأة، ولكن كيف تستطيع المرأة أن تخطب الرجل إذا رغبت فيه؟

كانت خديجة امرأة حكيمة، وكانت تُعَدُّ من سيِّدات نساء قريش الأَوَّل، كانت أشرفهنَّ نسبًا، وأوسطهنَّ دارًا، وأكثرهنَّ مالًا.

زواجها قبل رسول الله ﷺ :

تزوَّجت قبل رسول الله ﷺ رجلين: تزوّجت أبا هالة بن زرارة التميمي، وأنجبت منه بنتين: هندًا وهالة، وهما اسمين لرجلين، فهند هذا آمن بالنبي ﷺ وصحبته، وشهد معه بدرًا، وكان هو الذي وصف النبي ﷺ بتفصيل؛ فأحسن الوصف، وتزوجت عقيلًا أحد المكيين أيضًا، وأنجبت منه بنتًا سمّتها هندًا أيضًا. ثمَّ ظلت أيّما يتهافت عليها رجال قريش يخطبونها فرغبت عنهم؛ فقد رأت أن الذين يخطبونها إنّما يخطبون مالها، ولا يخطبون شخصها، إنهم يريدون خديجة الغنية، ولا يريدون خديجة الإنسان.

ولكنّها هذه المرة أرادت أن تتزوَّج هذا الشاب اليتيم الفقير، لقد تعلقت بهذا الشاب، هو شاب وليس فيه عبث الشباب، تاجر وليس فيه جشع التجار، قرشي وليس فيه زهو القرشيين، فقير وليس فيه خنوع الفقراء، تجمّعت فيه الفضائل والمكارم، فمن التي لا ترغب فيه؟

وساطة نفيسة بنت منية:

حاولت خديجة بحكمتها وفطنتها أن توسّط امرأة إليه، وكانت لها صديقة اسمها نفيسة بنت منية؛ فأرسلتها دسيسًا إليه، واسطة بينها وبينه، فذهبت إليه وقالت له: يا محمد ما يمنعك أن تتزوَّج؟ فقال: «ما بيدي ما أتزوج به». قالت له: فإذا دُعيت إلى الجمال والمال، والشرف والكفاءة؛ فهل تجيب؟ قال: «فمن هي؟» قالت: خديجة بنت خويلد.

قال: «ومن لي بذلك؟» قالت: أنا عليّ ذلك. قال: «فأنا أفعل»^(١). رضيت، وذهبت نفيسة إلى صديقتها خديجة، وأخبرتها بما جرى من حديث.

خطبتها من عمها عمرو بن أسد:

هنا تحدثت مباشرة إلى شريكها محمد، وقالت له: تستطيع أن تأتي في يوم كذا، ومعك أعمامك لتخطبني من عمي عمرو بن أسد. لأن أباهما على الرأي الصحيح قد توفي في حرب الفجار التي كانت بين قريش وبعض خصومها، وكان ذلك في شباب النبي ﷺ. وجاء أبو طالب وحمزة عمّا النبي ﷺ، وخطبا خديجة لابن أخيها محمد، فقال عمها عمرو بن أسد: هو الفحل لا يُقَدَع أنفه^(٢)؟ ورضي بهذا الزواج.

كانت خديجة - في أشهر الأقوال - تكبر النبي ﷺ بخمسة عشر عامًا، هناك رواية واحدة قالت: إن عمرها حين تزوّجها النبي ثمانية وعشرون عامًا. ولكن كل الروايات قالت: إن عمرها حينذاك كان أربعين عامًا. فقد ولدت قبل عام الفيل بخمسة عشر عامًا، امرأة تكبره بهذه السنوات، وهي ثيب، لم تتزوّج رجلاً واحداً، وإنما تزوجت رجلين، ولها منهما ذرية، ولكن النبي ﷺ رضيها زوجةً، وعاش معها أسعد ما يكون الأزواج.

لم يكن محمد رجل شهوة كما يُصوّرهُ المستشرقون والمُنصّرون، أنّه كان رجلاً يجري وراء النساء الجميلات، لو كان محمد كذلك ما كان يمنعهُ أن يبحث عن فتاة بكر من فتيات قريش؟

(١) رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى (١٣١/١).

(٢) الاستيعاب لابن عبد البر (٤/١٨١٧، ١٨١٨).

صحيح أنه فقير، ولكنّه بقوة شخصيّته، وبِحُسن سمعته، وبشرف أسرته، وبوسامة طلّعه، وبما أشيع عنه من أنّه الصادق الأمين، وأنّه وأنّه؛ كان يستطيع أن يجد في فتيات قريش وأبكارها من تُشبع شهوته، وكانت خديجة تستطيع أن تجد من أثرياء قريش، ووجهاء مكّة مَنْ تزوجه بدل هذا اليتيم الفقير.

ولكن لم يكن أولى بخديجة من محمّد، ولا بمحمّد من خديجة، لم يكن أولى بالمرأة التي لقبوها الطاهرة إلاّ الرجل الذي لقبوه بالأمين، والله تعالى يقول: ﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ [النور: ٢٦].

حياته ﷺ مع خديجة قبل البعثة:

عاش محمّد مع خديجة قبل البعثة لمدة خمس عشرة سنة في أيام الجاهليّة، وهي حريصة على إسعاده، وحريصة على أن تكون له الزوجة الوفية، ونعم العشير له، لم تضن عليه بمال، ولم تضن عليه بوقت، راعت طموحه إلى الطهارة، إلى الاستقامة، لم يكن يشارك شباب مكّة في لهوهم ولعبهم وسمرهم، أو في شربهم للخمر في هذه الخلعات والخلوات، لا، بل كان حريصًا على الطهارة، وكان حريصًا على التعبّد، كما روت ذلك عائشة رضي الله عنها: أنّه كان يذهب في كل سنة خلال شهر رمضان إلى غار حراء؛ ليتحنّث أو يتعبّد فيه الليالي ذوات العدد^(١). وكان ذلك الغار في أعلى الجبل، فكانت خديجة تذهب إليه في كل حين بالطعام والشراب، وتبقى معه ساعات أو أيامًا وتعود، رغم المشقّة التي يعانها الشباب في صعود جبل حراء في ذلك الزمن كانت خديجة

(١) حديث بدء الوحي متفق عليه: رواه البخاري في بدء الوحي (٣)، ومسلم في الإيمان (١٦٠)، عن عائشة.

- وهي فوق الأربعين - تذهب إلى هذا الغار لتؤنس محمداً ﷺ، وظلت هكذا معه ﷺ. كان كل شباب خديجة لمحمد، وكل ما لخديجة لمحمد.

مع مرضعته حليلة السعدية:

أصابت الناس سنوات جذباء فأقبل على النبي ﷺ من البادية حليلة السعدية مرضعة رسول الله في صغره، جاءت تطلب رفته؛ فلم ترضن عليها خديجة بمالها، أعطتها أربعين رأساً من الغنم، وبعيراً يحمل لها الماء، أو أعطها النبي من مال خديجة، فمال خديجة أصبح مال النبي ﷺ برضاها، كما قال له الله تعالى ممتناً عليه: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ [الضحى: ٨]. وجدك فقيراً فأغناك، قال المفسرون: أغناه بمال خديجة الذي أصبح ماله^(١).

وفي السنة الأربعين من عمره ﷺ جاءه الوحي، وهو في غار حراء، جاءه جبريل فغطه - حضنه وضمه بقوة - حتى بلغ منه الجهد، لا يكاد يتنفس من شدة الضمة، لقوة جبريل، وقد وصفه الله تعالى فقال: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ٢٠]. وقال: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ [النجم: ٥]. غطه حتى بلغ منه الجهد، ثم قال له: اقرأ. قال: «ما أنا بقارئ». قال: «ما أنا بقارئ». ثم قال له: اقرأ. قال: «ما أنا بقارئ». ثلاث مرات، ثم قال: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١-٥]. وتركه جبريل.

وعاد النبي ﷺ من الغار إلى زوجته، ومؤنسة وحشته، وسكنه في بيته، عاد إلى خديجة يرجف فؤاده، ويرتعش بدنه، ويقول: «زملوني، زملوني». غطوني غطوني من شدة ما يشعر به من البرد، فزملته ﷺ،

(١) تفسير القرطبي (٩٩/٢٠) تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، نشر دار الكتب المصرية،

وقصَّ عليها ما حدث له، وكأنَّه خائف من هذا الشيء الجديد، ما كان يتوقع وحيًا، ولا يتوقع أن يكون نبياً، ولكن هذه المرأة بنور بصيرتها، وبسلامة فطرتها، وبحسن إدراكها، وبصدق إحساسها قالت له هذه الكلمات: والله لا يخزيك الله أبداً؛ إنَّك لتصل الرحم، وتحمّل الكلِّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق^(١).

عرفت أنّ من سنن الله أنّ مثل هذا الرجل الذي يتخلّق بهذه الأخلاق، ويقوم بهذه الخصال لا يمكن أن يخزيه الله، إنّما يُخزي الله الظلمة والفسقة والخونة، أمّا مثل هذا صاحب الخلق العظيم فلا يمكن أن يخزيه الله أبداً، عرفت هذا الأمر من سنن الله بفطرتها النقية، فكانت هذه الكلمات برداً وسلاماً على قلب محمد ﷺ.

مع ورقة بن نوفل:

ولم تكتفِ بذلك، بل صحبتته وأخذت بيده إلى ابن عمها ورقة بن نوفل الأسدي، وكان هذا الرجل قد تنصّر في الجاهليّة، وقرأ كتب أهل الكتاب، قرأ من التوراة والإنجيل ما قرأ، فأرادت أن تؤكّد صدق ما أحسّته؛ بأن تعرض هذا الأمر على الرجل الخبير في الأديان، ﴿وَلَا يَنْبُئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤]، ﴿فَسْأَلُ بِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩]، فقالت له: يا ابن عم، اسمع من ابن أخيك. فقال: قل يا ابن أخي؛ ماذا حدث لك؟ فأخبره ﷺ بما جرى، وقصّ عليه القصّة كما حدثت، وما قاله له جبريل، فقال ورقة: أبشر، هذا الناموس الذي أنزله الله على موسى - هذا هو الوحي الذي أنزله على موسى، وعلى النبيين - يا ليتني فيها جذعاً إذ يخرجك قومك - أي: ليتني كنت شاباً في تلك الفترة أستطيع أن أقاوم

(١) حديث بدء الوحي سبق تخريجه ص ٢٩٨.

وأجاهد - ليتني كنت حيًّا؛ إذ يخرجك قومك، فأنصرك نصرًا مؤزرًا. فقال ﷺ ببراءة الإنسان المخلص: «أومُخرجي هم؟!» قالها متعجبًا، لماذا يخرجونه؟ جاءهم بالخير، بالهدى ودين الحق، هم يسمونني الأمين، ويقولون عني: كذا، وكذا! فقال: ما جاء رجل قط بمثل ما جئت به إلا عُودي^(١). ناصبه قومه العدا، هذه سنة الله في خلقه.

خديجة أول صوت ارتفع بتأييد محمد ﷺ :

وعاد ﷺ مع خديجة إلى بيته مطمئن الفؤاد بما قالت له خديجة، وما أكده له ورقة، فكانت خديجة أول صوت ارتفع بتأييد محمد ﷺ، وظلت هكذا طوال سنوات بعثته يُكذِّبُه قومه، ويقفون في وجهه، ويسبون أصحابه، ويصبون عليهم سياط العذاب، ويأتي الرسول ﷺ إلى بيته مهمومًا، محزونًا من شدة ما يلقي، ومن شدة ما يسمع، ومن شدة ما يقاسي أصحابه؛ فتربت خديجة على كتفه، وتطمئنه، وتقول له من الكلام ما يذهب عنه الهمَّ والغم، فينفرج ما به، وينشرح صدره، فكانت أنسه في وحشته، وكانت سفينته إذا ما اضطربت سفينة الحياة من حوله، هكذا كانت خديجة رضي الله عنها.

أولاده ﷺ من خديجة:

أنجبت خديجة من محمد ﷺ كل أولاده، إلا إبراهيم، أنجب النبي ﷺ أولادًا سبعة: أربع بنات، وثلاثة ذكور، اثنان من الذكور من خديجة، وواحد هو إبراهيم من مارية القبطية المصرية، التي أهداها إليه المقوقس والي مصر، وباقي أولاده من خديجة: القاسم وبه كان يكنى

(١) سبق تخريجه ص ٢٩٨.

النبي ﷺ، ويُنَادَى: يا أبا القاسم. وعبد الله، وكان يكنى الطيب والظاهر، وكلاهما ماتا في صغرهما، ماتا في الجاهلية قبل الإسلام، وهناك أربع بنات: رقية، وزينب، وأم كلثوم، وفاطمة صغرى بناته، وكلهن عشن وأسلمن وهاجرن مع النبي ﷺ.

مات الذكور صغارًا، وكان هذا حريًا أن يُحزن قلب خديجة، وأن تعيش حزينه على موت أبنائها الذكور، وهي تعلم أن محمدًا ليس له امرأة أخرى، وليس له إلا هؤلاء البنات، ولكنها كانت نعم المرأة الصابرة على ما أصابها.

حصار قريش للنبي وأصحابه في شعب أبي طالب:

عاشت خديجة رضي الله عنها مع النبي ﷺ على السراء والضراء، على العافية والبلاء، عندما دخل النبي وأصحابه مع بني هاشم وبني المطلب الشعب، حينما حاصرتهم قريش، وعزلتهم عن المجتمع، لا تباع لهم، ولا تشتري منهم، ولا تُزوّجهم، ولا تُزوّج منهم، مقاطعة ومحاصرة اقتصادية واجتماعية كاملة ظلت ثلاث سنين أكلوا فيها أوراق الشجر، لم يكن عندهم قمح، ولا ذرة، ولا شعير، ولا أي شيء، ففيت أزوادهم، ففيت الحبوب عندهم، وهم لا يستطيعون أن يشتروا من أحد، لا يبيع أحد لهم حَبًّا، فأكلوا أوراق الشجر، وبعض الشجر فيه شوك، فكانت تُجرح أفواههم، وتُدَمَى أشداقهم، وخديجة معه في ذلك، وهي ربة المال، وربيبه الرفاهية والتّعيم، ولكنها صبرت وصابرت، كما صابر النبي وأصحابه أجمعون.

وفاة خديجة:

وقد أثرت عليها هذه السنون، فبعد أن انتهت هذه الأزمة، وانفجرت هذه المحنة، وجاء اليُسر بعد العُسر: لم تُعمر خديجة رضي الله عنها إلا قليلاً، ثم

توفيت في السنة العاشرة من البعثة، وعمرها خمس وستون سنة، وعمر النبي ﷺ خمسون سنة، توفيت خديجة بعد وفاة أبي طالب عم النبي ﷺ الذي كان يدافع عنه، ويحميه من أذى قريش، وكانت قريش تعمل له حساباً، وترعى له اعتباره، وخصوصاً أنه لم يُسلم، وبقي على دينهم، فكان حامياً له طوال مدة السنوات العشر الماضية من الأذى في الخارج. وكانت خديجة درعه وملاذه في الداخل.

في أيام قليلة مات أبو طالب حاميه في الخارج بعد الله تبارك وتعالى، ومات بعده بأيام خديجة ملاذه وسكنه في داخل البيت، فسَمَّى النبي ﷺ هذا العام عام الحزن، أسفًا على موت زوجته خديجة، وموت عمه أبي طالب قبلها، سمَّاه عام الحزن، كان ذلك قبل رحلة الطائف، وقبل رحلة الإسراء والمعراج، وقبل أن تُفرض عليه الصلاة، وغسَّلت خديجة ﷺ وجهها أم أيمن حاضنة النبي ﷺ، والتي قال عنها: «أم أيمن أُمِّي بعد أمي»^(١). وشاركت في ذلك أم الفضل زوجة عمه العباس، وحينما أرادوا أن يدفنها نزل النبي ﷺ إلى حفرتها، ولم تكن شُرعت صلاة الجنازة بعد، فلم يُصلَّ عليها، لأنَّ صلاة الجنازة لم تُشرع إلا في المدينة.

ذِكْرُهُ ﷺ لخديجة:

هكذا توفيت خديجة ﷺ، ولكن ذكرها لم يزل يملأ حياة رسول الله ﷺ، ما نسيها قط، ظلت هذه المرأة الكبيرة السن الثيب عند رسول الله في ذاكرته، حتَّى إِنَّ عائشة ﷺ أم المؤمنين، وكانت أحب أزواج النبي ﷺ بعد ذلك، قالت: ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة، وما رأيتها قط، ولكن النبي ﷺ كان يذكرها دائماً، إذا خرج أو

(١) رواه ابن عساکر في تاريخ دمشق (٥١/٨)، عن سليمان بن أبي شيخ معضلاً.

دخل قال: «كانت خديجة كذا، وقالت كذا». وإذا ذبح الشاة وقسمها أجزاء قال: ابعثوا إلى فلانة: صديقة خديجة، وإلى بيت فلان. كانوا أصدقاء خديجة. حتى قلت له: كأنه لم تكن في الدنيا امرأة إلا خديجة؟! فقال: «إنها كانت، وكانت، وكان لي منها ولد»^(١).

وفي إحدى الروايات، وقد أكثر النبي ﷺ من ذكر خديجة، والمرأة هي المرأة، وإن كانت أم المؤمنين، والغيرة هي الغيرة، قالت له: ما تذكر من عجوز من عجائز قريش، حمراء الشدقين - أي سقطت أسنانها وبان شدقاها - هلكت في الدهر، قد أبدلك الله خيرا منها. فغضب النبي ﷺ وقال لها: «ما أبدلني الله خيرا منها؛ آمنت بي إذ كفر بي الناس، وصدقتني إذ كذبتني الناس، وواستني بنفسها ومالها إذ حرمني الناس». قالت عائشة: والله لا أذكرها بسيئة بعدها أبداً^(٢). هكذا كان النبي ﷺ وفيها لهذه المرأة التي عاش معها هذه السنين في حياته، عاش خمسا وعشرين سنة قبلها، وخمسا وعشرين سنة معها، وتوفيت وعمره حينها خمسون سنة.

خديجة المثل الصالح والأم الأولى:

هذه هي خديجة، الصديقة الكبرى، والأم الأولى للمسلمين، كانت ﷺ مثلاً صالحاً، بل مثلاً عالياً، تأخذ منه المؤمنات زاداً لحياتهن، تستطيع المرأة أن تتخذ من خديجة ﷺ أسوة وقدوة في حياتها، كما اتخذنا نحن الرجال أسوة من أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة، والزبير، وسعد بن معاذ، ومعاذ بن جبل،

(١) رواه البخاري في مناقب الأنصار (٣٨١٨)، عن عائشة.

(٢) رواه أحمد (٢٤٨٦٤)، وقال مخرجه: حديث صحيح. والطبراني (١٣/٢٣، ١٤)، وحسن إسناده.

الهيثمي في مجمع الزوائد (١٥٢٨١)، عن عائشة.

وغيرهم، تستطيع النساء أن يتخذن من نساء المؤمنين أسوة، وعلى رأس هؤلاء المؤمنات خديجة بنت خُوَيْلِدٍ رضي الله عنها.

لا عجب أن روى البخاري ومسلم: أن جبريل جاء إلى النبي ﷺ فقال له: «إِنَّ خَدِيجَةَ سَتَأْتِيكَ بِإِنَاءٍ فِي الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، فَإِذَا جَاءَتْكَ فَأَقْرئِهَا مِنْ رَبِّهَا وَمَنِي السَّلَامِ، وَبَشِّرْهَا بِبَيْتٍ فِي الْجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ لَا صَخَبَ فِيهِ وَلَا نَصَبَ»^(١). فلما جاءت خديجة أبلغها النبي ﷺ بهذه البشارة، أن الله يقرئها السلام، وكذلك يقرئها جبريل، وأنه يبشرها «ببيت في الجنة من قصب»، أي: من لؤلؤ مُجَوَّفٍ، ليس بيتًا من الحجارة، ولا من الطين، ولا من الأسمنت، ولا من الخشب، ولكنه بيت من اللؤلؤ المُجَوَّفِ، «لا صخب فيه ولا نصب»، ليس فيه ضوضاء، ولا أصوات مزعجة، ولا تعب ولا معاناة.

قال الإمام السهيلي: إِنَّمَا بُشِّرَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّ حَيَاةَ رَسُولِ اللَّهِ مَعَهَا كَانَتْ حَيَاةَ رَاحَةٍ وَسَكِينَةٍ وَطَمَآنِينَةٍ^(٢). لم يسمع صوتًا مزعجًا، لم ترفع صوتها يومًا على رسول الله ﷺ، ولم تتعبه في حياتها؛ بل كانت حياة راحة وسكينة مستمرة، فلذلك بُشِّرَتْ بهذا البيت الذي لا صخب فيه ولا نصب، كما كان بيتها مع النبي ﷺ بيتًا لا صخب فيه ولا نصب، رضي الله عن خديجة، ورضي الله عن أمهات المؤمنين، ورضي الله عن الصحابة أجمعين.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله تعالى لي ولكم فاستغفروه؛ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ، وادعوه يستجب لكم.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في مناقب الأنصار (٣٨٢٠)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٣٢)، عن أبي هريرة.

(٢) الروض الأنف (٢/٢٧٧).



الصَّديقة بنت الصِّديق (١)

الخطبة الأولى

أمَّا بعدُ، فيا أيُّها الإخوة المسلمون:

لا زال حديثنا متصلًا بأولئك الأخيار الميامين خير أجيال البشريَّة، خير أصحاب الأنبياء، لا زال حديثنا موصولًا عن صحابة محمد ﷺ، الذين قاموا بهذا الدين، وحملوا أعباءه، ونشروه في الآفاق، وعلموه للأمم، تحدثنا عن عدد من الرجال منهم، وبدأنا الحديث عن بعض النساء خصوصًا أمَّهات المؤمنين.

في الجمعة الماضية تحدثنا عن أم المؤمنين الأولى، عن الصَّديقة الكبرى، عن خديجة بنت خُوَيْلِدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، التي قال فيها النبي ﷺ: «كَمُلُ من الرجال كثير، وكَمُلُ من النساء: مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وخديجة بنت خُوَيْلِدٍ»^(٢). تحدثنا عن خديجة.

واليوم نتحدَّث عن أمٍّ أخرى من أمَّهات المؤمنين، هي أحب أمَّهات

(١) ألقيت في مسجد عمر بن الخطاب بالدوحة، بتاريخ ٨ يونيو ٢٠٠٧م.

(٢) ذكره ابن كثير في البداية والنهاية (٤/٣٢٣)، وعزاه لابن مردويه، وصحح إسناده.

المؤمنين بعد ذلك إلى رسول الله ﷺ، إنها الصديقة بنت الصديق، إنها عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنهما وعن أبيها.

عائشة هي الزوجة الوحيدة التي تزوجها النبي ﷺ بكرًا، كل أمهات المؤمنين، كل أزواج النبي ﷺ كن ثيبات تزوجن قبله واحدًا واثنين، وكثير منهن لهنّ أولاد من غير النبي ﷺ، أمّا البكر الوحيدة التي تزوجها النبي ﷺ فكانت عائشة.

نشأة عائشة:

وُلدت عائشة في الإسلام بعد بعثة النبي ﷺ بعدة سنوات، أربع سنوات أو خمس، وُلدت في بيت من أعظم بيوت المسلمين، هو البيت الثاني بعد بيت النبوة: بيت أبي بكر، وُلدت في رحاب هذا البيت وتلقنت الإسلام من أبيها، أخذت القرآن من فم أبي بكر الذي أخذه من رسول الله ﷺ، وكانت بحسن ذكائها ووعيتها وقوة ذاكرتها تلتقط كل شيء.

نشأت هذه النشأة الإيمانية الربانية، وقصّت علينا قصصًا لم يروها غيرها مثل قصة الهجرة، وكيف جاء أبو بكر إلى النبي ﷺ في ظهيرة أحد الأيام يُخبره أنّ الله أذن له بالهجرة، وقال له أبو بكر: الصحبة يا رسول الله؟ قال: «الصحبة». وحكت القصة^(١).

خطبها النبي ﷺ قبل الهجرة، ولكنه لم يدخل بها إلا بعد الهجرة حينما بلغت تسع سنوات، وكان جسمها ناميًا رابيًا، أرادت خولة بنت حكيم بعد موت خديجة رضي الله عنها أن تعرض على النبي ﷺ أن يتزوج؛ فقد

(١) رواه البخاري في البيوع (٢١٣٨).

بقي مدّة بلا امرأة، فقالت له: ألا تتزوَّج يا رسول الله؟ قال: «ومَنْ؟» قالت: إن شئت بكراً وإن شئت ثيباً. قال: «مَنْ الثيب وَمَنْ البكر؟» قالت: الثيب سودة بنت زمعة، آمنت بك وصدقتك، والبكر بنت أحب الناس إليك أبي بكر. فقال: «اذكريني عندهما». ففعلت، ووجدت ترحيباً، ولكن النبي ﷺ عجل بالزواج من سودة^(١)، وكانت امرأة كبيرة السن، ولكنها من أهل الصلاح والإيمان.

ثم خطب النبي ﷺ عائشة، ولكنه لم يدخل بها إلا بعد الهجرة إلى المدينة، وبعد غزوة بدر، أي في السنة الثانية من الهجرة، وكانت قد أكملت تسع سنوات أي: أنها بقيت مع النبي ﷺ أقل من تسع سنوات، ثمانية سنوات وأشهرًا.

ولله حكمة في أن تكون هذه المرأة صغرى نسائه عليها السلام، فقد كانت عندها قدرة على الالتقاط والاستيعاب تستطيع أن تروي بعد ذلك من حياة رسول الله ﷺ، هذه السنوات الثماني والأشهر وعتها عائشة رضي الله عنها، وروثها للأمة بعد ذلك، وكان معظم ما ترويه لا يشاركها غيرها فيه، كان كثير من الصحابة يروون الحديث الواحد، ولكنها من المكثرات من الرواية عن النبي ﷺ.

من المعروف أن الصحابة منهم سبعة من المكثرين من الرواية عن رسول الله ﷺ. ويقصدون بالمكثرين الذين روى أحدهم أكثر من ألف حديث عن النبي ﷺ، وهم ثلاثة من المهاجرين، وثلاثة من الأنصار، المهاجرون: عبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وعائشة؛ والأنصار:

(١) رواه أحمد (٢٥٧٦٩)، وقال مخرّجوه: إسناده حسن. وحسن إسناده الحافظ في فتح الباري (٢٢٥/٧).

أنس بن مالك، وجابر بن عبد الله، وأبو سعيد الخدري؛ ومن غير المهاجرين والأنصار: أبو هريرة أكثر الناس حديثاً عن رسول الله ﷺ.

كانت عائشة لصغر سنها وقدرتها على الحفظ والاستيعاب تروي عن رسول الله ما لا يرويه غيرها، وظلت بعد النبي ﷺ إلى سنة ٥٦، أو ٥٧ أو ٥٨ من الهجرة - اختلفوا في ذلك - تروي عن رسول الله، وتُفتي في دين الله، كانت من المفتيات، فكأنَّ الله حكمة أن يتزوَّج النبي هذه الفتاة الصغيرة.

دخل بها النبي ﷺ وهي فتاة أشبه بأن تكون طفلة، قصَّت علينا قصة زواجها برسول الله، أنَّها كانت تحب اللعب، وكانت تلعب على أرجوحة مع صُويحباتها، ففوجئت بأُمِّها تصرخ فيها، فجاءتها وهي تنهج، فأخذتها إلى نسوة من الأنصار فأصلحن شعرها ومن هيئتها، وألبسناها ما يليق بها، وقالوا لها: على بركة الله، وعلى خير طائر. ففهمت أنَّها ستتزوج.

وبعد أن أصلحن شأنها إذا برسول الله ﷺ يدخل عليهن فيباركن له، ويتركه مع زوجته، ويلطفها النبي ﷺ ويدخل بها، ويعاملها معاملة تليق بسنها، أنَّها كانت فتاة صغيرة، كان يُسرَّب إليها صويحباتها ليلعبن معها ويؤنسنها، وكان إذا دخل عليهن النبي ﷺ وهنَّ يلعبن بالبنات - أي دُمى العرائس - انقمعن أو خفن، ولذلك قالت: اقدروا قدر الفتاة الحديثة السن الحريصة على اللهو. توصي وتنصح الآباء والأمهات أن يراعين السنَّ، ولا يعاملن الفتاة الصغيرة كما يعاملن المرأة الكبيرة، ولذلك كان النبي ﷺ يراعي هذا فيها، يريها الحبشة وهم يلعبون في مسجده بالحِراب: يرقصون بالحِراب في المسجد في يوم العيد، ويقول لها: «تشتهين تنظرين؟» فتقول: نعم. فيصعدها على كتفه وتنظر من وراء كتفه

إلى الحبشة، وهم يلعبون حتى تملّ هي. وتقول: حَسْبُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ^(١). هكذا كان النبي ﷺ يرضى سنّها الصغير، ويعاملها هذه المعاملة.

محبة النبي لعائشة:

وقد أصبحت أحبّ أزواجه إليه، لا لوضاءتها وحسنها فقط، ولكن لذكائها، ولحرصها، ولفصاحتها، ولمعرفتها بأشعار العرب، وآداب العرب، وأيام العرب، أخذت ذلك عن أبيها، كان أبو بكر مشهورًا بذلك عند الصحابة رضوان الله عليهم.

كان النبي ﷺ يعايش عائشة هذه المعيشة، وقد لاحظت أمّهات المؤمنين ذلك فغرنّ منها، هكذا طبع النساء إذا وجدوا إحداهنّ قريبة إلى قلب زوجها أكثر من الأخريات لا بدّ أن تأخذنّ الغيرة، فأرسلن فاطمة بنت رسول الله ﷺ إليه يسألنه العدل مع بنت أبي قحافة: عائشة، ومعهن، فلمّا ذهبت فاطمة وأخبرته قال لها: «يا بني، أتحبين ما أحب؟» قالت: نعم. قال: «فأحبي هذه»^(٢). فرجعت إليهن وأخبرتهن بما قال النبي ﷺ، فقلن لها: ما أغنيتي عنا شيئًا.

وبعثن بزینب بنت جحش إلى النبي ﷺ. وقالت عائشة: كانت زينب بنت جحش هي التي تساميني من أمّهات المؤمنين^(٣)، كانت هي التي تنافسها من ناحية الحُسن والجمال، ولأنّها ابنة عمّة النبي ﷺ، ولأنّ الله زوّجها من فوق سبع سماوات، كانت تقول لأزواج النبي ﷺ: زوّجكن

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٠٧)، ومسلم في صلاة العيدين (٨٩٢)، عن عائشة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الهبة (٢٥٨١)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٤٢)، عن عائشة.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في المغازي (٤١٤١)، ومسلم في التوبة (٢٧٧٠)، عن عائشة.

أباؤكن وأهلكن، وزوّجني الله من فوق سبع سماوات^(١). وكان النبي قد زوّجها أوّل الأمر من حبّه ومولاه زيد بن حارثة، فلم تستقم العشرة بينهما، وأخبره الله أنّ زيدًا سيطلقها وأنّه سيزوّجها له، وأخفى في نفسه هذا الأمر؛ لما له من وقع شديد على النّاس، وعاتبه الله على ذلك فقال: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَخُفِيَ فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطْرًا زَوَّجْنَاكَ لِلْكِفَايَةِ لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطْرًا﴾ [الأحزاب: ٣٧]. فزوّج الله زينب لرسول الله.

وكانت عائشة أيضًا تباهي بأنّ النبي ﷺ قبل أن يتزوجها أتاه جبريل في رؤيا وأراه صورتها في سرقة من حرير، أي في قماشة من حرير، فيكشفها ثلاث مرات؛ فيجد صورة عائشة، ثمّ يقول: «إن يكن في ذلك خير يمضيه الله وحبك»^(٢). هكذا أيضًا زوّجت عائشة برؤيا، ولكن زينب زوّجت بوحي من القرآن الكريم، وكانت زينب امرأة تقيّة صادقة، محبّة للخير، تتصدّق على الفقراء والمساكين.

المهم أنّ نساء النبي أرسلن زينب إلى النبي ﷺ بعد أن أرسلوا إليه فاطمة يسألنه العدل مع ابنة أبي قحافة، وتكلمت واستطالت على عائشة في الكلام، واستأذنت عائشة النبي ﷺ بالإشارة أن ترد عليها وتنتصر لنفسها؛ فأشار إليها، فردّت عليها فأفحمتها^(٣).

(١) رواه البخاري في التوحيد (٧٤٢٠)، عن أنس.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في مناقب الأنصار (٣٨٩٥)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٣٨)، عن عائشة.

(٣) سبق تخريجه ص ٣١٠، وفيه: «يا بني، أتحبين ما أحب؟».

وهكذا كان النبي ﷺ يعيش مع هذا المجتمع الأسري، تسع نساء لكل واحدة مزاج خاص وطبع خاص، هذه قرشية، وهذه هلالية، وهذه أسدية، وهذه إسرائيلية صفية بنت حبي. وكانت عائشة تقول: كان نساء النبي حزبين: حزب يضم عائشة وحفصة وصفية وسودة، والحزب الآخر يضم أم سلمة وزينب وسائر نساء النبي ﷺ^(١). هكذا كانت الحياة، وكان النبي يعيش في هذه الحياة عيشة الإنسان السوي.

ولذلك نحن نقول: إن سيرة النبي ﷺ ليست سيرة عادية، إنها سيرة فيها متسع لكل من يقتدي بالرسول، من تزوج واحدة يقتدي بالرسول أيام خديجة، ومن تزوج بأكثر من واحدة يقتدي به بعد ذلك، زوج البكر يجد في حياته أسوة، وزوج الثيب يجد في حياته أسوة، زوج الصغيرة وزوج العجوز يجدان في حياته أسوة، وهكذا.

كان النبي يعيش مع نسائه هكذا يحاول أن يعدل بينهن ما استطاع، وفي وقت من الأوقات ضاق نساؤه ذرعًا بالمعيشة التي يعشنها، كانت معيشة فيها الكثير من الشظف والخشونة، حتى قالت عائشة رضي الله عنها لابن أختها أسماء عروة بن الزبير: إن كان ليمر الهلال ثم الهلال ثم الهلال، ثلاثة أهلة في شهرين وما يوقد في بيت رسول الله ﷺ نار. لا يطبخون، وإنما يأكلون ما تيسر من أقراص الخبز والتمر ونحوهما. قال لها عروة: فعلام كنتم تعيشون يا خالة؟ قالت: إنما هما الأسودان: التمر والماء^(٢). كان التمر أقل شيء عند العرب، حينما وجدوا خبزًا يعتبرون أنفسهم في رفاهية. إنما هما الأسودان: التمر والماء، التمر أسود، والماء أسود لأنه ماء آبار، من ينظر في البئر يرى لون الماء أسود.

(١) رواه البخاري في الهبة وفضلها (٢٥٨١)، عن عائشة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الهبة (٢٥٦٧)، ومسلم في الزهد (٢٩٧٢).

وقالت: ما شبع رسول الله ﷺ من خبز مأدوم ثلاثة أيام^(١). لم يحصل على خبز مغموس بأي شيء: بالزيت أو بالخل وغيره ثلاثة أيام، هكذا كان النبي ﷺ.

ماذا كان فراش النبي ﷺ حينما دخل بعائشة، بعروسه الحسناء؟ إنما كان فراشه أدمًا حشوه ليف، أي جلدًا محشواً بليف النخل. أحياناً ينام على الحصير حتى يؤثر في جنبه، دخل عمر رضي الله عنه يوماً في بيته ﷺ عند عائشة فوجد الحصير قد أثر في جنبه فبكى عمر، فقال له النبي ﷺ: «ما يبكيك يا عمر؟» قال: يا رسول الله، كسرى وقصر ينامان على الديباج والإستبرق وأنت رسول الله ﷺ وخيرته من خلقه تنام على الحصير حتى يؤثر في جنبك! قال: «يا عمر، أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟»^(٢) «ما لي وللدنيا؟ إنما مثلي ومثل الدنيا كمثل راكب في يوم صائف قال تحت شجرة - نام القيلولة - في ساعة من النهار، ثم راح وتركها»^(٣). الدنيا محطة استراحة، مقليل يقيل فيها الإنسان ثم يدعها، هكذا كان بيت عائشة.

لم تكن حياة النبي ﷺ مع عائشة، ولا مع سائر أزواجه حياة النعيم والترف؛ بل حياة الشظف والزهد والخشونة، حتى إن أزواجه اشتكين من هذه الحياة، وخصوصاً بعدما فتح الله عليه، وأصبحت الغنائم تأتيه، فاجتمع النسوة على ما بينهن من تنافس يطالبن الرسول ﷺ بزيادة النفقة، لقد أصبح سيّد الجزيرة، فما له لا يوسع عليهن في الطعام والشراب واللباس والأثاث، كما يصنع زعماء العرب؟!

(١) رواه مسلم في الزهد (٢٩٧٠)، وأحمد (٢٤١٥١).

(٢) رواه أحمد (١٢٤١٧)، وقال مخرّجوه: إسناده حسن. عن أنس.

(٣) رواه أحمد (٤٢٠٨)، وقال مخرّجوه: صحيح. والترمذي (٢٣٧٧)، وقال: حسن صحيح. وابن

ماجه (٤١٠٩)، كلاهما في الزهد، عن ابن مسعود.

اجتمعن وطالبنه بالنفقة، فهجرهنَّ النبي ﷺ شهراً من الزمن، كما يقول العلماء: هذا نوع من الزجر بالهجر. نوع من التأديب، ثمَّ أنزل الله عليه آيات التخيير في سورة الأحزاب: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسْرِحْكِنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا * وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالِدَارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٨، ٢٩]. خيَّرن بين أمرين: إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها، أو زيادة النفقة وعيشة الأمراء والملوك، فتعالين أعطيكن المتعة وأسرحكن سراحاً جميلاً، كل واحدة تعود إلى بيت أبيها، ﴿وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالِدَارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

أمر بتخيير نسائه، وبدأ بعائشة، وقال: «إِنِّي عَارِضٌ عَلَيْكَ أَمْرًا أَرْجُو أَلَّا تَتَعْجَلِي فِيهِ حَتَّى تَوَاسِي فِيهِ أَبُوِي». تستشيرني أبويك، وقرأ عليها الآيات، فقالت: أفيك أوامر أبوي يا رسول الله؟ لقد اخترت الله ورسوله والدار الآخرة، كلمة حاسمة. ثمَّ قالت: ولا تخبر أحداً من نسائك بما اخترته؛ أي: لا تقل لهم: إنَّ عائشة اختارت الله ورسوله والدار الآخرة. كأنها تمتت ألا يخترن الله ورسوله والدار الآخرة، وأن يفرغ لها رسول الله فيكون لها وحدها، هذه طبيعة الأنثى، فقال لها النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَبْعَثْنِي مُعْتَنًّا وَلَا مُتَعْتَنًّا، وَلَكِنْ بَعَثَنِي مُعَلِّمًا مُسَيَّرًا». بالعكس سأخبرهنَّ لأغريهنَّ بأن يخترن الله ورسوله والدار الآخرة. واختار كل نساء النبي ﷺ الله ورسوله والدار الآخرة^(١).

ولذلك كُنَّ نساءه في الدنيا، ونساءه في الآخرة، وحرَّم الله على رسوله أن يتزوَّج غيرهن، ولا أن يُبدل واحدة بواحدة. هكذا كانت نساء النبي يعشن معه في هذه الحياة.

(١) رواه مسلم في الطلاق (١٤٧٨)، وأحمد (١٤٥١٥)، عن جابر.

وكان من صفات عائشة أنّها شديدة الغيرة، ولا تطيق أحدًا يشاركها في رسول الله ﷺ، إلا ما يقتضيه أدنى حدّ من العدل، كانت تحب أن يكون رسول الله لها وحدها، ولها في ذلك أحداث من الغيرة الشديدة، وكانت لها طُرف ولطائف مع ضرّاتها.

من ذلك أنّها صنعت حريرة للنبي ﷺ، وهي دقيق بسكر وسمن ونحوه، فصنعها له، وجاءت سودة بنت زمعة، وهي الزوجة الثانية بعد خديجة وقبل عائشة، كانت موجودة، فقالت لها عائشة: كُلي. قالت: لا آكل. قالت: لتأكلنّ أو لألطننّ بها وجهك. فقالت: لا آكل. فأخذت عائشة الحريرة ولطخت بها وجهها، والنبي يضحك^(١). هكذا كان نساء النبي ﷺ، وهكذا كانت غيرة عائشة.

وكان النبي يُطيب خواطرهنّ، يمازحهنّ، يسمع أحاديثهنّ، وخصوصًا أحاديث عائشة. حدثته عائشة بأحاديث النسوة الاثنتي عشرة، كل واحدة تتحدّث عن زوجها، واحدة تقول: زوجي لحم جمل غثّ على رأس جبل وعر، لا سهل فيرتقى ولا سمين فينتقل. وواحدة تقول: زوجي إذا دخل فهد، وإذا خرج أسد، ولا يسأل عما عهد. إلى آخره، وأفاضت في أم زرع وموقف أبي زرع منها، ولكنّه في النهاية طلقها، فقال لها النبي ﷺ: «كنت لك كأبي زرع لأم زرع»^(٢). وفي رواية: «إلا أنّه طلقها وإنّي لا أطلقك»^(٣). هكذا كان يسمع هذه القصص، أحاديث طويلة.

(١) رواه النسائي في عشرة النساء (٨٨٦٨)، وأبو يعلى (٤٤٧٦)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧٦٨٣): رواه أبو يعلى، ورجاله رجال الصحيح، خلا محمد بن عمرو بن علقمة، وحديثه حسن. وحسنه الألباني في الصحيحة (٣١٣١).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في النكاح (٥١٨٩)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٤٨).

(٣) من رواية «الزبير بن بكار» كما ذكر الحافظ في فتح الباري (٢٧٥/٩).

حادثة الإفك:

وفي أسفاره كان يسمع إلى حديث عائشة، يُعجب بحديثها وسمرها، إلى أن حدثت حادثة عظيمة في الإسلام، غيّرت ما بين الزوجين: الرسول، وعائشة، هذه الحادثة - أيها الإخوة - المعروفة بحادثة الإفك.

كان النبي ﷺ إذا أراد سفرًا أقرع بين نسائه، أي عمل قرعة بينهن، فأيتهن أصابت القرعة خرجت معه، وفي غزوة بني المصطلق، كانت القرعة من نصيب عائشة فخرجت معه في هذه الغزوة.

وحينما أراد الناس أن يعودوا بعد الغزوة إلى المدينة أذنوا بالرحيل: تهيؤوا للعودة. فأرادت عائشة أن تقضي حاجتها قبل أن تركب جملها أو راحلتها، واعتاد العرب أن يذهبوا إلى الصحراء ليقضوا حاجتهم، ثم شاء الله أن ينفرط عقدها، وكانت قد أخذته من أختها أسماء وتعزز به، فبدأت تجمع حباته؛ فتأخرت عن الجيش.

وحينما أراد الجيش أن يرحل حملوا هودج عائشة، وهو الذي يُوضع فوق الجمل أو الناقة، وتركب فيه المرأة، قالت: وكان النساء خفافاً لا يُثقلهن اللحم. كان أكلهن بسيط؛ فما سمت النساء، فلم يشعر القوم بأنّ الهودج ينقصه شيء، اعتبروا أن عائشة موجودة فيه، ووضع الهودج فوق الجمل وساروا، ولم يشعروا أن صاحبة الهودج ليست فيه.

وقضت عائشة حاجتها، وجمعت حبات عقدها، وعادت إلى المنزل التي كانت فيه فلم تجد أحداً، وجدت القوم قد رحلوا، فماذا تفعل؟ سلّمت أمرها إلى الله، وجلست في مكانها، قالت: لعلّ القوم بعد فترة من الزمن يفتقدونني فيعودون إليّ، أبقى في مكاني ولا أغادره، وبقيت.

وبعد مدة من الزمن أخذتها سنة من النوم، فلم تشعر إلا وصوت يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون. فنظرت رجلاً وقد أوشك الصباح على الشروق، فإذا هو صفوان بن المعطل السلمي، وكان يراها قبل الحجاب، وهو من أصحاب النبي ﷺ، قالت: والله ما سمعت منه كلمة غير الاسترجاع، رأى عائشة وعرف أنها زوج النبي ﷺ فأناخ لها راحلته، وقاد الناقة، هي فوق الناقة وهو يسحبها، وظل هكذا حتى وصل إلى الجيش في الضحى.

أقبل صفوان والناس وقوفاً، ورأى عبد الله بن أبي بن سلول رأس النفاق هذا المشهد، فقال: عائشة وصفوان بن المعطل، والله ما نجا منها ولا نجت منه! وظل يشيع هذا القول في المدينة عن أم المؤمنين رضي الله عنها، ولاك ذلك بعض الصحابة بألسنتهم، مثل حسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة، الذي كان ابن خالة أبي بكر، وكان يُنفق عليه ويحسن إليه، وامتلات المدينة بهذا الإفك.

ولم تكن عائشة رضي الله عنها تعرف عن هذا الأمر شيئاً، لقد عادت مريضة من هذه الرحلة، ولزمت فراشها، كل ما تراه أن النبي ﷺ يدخل عليها ويقول: «كيف تيكم؟» يعني: كيف حال هذه؟ لا يخاطبها فيقول: كيف أنت؟ وهي لا تدري ماذا جرى؟ لا تعرف الحديث الذي ينتشر في المدينة انتشار النار في الهشيم، حتى خرجت يوماً مع أم مسطح لقضاء حاجتها في الخلاء، فعثرت أم مسطح فقالت: تعس مسطح. فقالت لها: كيف تقولين هذا عن رجل من أصحاب النبي ﷺ شهد بدرًا؟ فقالت: إنك لا تعرفين شيئاً. قالت: وماذا أعرف؟ قالت: إن مسطحاً مع أصحاب له قالوا: كذا وكذا.

هنا فوجئت عائشة بهذا الهول؛ فبكت طويلاً، وعادت إلى النبي ﷺ، وعرفت سرَّ إعراض النبي عنها، وقالت: يا رسول الله، أستأذنك في أن أذهب إلى بيت أبيي. فأذن لها، وتحدثت مع أمها: ماذا يجري يا أماه؟ ماذا يقول الناس؟ فقالت لها: يا بنية، هوني عليك، إنَّه لم تكن امرأة وضيئة يحبها زوجها، ولها ضرائر إلا أكثر الناس الحديث عنها. فعرفت بالقصة وبقيت في بيت أبيها.

ثم جاء النبي ﷺ وقال لها: «يا عائشة، إن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه؛ فإنَّ الله يتوب على من تاب، وإن كنت صادقة فإنَّ الله سيبرِّئك». فقالت: ماذا أقول؟ لو كنت صادقة وقلت: إنني بريئة. فلن تصدقوني لما سمعتم من كلام النَّاس، ولكنني أدع الأمر لله وعجلي، وأقول ما قال أبو يوسف. تقول: نسيت اسم يعقوب، أقول ما قال أبو يوسف: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]. وسلَّمت أمرها لله.

وما هي إلا أن جاء الخبر من السماء بتبرئة عائشة رضي الله عنها، عشر آيات من سورة النور تبرئ عائشة من هذا الإفك، من هذا الكذب المُخْتَلَق على أظھر امرأة: زوج النبي ﷺ، وبنت أبي بكر، وعلى رجل طاهر مُطَهَّر من أصحاب النبي ﷺ، لم يُعرف عنه شيء من الخنا طول حياته، جاءت الآيات الكريمة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا نَحْسَبُهُمْ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١١]، الذي تولى كبر هذا الأمر هو عبد الله بن أبي راس المنافقين، ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النور: ١٢، ١٣]،

﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ﴾
[النور: ١٦]، إلى آخر الآيات الكريمة، برّأها الله من فوق سبع سماوات.

قالت عائشة: كنت أظنُّ أنّ الله لن يتخلى عني، ولكن كنت أحسب أنّ الله سيري رسوله رؤيا في المنام يعرف منها براءتي، ولكن أن ينزل فيّ وحيّ وقرآن يُتلى ما كنت أحسب هذا. أنزل الله فيها قرآنا يُتلى ويُبرّؤها من فوق سبع سماوات. قالت لها أمها: قومي إلى رسول الله فاحمديه. قالت: والله ما أقوم إليه، إنّما أحمد الله عز وجل الذي برّأني^(١). هكذا كانت عائشة رضي الله عنها.

الحديث عن عائشة يطول، كنت أحسب أنّ هذه الخطبة ستكفي للحديث عن أم المؤمنين الصديقة بنت الصديق رضي الله عنها، ولكن لا بدّ لنا من خطبة أخرى نُجلي فيها مآثرها ومواقفها، ومفاخرها وعلمها، وخدمتها لهذا الدين رضي الله تبارك وتعالى عنها.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله تعالى لي ولكم فاستغفروه؛ إنّهُ هو الغفور الرحيم، وادعوه يستجب لكم.

* * *

(١) حديث الإفك متفق عليه: رواه البخاري في الشهادات (٢٦٦١)، ومسلم في التوبة (٢٧٧٠)، عن عائشة.

الخطبة الثانية

أمّا بعدُ، فيا أيُّها الإخوة المسلمون:

ذكرى نكبة ١٩٦٧م:

تمرُّ بنا هذه الأيام ذكرى مريرة، ذكرى أليمة، ذكرى أسيفة حزينة هي ذكرى الخامس من (حزيران/يونيو) ١٩٦٧م. لعلَّ الكثيرين ممَّن أراهم أمامي - ومعظمهم شباب - لم يكونوا قد وُلدوا أيام حدوث هذه النكبة، سميتها في أحد كتبي (النكبة الثانية)، لأنَّهم سموها (النكسة)، أي أنَّهم كانوا منتصرين قبل ذلك، ولكنَّهم انتكسوا هذه المرة، وهذه ليست حقيقة، فما كسب العرب حربًا قبل ذلك، أوَّل حرب كسبها العرب كانت حرب العاشر من رمضان ١٣٩٣هـ. انتصروا انتصارًا جزئيًّا على قدر إيمانهم في ذلك الوقت، سميتها النكبة الثانية.

كانت النكبة الأولى سنة ١٩٤٨م. حينما قامت دولة إسرائيل، وكان العرب قد رفضوا قرار التقسيم سنة ١٩٤٧م. ثمَّ قامت دولة إسرائيل على أكثر ممَّا أعطها قرار التقسيم، أخذت فلسطين، شرَّد أهلها بعد المجازر الهائلة التي قذفت الرعب في قلوب الفلسطينيين في دير ياسين وغيرها، حينما بقروا بطون الحوامل وظلُّوا يتضاحكون، أخرجوا الأجنَّة من بطون أمهاتها وهم يتضاحكون ويلعبون، وامتلات قلوب الناس رعبًا فتركوا ديارهم واحتلَّ اليهود هذه الديار، كانت هذه النكبة الأولى.

وكانت النكبة الثانية سنة ١٩٦٧م. هي احتلال ما بقي من فلسطين كل فلسطين: غزة، والضفة الغربية، والقدس الشريف على رأس الضفة،

والجولان، وسيناء، وجزء من لبنان، ومن الأردن. في ضربة واحدة استطاعت إسرائيل أن تأخذ هذا كله، يسمونها (حرب الأيام الستة).
والحقيقة أنّها حرب الساعات الست، لم تستغرق الحرب ستة أيام، بانت الحرب من الساعات الأولى وما بقي من أيام تصفيات، حينما ضرب الطيران المصري في المطارات والطائرات في مواقعها لم تطر ولم تحلق، وأصبحت الجيوش البرية في صحراء سيناء، الجيوش التي قال بعضهم: إنّها كانت تسد عين الشمس.. أصبحت بلا غطاء مكشوفة، ولذلك صدرت الأوامر بالانسحاب.

وكان انسحابًا بلا انتظام، حتّى إنّ الجنود ما كانوا يكلفون خواطهم أن يشعل أحدهم النار.. عود ثقاب في الدبابة أو المركبة، لالي ولا لأعدائي، ولكن كان كل منهم يقول: النجاة النجاة. فتركوا المصفحات والمجنزرات غنيمة باردة، ولقمة سائغة للعدو.

كانت مصيبة كبرى، كانت نكبة عظيمة، حتّى قال الرئيس عبد الناصر في مجلس الشعب في ذلك الوقت في ذكرى ٢٣ يوليو: إنّ الطريق إلى القاهرة كان مفتوحًا، لو أرادت إسرائيل أن تصل إلى القاهرة وإلى دمشق لفعلت. هكذا صرّح الرجل بعبارة.

هكذا أخذت إسرائيل ما بين القنطرة والقنيطرة، ومن يومها إلى يومنا هذا كل ما فعلته إسرائيل أنّها حاولت أن تخرج مصر من المعركة فصالحتها على الجلاء من سيناء لتكسب من وراء ذلك إخراج أكبر قوة عربية ضاربة من المعركة، هذا كسب كبير لإسرائيل، لا مانع أن تتنازل عن سيناء حتّى تخرج مصر نهائيًا من المعركة، تكون مصر وسيطًا كما نراها الآن تتوسّط بين الفلسطينيين وغيرهم، لكن ليست شريكًا استراتيجيًا للفلسطينيين، هكذا فعلت إسرائيل أيّها الإخوة.

لا زلنا نعاني منذ وقعت النكبة الثانية. كانت سياسة العرب قبل ١٩٦٧م. أن إسرائيل باطل قام على باطل، على اغتصاب وظلم يجب ألا يبقى، ثم أصبحت فلسفة السياسة العربية بعد ١٩٦٧م. إزالة آثار العدوان، أي: عدوان حزيران ١٩٦٧م. تركّز هدف العرب في هذا الأمر، كأنّ عدوان ١٩٤٨ سُكت عنه، أصبح أمرًا مقبولًا، كأنّ هذا العدوان الجديد أضفى الشرعية على العدوان القديم.

كان هذا من آثار هذه النكبة، ولينا وصلنا إلى هذا الأمر، حتّى العودة إلى حدود ٤ يونيو ١٩٦٧م. لم نحصل عليها، أربعون عامًا إلى اليوم وفلسطين مكبّلة بالأغلال، والقدس تعاني من نير الاحتلال، وأصبح اليهود يعبثون بنا، بمقدّراتنا، بمقدّساتنا الإسلامية والمسيحية، يضيقون على أهل القدس حتّى يخرجوا من ديارهم، حتّى يرحلوا ويهجروا المدينة وينفرد اليهود بها، القرارات الظالمة، والإجراءات المتعسّفة تجري في القدس، كما يحدث في فلسطين الحصار الظالم لتجويع الشعب الفلسطيني إلى اليوم؛ ليركع ويخنع ويسجد لهؤلاء، ولكن الشعب لم يقبل أن يركع ويسجد إلاّ لله وَعَجَّلْ.

ماذا صنع العرب؟ وماذا صنع المسلمون؟ للأسف قدّم الفلسطينيون الشهداء، قدموا المّعوقين والمّعوقات، قدّموا البيوت المهدمّة، قدّموا الأشجار المقلوعة، قدّموا المدارس المهدمّة، قدّموا الجدار العازل.. يعزل به العدو بين قراهم بعضها وبعض، قدّموا وقدّموا، قدّموا الآلاف من الضحايا، والآلاف من السجناء والمعتقلين في سجون الصهاينة، فماذا قدّمنا نحن أيّها الإخوة؟

إنّ المطلوب من العرب كل العرب مسلميهم ومسيحييهم، وكل المسلمين عربهم وعجمهم، وكل الأحرار والشرفاء في العالم، مطلوب من هؤلاء جميعًا أن يقفوا مع الحق في وجه الباطل المتجبر الظالم.

الَّذِي جَرَّأَهُمْ عَلَى أَنْ يَفْعَلُوا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ: ما يروونه من انقسام فلسطيني، ما يروونه من عجز عربي، ما يروونه من وهن إسلامي، ما يروونه من تخاذل وتواطؤ أوروبي، ما يروونه من غياب عالمي، ما يروونه من هذا كله مع العدوان الصهيوني المستمر، والتأييد الأمريكي المستمر، وهو تأييد عسكري، وتأييد سياسي، وتأييد اقتصادي، تأييد في كل شيء جرّأهم أن يفعلوا بنا الأفاعيل.

ولكن لا يجوز لنا نحن العرب ونحن المسلمين إلا أن نقف بجوار إخوتنا بالأنفس والنفائس، بالغالبي والرخيص، نمدهم بما نستطيع من العون المادي، والعون الأدبي، والعون السياسي، والعون الروحي.

نريد من العرب أن يستفيدوا من هذا الدرس، ويصطلحوا على الله وَعَلَىٰ، ويغيروا ما بأنفسهم حتى يغير الله ما بهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

نريد من العرب أن تتحد كلمتهم بدل أن يعادي بعضهم بعضاً ويقاوم بعضهم بعضاً، نريد من هذه الأمة أن تقف صفاً واحداً، عند المعركة لا مجال لاختلافات، ولا مجال لتنازعات، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُم بَيْنَهُمْ مَرَّضُونَ﴾ [الصف: ٤].

اللهم أكرمنا ولا تهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وزدنا ولا تنقصنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وارض عنا وأرضنا، اللهم هيئ لنا من أمرنا رشداً، اللهم رحمتك نرجو؛ فلا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا أقل من ذلك، وأصلح لنا شأننا كله، لا إله إلا أنت.



الصَّديقة بنت الصَّديق (٢) (١)

الخطبة الأولى

أمَّا بعدُ، فيا أيُّها الإخوة المسلمون:

لا زال حديثنا متصلًا عن الجيل العظيم، الجيل الربانيِّ القرآنيِّ المُحمديِّ، جيل الصحابة رضوان الله عليهم، وقد انتهينا إلى أمهات المؤمنين، تحدثنا عن خديجة، وتحدثنا عن عائشة، ولم نكمل الحديث عنها رضي الله عنها.

كانت عائشة الزوجة البكر الوحيدة التي تزوجها النبي صلى الله عليه وآله ولم تتزوج أحدًا قبله، كانت بكرًا، وكانت صغيرة، وكانت جميلة، ولكن لم يكن هذا فقط هو الذي حبَّبها إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، ولكن شخصيَّتها، حيويَّتها، ذكاؤها، حرصها على أن تفهم وأن تتفقه وأن تتعلم، هذه كلها صفات جعلتها حبيبة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله.

أحب الناس:

سأل عمرو بن العاص رضي الله عنه النبي صلى الله عليه وآله: أيُّ الناس أحب إليك يا رسول الله؟ فقال: «عائشة». قال: ومن الرجال؟ قال: «أبوها» (٢).

(١) ألقيت في مسجد عمر بن الخطاب بالدوحة، بتاريخ ٨ يونيو ٢٠٠٧م.

(٢) متَّفَق عليه: رواه البخاري في أصحاب النبي (٣٦٦٢)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٣٨٤).

أبو بكر، وقال الزهري: أوّل حب في الإسلام حب الرسول لعائشة رضي الله عنها ^(١). وكان مسروق بن الأجدع الفقيه التابعي المعروف يقول: حدثني الصّديقة بنت الصّديق، حبيبة رسول الله، المبرّاة من السماء عائشة رضي الله عنها: كذا وكذا وكذا ^(٢). هكذا أحب النبي صلى الله عليه وسلم عائشة.

وقد تحدثنا عن غيرة أمهات المؤمنين، بطبيعة المرأة وطبيعة البشر من هذا الأمر، وكان أيضاً من الأشياء التي حدثنا فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّ الناس في المدينة يتحرون يوم يكون رسول الله عند عائشة، فيرسلون بالهدايا في ذلك اليوم ما لا يرسلون في الأيام الأخر فبعثن أمّهات المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها لتحدث النبي أن يطلب من الناس أن تكون الهدايا طوال الأيام، وليس في يوم عائشة وحدها، فكلمت أم سلمة النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك، فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم: «يا أمّ سلمة، لا تؤذيني في عائشة؛ فوالله ما نزل الوحي عليّ وأنا في لحاف امرأة غيرها» ^(٣).

هكذا كانت منزلتها عند النبي صلى الله عليه وسلم، بل منزلتها في السماء، نزل جبريل عليه السلام من السماء يُبلغ النبي صلى الله عليه وسلم أن يقرأ السلام على عائشة، فقال لها: «إنّ جبريل يقرأ عليك السلام». فقالت: وعليه السلام ورحمة الله وبركاته، إنّك ترى ما لا نرى ^(٤). ترى جبريل ونحن لا نراه، فهذه كانت منزلتها.

(١) رواه الخطيب في تاريخ بغداد (٥٧/٥)، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، ط ١، ١٤١٧هـ.

(٢) رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٦٦/٨).

(٣) رواه البخاري في المناقب (٣٧٧٥)، عن عائشة.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري في بدء الخلق (٣٢١٧)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٤٧)، عن عائشة.

ومع هذا كان يمكن أن تتغاضب مع النبي ﷺ في بعض الأوقات، وقال لها النبي ﷺ مداعبًا مرة من المرات: «إني لأعرف رضاك من غضبك يا عائشة». قالت: وكيف تعرف ذلك يا رسول الله؟ قال: «إذا رضيت قلت: لا ورب محمد. وإذا غضبت قلت: لا ورب إبراهيم». قالت: نعم يا رسول الله، والله ما أهجر إلا اسمك^(١). أي: لا أهجر شخصك، ولا أبغضك، ولكنني أهجر اسمك فقط، وهكذا لم تكن من النساء اللاتي إذا غضبن أطالت لسانها على زوجها أو تعدت حدودها، كل ما تفعله أن تقول: ورب إبراهيم. هكذا كانت عائشة رضي الله عنها.

مشاركتها في الغزوات:

كانت مسلمة حقيقية، دخلت الإسلام وهي صبيّة، ولكنها دخلت بقوة تدافع عن هذا الدين بكل ما تملك، وبكل ما تستطيع، شاركت في الغزوات، رأينا مشاركتها في غزوة أحد، لأنها تزوّجت بعد غزوة بدر، قال أنس بن مالك: رأيتُ عائشة بنت أبي بكر وأم سليم، وإنهما لمشمّرتان في غزوة أحد تملآن القرب وتفرغانها في أفواه القوم، وإنني لأرى خدم سوقهن^(٢). يعني خلاخيل السيقان، فهي مشمّرة في وقت الحرب، هكذا كانت.

وفي غزوة الخندق أبقاها النبي ﷺ مع النساء، ومن حرصها تركت مكانها وأرادت أن تعرف ماذا يجري حتّى وصلت إلى الرجال فرآها عمر

(١) متفق عليه: رواه البخاري في النكاح (٥٢٢٨)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٣٩)، عن عائشة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٨٨٠)، ومسلم (١٨١١)، كلاهما في الجهاد والسير، عن أنس. وخدم سوقهما: أي الخلاخيل. وتنقزان القرب: أي تثبان وتسرعان وهما تحملان القرب.

فغضب، وقال: إِنَّكَ وَاللَّهِ لَجَرِيئَةٌ، أَمَا تَخْشِينَ أَنْ يَحْدُثَ كَذَا وَكَذَا. حَتَّى قَالَتْ عَائِشَةُ: وَاللَّهِ لَوَدِدْتُ أَنَّ الْأَرْضَ انْشَقَّتْ فَدَخَلْتُ فِيهَا^(١). مِنْ شِدَّةِ لَوْمِ عَمْرِ لَهَا.

هكذا كانت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ظلت طوال حياتها مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في السلم والحرب، والسرَّاء والضرَّاء، والغنى والفقر، واليسر والعسر كما تحدَّثنا في الخطبة الماضية، عاشت عيشة الشظف والتقشف حتَّى ليمر الهلال تلو الهلال تلو الهلال ولا يوقد في بيوت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نار^(٢)، إلى أن مرض رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وهنا رشَّح النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبا بكر ليصليَّ بالناس، فقالت له عائشة: يا رسولَ الله، إنَّ أبا بكر رجل رقيق، ولا يملك نفسه من الدموع، فليتك تأمر أحداً غيره يصلي بالناس. وهي تقول: وما بي إلَّا أنني أخاف أن يتشاءم الناس أن أبا بكر يصلي بدل رسول الله. فذكرت له هذا الأمر مرة ومرة ومرة، فقال: «ليصلي أبو بكر بالناس، إنكنَّ صواحب يوسف»^(٣). أي: في التظاهر على ما يردن، وفي الإلحاح والتكرار، فصلى أبو بكر بالناس.

الوفاة في بيت عائشة:

واشتدَّ المرض على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فكان من حرصه على العدل بيت كل يوم عند امرأة من نسائه، حتَّى لا يقال: إنَّه فضَّل إحداهنَّ على بقيةهنَّ، وكان يقول: «أين أنا غدًا؟» فيقال: عند حفصة. ويقول:

(١) رواه ابن سعد في الطبقات (٤٢١/٣، ٤٢٢).

(٢) متَّفَق عليه: رواه البخاري في الهبة (٢٥٦٧)، ومسلم في الزهد (٢٩٧٢)، عن عائشة.

(٣) متَّفَق عليه: رواه البخاري في الأذان (٦٦٤)، ومسلم في الصلاة (٤١٨)، عن عائشة.

«أين أنا غدًا؟» فيقال: عند زينب. ويقول: «أين أنا غدًا؟» فيقال: عند أم سلمة. فلما كرر السؤال فهم نساؤه أنه يريد يوم عائشة؛ فاتفقن على أن يتركن له الخيار في أي بيت يقيم، فأقام عند عائشة رضي الله عنها بقية أيام مرضه حتى لحق بربه.

قالت عائشة رضي الله عنها: مات رسول الله في بيتي، وفي يومي، وبين سحري ونحري، واختلط ريقه بريقي. لأنه أشار إليها أن تأتيه بالسواك فبللته من ريقها وأعطته له، قالت: واختلط ريقه بريقي^(١). ودفن في حجرتها رضي الله عنها، وكانت رأت رؤيا أن ثلاثة أقمار سقطن في حجرتها، وكان أبوها قد أوّل لها الرؤيا قال: ثلاثة من خير الناس يُدفنون في بيتك. فلما دُفن رسول الله في بيتها قال: هذا هو القمر الأول، قمر الأقمار رسول الله صلى الله عليه وسلم.

رغم شدة هذه المصيبة، ورغم هول الموت، ورغم أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي ذهل الصحابة لموته حتى قال عمر: مَنْ قال: إن رسول الله قد مات ضربت عنقه. مع هذا كانت هذه الفتاة ابنة الثامنة عشر من العمر كانت رابطة الجأش، قويّة النفس، تحمّلت الصدمة بإيمان الواثقة بالله، ووثوق المؤمنة بالله وعجل، ولم تجزع، وهكذا يكون اليقين بالله سبحانه.

وعاشت عائشة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعا وأربعين سنة، أو ثمانية وأربعين سنة، وهذه حكمة أنه تزوجها صغيرة لتظل بعده تُعلم الأمة، وتروي أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكانت نعم المرأة الوفيّة لزوجها، الوفيّة لدينها، وظلّ الصحابة والتابعون يتردّدون عليها يتعلمون منها في عهد الخلفاء الراشدين جميعًا.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في المغازي (٤٤٥٠)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٤٣)، عن عائشة.

ظَلَّتْ فِي عَهْدِ أَبِيهَا أَبِي بَكْرٍ، وَحَضَرَتْ إِلَيْهِ وَهُوَ مَرِيضٌ، وَقَدْ مَرَضَ
أَرْبَعَةَ عَشَرَ يَوْمًا فَجَاءَتْ وَهُوَ فِي النَّزْعِ الْأَخِيرِ وَنَظَرَتْ إِلَيْهِ، ثُمَّ تَمَثَّلَتْ
بِقَوْلِ الشَّاعِرِ:

لَعَمْرُكَ مَا يُغْنِي الثَّرَاءُ عَنِ الْفَتَى إِذَا حَشَرَجَتْ يَوْمًا وَضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ^(١)

أي الروح، فقال لها أبو بكر: لا تقولي هذا يا بُنَيَّةَ، بل قولي:
﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩]^(٢). جاء القرآن فأغنانا
عن التمثّل بالأشعار في هذه المواقف.

ثم بعد لحظات نظرت إليه أيضًا وقالت بيتًا آخر من الشعر:

وَأَبْيَضَ يُسْتَسْقَى الْغَمَامُ بِوَجْهِهِ ربيعُ اليتامى عصمةً للأرامل^(٣)

فقال لها: هذا رسول الله ﷺ وهو في سكرات الموت^(٤).

وظلت في عهد عمر أيضًا مهيبة محترمة مطلوبة من كل من يسأل
عن أحوال النبي ﷺ، الصحابة أنفسهم يسألونها، حتى قال مسروق:
رأيت مشيخة أصحاب محمد يسألونها عن الفرائض^(٥). ويقول سيّدنا
أبو موسى الأشعري: ما أشكل علينا أمر إلا رجعنا إلى عائشة فوجدنا
عندها منه علمًا^(٦).

(١) ديوان حاتم الطائي ص ٢٣، شرح أحمد رشاد، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٣، ٢٠٠٢ م.

(٢) رواه أحمد في كتاب الزهد (٥٦٣)، وابن أبي الدنيا في المحتضرين (٣٦).

(٣) والبيت أصله لأبي طالب بن عبد المطلب في رسول الله ﷺ، كما في سيرة ابن هشام (٢٧٦/١).

(٤) رواه أحمد (٢٦)، وقال مخرّجوه: إسناده ضعيف. وابن أبي شيبة في الأدب من مصنفه (٢٦٥٩١)، والبزار (٥٨)، وقال: إسناده حسن.

(٥) رواه ابن أبي شيبة في الفرائض (٣١٦٨٤).

(٦) رواه الترمذي في المناقب (٣٨٨٣)، وقال: حسن صحيح.

أدب الأكاير:

ظلت هكذا في عهد عمرؓ، وفي عهد عثمانؓ، حتّى طعن عمرؓ، طعنه أبو لؤلؤة المجوسي، فقال عمر لابنه عبد الله: اذهب إلى أم المؤمنين عائشة، وقل لها: يسلم عليك عمر بن الخطاب، لا تقل لها: أمير المؤمنين؛ فليست اليوم للمؤمنين أميراً، قل لها: عمر بن الخطاب يسلم عليك، ويستأذنك أن يدفن بجوار صاحبيه؛ لأنّ أبا بكر دُفن بجوار رسول الله ﷺ في حجرة عائشة.

فذهب عبد الله بن عمر وأبلغها الرسالة، فقالت: أمّا إنّي قد أعددت له لنفسي، أمّا إنّي والله لأوثر به عمر على نفسي. وأذنت أن يدفن بجوار صاحبيه، فلما رجع عبد الله بن عمر إلى أبيه وأخبره الخبر استبشر، قال له: إذا وافاني الأجل فاحملوا سريري - النعش - وقفوا عند باب عائشة، وقولوا لها: عمر بن الخطاب يسلم عليك، ويستأذنك أن يدفن بجوار صاحبيه، فربما أذنت حياء مني وأنا حيّ، فإن أذنت فيها، وإلا فادفوني في مقابر المسلمين^(١). وهكذا فعلوا، وأذنت لعمر أن يدفن بجوار نبيّه وصاحبه أبي بكر، وكان هذا هو القمر الثالث.

وكان من أدب عائشة، وهو من أدب الأكاير، كانت إذا دخلت الحجرة بعد أن دُفن أبو بكر لا ترى حرجاً في أن تخلع ثيابها؛ لأنّ هذا زوجها وهذا أبوها، وبعد أن دُفن عمر بجوارهما كان لا بدّ أن تتحفّظ ولا تخلع ثيابها في الحجرة أدباً مع عمرؓ، هو ميت، وإنّما هذا أدب الأكاير، رضي الله عنهما.

(١) رواه البخاري في أصحاب النبي ﷺ (٣٧٠٠).

وفي عهد عثمان كانت أيضًا تُستشار وتُستفتى من الصحابة، ذكر بعضهم أنها ألّبت الناس على عثمان، ولكن هذا لم يثبت في الروايات الصحيحة، إنّما هذه روايات مطعون فيها.

طلب القصاص والثأر لعثمان:

ثم لما قُتل عثمان بن عفان رضي الله عنه، ظلّ الناس ثمانية أيام بلا خليفة ولا إمام، وكان عليّ يُعرض عمن جاءه يطلب منه تولي الخلافة، وكل الصحابة يُعرضون عنهم، ثم رأى عليّ رضي الله عنه بثاقب رأيه أنّه لا يجوز أن يُترك المسلمون بلا إمام؛ وإلا تكون الأمور فوضى، فقَبِل أن يتولّى الخلافة.

وقد سعت عائشة مع مَنْ سعى من الصحابة للمطالبة بالثأر من قتلة عثمان. ورأت أنّه إذا تُرك هؤلاء الذين أحاطوا بالمدينة، وسفكوا الدم الحرام، واستحلّوا المال الحرام، واستباحوا البلد الحرام والشهر الحرام، من غوغاء الناس: ازدادوا عتوًّا وفسادًا في الأرض، فلا بد أن يُقافهم عند حدهم والقصاص منهم لدم الإمام المظلوم رضي الله عنه. وطالبوا بذلك عليًا رضي الله عنه.

ولكنّ عليًا رأى إنّ هؤلاء القوم جاء معهم الأعراب من كل ناحية حتّى انضم إليهم من انضم من أهل المدينة، ومعهم القوّة، فكيف يستطيع أن يقتصّ منهم والقوة بأيديهم؟ فطلب إمهاله.

فاختلفت وجهتا النظر، وجهة عليّ ووجهة عائشة، وذهبت عائشة إلى البصرة بعد أن كانت راجعة إلى المدينة، فبعد أن علمت بمقتل عثمان عادت إلى مكّة، ومن مكّة إلى البصرة، وتبعها طلحة والزبير، دعواهم

المطالبة بدم عثمان، الاقتصاص من قتلة عثمان، وعليّ يقول لهم: إنني لا أتمكّن الآن من الاقتصاص من هؤلاء، أمر الخلافة لم يستقر بعد. فتنة عظيمة حدث فيها ما يشبه الانقلاب على الحياة المدنية الإسلامية، وكان ما كان، وكانت فتنة الاقتتال بين الصحابة بعضهم وبعض.

وسَطَ سيّدنا عليّ بعض الصحابة، القعقاع بن عمرو وغيره من الصحابة ليتصل بأُم المؤمنين عائشة، وبطلحة والزُّبير وهما من العشرة المُبشَّرين بالجنّة، ومن السّنة أصحاب الشورى، حدثت مفاوضات واتصالات، انتهت إلى وجوب الصلح بين الفريقين، وأن يكفّ كلٌّ من الفريقين عن صاحبه، ويبحثا جميعًا في حلٍّ للأزمة. ولكن كان هناك مَنْ لا يريد للنار أن تنطفئ، مَنْ لا يريد للأمة أن تتوحّد، مَنْ يريد للفتنة أن تشتعل نارها ويشتدّ أوارها، لم يتركوا الأمر حتّى ضربوا بسهامهم هذا المعسكر بالنبال، ورد عليهم آخرون بنبال أخرى، واشتعلت المعركة على غير نيّة من الفريقين، وكان ما كان، آلاف من الصحابة قُتلوا.

كان مَنْ قُتل - أيّها الإخوة - في سبع وعشرين غزوة غزاها رسول الله، وفي بضع وخمسين سرية بعث فيها أصحابه: مئات محدودة من الصحابة، أمّا في حروب الفتن قُتل عشرات الآلاف.

ربما ونحن الآن نقرأ هذه الأحداث نتعجّب كيف وقعت! ولكن الذي يكون في قلب الأحداث لا ينظر إليها كمن ينظر إليها من يأتي بعد ذلك، مَنْ يعيش في قلب الغابة لا يدري ما في الغابة بعكس الذي ينظر إليها من الخارج.

إذا أردنا أن نكون منصفين فينبغي أن ننظر إلى الأحداث في إطارها الزمني والمكاني، ما كانت الأمور واضحة وضوحها لنا، وقد دخلت في المعركة أطراف خارجية، مثل عبد الله بن سبأ اليهودي، الذي انتهزها فرصة ليزيد النار اشتعالاً، ويزيد الطين ابتلالاً، ودخلت أصناف أخرى من الناس من المنافقين وممن دخلوا في الإسلام من الأمم الأخرى، وحدث ما حدث!

ولكن بعد المعركة، وبعد أن انتصر عليٌّ رضي الله عنه؛ فإنه كرم أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، ولقيها أفضل ملاقة، وعاملها أحسن معاملة، ثم ودّعها وأمر ابنه الحسن والحسين أن يسيرا معها مدة أكبر؛ لأنها زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأم المؤمنين.

بعض الناس يريد أن يفسر الأحداث تفسيرات عصرية بما نفسر به أحداث السياسة في عصرنا، يقول: إن عائشة كان عندها كراهية لعليّ بن أبي طالب، من أيام حديث الإفك حينما استشاره النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: النساء غيرها كثير، ولم يضيّق الله عليك، وسل الجارية تصدقك. فقالوا: إن هذه الكلمة أحدثت أثرها في نفس عائشة^(١). وهذا الأثر صحيح من غير شك، ولكن عائشة لم تكن مثل نساء اليوم، وعليّ لم يكن مثل رجال اليوم، هذا جيل اختاره الله لصحبة نبيّه، واختاره الله لنصرة دينه، لا يفكرون بالتفكير المادي والنفعي الذي نفكر به اليوم، وقد سُئلت هي فقالت: ما كان بيني وبين عليّ إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها^(٢).

(١) سبق تخريجه ص ٣١٩.

(٢) رواه الأجرى في الشريعة (٢٠٨٣/٤).

أقارب زوجها، هذه طبيعة الحال، وسيدنا عليّ قال للرسول: سل الجارية تصدقك. الجارية التي تعيش معها، فقالت: والله يا رسول الله، لا أعرف عنها إلا أنّها جارية حديثة السن، تنام عن عجينها، حتّى تأتي الداجن فتأكله^(١). تأتي العنزة فتأكل العجين، وهذا طبيعي لمثل من في عمرها.

لكنها كانت فتنة كبيرة. وقد ندمت عائشة على هذا الأمر. لم تندم على اشتغالها بالسياسة، ولم تندم على قيادتها للمعركة، فهذا من حقّ المرأة، والمرأة شقيقة الرجل كما قال النبي ﷺ: «إِنَّمَا النِّسَاءُ شَقَائِقُ الرِّجَالِ»^(٢). وقد قال الله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [التوبة: ٧١]. لم تكن عائشة ترى أنّ هذا ينافي قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣٣]. لأنّ هذا أمر يتعلق بأمر الأمّة، يتعلق بمصلحة الأمّة، تتعلق بأحوال ذات عواقب، لا بدّ أن تكون للمرأة فيها مكانتها، ويكون لها فيها رأيها وتأثيرها.

لم تندم عائشة على أنّها اشتغلت بهذا الأمر، وإنّما ندمت على أنّ رأيها لم يكن سليماً في الحقيقة حينما وقفت ضد عليّ رضي الله عنه، وهو لم يكن يملك شيئاً حتّى يقتصر من قتلة عثمان رضي الله عنه.

هذه فتنة وقعت في فجر الإسلام، وكان لها تأثيرها، وظلّ هذا التأثير إلى اليوم، نسأل الله تعالى أن يعيدنا من الفتن، ما ظهر منها وما بطن. عاشت عائشة بعد ذلك في عصر سيّدنا عليّ، وفي عصر معاوية،

(١) جزء من الحديث الإفك.

(٢) رواه أحمد (٢٦١٩٥)، وقال مخرّجوه: حسن لغيره. وأبو داود (٢٣٦)، والترمذي (١١٣)، كلاهما في الطهارة، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود (٢٣٥)، عن عائشة.

عاشت مُعلِّمة للمسلمين، مرجعًا من المراجع، حتَّى قال الزهري: لو جُمع علم جميع النساء إلى علم عائشة لفاقتهم عائشة^(١).

كانت عائشة بين المسلمين تعيش العيشة المثاليَّة للمؤمنة الخيرة، تعيش زاهدةً عابدةً سخيَّةً، عاشت عائشة على ما كانت عليه في حياة النبي ﷺ، على أدنى ما يكون من العيش متقشفة شظفة، لا تترك الثوب حتَّى تُرقعه أكثر من مرة، وهي قادرة أن تعيش في بحبوحة من النعيم، كان يأتيها العطاء من عمر، وكانت تأتيها الهبات والهدايا، وما كانت تُبقي شيئًا من ذلك، تتصدَّق بكل ما يجيء إليها، عاشت زاهدة.

وعاشت عابدة، تحرص على أداء النوافل، حتَّى كانت تصوم في السفر، وكانت تحرص على صلاة الضحى وتداوم عليها، فقيل لها: إنَّ النبي لم يكن يداوم على الضحى. قالت: إنَّ رسول الله ﷺ كان يترك بعض الأشياء خشية أن تُفرض على النَّاس، كانت زاهدة، وكانت عابدة.

وكانت سخيَّة، أرسل إليها معاوية في أيام خلافته مائة ألف درهم، فقالت لخادمتها: اذهبي بهذه الخمسة آلاف إلى فلان، وهذه العشرة آلاف إلى فلانة، وهذه إلى أمِّ فلان، وهذه إلى البيت الفلاني. ففرقتها كلها. فقالت لها الخادمة: لو أنَّك اشتريت لنا لحمًا بدرهم نُفطر عليه ونحن صيام. فقالت لها: لو ذكَّرتني لفعلت^(٢). تأمل مائة ألف درهم فرقتها جميعًا ولم تترك درهمًا واحدًا تشتري به شيئًا تفطر عليه.

وفي يوم من الأيام كانت صائمة، فجاء مسكين وسأل، وكان عندها

(١) رواه الحاكم في معرفة الصحابة (١١/٤)، وعنده: (علم الناس كلهم) بدل (علم جميع النساء)، وسكت عنه. وصحَّحه الذهبي على شرط الشيخين.

(٢) رواه الحاكم في معرفة الصحابة (١٣/٤)، وسكت عنه هو والذهبي.

رغيف واحد، فقالت لخادمتها: أعطه إيَّاه. قالت لها: يا أم المؤمنين، ليس عندنا غيره. قالت: أعطه إيَّاه^(١). هكذا كانت عائشة رضي الله عنها سخية جادة، لا تبخل بشيء.

وكانت مُعلِّمة للنَّاس، للرجال وللنساء، ما تعلَّمتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم بلغته وعلمته للنَّاس، وقد عاشت ما يقرب من تسع سنوات مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، عاشت بعقل متيقظ، بحافظة قويَّة، تلاحظ وتتدبَّر، وتعي وتحفظ، وتحاور وتساءل.

سألت النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتَاؤًا وَقُلُوبَهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ ﴿أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠، ٦١]. قالت: يا رسول الله، أهذه الآية في الذين يشربون الخمر ويزنون ويسرقون ويخشون عقاب الله؟ قال: «لا يا ابنة الصَّدِّيق، بل هي في الَّذِينَ يَصَلُّونَ وَيَصُومُونَ وَيَتَصَدَّقُونَ وَيَخَافُونَ أَلَّا يَقْبَلَ اللَّهُ ذَلِكَ مِنْهُمْ»^(٢). فكانت تسأل النبي صلى الله عليه وسلم وتراجعها في الأمور.

وكانت تروي للصحابة ما لا يرويه غيرها، حتَّى العلاقات الخاصَّة بينها وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم، ليس هناك دائرة حمراء، الرواية عن النبي صلى الله عليه وسلم مفتوحة للجميع، ليس هناك حظراً على رواية شيء معيَّن من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا، بل كل شيء مسموح به.

(١) ذكره مالك في الصدقة بلاغاً (٥٥٣٦)، تحقيق الأعظمي.

(٢) رواه أحمد (٢٥٢٦٣)، وقال مخرَّجوه: إسناده ضعيف لانقطاعه. والترمذي في التفسير

(٣١٧٥)، وسكت عنه، وابن ماجه في الزهد (٤١٩٨)، وصحَّحه الألباني في صحيح الترمذي

(٢٥٣٧).

ولذلك كانت عائشة تقول: كان ﷺ يأمرني فأتزر - ألبس الإزار - فباشرني وأنا حائض»^(١). تُفسر بذلك قول الله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَىٰ فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ [البقرة: ٢٢٢]. الاعتزال لا يعني أن يبعد الزوج عن امرأته نهائياً، ويبت في حجرة وهي في حجرة، لا، بل ترك الجماع فقط، ليس كما كان يفعل اليهود.

وأيضاً كانت تقول عن النبي ﷺ: كان يُقبِّلني وهو صائم، وكان أملككم لإربه^(٢). تعني أضببطكم لنفسه، يملك شهوته، فمن لا يملك شهوته لا يُقبِّل، هكذا كانت عائشة تروي الأحاديث في كل ناحية من النواحي.

وكانت إذا أشكل عليها شيء تحيل إلى بعض الصحابة، سألها بعضهم عن المسح على الخفين في السفر، فقالت له: اسأل ابن أبي طالب؛ فإنه كان يسافر مع رسول الله ﷺ^(٣). وهذا يدلنا على أن الأمر بينهما لم يكن كما يتصوّر المتصوِّرون، أو يصور الأفَّاكون.

كانت تُسأل في أمور شتّى، حتّى في الأمور الخاصّة، علاقة الرجل بامرأته، إذا جامع الرجل امرأته ولم يُنزل هل عليهما غُسل أو لا؟ كان عدد من الصحابة مثل عثمان بن عفان وطلحة يرون أن ذلك ليس فيه غسل، وأنّ الغسل من الماء، لحديث: «إنّما الماء من الماء»^(٤)، ولكن أم المؤمنين حينما سألها أبو موسى الأشعري قالت له: إنّ النبي ﷺ قال: «إذا جلس بين شعبها الأربع، ومسّ الختانُ الختانَ، وجب الغسل»^(٥).

(١) رواه البخاري في الحيض (٢٩٩، ٣٠٠).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٩٢٧)، ومسلم (١١٠٦)، كلاهما في الصوم.

(٣) رواه مسلم في الطهارة (٢٧٦)، وأحمد (٧٤٨).

(٤) المجموع (١٣٦/٢)، نشر دار الفكر.

(٥) رواه مسلم في الحيض (٣٤٩)، وأحمد (٢١٠٩٦).

فهذا كان رأي عائشة رضي الله عنها، ولم تر أن في ذلك حرجاً لأنه لا حياء في السؤال عن الدين.

كانت تروي أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، وهي أكثر الصحابة رواية عن النبي صلى الله عليه وسلم، بعد أبي هريرة، وابن عمر، وأنس رضي الله عنه، روت أكثر من ابن عباس وجابر، وغيرهم من المكثرين.

روت أحاديث كثيرة، وكانت تُفتي، لم تكن مجرد راوية، بل كانت تُفتي أيضاً في كثير من الأمور، وبعضها تخالف فيه الصحابة، خالفت الصحابة في أنه يجوز للمسلم أن يصلي صلاة النافلة بعد العصر^(١)، خالفتها في ذلك سائر الصحابة، وخالفت الصحابة في أنه لا تجوز الزيادة على إحدى عشرة ركعة في قيام الليل في شهر رمضان أو في غيره^(٢)، وخالفت الصحابة في جواز أن يصلي المصلي ويديه المصحف يقرأ فيه^(٣).

وخالفت الصحابة في رضاع الكبير، أن النبي صلى الله عليه وسلم أفتى لسهلة امرأة أبي حذيفة أن ترضع سالماً مولى أبي حذيفة خمس مرات حتى تحرم عليه^(٤)، وقد تبوّه في الجاهلية، وهو من رجال الإسلام الذين رشحهم عمر للخلافة، أخذ سائر الصحابة هذا على أنه رخصة لسهلة امرأة أبي

(١) إشارة إلى الحديث المتفق عليه: ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يأتي في يوم بعد العصر، إلا صلى ركعتين. رواه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٩٣)، ومسلم في الصلاة المسافرين (٨٣٥).

(٢) إشارة إلى الحديث المتفق عليه: ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزيد في رمضان، ولا في غيره على إحدى عشرة ركعة. رواه البخاري في التهجد (١١٤٧)، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٣٨).

(٣) ذكره البخاري تعليقا في الأذان قبل الحديث (٦٩٢)، ورواه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب الصلاة (٣٣٦٦).

(٤) رواه أحمد (٢٦٣٣٠)، وقال مخرّجوه: حديث صحيح.

حذيفة، لكنها أخذت هذا عمومًا، فكانت ترى أنّ من كان حالها كسهلة يمكن أن تطلب من أحد أخواتها أن ترضعه، وليس إرضاعه كما يظنُّ بعض الناس أن تعطيه ثدييها، ليس هذا هو المقصود، ولكن المقصود أن تضع الحليب في كوب أو فنجان ثم يرضعه الرجل، فإذا رضعه أصبح هو ابن أختها من الرضاعة، ولكن الصحابة خالفوها في ذلك، كانت لها فتاوى كثيرة خالفت فيها الصحابة.

كما كان لها استدراكات على الصحابة، أحاديث روتها الصحابة واستدركتها عليهم، وألّفت في ذلك كتب، منها كتاب الإمام الزركشي (الإجابة لما استدركته عائشة على الصحابة)، استدركت عليهم أشياء، قليل منها معها فيها حق، وأكثرها الحق فيها مع الصحابة؛ ومع أنّها خالفت عددًا من الصحابة، ولكنها كانت شجاعة في إبداء رأيها، إذا رأت رأيًا تقوله، إذا رأت الحديث مخالفًا لظاهر القرآن.

من ذلك ما ورد أنّ الرسول تكلم مع قتلى المشركين الذي قُتلوا ووضعوا في قليب يوم بدر، وناداهم بأسمائهم: «هل وجدتم ما وعد ربكم حقًا؛ فإننا قد وجدنا ما وعد ربنا حقًا؟». قال له عمر: أتكلم قَوْمًا قد جيفوا يا رسول الله؟ قال: «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، غير أنّهم لا يجيبون»^(١). أنكرت عائشة هذا الحديث، وقالت: إنّ الله يقول: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢]^(٢).

(١) رواه مسلم في الجنة (٢٨٧٣)، والنسائي في الجنائز (٢٠٧٤، ٢٠٧٥)، عن أنس بن مالك.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في المغازي (٣٩٧٨)، ومسلم في الجنائز (٩٣٢).

وأنكرت حديث: «إِنَّ الْمَيْتَ لِيُعَذَّبُ بِبِكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ»^(١). وقالت: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَلَا نُزِرُ وَأَزِرَّةٌ وَزَرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام: ١٦٤]^(٢).

وأنكرت على سيدنا أبي هريرة حديثه: «إِنَّ امْرَأَةً دَخَلَتْ النَّارَ فِي هَرَّةٍ حَبَسْتُهَا، فَلَا هِيَ أَطْعَمْتُهَا، وَلَا هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ»^(٣). وقالت لأبي هريرة مُنْكَرَةً عَلَيْهِ: إِنَّكَ لَمْ تَضْبِطِ الْحَدِيثَ، إِنَّ هَذِهِ الْمَرْأَةَ كَانَتْ كَافِرَةً، لَمْ تَدْخُلِ النَّارَ بِسَبَبِ الْهَرَّةِ، إِنَّ اللَّهَ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يُعَذَّبَ مُؤْمِنًا بِسَبَبِ هَرَّةٍ^(٤). وقد كان الحق مع أبي هريرة، وليس هو وحده الَّذِي رَوَى الْحَدِيثَ؛ بَلْ رَوَاهُ ابْنُ عَمْرٍو^(٥)، وَرَوَاهُ جَابِرٌ^(٦) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ جَمِيعًا.

ثُمَّ إِنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا غَفَلَتْ عَنْ أَنَّ هَذِهِ الْمَرْأَةَ إِنَّمَا عَوَّقَتْ بِقَسْوَةِ قَلْبِهَا، حِينَ تَرَكَتْ هَذَا الْحَيْوَانَ الْأَعْجَمَ مَحْبُوسًا: لَمْ تَطْعَمَهُ، وَلَمْ تَتْرَكْهُ يَبْحَثُ عَنْ رِزْقِهِ، فَدَخَلَتْ النَّارَ مِنْ أَجْلِ هَذَا، وَهَذَا مِنْ عَدْلِ هَذَا الدِّينِ الْعَظِيمِ، وَالرَّسُولُ ﷺ ذَكَرَ لَنَا «أَنَّ امْرَأَةً بَغِيًّا سَقَتْ كَلْبًا فَغَفَرَ اللَّهُ لَهَا»^(٧)، وَلَمَّا سَأَلَ الصَّحَابَةُ: أئنَّ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ لِأَجْرًا؟ قَالَ: «نَعَمْ، فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٌ أَجْرٌ»^(٨).

عَلَى كُلِّ حَالٍ كَانَ هَذَا هُوَ اجْتِهَادُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَقَدْ كَانَتْ تَجْتَهِدُ وَتَسْتَنْبِطُ. سَأَلَهَا أَحَدُ التَّابِعِينَ عَنِ التَّبْتُلِ، أَي: الْانْقِطَاعِ عَنِ الزَّوْجِ،

(١) جزء من الحديث السابق.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٢٨٦، ١٢٨٧، ١٢٨٨)، ومسلم (٩٢٩)، كلاهما في الجنائز.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في بدء الخلق (٣٣١٨)، ومسلم في التوبة (٢٦١٩)، عن أبي هريرة.

(٤) رواه أحمد (١٠٧٢٧)، وقال مخرّجوه: إسناده حسن. وأبو داود الطيالسي (١٥٠٣). وقال

الهيثمي في مجمع الزوائد (٤٥٥): رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح.

(٥) متفق عليه: رواه البخاري في المساقاة (٢٣٦٥)، ومسلم في السلام (٢٢٤٢).

(٦) رواه مسلم في الكسوف (٩٠٤).

(٧) متفق عليه: رواه البخاري في الجمعة (٣٤٦٧)، ومسلم في السلام (٢٢٤٥)، عن أبي هريرة.

(٨) متفق عليه: رواه البخاري في المساقاة (٢٣٦٣)، ومسلم في السلام (٢٢٤٤)، عن أبي هريرة.

فقلت له: لا تفعل، أما سمعت الله تعالى يقول: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد: ٣٨] ^(١). كان للأنبياء أزواج وذريرة، فلماذا تحيد عن طريق الأنبياء؟

هذه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، عالمة الأمة، المُحدثة الراوية، الفقيهة المجتهدة، الزاهدة العابدة، السخية المجاهدة، المسلمة العظيمة، نسأل الله تبارك وتعالى أن يتقبلها في الصالحات، وأن يجعلها مثلاً للمؤمنات العالمات، العاملات الواعيات، اللهم آمين.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله تعالى لي ولكم فاستغفروه؛ إنه هو الغفور الرحيم، وادعوه يستجب لكم.

* * *

(١) رواه أحمد (٢٤٦٥٨)، وقال مخرّجوه: إسناده صحيح. والنسائي في النكاح (٣٢١٦).

الخطبة الثانية

أمّا بعد، أيّها الإخوة:

دعوة لمساعدة النيجر:

تُطالبنا وزارة الأوقاف أن نمدّ أيدينا إلى إخواننا في النيجر، تعلمون أنّه في الأسبوع الماضي انعقد مؤتمر لمساعدة النيجر، والنيجر بلد إفريقي إسلامي، تسعة وتسعون في المائة (99٪) من أهله مسلمون، ولكنّه يعاني المجاعة والفقر منذ سنوات، انقطعت عنه الأمطار؛ فعاش الناس في ضيق شديد، وتبنّت قطر أن تجمع المانحين من الدول المختلفة لهذا البلد المسكين، وتبرّع المتبرعون.

سألت بعض الإخوة الذين شرفوني بالزيارة، مستشار رئيس الجمهورية، ومستشار رئيس الوزراء، سألتهم: كم جامعة في النيجر وأهلها خمسة عشر مليون مسلم؟ قالوا: جامعة واحدة. بلد ليس فيه إلاّ جامعة واحدة، وعدد قليل من المدارس الثانويّة.

وقلت لهم: إنكم ركّزتم على الغذاء، ولكن الإنسان كما يحتاج بطنه إلى الغذاء يحتاج رأسه إلى الغذاء، يحتاج إلى التعليم. قالوا: نحن قلنا: الآن نُركّز حتّى يأكل النَّاس، فالنَّاس تموت من الجوع.

ولهذا أطلب الإخوة أن يتبرعوا لإخوانهم في النيجر، لا يجوز لنا أن نعيش نأكل ملء بطوننا، ونرمي ما يفيض عنا في صناديق القمامة، بينما بعض الناس لا يجد ما يمسك ريقه، أو يطفئ حرّقه، بعض الناس يبحث في صناديق القمامة لعله يجد لقمة يمكن أن يأكلها، حرام علينا أن نترك إخواننا ولا نمد لهم أيدينا.

نستطيع أن ندفع لإخواننا ما نستطيع حتى يخرجوا من هذه المحنة، ولن يضيع عند الله عمل عامل، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضَعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، فابدلوا لإخوانكم ما تستطيعون، ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ، وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبا: ٣٩].

اللهم أكرمنا ولا تهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وزدنا ولا تنقصنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وارض عنا وأرضنا، اللهم اجمع كلمة المسلمين على الهدى، وقلوبهم على التقى، ونفوسهم على المحبة، وعزائمهم على عمل الخير وخير العمل، اللهم قنا الفتن ما ظهر منها وما بطن، اللهم لا تهلكننا بما فعل السفهاء منا، ولا تسلط علينا بذنوبنا من لا يخافك ولا يرحمنا، وارفع مقتك وغضبك عنا، واجعل هذا البلد آمنًا مطمئنًا، سخاء رخاء وسائر بلاد المسلمين؛ إنك سميع قريب.



رُدُّ الإِسَاءَةِ عَنْ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ (١)

الخطبة الأولى

أَمَّا بَعْدُ، فَيَا أَيُّهَا الإِخْوَةُ المُسْلِمُونَ:

برغم ما تعانيه الأمة الإسلامية من كوارث ومصائب على كل مستوى: السياسي، والاقتصادي، والاجتماعي، والثقافي، والديني، والعسكري، برغم ما تعانيه الأمة، حيث نرى قضية فلسطين كما كانت منذ سنين، إن لم تتأخر في بعض النواحي، لا تزال القدس مهددة، لا يزال المسجد الأقصى مهدداً بالتعديات من فوقه ومن تحته، ولا ندري ما يُبيِّت اليهود الأشرار، والصهاينة الفجار لهذا المسجد، لا زالت غزة تُحاصر وتُجوع، ولا زالت الخرائب في كل مكان، ولا يصل إلى غزة شيء مما يسمّى (إعادة إعمار غزة).

لا زالت ديار المسلمين مجالاً لسفك الدماء، واستباحة الحرمات في كل ناحية من النواحي، لا زالت الحرائق، والتفجيرات، والدماء المسفوكة في العراق، وفي أفغانستان، وفي الصومال، وفي اليمن، وفي

(١) ألقيت في مسجد عمر بن الخطاب بالدوحة، بتاريخ ١٥ شوال ١٤٣١هـ الموافق ٢٤ سبتمبر

بلاد شتى. الكوارث الطبيعية في باكستان التي سُرد أكثر من عشرين مليوناً من أهلها، فقدوا كل شيء: فقدوا البيت، وفقدوا المزرعة، وفقدوا الحبوب، وفقدوا الأثاث، وفقدوا المدّخرات، وعاشوا في العراء، الأمة الإسلامية في كل مكان نراها على هذا الحال.

ومع هذا نرى فيمن ينتسبون إلى هذه الأمة جماعة من السفهاء، ممن لا خلاق لهم، ليس لهم دين، ولا خُلق، ولا عقل، ولا ذوق، نراهم يحتفلون في بلاد الغرب في لندن بهلاك أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها، يحتفلون بذلك أمام الغربيين، ويتّهمون أم المؤمنين بالكفر والفجور، والفاحشة وقلة الأدب، كل ما تُتّهم به النساء الفاجرات يتّهمون به أم المؤمنين رضي الله عنها، ويزعم هؤلاء أنّهم من المسلمين، ويقولون: إنّ عائشة في قعر جهنم. أسمعتم بهذه المأساة أو هذه المهزلة؟ الأمة في هذه الدواهي الدهياء، والمصائب الكُبرى، وهؤلاء يفعلون هذا الأمر.

ماذا يستفيد هؤلاء من سب أصحاب رسول الله، وأمّهات المؤمنين؟ ماذا يفيدهم أن يعلنوا على الملأ: اللهمّ العن أبا بكر وابنته عائشة، اللهمّ العن عمر وابنته حفصة، اللهمّ العن عثمان، اللهمّ العن طلحة، اللهمّ العن الزبير؟ ماذا يفيدهم هذا اللعن والسبُّ؟

لو كانوا مسلمين حقاً لامتنعوا عن هذا الهراء وهذا السباب؛ فالمسلم ليس سبباً ولا لعاناً، النبي صلى الله عليه وسلم علّم أمته، والقرآن علّم أمته النهي عن السباب، حتّى إنّ القرآن نهى المسلمين أن يسبوا الأصنام فقال: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾

[الأنعام: ١٠٨]. تسب الصنم فيرد عليك عابد الصنم؛ فيسب الله وعجل، فحتى الأصنام ينبغي للمسلم ألا يسبّها، وقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم عدة أحاديث:

«لا تسبوا الريح؛ فإنها مأمورة»^(١)، «لا تسبوا الحمى؛ فإنها تذهب خطايا بني آدم»^(٢)، «لا تسبوا الديك؛ فإنه يوقظ للصلاة»^(٣)، «لا تسبوا الدهر؛ فإن الله هو الدهر»^(٤). حتى إنه ﷺ يقول: «لا تسبوا الشيطان وتعوذوا بالله من شره»^(٥). الأهم من سب الشيطان أن تتعوذ بالله من شره، لا تتعوذ السب.

عند الغربيين حكمة تقول: بدل أن تسب الظلام أضئ شمعة. اعمل عملاً إيجابياً، فبدل أن تسب الشيطان قل: بسم الله.

كان أحد الصحابة يركب حماراً خلف النبي ﷺ فعثر الحمار، فقال الرجل: تعس الشيطان. فقال له النبي ﷺ: «لا تقل: تعس الشيطان. ولكن قل: باسم الله. فإنك إذا قلت: تعس الشيطان. تعاضم وانتفخ حتى صار مثل الجبل، ولكن إذا قلت: بسم الله. صغر وذاب حتى يصبح كالذباب»^(٦).

«بسم الله» عمل إيجابي، و«تعس الشيطان» عمل سلبي، ولو أن إنساناً عاش عمره لم يلعن أباً جهل، ولا فرعون، ولا إبليس لن يسأله أحد،

(١) رواه أبو داود في الأدب (٤٩٠٨)، والترمذي في البر والصلة (١٩٧٨)، وقال: حديث غريب. وفي بعض النسخ: حسن غريب. وابن حبان في الحظر والإباحة (٥٧٤٥)، وصححه الألباني في الصحيحة (٥٢٨)، عن ابن عباس.

(٢) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٧٥)، عن جابر بن عبد الله.

(٣) رواه أحمد (٢١٦٧٩)، وقال مخرّجوه: رجاله ثقات رجال الشيخين. وأبو داود في الأدب (٥١٠١)، وابن حبان في الحظر والإباحة (٥٧٣١)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٧٩٧)، عن زيد بن خالد الجهني.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦١٨١)، ومسلم في الألفاظ (٢٢٤٦)، عن أبي هريرة.

(٥) رواه أبو طاهر في المخلصيات (١٥٧٢)، وتمام الرازي في الفوائد (٧٧٨)، ورجح الدارقطني في العلل (١٩٣٦) الموقوف، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٣١٨)، عن أبي هريرة.

(٦) رواه أحمد (٢٠٥٩١)، وقال مخرّجوه: حديث صحيح. وأبو داود (٤٩٨٢)، والحاكم (٢٩٢/٤)، وصححه، ووافقه الذهبي، كلاهما في الأدب، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٨١٩)، عن رديف النبي ﷺ.

ولكن لو لعن إنساناً بغير حق؛ فإن هذه مسؤولية كبيرة. لا يجوز أن تلعن إنساناً، ولا تُعوّد لسانك اللعن.

ولكن هؤلاء الناس يعيشون على لعن أفضل الأجيال، أفضل أجيال الإنسانية طوال التاريخ: هو الجيل الذي ربّاه محمد ﷺ، جيل الصحابة، وجيل أمّهات المؤمنين، لم تكتحل عين الدنيا برؤية جيل مثل هذا الجيل، الذي تتلمذ في المدرسة المُحمّديّة، الذي تشرب من خُلق رسول الله ﷺ، هؤلاء الذين أثنى الله عليهم في كتابه فقال: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرْتَهُمُ رُكْعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِمَّنْ أثارَ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩].

وقبلها يقول في نفس السورة: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

وفي سورة التوبة يقول تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهِجْرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠]. الله تعالى يقول: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾. وهم يقولون: لعنهم الله!

ولم يرض سبحانه عن الصحابة وحدهم؛ بل رضي عنّ تتلمذ عليهم، واتبعهم بإحسان، كما قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهِجْرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ

فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨، ٩﴾ [الحشر: ٨، ٩]. أثنى عن المهاجرين، وأثنى عن الأنصار الذين آوهم ونصروهم، كما قال في سورة الأنفال: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَأُوا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٧٤].

ثم قال بعد أن ذكر المهاجرين والأنصار: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]. ولكن كما قالت أم المؤمنين عائشة: أمروا أن يستغفروا لأصحاب النبي ﷺ فسبوهم^(١). فالتابعون يدعون ربهم لمن سبقوهم، وهؤلاء قلوبهم مليئة بالغل والحقد الأسود.

يسبون أصحاب رسول الله ﷺ، والرسول ﷺ يقول: «لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبًا ما بلغ مدًا أحدهم ولا نصيفه»^(٢). لا يبلغ ملء الكف أو نصفه، فهؤلاء الحمقى والسفهاء الذين يسبون أصحاب رسول الله، ويسبون أمهات المؤمنين، والله تعالى يقول: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦]. فهم يتبغضون إلى رسول الله ﷺ بلعن أمهات المؤمنين، لو كانوا مؤمنين لعلموا أن هؤلاء أمهاتهم، لشعروا أن الإنسان لا يجوز أن يسب أمه؛ إلا إذا كان فاجرًا سفيها قليل الأدب، ولكنهم يسبون أمهات المؤمنين، وما هم بمؤمنين.

(١) رواه مسلم في التفسير (٣٠٢٢).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤١) كلاهما في فضائل الصحابة، عن أبي

سعيد الخديري.

وهو نفس الخطاب لنساء النبي: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾.

وأول مَنْ يدخل في هذا السياق هي عائشة رضي الله عنها؛ لما لها من منزلة عند رسول الله، حتى إنه حينما نزلت آيات التَّخْيِيرِ، حينما طلب نساء النبي منه صلى الله عليه وسلم أن يزيد في نفقاتهن، وقد أصبح سيّد الجزيرة، فنزلت هذه الآيات تخيرهنّ بين المعيشة التي يعشنها مع رسول الله، أو أن يسرحهنّ ويذهبن لحال سبيلهن: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلٌّ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتن تَرْضَيْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِيَدْتَهَا فَنَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسْرِحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا * وَإِن كُنتن تَرْضَيْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْدارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٨، ٢٩]. كان أول مَنْ عرض عليها النبي صلى الله عليه وسلم هذا التخيير هي عائشة رضي الله عنها، أحب نسائه إليه، جاء إليها وقال: «يا عائشة، إنني أريد أن أعرض عليك أمرا، أحب أن لا تعجلي فيه حتى تستشيرني أبويك». قالت: وما هو يا رسول الله؟ فتلا عليها الآية، فقالت: أفيك يا رسول الله، أستشير أبوي؟ بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة^(١).

جعل الله تعالى بيت النبي طاهراً مطهراً، ثم يأتي هؤلاء فيقولون عن عائشة ما يقولون، كنت والله عازفاً عن أن أتكلم في هذا الموضوع، لأنني أستحيي أن أقول هذا الكلام الذي وصفوها به، عائشة أم المؤمنين، أحب الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأعلم أمهات المؤمنين ونساء الصحابة - بل نساء الأمة - على ما قاله عطاء، والزهري، والذهبي، وما قاله علماء الأمة، أعلم نساء الأمة عائشة رضي الله عنها، ولم يتزوج بكراً غيرها، ولم يأتها جبريل بالوحي وهو في لحاف امرأة إلا عندما يكون عند عائشة، والتي نزلت آيات القرآن الكريم ببراءتها من فوق سبع سماوات.

(١) رواه مسلم في الطلاق (١٤٧٨)، عن جابر.

كان مسروق بن الأجدع من أصحاب ابن مسعود رضي الله عنه، ومن فقهاء الكوفة؛ إذا حدث عن عائشة رضي الله عنها يقول: حدثني الصديقة بنت الصديق، حبيبة حبيب الله، المبرأة من فوق سبع سماوات. ويروي الحديث بعد ذلك. هذه أم المؤمنين عند الأمة، وعند علماء الأمة، وعند عقلاء الأمة، فيأتي هؤلاء السفهاء ليضطرونا إلى أن نرد عليهم، وكان أولى من ذلك أن نقول كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]. أو كما قال وَجَلَّ: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْنِغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥]. ولكن بعض الإخوة أبوا إلا أن نتكلم في هذا الأمر.

وهناك إخوة في بعض الفضائيات يعيبون على الاتّحاد العالمي لعلماء المسلمين أنّه لم يصدر بياناً في هذا الأمر.

وأنا أقول: إنّ هذا الشخص المعتوه السفية أقل وأذل، وإنّ مقام عائشة رضي الله عنها أعزّ وأجلّ من أن نصدر بياناً باسم الاتّحاد العالمي لنرد على هذا الشخص المعتوه السفية الذي لا عقل له، ولا دين له، ولا خلق له.

أنا أقول: إنّ أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها هي في القمة، ومن قرأ سيرتها عند المُحدّثين، وعند المؤرخين، وعند الكاتبين في الزهد والورع، والكاتبين في المناقب بصفة عامّة، عن النبلاء والفضلاء في الأمة: يجد عائشة في القمة، ترجمتها ضافية، عشرات الصفحات كلها أمجاد، وكلها مناقب.

يكفي أنّ القرآن الكريم أنزل هذه الآيات في سورة النور، يدافع عنها، ويبرّئ ساحتها، بعد أن أفكّ الأفّاكون، وتقوّل المتقولون من المنافقين عليها وعلى عرضها، وأنزل الله سُبْحَانَ اللَّهِ في ذلك قرآناً يتلى.

هي قالت: كنت أظن أن الله لن يتخلى عني، ولكن ما كنت أظن أن ينزل في قرآننا، كنت أظن أنه سيوحى إلى رسول الله في المنام برؤيا أو بشيء يؤكد له أنني بريئة، أما أن ينزل في قرآن يتلى، ما كنت أظن هذا^(١). ولكنها تستحق: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١١]. الذي تولى كبر هذا الأمر، وقام بالعبء الأكبر فيه هو رأس النفاق عبد الله بن أبي بن سلول الذي طالما كاد للمسلمين، فبذر بذور الفتنة، وأصبح الناس يتحدثون في هذا الأمر.

نزلت هذه الآيات: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ * لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ * وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِذْ تَلَقَوْنَهُ بِالسِّنَّتِمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هِينًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ * وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٢-١٦]. إلى آخر هذه الآيات التي تقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [النور: ١٩]. الله ﷻ تولى بنفسه الدفاع عن عائشة رضي الله عنها وأرضاها، ورضي عن أبيها، وصلى على زوجها وسلم.

عائشة أحب الناس إلى رسول الله:

كانت عائشة أحب الناس إلى رسول الله، حينما أسلم عمرو بن العاص في السنة الثامنة سأل النبي ﷺ: أيُّ الناس أحبُّ إليك

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الشهادات (٢٦٦١)، ومسلم في التوبة (٢٧٧٠).

يا رسول الله؟ قال: «عائشة». قال: ومن الرجال؟ قال: «أبوها»^(١). هكذا منزلة عائشة ومنزلة أبيها.

تزوجها النبي ﷺ وأحبها، لم يحبها لجمالها فقط، هي كانت جميلة فعلاً، ولكن لم يحبها لجمالها فقط؛ بل لأنها كانت امرأة في غاية الذكاء، وقوة الشخصية، وحضور البديهة، وقوة الحفظ، كانت تحفظ القصيدة ستين بيتاً وترويها، وقالت: إنني أحفظ من شعر لبيد بن ربيعة اثني عشر ألف بيت من الشعر^(٢). المعلقات وأشعار الجاهلية كانت تحفظها.

روايتها للحديث النبوي:

انظروا؛ حدثت النبي ﷺ بقصة يحكيها نساء العرب، حديث معروف عند علماء المسلمين بحديث أم زرع، حدثته عن اثنتي عشر امرأة، كل واحدة أخذت تصف زوجها بأوصاف لغوية أدبية قوية، حفظتها كلها، اثنتا عشرة امرأة ذكرتها للنبي، حديث شهير، كيف استوعبت هذا كله؟ وجاءت على أبي زرع وموقفه من أم زرع، وكان غاية في الألفة والمودة لزوجته، ولكن انتهت قصته معها بطلاقها، فقال النبي ﷺ لعائشة: «كنت لك كأبي زرع لأم زرع»^(٣). وفي رواية: «إلا أنه طلقها وإنني لا أطلقك»^(٤). فقالت: بل أنت خير من أبي زرع يا رسول الله^(٥). كانت امرأة في غاية الذكاء وفي غاية الحفظ.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في أصحاب النبي (٣٦٦٢)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٣٨٤).

(٢) الاستيعاب لابن عبد البر (١٣٣٨/٣).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في النكاح (٥١٨٩)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٤٨).

(٤) من رواية الزبير بن بكار كما ذكر الحافظ في فتح الباري (٢٧٥/٩).

(٥) رواه النسائي في الكبرى في عشرة النساء (٩٠٩٣).

روت عن رسول الله ﷺ أكثر من ألفي حديث: (٢٢١٠) حديث، وتعدُّ من الحُفَّاظ السبعة المُكثَرين، الَّذِينَ حَفَظُوا أَكْثَرَ مِنْ أَلْفِ حَدِيثٍ مِنَ الصَّحَابَةِ، وَأَوْلَهُمْ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَاشَتْ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ تِسْعَ سِنَوَاتٍ فَحَفَظَتْ فِيهَا مَا لَمْ يَحْفَظْهُ غَيْرُهَا.

وليس مجرد حفظ، بل حفظ مع علم، كانت تناقش النبي ﷺ، وكانت تناقش الصحابة بعد النبي ﷺ، واعترضت على كثير منهم في بعض الأحاديث، حتَّى أَلَّفَتْ كِتَابَ فِي ذَلِكَ، (الإجابة في إيراد ما استدرسته عائشة على الصحابة) للإمام الزركشي، تناقش ابن عمر، وتناقش عمر نفسه، وتناقش أبا موسى الأشعري، وتناقش أبا هريرة، وفلاناً، وفلاناً، فيما رَوَاهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، حينما يتعارض حديث مع ظاهر القرآن تتوقف في هذا، وتناقش أصحاب النبي ﷺ.

كانت عالمة، وكانت فقيهة، اعتبرها ابن حزم من المكثرات للفتوى من أصحاب النبي ﷺ وأُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، كانت تفتي كما قال بعض التابعين: رأيت الأكابر من أصحاب النبي ﷺ، من مشيخة الصحابة، يذهبون إلى عائشة يسألونها عن أحاديث رسول الله ﷺ، ويقولون: ما سألنا عائشة عن شيء إلا وجدنا عندها منه علماً^(١). فهي امرأة عالمة.

سُنُّ عَائِشَةَ حِينَ تَزَوَّجَهَا النَّبِيُّ ﷺ :

تزوجها النبي صغيرة، وهذا الأمر يتخذه بعض الناس سبيلاً على محمد ﷺ، مما جعل بعض الناس مثل الأستاذ العقاد، له كتاب عن عائشة اسمه (الصديقة بنت الصديق)، ينفي فيه أن الرسول ﷺ تزوجها

(١) رواه الترمذي في المناقب (٣٨٨٣)، وقال: حسن صحيح.

وهي بنت تسع سنوات، ويأتي بروايات معينة تقول: إنَّها تزوجها بنت أربع عشرة سنة. ولكن الروايات الصحيحة كلها تقول: إنَّه تزوجها بنت تسع سنوات^(١). ومن يقرأ سيرتها يعرف ذلك، حينما أرادت أسرتها أن تدخل على الرسول ﷺ، وأرادت أم رومان أن تزفَّها إلى النبي ﷺ، قالت عائشة: «جاءتني وأنا ألعب على أرجوحة». مما يدل على أنَّها كانت صبيرة صغيرة، فقال لها: «تعالى». وجاء ببعض النسوة من الأنصار يُزيّننها لرسول الله ﷺ^(٢)، وحينما كانت في بيت النبي ﷺ كان يدخل عليها بنات يلعبن معها، فحينما يدخل النبي ﷺ ينقمعن، يختبئن منه، فكان النبي ﷺ يلاطفهنَّ، ويُسربهنَّ إلى عائشة ليلعبنَّ معها، ممَّا يدل على أنَّها كانت صغيرة السن، وتقول هي حينما كان النبي ﷺ يريها لعب الحبشة، ورقصهم بالحراب في مسجده ﷺ في أحد الأعياد، تقول: فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن الحريصة على اللهو^(٣).

وحينما مات النبي ﷺ كان عمرها ثمانية عشر عامًا، وماتت هي سنة سبع وخمسين هجرية، وعمرها ثلاثة وستون عامًا وعدة أشهر، فكلَّ الأحداث تدلُّ على أنَّها لم تكن كبيرة، ولكن من المعروف أن بعض البنات يكون جسمهن ناميًا، يبدو أكبر من سنهن، فيبدو أنَّها كانت من هذا النوع.

ثم إنَّ من الخطأ في تقويم التاريخ وأحداثه أن تنقل الحادثة من عصر إلى عصر، فتحاكم الناس من أربعة عشر قرنًا إلى عصرنا هذا، الناس في ذلك الوقت كانوا يستحسنون زواج البنات الصغار، والآباء

(١) رواه البخاري في مناقب الأنصار (٣٨٩٦).

(٢) متَّفَق عليه: رواه البخاري في مناقب الأنصار (٣٨٩٤)، ومسلم في النكاح (١٤٢٢).

(٣) متَّفَق عليه: رواه البخاري في النكاح (٥٢٣٦)، ومسلم في صلاة العيدين (٨٩٢)، عن عائشة.

والأمهات يرضون بذلك، والبنات يرضين بذلك، ولا يكون هناك اعتراض من أحد، ومن المعروف أنها كانت مخطوبة قبل النبي ﷺ لابن مطعم بن عدي النوفلي، ولم يُزوّجها أبوها للنبي ﷺ حتى تحلل من وعد وعده للمطعم، ونحن إلى اليوم نرى بعض البيئات الريفية والبدوية تفعل ذلك، فلا ينبغي أن نُحكّم منطق عصرنا في منطق عصر مضى منذ أربعة عشر قرناً أو يزيد.

عائشة من خيرة النساء لرسول الله ﷺ :

كانت أم المؤمنين عائشة من خيرة النساء لرسول الله ﷺ، كان يقول لها النبي ﷺ: «إني لأعلم إذا كنت عني راضية، وإذا كنت علي غضبي». قالت: من أين تعلم ذلك؟ قال: «إذا كنت راضية عني فإنك تقولين: لا وربّ محمد. وإذا كنت عليّ غضبي تقولين: لا وربّ إبراهيم». قالت: أجل والله ما أهرج إلا اسمك^(١). ولكن حبك في قلبي.

وكان النبي ﷺ يلاطفها، ويتزاحمها عند الدخول من الباب أو الخروج منه، وقد تسابقا مرة أوّل ما تزوجت، وكانت خفيفة الجسم، فسبقت النبي ﷺ، وبعد سنين سمّنت، وأصبحت ثقيلة الجسم، فسابت النبي ﷺ - وكان سنه في ذلك الوقت فوق الخمسين - فسبقها، فقال لها: «هذه بتلك»^(٢). فأصبحت - كما يقول أهل القرى - متعادلين. هكذا كان معها ﷺ.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في النكاح (٥٢٢٨)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٣٩)، عن عائشة.

(٢) رواه أحمد (٢٤١١٨)، وقال مخرّجه: إسناده صحيح على شرط الشيخين. وأبو داود في الجهاد (٢٥٧٨)، وابن ماجه في النكاح (١٩٧٩)، وابن حبان في السير (٤٦٩١)، وصحّحه الألباني في الصحيحة (١٣١)، عن عائشة.

مرض موت النبي ﷺ ووفاته في بيت عائشة:

وحيثما مرض النبي ﷺ مرض موته؛ كان حسب العادة يُنقلوه كل يوم عند امرأة، فكان يتعب من ذلك، فيسألهن: «أين أنا غدًا؟» فيقولن: عند زينب، أو عند صفية، أو عند فلانة. فعرفن أنه يسأل عن يوم عائشة، وأن من الأفضل له أن يبقى في بيت واحد، لا يتنقل من بيت إلا بيت، فتنازلن جميعًا ليمرض ﷺ في بيت عائشة رضي الله عنها، قالت: وقد مات بين سحري ونحري، ودُفن في بيتي^(١). في حجرتها التي كان يعيش فيها معها، هكذا كانت رضي الله عنها وأرضاها.

وحيثما أشرفت رحمها الله على الموت كان مَمَّن زاروها ابن عباس، فقال لها كلامًا طيبًا، قال: أبشري، فوالله ما بينك وبين أن تفارقي كل نصب، وتلقي محمداً ﷺ والأحبة، إلا أن تفارق روحك جسدك. قالت: إيها، يا ابن عباس. قال: كنت أحب نساء رسول الله ﷺ إليه، ولم يكن يحب إلا طيبًا، سقطت قلادتك ليلة الأبواء، وأصبح رسول الله ﷺ ليلقتها، فأصبح الناس ليس معهم ماء، فأنزل الله: ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [المائدة: ٦]. فكان ذلك من سببك، وما أنزل الله بهذه الأمة من الرخصة، ثم أنزل الله تعالى براءتك من فوق سبع سماوات، فأصبح ليس مسجد من مساجد يذكر فيها الله إلا براءتك تتلى فيه آناء الليل والنهار. قالت: دعني عنك يا ابن عباس، فوالله لوددت أنني كنت نسيًا منسيًا^(٢). من خوفها من الله ﷻ.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الجناز (١٣٨٩)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٤٣).

(٢) رواه أحمد (١٩٠٥)، وقال مخرجه: إسناده قوي على شرط مسلم. ورواه البخاري في التفسير

(٤٧٥٣) مختصرًا.

عبادتها وجودها وشجاعتها:

هذا مع أنّها كانت تصوم الدهر، تسرد الصوم، ماعدا صوم العيدين، وأيام الحيض، وكانت من أسخى النَّاس، تأتيها العطايا من عمر، ومن معاوية، ومن عبد الله بن الزُّبَيْر حينما وُلِّي إمارة المؤمنين، أرسل لها غرارتين بهما حوالي مائة ألف درهم فوزَّعتها كلها، وليس في بيتها شيء، فقالت لها خادمتها حينما طالبتها بإعداد الفطور وهي صائمة: يا أم المؤمنين، لو كنت أبقيت لنا درهماً نشترى به لحمًا تُفطرين عليه. فقالت لها: لا تعنفيني، لو ذكرتيني لفعلت^(١). هكذا كانت من أسخى النَّاس، الدنيا عندها لا قيمة لها.

كما كانت من أشجع النَّاس، لكن الخطأ الوحيد الذي أخطأته في حياتها: أنّها دخلت الفتنة، قادت معركة الجمل، وقد ندمت عليها ندامة كلبية، كما قال الإمام الذهبي^(٢)، وكانت باجتهاد منها، فقد رأت أنّها تتأثر لعثمان رضي الله عنه من قتلته، وظنّت أنّ عليًّا رضي الله عنه تهاون في ذلك، وعليّ رضي الله عنه ما تهاون، ولكن الأمر لم يستتب له تمامًا حتّى يستطيع أن يقتص من هؤلاء النَّاس، وهم أولو قوة، ومعهم سلاح، وهم الذين حاصروا المدينة وقتلوا عثمان، فليس من السهل أن تقتص منهم، وإلا تحدث فتنة لا يمكن إطفاء نارها.

معركة الجمل:

ولكن للأسف بعض الصحابة، سيّدنا طلحة بن عبيد الله، والزُّبَيْر بن العوام، وعائشة رضي الله عنهم جميعًا قاموا بهذا الأمر، ليطلبوا بالثأر من

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٤٩/٢).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٧٧/٢).

قتلة عثمان، وكانت معركة الجمل، وحينما لقيهم سيّدنا عليّ رضي الله عنه أقنعهم بأن هذا خطأ، وذكرهم ببعض الأحاديث، فتركوا القتال، ولكن كلما سعى الساعون مثل القعقاع بن عمرو وغيره لإيقاف هذه الفتنة، وإطفاء نارها؛ يجدون مَنْ يرمي بسهامه على المعسكر الآخر فيرد عليهم الآخرون، وكان هذا من عمل عبد الله بن سبأ وشيعته اليهودية، الذين لا يريدون للمسلمين أن يلتئم شملهم، كانت هذه فتنة استعادت عائشة رضي الله عنها منها، وندمت عليها ندامة حتّى قالت لبعض أقاربها: إذا مرّ ابن عمر أرونيه. فلمّا مر ابن عمر قالت له: يا أبا عبد الرحمن؛ لماذا لم تنهني عن مسيري؟ أي إلى البصرة، قال: رأيتك قد غلب عليك أحد الرجال. وهو ابن أختها عبد الله بن الزبير، كان مؤثّرًا عليها.

كانت هذه فتنة، ولكنها كانت عن اجتهاد منها، نحن لا نشك في نوايا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، خصوصًا الذين تُوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راضٍ: السّنة أصحاب الشورى، العشرة المبشّرون بالجنّة، السابقون الأوّلون من المهاجرين والأنصار، أهل أحد، وأهل بيعة الرضوان، وأهل بدر الذين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر: «يا عمر، ما يدريك، لعلّ الله قد أطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم؛ فإنّي قد غفرت لكم»^(١). وهؤلاء كلهم من السابقين الأولين، ومن أهل بدر، ومن أهل بيعة الرضوان، ومن أهل أحد، وممن شهدوا المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسوابقهم تشفع لهم، وهم مرضيون عند الله، ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

(١) متّفق عليه: رواه البخاري في الجهاد والسير (٣٠٠٧)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٩٤)، عن علي.

هؤلاء هم أصحاب رسول الله ﷺ، وهذه أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنهم جميعًا، نسأل الله تبارك وتعالى أن يتقبلهم في الصالحين، وأن يجعلنا ممن يسيرون في ركابهم، ويحشرون في زمرتهم، مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصّالحين وحسن أولئك رفيقًا.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله تعالى لي ولكم فاستغفروه؛ إنّه هو الغفور الرحيم، وادعوه يستجب لكم.

* * *

الخطبة الثانية

أمّا بعدُ، فيا أيُّها الإخوة المسلمون:

تكريم المستشارة الألمانية للرسام المسيء:

في هذا الوقت الَّذي يصيبنا فيه ما يصيبنا من أذى من داخل الدائرة الإسلامية، لا نعجب أن يصيبنا أذى من خارج الدائرة الإسلامية، فمما ينبغي أن أذكره هنا، وأذكره متأسفًا غاية التأسف، أنّ المستشارة الألمانية (إنجيلا ميركل) كَرّمت الرسام الدانماركي، الَّذي سنَّ سنة سيئة في اتِّخاذ شخصية رسول الله محمد ﷺ - أعظم شخصية في الوجود - مجالاً للسخرية الكاريكاتورية، هذه الرسوم الَّتِي أثارت العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه، وأغضبت المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وقامت المسيرات في أنحاء العالم احتجاجًا على هذا الرسام، الَّذي أساء وأسفَّ وكذب وافترى، فهذه الإساءة لم تكن مجرد إساءة وإسفاف، بل كانت افتراء على رسول الله ﷺ الرحمة المُهداة للعالمين، صاحب الخلق العظيم، هذا الرسام تكرمه السيدة (ميركل) تكريمًا خاصًا بإعطائه وسام أو جائزة لأنّه يمثل حرية التعبير.

ولا أدري ما الَّذي يدعوها لهذا في هذا الوقت، وقد مرت على هذه الأمر سنوات، وهي تعرف ماذا جرَّ هذا الأمر على المسلمين في كل مكان؟ فتأتي بعد هذه السنين وتكرم هذا الرسام، وهو ليس ألمانيًا.

هذا في الحقيقة استهانة بأمة الإسلام ومقدّسات الإسلام، وقُدّس الأقداس عند المسلمين هو محمد رسول الله وكتاب الله، فالذي يسيء إلى رسول الله وإلى كتاب الله هو يسيء إلى أقدس الأقداس عند

المسلمين، فكيف تقوم بهذا تلك المرأة التي تذهب إلى بلاد العرب والمسلمين، وتستقبل استقبال الأبطال.

ولم نجد دولة من الدول استنكرت هذا الأمر، وأرسلت حتى إلى سفير ألمانيا لديها تحتج على هذا، أو أرسلت برقية، وكأن الأمر لا يعني هذه الأمة، كأن محمدًا رسول الله - بأمي هو وأمي - الذي لولاه ما اهتدينا بعد ضلالة، ولا تعلمنا بعد جهالة، ولا عززنا بعد ذلة، ولا كثرنا بعد قلة، ولا خرجنا من الظلمات إلى النور، كأن محمدًا ﷺ لا يعيننا أمره.

هذا الرسام هو الذي تسبب في انتشار هذه الصور الكاريكاتورية من الدانمارك إلى غيرها، حتى إنه في هذه الأيام القريبة قامت إحدى الرسامات الأمريكيات تقربت أيضًا إلى الصليبية الغربية برسوم مسيئة لمحمد ﷺ، هذه الإساءات يعتبرها الغرب من حرية التعبير!

الذي أعرفه أن حرية التعبير تعني أن يكون لك رأي تُعبّر عنه، تقول: أرى كذا وكذا، وأخالف الإسلام في كذا وكذا، الإسلام لا يقول بالربا، وأنا أقول بالربا، الإسلام يقول بالحجاب، وأنا لا أقول بالحجاب، الإسلام يقول بالجهاد، وأنا لا أقول بالجهاد. هذا رأيك، لكن هل يدخل السباب في حرية التعبير؟ أن تأتي إليّ وتقول: الله يلعنك ويلعن أباك. هل هذه حرية تعبير؟ أن تسيء إلى الإنسان، أن تكون قليل الأدب، أن تسيء إلى ما يقدسه الإنسان، هل هذا من الرأي، وحرية التعبير عن الرأي؟

هذا في الحقيقة ليس رأيًا ولا من حرية التعبير عن الرأي، إنما هو إساءة أدب، وقلة أدب، وقلة احترام للناس.

وأنا أعجب لهذا الغرب الذي يقف ضد حرية المرأة المسلمة، ويحرمها من حقها في ارتداء الحجاب، أن تغطي رأسها، امرأة تريد أن تغطي رأسها، تحتشم، وترى أن هذا فرض عليها في دينها، أمرها الله به ورسوله، وأنها إن لم تفعل ذلك تغضب الله، وترتكب الحرام، وتدخل النار، من أجل هذا تمثّل لأمر الله وتغطّي رأسها ورقبتها ونحرها إلى آخره.

لكن تأتي فرنسا العلمانية، فتحرم على المرأة لبس الحجاب، والمفروض أنّ العلمانية تقف موقفاً محايداً من الدين، لا تؤيده ولا تعاديه، أمّا أن تعاديه فليس هذا في العلمانية الحقيقية، ولكنه في العلمانية الشرسة، المعادية للدين وللأخلاق وللإسلام، ثمّ زادت بعد ذلك فحرمت النقاب البرقع.

وأنا في الحقيقة لا أرى وجوب النقاب ولا البرقع، ولكن هناك من العلماء من يرى ذلك، وهناك من النساء من تقنع به، فهذا يدخل في صلب الحرية الدينية والحرية الشخصية، لماذا لا تقفون ضد المرأة المتعريّة والمتبرجة، والتي تكشف الرأس والنحر والذراعين والساقين وما تحت الركبة وما فوقها، وهناك العاريات في المجتمع الغربي، لماذا لا يقفون ضد حرية هذه المرأة، ويقفون ضد حرية المرأة المسلمة؟ لماذا يؤذّهم الاحتشام؟

كان أحد الأدباء الغربيين قديماً يقول: الغرب غرب، والشرق شرق، ولن يلتقيا. وأنا كنت ضد هذه المقولة، وأرى أنّ الغرب والشرق كلهم بنو آدم، وكلهم من مملكة الله، ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥].

ولكنني بعد هذه المواقف رأيت فعلاً أنّ الغرب له دينه، وله أخلاقه، وله مفاهيمه، وله قيمه، وله تقاليد، ولا يشاركنا في شيء من هذه التقاليد، وليته يتركنا وشأننا، ونتركه وشأنه، ولكنه يفرض علينا قيمه، ويفرض علينا تقاليد، ويفرض علينا مفاهيمه، نقول له: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَآلِي دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]. فيقول: لا، لنا ديننا، وليس لكم دينكم. نقول: ﴿لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ﴾ [القصص: ٥٥]. فيقول: لا، لنا أعمالنا، وليس لكم أعمالكم.

هذا هو الغرب الذي يحتفل بحرية التعبير، يُكرّم مَنْ يسيء إلى أعظم شخصية في تاريخ البشرية: محمد ﷺ، ويسيء إلى أمة يقارب تعدادها المليار وثلثي المليار من البشر، ولا يبالي أرضيت هذه الأمة أم سخطت؟

أسأل الله تبارك وتعالى أن يجمع كلمة أمّتنا على الهدى، وقلوبها على التّقى، ونفوسها على المحبة، وعزائمها على عمل الخير وخير العمل؛ إنّه سميع قريب.





المبشرات بمستقبل الإسلام^(١)

الخطبة الأولى

أمّا بعدُ، فيا أيُّها الإخوة المسلمون:

أحدثكم في هذه الخطبة عن المبشرات، المبشرات بمستقبل هذا الدين، المبشرات بانتصار هذا الإسلام، وذلك لما أحس به من أن كثيراً من النفوس أصابها اليأس، وأصابها الشعور بالإحباط؛ نتيجة للضربات الهائلة التي تنزل بالأمة الإسلامية، وبالصحوة الإسلامية، وبالحركة الإسلامية، وكأن البعض يقول: ما نكاد نتقدم إلاّ لتأخر، ولا نتقدم خطوة إلاّ عدنا خطوة أخرى أو خطوتين، ولا زال أعداؤنا يدبرون لنا المكائد، وينصبون لنا المصائد حتى نقع في الشرك!

ضربات متتابعة لأبناء الصحوة:

بعد أن كانت الصحوة الإسلامية ملء الأسماع والأبصار؛ إذا بهذه الضربات تُكّال لها هنا وهناك في بلاد شتى؛ حتى عوقت مسيرتها، وحتى شغلتها بمتاعبها عن مطالبها، وبآلامها عن آمالها.

(١) ألقىت هذه الخطبة خلال زيارة إلى (ندوة العلماء) بالهند، عام ١٩٩٦م.

هذا ما يشعر به المخلصون الغيرون على هذا الدين، يقولون: أين ثمرة الجهاد في أفغانستان؟ وأين ثمرة الصحوة الإسلامية في الجزائر؟ وأين ثمرة الصحوة الإسلامية في مصر؟ وأين ثمرة الصحوة الإسلامية في تونس؟ وأين ثمرة الصحوة الإسلامية في كذا وكذا من بلاد الإسلام وأقطار هذه الأمة؟

هذه المعاني جعلت الكثيرين يشعرون باليأس وبالإحباط، وهذا ما لا يجوز، لا يجوز للعاملين للإسلام أن ييأسوا أبدًا، ولا أن يشعروا بالإحباط أبدًا؛ فإن اليأس من لوازم الكفر، والقنوط من مظاهر الضلال، ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِسُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦].

الأمل والرجاء سلاح المؤمن:

سيظلُّ الأمل جذوة متقدة في نفوسنا، مهما اسودت الدنيا من حولنا فنحن نشعر بالأمل، ونشعر بالرجاء، ونشعر أن الغد لنا، وأن المستقبل لنا، وأن نصر الله قريب وإن مستنا البأساء والضراء والزلزلة، كما قال الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا﴾ [البقرة: ٢١٤]. مستهم البأساء: البؤس والفقر في الأموال. ومستهم الضراء: الجراح والعذاب في الأبدان. وأصابتهم الزلزلة في النفوس، ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١١]، ﴿وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلاَّ إِنَّا نَصْرُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٤]. يستبطنون النصر، ويعقب القرآن على ذلك بقوله: ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

المبشرات من القرآن الكريم:

أودُّ أن أذكر لكم أنواعاً من المبشرات، أولها المبشرات من القرآن الكريم، فمن قرأ القرآن وجد فيه مبشرات شتى، اقرأ قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة: ٣٣]. وهذا الجزء من الآية تكرر ثلاث مرات في القرآن: في سورة التوبة، وفي سورة الفتح، وفي سورة الصف، ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾، ظهر الإسلام قديماً على اليهودية والنصرانية، والمجوسية وبعض الأديان الوثنية، ولكن بقيت وثنيات كبرى في العالم لم يظهر عليها الإسلام، وهذه البشارة تدلنا على أن الإسلام لا بد أن يظهر على الأديان كلها، ﴿عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣]، نحن ننتظر هذا الوعد الإلهي، ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ [الكهف: ٩٨]، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [الرعد: ٣١].

وعندنا بشارة أخرى في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥].

وما ذكره القرآن من قصص الأنبياء كله بشائر؛ بأنه لا بد أن ينصر الله المؤمنين ويهلك الكافرين، ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١]، ﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠]، هذا تثبيت للمؤمنين، وإيقاد لشعلة الأمل في صدورهم حتى لا تنطفئ أبداً.

ويقول الله عز وجل: ﴿سَرُّهُمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]. والحمد لله يوماً بعد يوم يكشف الناس حقيقة هذا الدين، ويدخل فيه من كبار العلماء والمفكرين والفلاسفة؛ رغم سوء

حال المسلمين، ويكتشف العلماء في هذا القرآن العظيم ألواناً من الإعجاز لم تكن معروفة للسابقين، كل هذا مما تبشر به هذه الآية، ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣]، ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٣].

البشائر في القرآن كثيرة، وحسبي هذه الإشارات.

بشائر السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ:

وهناك نوع آخر من البشائر، وهي بشائر السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ، ما جاء في صحاح الأحاديث عن رسول الله ﷺ، من أن هذا الدين سينتشر في العالم كله، في حواضره وبواديه، كما جاء في الحديث الذي رواه تميم الداري: «ليبلغن هذا الدين ما بلغ الليل والنهار»، حيث يصل الليل والنهار في الكرة الأرضية كلها، شمالها وجنوبها، ومشرقها ومغربها، «ولا يبقى بيتٌ مَدْرٍ أو وَبَرٍ»، المَدْر: الحجر، والوَبْر: الشعر. والمدر يكون في الحواضر، والوَبْر يكون في البوادي، «ولا يبقى بيت مدر أو وبر؛ إلا أدخله الله هذا الدين، بعزٍّ عزيز، أو بذل ذليل، عزٌّ يعز الله به الإسلام، وذللٌ يذل الله به الكفر»^(١).

فتح القسطنطينية:

وروى الإمام أحمد عن أبي قبيل، قال: كنا عند عبد الله بن عمرو بن العاص فسأله رجل: أي المدينتين تُفتح أولاً: رومية أو قسطنطينية؟

(١) رواه أحمد (١٦٩٥٧)، وقال مخرّجوه: إسناده صحيح. والحاكم في الفتن والملاحم (٤٣٠/٤)، وصحّحه ووافقه الذهبي، وصحّحه الألباني في الصحيحة (٣)، عن تميم الداري. وانظر كتابنا: المبشرات بانتصار الإسلام ص ٢٧، ٢٨، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٣، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م.

فأخرج صندوقاً له حلق، وأخرج من الصندوق صحيفة، وقرأ فيها أن النبي ﷺ سئل هذا السؤال: أي المدينتين تُفتح أولاً: رومية أو قسطنطينية؟ وكان الصحابة كانوا قد سمعوا أن كلتا المدينتين ستُفتح، والسؤال: أي المدينتين تُفتح أولاً؟ فقال النبي ﷺ: «مدينة هرقل تفتح أولاً»^(١). أي القسطنطينية.

وقد فُتحت القسطنطينية، فتحها ذلك الشاب العثماني الطموح محمد بن مراد، الذي يُعرف في التاريخ باسم (محمد الفاتح)، فتحها وهو في الثالثة والعشرين من عمره، بدأ يفكر وهو ابن التاسعة عشر أو ابن العشرين في فتح القسطنطينية، وقرأ في كتب الحديث: في المستدرك وغيره، أن النبي ﷺ قال: «لُتفتحن القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش»^(٢). فتاقت نفسه أن يكون هو هذا الأمير، وأن يكون جيشه هو ذلك الجيش المُرتجى!

وقد حاول الصحابة من قبل أن تكون لهم هذه الفضيلة؛ فلم يوفقوا إليها، وادخرها الله لهذا الشاب ولجيشه، فتحها في العشرين من جمادى الأولى سنة ثمانمائة وسبع وخمسين للهجرة (٨٥٧هـ.)، في التاسع والعشرين من مايو سنة ألف وأربعمائة وثلاث وخمسين ميلادية (١٤٥٣م.). وإخواننا في حزب الرفاه في تركيا، صار لهم عدة سنوات

(١) رواه أحمد (٦٦٤٥)، وقال مخرّجوه: إسناده ضعيف. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠٣٨٥): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح؛ غير أبي قبيل، وهو ثقة. والحاكم في الفتن والملاحم (٥٥٥/٤)، وصحّحه، ووافقه الذهبي، وصحّحه الألباني في الصحيحة (٤)، عن عبد الله بن عمرو.

(٢) رواه أحمد (١٨٩٥٧)، وقال مخرّجوه: إسناده ضعيف. والحاكم في الفتن (٤٢١/٤)، وصحّحه، ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠٣٨٤): رجاله ثقات. عن بشر الغنوي.

يحتفلون بذكرى فتح القسطنطينية، كان الحكم العلماني قد أهال التراب على هذه الذكرى، فأحبوا أن يذكروا الناس بها.

فُتحت القسطنطينية، وبقي الشق الثاني من البشارة، أن تُفتح رومية، ورومية كما يقول ياقوت في (معجم البلدان) هي ما نسميه الآن: روما، عاصمة إيطاليا، ومعنى هذا أن يعود الإسلام إلى أوروبا مرة أخرى، وقد دخلها مرتين وأخرج منها، دخلها عن طريق المغرب وجبل طارق وفتح الأندلس (إسبانيا)، وأقام فيها حضارة شامخة الذرا، ظلت ثمانية قرون، ثم انحرف المسلمون للأسف عن مهاجمهم الحق، واختلفوا فيما بينهم وتفرقوا، ومكنوا أعداءهم منهم، فأخرجوا من إسبانيا أو من الأندلس.

ودخل الإسلام أوروبا مرة أخرى عن طريق العثمانيين، الذين فتحوا البلقان، وطرقت أبواب (فيينا) عاصمة النمسا أربع مرات، ثم ضعفت الدولة العثمانية وتآمر عليها الغرب، وسموها الرجل المريض، وتآمروا أن يقتسموا تركة المريض، وأخرجوا الإسلام من أوروبا مرة ثانية.

وهذا الحديث يبشرنا بأن الإسلام سيفتح رومية: إيطاليا، الفاتيكان، هذه بشرى من رسول الله ﷺ، ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٣-٤]، هو لا يعلم الغيب بذاته، وإنما يعلم من الغيب ما أعلمه الله به، ﴿ عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ۗ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ ﴾ [الجن: ٢٦-٢٧].

كيف يكون الفتح؟

هذه بشرى بأن الإسلام سيفتح أوروبا مرة أخرى، هل يفتحها بالسيف؟ أم يفتحها بالدعوة؟ الله أعلم، كل هذا يمكن أن يُسمى فتحًا.

عندنا الفتح المبين - الذي نزلت فيه سورة الفتح - كان فتحًا سلميًا، ومن الممكن أن تجد أوروبا نفسها أحوج ما تكون إلى هذا الدين، بعد أن أشقتها الفلسفات الأرضية، والأيدولوجيات الوضعية، ولم تستطع المسيحية أن تشفي علتها أو تنقع غلتها؛ فتلجأ إلى هذا الدين، فتجد فيه المنارة والهدى، وتجد فيه الري لظمئها، والشبع لجوعها، والهداية من ضلالها.

بلوغ ملك الإسلام المشارق والمغرب:

وهناك بشارة أخرى في الحديث الذي رواه مسلم، عن ثوبان، أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ - أَي ضَمَّتْ وَجُمِعَتْ - فَرَأَيْتَ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنْ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مَلِكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا»^(١). الحديثان السابقان يدلان على انتشار الدين، وهذا الحديث يدل على اتساع الدولة، ستصل الدولة المشارق والمغرب، دولة الإسلام في القديم وصلت المشارق وإلى جزء من المغرب، ولم تصل إلى كل المشارق، وصلت الصين، ولكن لم تصل إلى اليابان، ولم تصل إلى أوروبا إلا في تلك القطع، هذا الحديث يقول: «وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها».

نحن إذن ننتظر أن تصل دولة الإسلام إلى المشارق والمغرب، وما ذلك على الله بعزيز، وصل المسلمون في نصف قرن إلى أسوار الصين، ووصلوا إلى الأندلس، ووصلوا إلى بخارى وسمرقند، ووصلوا إلى أهم بلاد العالم القديم، فلا يبعد أن تأتي مرحلة تسود فيها دولة الإسلام، ويتسع ملكها إلى هذا الحد، وقد بشرنا بذلك رسول الله ﷺ.

(١) رواه مسلم في الفتن (٢٨٨٩)، وأحمد (٢٢٣٩٥)، عن ثوبان.

الانتصار على اليهود:

ومن البشائر النبوية الانتصار على اليهود، اليهود الذين يقولون الآن عن أنفسهم: إننا القوة التي لا تُقهر، والشوكة التي لا تُكسر. سيُقهرون وسيُكسرون! روى الشيخان، عن ابن عمر وأبي هريرة، عن النبي ﷺ قوله: «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود، فيقتلهم المسلمون، حتى يختبئ اليهودي وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر والشجر: يا عبد الله، يا مسلم، هذا يهودي ورائي فتعال فاقتله»^(١). بشرى من النبي ﷺ.

هل ينطق الحجر والشجر بلسان المقال؟ ليس ذلك على الله بعزيز. أم ينطق بلسان الحال؟ هذا يمكن أيضًا، وقد قال العرب: لسان الحال أفصح من لسان المقال. أي إن كل شيء يدل على اليهود، حينما يكون النصر يكون كل شيء معك، وحينما تُبتلى بالخذلان يكون كل شيء ضدك، وهكذا كان العرب سنة ١٩٦٧م. كانت أسلحتهم ضدهم، لم يكونوا مع الله؛ فلم يكن الله معهم، سيأتي يوم ننتصر فيه على اليهود، ويتغير اتجاه الريح، وتكون الريح لصالحنا نحن المسلمين.

المبشرات في السنة كثيرة، منها أن أرض العرب ستعود مروجًا وأنهارًا^(٢)، وأن الرخاء سيعم ديار الإسلام؛ حتى إنَّ الرجل ليأخذ صدقته في يده - وهي قطع من الذهب - يبحث عمن يأخذ منه صدقته فلا يجد، يقول للرجل: خذ هذه الصدقة. فيقول: لو أتيتني بالأمس لقبلتها، أمّا اليوم فلا حاجة بي إليها^(٣). عمَّ الرخاء.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٢٦)، ومسلم في الفتن (٢٩٢٢)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه مسلم في الزكاة (١٥٧) (٦٠)، وأحمد (٩٣٩٥)، عن أبي هريرة.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (١٤١٢)، ومسلم (١٥٧)، كلاهما في الزكاة، عن أبي هريرة.

الطائفة المنصورة:

كذلك من المبشرات في السنة بقاء الطائفة المنصورة، «لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين، لا يضرهم من خالفهم؛ حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك»^(١)، صح ذلك عن عدد من الصحابة: عن عمر، وعن جابر، وعن ابن مسعود، وعن المغيرة بن شعبة، وعن معاوية، وعن عمران بن حصين^(٢).

ومما جاء من هذه الأحاديث ما رواه أحمد والطبراني، عن أبي أمامة الباهلي، أن النبي ﷺ قال: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين، لعدوهم قاهرين، لا يضرهم من خالفهم أو من جابهم إلا ما أصابهم من لأواء - أي ما أصابهم من أذى ومتاعب في الطريق - حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك». قالوا: وأين هم يا رسول الله؟ قال: «بيت المقدس، وأكناف بيت المقدس»^(٣). بيت المقدس وحوله؛ سيظل هؤلاء المرابطون لا يضرهم من خالفهم أو من جابهم.

هناك مبشرات كثيرة في السنة أنه ستأتي خلافة على منهاج النبوة، وسيأتي من سموه المهدي، وفيه أحاديث يقوي بعضها بعضاً، وهو حاكم عادل، يملأ الأرض عدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً، كل هذه مبشرات من السنة.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في العلم (٧١)، ومسلم في الإمارة (١٠٣٧)، عن معاوية بن أبي سفيان.

(٢) انظر: الأحاديث من (٧٢٨٧) إلى (٧٢٩٦)، ومن (٧٧٠١) إلى (٧٧٠٤) من صحيح الجامع الصغير وزيادته.

(٣) رواه عبد الله وجادة عن خط أبيه في المسند (٢٢٣٢٠)، وقال مخرّجوه: حديث صحيح لغيره دون قوله: قالوا: يا رسول الله، وأين هم... إلخ. والطبراني (١٤٥/٨)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٢٢٤٨): رجاله ثقات. عن أبي أمامة الباهلي.

المبشرات من التاريخ:

وهناك نوع ثالث من المبشرات هو المبشرات من التاريخ. والتاريخ ذاكرة الأمة، وسجل أحداثها، وخصوصًا تاريخنا الإسلامي؛ لو رجعنا إليه لوجدنا الإسلام أصلب ما يكون عودًا، وأشد ما يكون قوة، وأصفى ما يكون جوهرًا، وأعظم ما يكون صمودًا حينما تنزل به الحوادث، وتحيط به الشدائد، هنا يظهر المعدن الأصيل لهذه الأمة، وتظهر القوة الذاتية لهذا الإسلام، وعملها في نفوس أمته.

أحداث الردة:

هذا ما لاحظناه خلال أحداث التاريخ الكبرى؛ منذ أحداث الردة في عهد سيدنا أبي بكر رضي الله عنه، وقد ارتدت قبائل العرب إلا القليل منهم، وقال بعض الصحابة لأبي بكر: يا خليفة رسول الله، تألف الناس وارفق بهم؛ فإنهم بمنزلة الوحش! فقال: رجوت نصرك وجئتني بخذلانك، جبار في الجاهلية خوار في الإسلام؟! ماذا عسيت أن أتألفهم: بشعر مفتعل، أو بسحر مفتري؟! هيهات هيهات! مضى النبي صلى الله عليه وسلم وانقطع الوحي، والله لأجاهدنيهم ما استمسك السيف في يدي، وإن منعوني عقالا. قال عمر: فوجدته في ذلك أمضى مني، وأصرم مني. وأدب الناس على أمور، هانت علي كثير من مؤنتهم حين وليتهم^(١).

المرتدون ومانعوا الزكاة، المرتدون الذين اتبعوا المتنبيين: مسيلمة، وسجاح، والأسود العنسي، وطلحة الأسيدي وغيرهم، وفعلاً

(١) عزاه المتقي الهندي في كنز العمال (١٦٨٣٨) للإسماعيلي. والحديث متفق عليه: بغير هذا اللفظ. رواه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة (٧٢٨٤)، ومسلم في الإيمان (٢٠)، عن أبي هريرة.

جَهَّزَ أَحَدَ عَشْرَ جَيْشًا لِمُحَارَبَةِ الْمُرْتَدِينَ وَمَانَعِي الزَّكَاةِ؛ حَتَّى أَعَادَهُمْ إِلَى حِظِيرَةِ الْإِسْلَامِ!

انتصرت هذه الجيوش كلها، وعاد المرتدون إلى الإسلام، وكانوا من أكثر الناس حماسًا في حرب فارس والروم، يُكفِّرون عن خطيئة الردة، شعروا أَنَّهُمْ أَجْرَمُوا فِي حَقِّ أَنْفُسِهِمْ؛ فَكَانُوا يَعْوِضُونَ عَنْ ذَلِكَ بِالْمَزِيدِ مِنَ الْإِقْدَامِ، حَدَثَ هَذَا فِي فَجْرِ الْإِسْلَامِ.

الحروب الصليبية:

ثم بعد ذلك رأينا الصليبيين وقد جاؤوا في تسع حملات من أوروبا؛ بقضهم وقضيضهم، وثالوثهم وصليبهم، جاؤوا في غفلة من الزمن، وتتابع من المحن، وتفرق من حكام المسلمين؛ فاستطاعوا أن ينتصروا على هؤلاء الحكام المتفرقين المترفين، وأن يقيموا ممالك وإمارات ظلت مائتي سنة، وأن يستولوا على المسجد الأقصى، وأن يظل أسيرًا في أيديهم تسعين سنة؛ حتى هيا الله رجالًا ليعيدوا الأمور إلى نصابها، لم يكن هؤلاء الرجال من جنس العرب، كانوا أتراكًا وأكرادًا، عماد الدين زنكي التركي، وابنه نور الدين محمود الشهيد، الذي كان يُشَبَّه بالخلفاء الراشدين: في عدله وزهده، وحسن سيرته وشجاعته! وتلميذه صلاح الدين الأيوبي، الذي حقق الله على يديه النصر في معركة حطين، ثم في معركة بيت المقدس، واستعاد بيت المقدس.

زحف التتار:

هذه زحوف جاءت من الغرب، وهناك زحوف أخرى جاءت من الشرق: زحوف التتار: المغول الذين جاؤوا من أقصى الشرق، يأكلون

الأخضر واليابس، كالريح العقيم ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم، يهدمون كل شيء أمامهم، ولا يقوم لهم أحد!

وسقطت الممالك الإسلامية الشرقية أمامهم؛ حتى وصلوا إلى عاصمة الدولة الإسلامية العباسية بغداد، فقتلوا فيها من قتلوا، وذبحوا من ذبحوا، وألقوا بالخزائن الإسلامية العامرة بالكتب في نهر دجلة؛ حتى اسود ماؤه من كثرة ما سال من مداد، هكذا سقطت بغداد سنة (٦٥٦هـ).

و شاء الله تعالى بعد سنتين من سقوط بغداد - أي سنة (٦٥٨هـ) - أن يستعيد الإسلام ثقته مرة أخرى على يد المصريين، في المرة الأولى كان على يد المصريين بقيادة صلاح الدين، وفي هذه المرة على يد المصريين أيضاً بقيادة ذلك الرجل القائد المملوكي الصالح: المظفر سيف الدين قطز.

وفي معركة من المعارك الحاسمة في التاريخ، عند قرية اسمها عين جالوت، وفي الخامس والعشرين من رمضان وقعت المعركة، وكاد المسلمون في أول الأمر ينهزمون أمام التتار، بما بلغهم من الرعب، وما شاع أنهم القوة التي لا تُقهر، وإذا قيل لك: إنَّ التتار قد انهزموا؛ فلا تصدق!

ولكن الرجل الصالح كان يلبس خوذة نحاسية، فأمسك بخوذته وألقاها على الأرض، وصاح صيحته التاريخية الشهيرة: وإسلاماه! فما كاد الرجل ينطق هذه الكلمة حتى تغير الموقف: ثبت المتردد، وأقدم المُحجم، وتشجّع الجبان، وعاد الهارب، وتغيّر اتجاه المعركة لصالح المسلمين، وانتصر المسلمون انتصاراً عسكرياً على هؤلاء التتار، كملّه بعد ذلك القائد المملوكي الظاهر بيبرس.



ثم شاء الله أن ينتصر الإسلام على هؤلاء التتار انتصاراً معنوياً، بجوار الانتصار العسكري، وهو أن هؤلاء التتار دخلوا مختارين في الإسلام، ولأول مرة يسجل التاريخ دخول الغالب دين المغلوب، هذه مبشرات من التاريخ.

معارك التحرير الحديثة:

وإذا نظرنا إلى التاريخ الحديث، نجد أن الإسلام هو القوة الدافعة وراء كل معارك التحرير في البلاد الإسلامية، فكل المعارك كان وراءها الإسلام، هو القوة التي تجعل المسلم يضحي بنفسه ونفيسه، وغاله ورخيصه، ولا يبالي بشيء ما دام يقاتل في سبيل الله، في كل المعارك.. وأخرها معركة الجزائر، ومعركة أفغانستان، ومعركة فلسطين، كل هذه الدوافع الإسلامية وراء هذا الجهاد.

من الناحية التاريخية عندنا بشائر تدل على أن الإسلام لا يمكن أن ينهزم، هذه الأمة فيها قوى مذكورة تظهر عند الشدائد، وتحتاج إلى من يحركها، كما احتاجت إلى مثل عماد الدين زنكي، ونور الدين محمود الشهيد، وصلاح الدين الأيوبي، وسيف الدين قطز: تحتاج إلى قادة يحركون هذه الأمة، ويفجرون طاقاتها.

المبشرات من الواقع:

النوع الرابع من المبشرات أيها الإخوة هو المبشرات من الواقع، الواقع يقول: إن الأمة الإسلامية تملك من مقومات القيادة والريادة والسيادة، ما يجعل لها مكاناً تحت الشمس.

تملك الأمة الإسلامية القوة البشرية، ملياراً وثلث مليار من البشر،

حوالي ألف وثلاثمائة مليون مسلم في العالم، ولا تستهينوا بالقوة البشرية، من قديم قال الشاعر:

وَلَسْتُ بِالْأَكْثَرِ مِنْهُمْ حَصَى وَإِنَّمَا الْعِزَّةُ لِلْكَأَثِرِ^(١)

وقال الآخر:

ملأنا البرَّ حتى ضاقَ عَنَّا ونحنُ البحرَ نملؤه سفِيناً^(٢)

وقال الله تعالى في معرض الامتنان: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُمْ﴾ [الأعراف: ٨٦]. يدل على أنَّ الكثرة نعمة؛ إذا وظفها الناس وأحسنوا الاستفادة منها، فعند الأمة هذه القوة البشرية الهائلة.

القوة المادية:

وعندها القوة المادية والاقتصادية: أراضي زراعية، وشواطئ بحار وبحيرات وأنهار، ومعادن من كل لون، وموقع استراتيجي لا نظير له؛ لأن البلاد الإسلامية تقع في وسط العالم، وفي ملتقى القارات، وفي مهبط الرسالات، وفي منبت الحضارات، معظم حضارات العالم نشأت في ديار الإسلام، هذه كلها من مصادر القوة.

القوة الروحية:

ثم هناك القوة الروحية، فالأمة الإسلامية هي الأمة الوحيدة التي تملك الرسالة التي تستطيع أن تنقذ العالم مما هو فيه: رسالة الإسلام، رسالة التوازن والوسطية، الرسالة التي وصلت الأرض بالسماء، وربطت

(١) من شعر الأعشى. انظر: صبح الأعشى (٤٤٤/١)، نشر دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) ديوان عمرو بن كلثوم ص ٩١، من معلقته الشهيرة، تحقيق د. إميل بديع يعقوب، نشر دار الكتاب العربي، ط ١، ١٩٩١م.



الدنيا بالآخرة، ووفقت بين العقل والقلب، ومزجت المادة بالروح، ووازنت بين مصلحة الفرد ومصلحة المجتمع، رسالة التوازن، ولا يقدر على هذا التوازن إلا رب حكيم، عليم خبير، يستطيع أن يضع المنهاج الوسط للأمة الوسط، الله هو شارع هذا المنهاج وهو صاحبه.

الأمة الإسلامية هي التي تملك رسالة السماء، وتملك الوثيقة الإلهية الوحيدة، التي تتضمن كلمات الله الأخيرة للبشر، لم يعترها تحريف ولا تبديل: القرآن الكريم. ليس عند أمة من الأمم ما عند المسلمين، عندنا القرآن، وعندنا بيانه من السنة، فلا تملك أمة من الأمم من القوة الروحية ما تملك أمتنا.

هذا الإسلام العظيم هو الذي يستطيع أن ينقذ المسلمين من هدتهم، وينقذ العالم من ورائهم؛ إذا آمن المسلمون بهذا الإسلام منهاجًا للحياة.

الصحة الإسلامية:

الإسلام هو المؤثر الأول في حياة هذه الأمة، وقد رأينا الصحة الإسلامية المعاصرة كيف استجابت لدعوة الإسلام، وأقبل الناس عليها أفواجًا أفواجًا، وخصوصًا من الشباب والشابات، هذه الصحة الإسلامية التي نرى آثارها وثمارها في كل مكان: صحة عقول وأفكار، وصحة قلوب ومشاعر، وصحة إرادات وعزائم، وصحة التزام وعمل، وصحة غيرة ودعوة، وصحة جهاد وكفاح، هذه الصحة بمظاهرها المختلفة رأيناها في العالم العربي، والعالم الإسلامي، وخارج العالم الإسلامي؛ حتى في الأقليات والجاليات الإسلامية، في أوروبا وأمريكا وغيرها، رأينا هذا الشباب الصوّام القوّام المستغفرين بالأسحار، الذين يقرؤون القرآن ويدرسون الحديث، ويصومون الاثنين والخميس، الذين يتحرقون

شوقاً إلى الجهاد، ولا يبالون بما يصيبهم في سبيل الله، هذه الصحوة الإسلامية موجودة.

صحيح أن هذه الصحوة تُضرب وتُكال لها الضربات؛ ولكنها لن تموت، ستظل تتأجج ويشتعل نورها ونارها: نور يهدي، ونار تحرق.. تحرق الظالمين والطغاة!

سيظل هذا الأمل متقدماً في صدورنا، قامت الصحوة ولن تقعد، وحيث ولن تموت، واستيقظت ولن تنام إن شاء الله!

هذه الضربات تقويها، وتعطيها القوة كما لاحظنا ذلك في عدد من البلاد، يمكن أن تكمن وتختفي، ولكنها لا تزول.. يمكن أن يصيبها بعض التعويق، ولكنها لا تموت أبداً، هذه مبشرات من الواقع أيها الإخوة.

المبشرات من السنن الإلهية:

وهناك نوع خامس من المبشرات هو المبشرات من سنن الله، لو نظرنا إلى سنن الله لوجدنا هذه السنن في صالحنا، سنن التغيير، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، ما دام هذا الشباب قد عرف ربه، وعرف دينه، وعرف غايته، وعرف طريقه، وأصبح يلوذ بالإسلام، ويعود إلى الإسلام: يعمل به، ويعمل له، ويدعو إليه، ويستعد للجهاد في سبيله؛ فأعتقد أن الأمة بهذا بدأت تغير ما بأنفسها، فهي جديرة أن يغير الله ما بها.

وهناك سنة التداول، ﴿إِنْ يَمَسُّكُمْ كَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ كَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿ [آل عمران: ١٤٠]، دوام الحال من المحال، والدهر

يومان: يوم لك، ويوم عليك. في الأيام الماضية كانت الأيام علينا، وفي الأيام القادمة إن شاء الله ننتظر أن تكون الأيام لنا.

كان الشيخ حسن البنا - رحمه الله ورضي عنه - يقول: من نظر إلى الحساب التاريخي يجد أن الدور لنا، وليس علينا. ويقول: كانت قيادة الدنيا في يوم من الأيام في يد الشرق: أيام الحضارات المصرية، والفارسية، والهندية، والآشورية، والبابلية.. إلى آخره، ثم انتقلت القيادة إلى الغرب؛ على يد اليونان والرومان، ثم عادت إلى الشرق على يد الحضارة العربية الإسلامية الشامخة، ثم لَمَّا فرَط المسلمون انتقلت الشعلة ثانية إلى الغرب، والغرب لم يحسن القيام بحق الحضارة؛ أفلس روحياً، وأفلس أخلاقياً، وأفلس سياسياً، كال بمكيالين، نصر المبطلين على المحققين، نصر الأقوياء على الضعفاء، فجدير أن يسلب الله منه هذه القيادة؛ لتعود مرة أخرى إلى هذا الشرق^(١).

الدور لنا إذن وليس علينا، كل ما يُطلب منا أن نعمل لنصرة هذا الدين؛ فإن سنة الله ألا يُنصر هذا الدين إلا بأهله ورجاله ودعاته؛ كما قال الله تعالى لرسوله: ﴿هُوَ الَّذِي آيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢]. النصر للمؤمنين، والنصر بالمؤمنين.

إنني لمستبشر كل الاستبشار، عندنا كل هذه المبشرات، مبشرات من كتاب الله، ومبشرات من سنة رسول الله، ومبشرات من التاريخ الحافل، ومبشرات من الواقع الماثل، ومبشرات من السنن والقوانين الإلهية، كل هذه تملأ قلوبنا أملاً أن الغد لنا، وأن المستقبل لهذا الإسلام، وأن الله

(١) رسالة نحو النور ضمن مجموعة الرسائل ٢٧٦، نشر المؤسسة الإسلامية، بيروت، ط ٣،

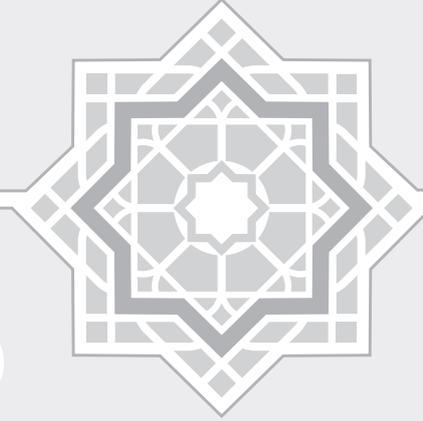
ناصرنا، وإنا لذلك اليوم لمنتظرون، ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾
 بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ،
 وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٤ - ٦].

أقول قولي هذا، وأستغفر الله تعالى لي ولكم فاستغفروه؛ إنه هو
 الغفور الرحيم، وادعوه يستجب لكم.

* * *



مَوْسُوعَةُ الْأَعْمَالِ الْكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الْإِمَامِ
بُيُوتِ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ



الفهارس العامة



- فهرس الآيات القرآنية الكريمة.
- فهرس الأحاديث النبوية الشريفة.
- فهرس الموضوعات.







فهرس الآيات القرآنية الكريمة



رقم الصفحة	رقم الآية	الآية
سورة الفاتحة		
٩	٢	﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾
١١٥	٥	﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾
١١٥	٦	﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾
سورة البقرة		
٥٣	٦١	﴿ يَمْوَسِي لَنْ نَصِيرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبِّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ ﴾
٢٧٨	٨٩	﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ ﴾
٣٦٣	١١٥	﴿ وَاللَّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَآيِنَمَا تُولُوا فَشَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾
٣٨	١٢٩	﴿ رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ ﴾
١١٥ ، ٧٨	١٤٣	﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾
٨	١٥١	﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ ﴾
٨	١٥٢	﴿ فَادْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾
٥٧	١٥٤	﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتٌ بَلْ أحيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾
٣٠	١٧٠	﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَنْتَعِمُ مَا آفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا ﴾

رقم الصفحة	رقم الآية	الآية
١٢٧	١٧٧	﴿وَالْمُؤْمِنُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾
١٢	١٨٥	﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾
١٦٥	٢٠٨	﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلَاحِ كَآفَّةً﴾
٣٦٦ ، ١٦٧	٢١٤	﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾
٣٣٧	٢٢٢	﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَىٰ فَاعْتَزِلُوا مِنَ النِّسَاءِ فِي الْمَحِيضِ﴾
٦٣	٢٥٦	﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾
٢١٢	٢٦٨	﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾
١١	٢٨٦	﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾
سورة آل عمران		
٧٤	٥٢	﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾
٢٣٠ ، ٤٢	٦٤	﴿يَتَأَهَّلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾
١٢٧	٧٧	﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ﴾
٧٦	٩٢	﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾
٢٥٧	١٠٢	﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾
٢٠١	١٠٣	﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾
١١٥ ، ٧٨	١١٠	﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾
٢٦٢ ، ٢٠٨ ، ١٨٦	١٢٣	﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾
٣٨٠	١٤٠	﴿إِنْ يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾
٩٩	١٤٤	﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾
٢٧٤ ، ٢٥٦ ، ١٣٠	١٤٧	﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾



رقم الصفحة	رقم الآية	الآية
٨٣	١٥٢	﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ ﴾
٨٤	١٥٥	﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ ﴾
٨٠ ، ٧٩ ، ٣٨ ، ٤	١٦٤	﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾
١٧٤	١٧٢	﴿ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ ﴾
١٧٤	١٧٣	﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ ﴾
سورة النساء		
٣٤٣	٤٠	﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُضْعِفْهَا ﴾
٢٤٠	٤١	﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾
٥٩	٦٩	﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ ﴾
١٦٥	٩٠	﴿ فَإِنْ اعْتَرَفْتُمْ فَلَمْ يُقْبَلُوا وَأَلْفَوْا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴾
٢٧٣	١١٤	﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ ﴾
١٢	١٦٠	﴿ فِظْلِهِم مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّت لَّهُمْ ﴾
١٢	١٦١	﴿ وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ﴾
٨	١٦٤	﴿ وَرَسُولًا قَدْ قَضَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرَسُولًا لَمْ نَقْضِصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾
سورة المائدة		
٣٥٧	٦	﴿ فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾
١١٦	٨	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ﴾
٧٤ ، ٥٣ ، ٤٣ ، ١٨	٢١	﴿ يَقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾
٧٤ ، ٥٣ ، ٤٣ ، ١٨	٢٢	﴿ قَالُوا يَمْوَسِي إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَنذُرُكَ لَنُدْخِلَنَّهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا ﴾
٧٤	٢٣	﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ ﴾

رقم الصفحة	رقم الآية	الآية
٤٤٤، ٤٤٣، ٤١٨، ٥٣، ٥٤، ٥٣، ٢٦١، ٧٥، ٧٤	٢٤	﴿ قَالُوا يَمُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا ﴾
٧٤، ١٨	٢٥	﴿ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾
٧٤، ١٨	٢٦	﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾
١٣	٤٤	﴿ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ﴾
٢٤	٥٤	﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ ﴾
٣٤	٦٧	﴿ يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾
٢٥١	٨٩	﴿ فَكَفَّرْنَاهُ، إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ ﴾
٢٢٤	٩٦	﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ، مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ﴾
٧٤	١١٢	﴿ يَعْيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ﴾
سورة الأنعام		
٢٣	٨٩	﴿ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَسُوًّا بِهَا بِكُفْرِينَ ﴾
٣٤٥	١٠٨	﴿ وَلَا تَسْبُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسْبُوا اللَّهَ عَدُوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾
٤١	١٦٢	﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾
٤١	١٦٣	﴿ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾
٣٤٠	١٦٤	﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾
سورة الأعراف		
١٢٤	٢٣	﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾
٢٩	٥٨	﴿ وَالَّذِي خُبْتُ لَا يُخْرِجُنِي إِلَّا نَكِدًا ﴾



رقم الصفحة	رقم الآية	الآية
٣٧٨	٨٦	﴿وَأذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُمْ﴾
٨٥	١٢٣	﴿ءَامَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾
٤٣	١٥٠	﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾
٢٠، ١١، ٢٧، ١٧٠، ٢٠٠، ٢٣٧	١٥٧	﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ﴾
٦١، ٩	١٥٨	﴿قُلْ يَتَّبِعْتُمُ النَّاسَ إِيَّايَ رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾
٢٣	١٨١	﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾
٣٠	١٨٥	﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾
سورة الأنفال		
٢٧٣	١	﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾
٢٦٠	٥	﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ﴾
١٤٥	٤١	﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾
١٦٥	٦١	﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾
١٤٩، ٢٠٠، ٢٨٨، ٣٨١	٦٢	﴿هُوَ الَّذِي آتَاكَ بَصِيرَةً وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾
٢٨٨، ٢٠٠، ١٤٩	٦٣	﴿وَأَلْفَ بَيْتٍ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾
٢٦٣	٦٧	﴿مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أُسْرَى لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُشْخِطَ فِي الْأَرْضِ﴾
١١٠	٧٠	﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلُوبًا لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى﴾
٨١، ٦٥، ١٦	٧٢	﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾
٢٠١، ٨١، ٦٥، ١٦، ٢٥٨، ٢٩١، ٣٤٨	٧٤	﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَأُوا وَنَصَرُوا﴾

رقم الآية	رقم الصفحة	الآية
سورة التوبة		
٥	١٠٢	﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾
٦	١٢٨، ١٢٩	﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾
١١	١١٦	﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾
٣٢	١٢٥	﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ﴾
٣٣	١٢٥، ٣٦٧	﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾
٤٠	٩٦	﴿إِلَّا نُنصِرُهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾
٥٢	١٩٣	﴿هَلْ تَرَبَّصْتُمْ بِنَايَ إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾
٧١	٣٣٤	﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾
٩٧	١١٣	﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾
١٠٠	١٦، ٦٥، ٦٧، ٨٢، ١٦٣، ٢٠١، ٢٢٠، ٢٥٨، ٣٤٧، ٣٥٩	﴿وَالسَّبِغُونَ الْأَوْلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾
١٠٣	١٠٤	﴿حُذِّمْنَ أَمْوَالُهُمْ صَدَقَةً﴾
١١٩	٢٠٣	﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾
١٢٠	٧٨	﴿وَلَا يَطَّوُّنَ مَوْطِنًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نَيْلًا﴾
سورة يونس		
٩٩	٣٣	﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا﴾
سورة هود		
٢٨	٣٣	﴿أَنْزَلْنَاهُمْ مَكُومًا وَأَنْتُمْ لَهَا كَرِهُونَ﴾

رقم الصفحة	رقم الآية	الآية
٣٤٩	٧٢	﴿ قَالَتْ يَوْتَلَيْنِي ۖ الْإِلَهُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾
٣٤٩	٧٣	﴿ قَالُوا أَتَعْجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۗ رَحِمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ ۖ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾
٢٣٥	١٠٢	﴿ وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهِيَ ظَلِيمَةٌ ۖ إِنَّ أَخَذَهُ ۖ إِلَيْمٌ شَدِيدٌ ﴾
٣٦٧	١٢٠	﴿ وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ ۖ فُؤَادَكَ ﴾
سورة يوسف		
٣١٨	١٨	﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۗ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾
٣٦٦	٨٧	﴿ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾
٢٦	١٠٨	﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي ۖ أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ۖ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾
٣٦٧	١١١	﴿ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ ۖ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾
سورة الرعد		
٣٨٠، ٣٢٣	١١	﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ ۖ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾
١٢٧	٢٠	﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴾
٣٦٧	٣١	﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾
٣٤١	٣٨	﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾
٣٤	٤٠	﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾
سورة الحجر		
٣١، ١٣	٩	﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾
١٦٢	٤٧	﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴾
٣٦٦	٥٦	﴿ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ ۖ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴾

رقم الصفحة	رقم الآية	الآية
سورة النحل		
١٠	٨	﴿وَيَخْلُقْ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾
٨	٣٦	﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾
٣٤	٣٧	﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدْيِهِمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾
١٥	٤٤	﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾
٢٦	١٢٥	﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾
٣٥	١٢٧	﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾
٢٧٢، ٣٥	١٢٨	﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾
سورة الإسراء		
٤٠	٨١	﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾
١٣	٨٨	﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ﴾
٧٥	١٠٦	﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلًا﴾
سورة الكهف		
٣٥	٦	﴿فَلَعَلَّكَ بَخِيعُ نَفْسِكَ عَلَىٰ آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾
٣٦٧	٩٨	﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾
سورة طه		
٣٤	١ - ٣	﴿طه ﴿ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿ إِلَّا نَذِيرًا لِمَنْ يَخْشَى ﴿﴾
٤٣	٧٢	﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾
٤٣	٧٣	﴿إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَتَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾
٤٣	٩٤	﴿قَالَ يَبْنَومَ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾



رقم الآية	رقم الصفحة	الآية
سورة الأنبياء		
٦٨	٤٢	﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾
٩٢	١١٥	﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾
١٠١	٨٢	﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾
١٠٧	٦١، ٩	﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾
سورة الحج		
٤٠	٢٠٦، ٤٤٤	﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِينِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾
٥٨	٢٠٢، ١٩١، ٤	﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ ﴾
٥٩	٢٠٢، ١٩١، ٤	﴿ لَيَدْخِلْنَهُمْ مُدْخَلَ بَرِّصُونَهُ، وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾
٧٧	٣٠	﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَعَبَدُوا رَبَّكُمْ ﴾
٧٨	١٢	﴿ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّمَّا يَتَّبِعُكُمْ إِنْزَاهِيمَ ﴾
سورة المؤمنون		
٨	١٢٧	﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾
٥٢	١١٥	﴿ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾
٦٠	٣٣٦	﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾
٦١	٣٣٦	﴿ أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾
سورة النور		
١١	٣٥٢، ٣١٨	﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا نَحْسَبُهُ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾
١٢	٣٥٢، ٣١٩، ٣١٨	﴿ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا ﴾
١٣	٣٥٢، ٣١٩، ٣١٨	﴿ لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ ﴾

رقم الصفحة	رقم الآية	الآية
٣٥٢، ٣١٩	١٤	﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾
٣٥٢، ٣١٩	١٥	﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ﴾
٣٥٢، ٣١٩	١٦	﴿ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ ﴾
٣٥٢	١٩	﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾
٢٩٨	٢٦	﴿ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ ﴾
٣٤	٥٤	﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾
٣٦٧	٥٥	﴿ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾
سورة الفرقان		
٦١، ٩	١	﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾
٧٦	٣٣	﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾
٣٠٠	٥٩	﴿ فَسَلِّ بِهِ خَيْرًا ﴾
٣٥١	٦٣	﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾
سورة الشعراء		
٣٥	٣	﴿ لَعَلَّكَ بِنِعْمِ رَبِّكَ تَفْسَاكُ إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾
٢١	١٩٥ - ١٩٣	﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾
٣٥	٢١٤	﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾
١١٣	٢٢٧	﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾
سورة النمل		
٢١	٦	﴿ وَإِنَّكَ لَنُلْقِي الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾
٣٦٨	٩٣	﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ فَاعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾



رقم الصفحة	رقم الآية	الآية
سورة القصص		
٣٤٩	٢٩	﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ۚ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا ﴾
٣٦٤ ، ٣٥١	٥٥	﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ ﴾
٣٤	٥٦	﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾
سورة العنكبوت		
١٩٧	٨	﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي ۖ ﴾
٢٥٦ ، ١٦٩ ، ١٣٠ ، ٢٧٥ ، ١٩٩	٤٥	﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ۖ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾
٢٠	٤٨	﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِمِيمِنِكَ ۖ إِذَا لَأَزْتَابَ الْمُبْطُلُونَ ﴾
١٣	٥٠	﴿ لَوْلَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهِ آيَاتٍ مِّن رَّبِّهِ ۖ ﴾
١٣	٥١	﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۗ ﴾
سورة الروم		
٣٨٢	٦ - ٤	﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۗ بِنَصْرِ اللَّهِ ۗ ﴾
٣٥	٦٠	﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخْفَنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾
سورة لقمان		
١٩٧	١٥	﴿ وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾
سورة السجدة		
٢٨٠	١٦	﴿ نَتَجَافَىٰ جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾
سورة الأحزاب		
٣٤٨	٦	﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ۗ ﴾

رقم الصفحة	رقم الآية	الآية
٢٦٧	٩	﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللّٰهِ عَلَيْكُمْ اِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَاَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا ﴾
٤٥	١٠	﴿ اِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ اَسْفَلَ مِنْكُمْ وَاِذْ زَاغَتِ الْاَبْصَارُ ﴾
٣٦٦ ، ٤٥	١١	﴿ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾
٦١	٢١	﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللّٰهِ اُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللّٰهَ ﴾
٨٤	٢٢	﴿ وَاَلْمَأْمَرَةَ الْمُؤْمِنُونَ الْاَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللّٰهُ وَرَسُولُهُ ﴾
٢٦٤ ، ١٥٥ ، ٨٤	٢٣	﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللّٰهَ عَلَيْهِ ﴾
٢٦٨ ، ١٦٧ ، ٤٦	٢٥	﴿ وَرَدَّ اللّٰهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغِيظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللّٰهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ﴾
٣٥٠ ، ٣١٤	٢٨	﴿ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلٌّ لَّا يَزُولُجَاكِ اِنْ كُنْتَن تَرِدُنَّ الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا ﴾
٣٥٠ ، ٣١٤	٢٩	﴿ وَاِنْ كُنْتَن تَرِدُنَّ اللّٰهَ وَرَسُولَهُ وَالْاٰرَ الْاٰخِرَةَ ﴾
٣٤٩	٣٠	﴿ يٰنِسَاةَ النَّبِيِّ مَن يٰتُ مِنْكُمْ بِفَحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُصْعَقْ لَهَا الْعَذَابُ ﴾
٣٤٩	٣١	﴿ وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُمْ لِلّٰهِ وَرَسُولِهِ وَتَعَمَلْ صَالِحًا نُؤْتِيهَا اَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ ﴾
٣٥٠ ، ٣٤٩	٣٢	﴿ يٰنِسَاةَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَاٰحِدٍ مِنَ النِّسَاةِ اِنْ اَتَقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ ﴾
٣٤٩ ، ٣٣٤	٣٣	﴿ اِتْمَا يُرِيْدُ اللّٰهُ لِيُذْهَبَ عَنْكُمْ الرَّجْسَ اَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾
٣١١	٣٧	﴿ وَاِذْ تَقُوْلُ لِلَّذِيْ اَنْعَمَ اللّٰهُ عَلَيْهِ وَاَنْعَمْتَ عَلَيْهِ اَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ﴾
١٠ ، ٤	٤٠	﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ اَبًا اَحَدٍ مِّنْ رِّجَالِكُمْ وَلٰكِن رَّسُوْلَ اللّٰهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّنَّ ﴾
٣٤	٤٨ - ٤٥	﴿ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ اِنَّا اَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيْرًا ﴾
١٦٨ ، ١٣٠ ، ٢٧٥ ، ٢٥٦ ، ١٩٩	٥٦	﴿ اِنَّ اللّٰهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّوْنَ عَلٰى النَّبِيِّ يٰٓاَيُّهَا الَّذِيْنَ ءَامَنُوْا صَلُّوْا عَلَيْهِ ﴾
٣٠	٦٧	﴿ وَقَالُوْا رَبَّنَا اِنَّا اَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبْرَاءَنَا فَاَضَلُّوْنَا السَّبِيْلًا ﴾
٣٠	٦٨	﴿ رَبَّنَا ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمْ لَعْنًا كَبِيْرًا ﴾



رقم الآية	رقم الصفحة	الآية
سورة سبأ		
٣٩	٢١٢، ٣٤٣	﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ، وَهُوَ خَيْرُ الرَّزَاقِينَ﴾
٤٦	٣٠	﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْطَاكُمْ بِوَجْهِدِي أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِي وَفَرْدِي ثُمَّ تَنْفَكُوا﴾
سورة فاطر		
١٤	٣٠٠	﴿وَلَا يَنْبِئُكَ مِثْلُ خَيْرٍ﴾
٢٢	٣٣٩	﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَن فِي الْقُبُورِ﴾
٢٤	٨	﴿وَإِنْ مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾
٢٨	١٤٨	﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾
سورة الصافات		
٩٥	٤٠	﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾
سورة ص		
١٧	٣٥	﴿أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾
٨٧	٦١	﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾
سورة الزمر		
٣٠	٩٩	﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾
سورة خافر		
٢٨	٤٣	﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾
سورة فصلت		
٣٣	٢٦	﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾
٤١	٣١	﴿وَإِنَّهُ لَكِنْبُ عَزِيزٌ﴾

رقم الآية	رقم الصفحة	الآية
٤٢	٣١، ١٤	﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾
٥٣	٣٦٨، ٣٦٧	﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾
سورة الشورى		
٥٢	٢١	﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ﴾
سورة الأحقاف		
٣٥	٤٢، ٣٥	﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ ﴾
سورة محمد		
٤	١٠٩	﴿ فِيمَا مَنَّا بَعْدُ وَإِذَا مَا فِدَاءٌ حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾
سورة الفتح		
١	١٦٧	﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾
١٨	١٧، ١٦٦، ١٨٢، ١٧١، ٢٠٤، ٣٤٧	﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾
٢٩	١٧، ٦٥، ٧٨، ٨١، ٢٠٢، ٣٤٧	﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾
سورة الحجرات		
٩	٢٧٤	﴿ وَإِنْ طَافَيْنَا مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَقْتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾
١٠	٢٧٤	﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾
١٣	٤١	﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾
سورة ق		
١٩	٣٢٩	﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾



رقم الصفحة	رقم الآية	الآية
سورة الطور		
٣٥	٤٨	﴿ وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾
سورة النجم		
٧٧	٦ - ١	﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾
٣٧٠	٤ - ٣	﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾
٢٩٩ ، ٢١	٥	﴿ عَالِمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴾
٢١	٦	﴿ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴾
سورة الحديد		
٨٢	١٠	﴿ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ ۗ ﴾
سورة المجادلة		
٢٢٣	٢٢	﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ ﴾
سورة الحشر		
١٤٦	٧	﴿ مَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَىٰ رَسُولِهِ ۗ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَاللرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ ﴾
١٧ ، ٢٧ ، ٣٩ ، ٤٤ ، ٦٦ ، ١٤٦ ، ٢٠٢ ، ٢٠٥ ، ٢٥٨ ، ٣٤٨	٨	﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ﴾
١٧ ، ٤٤ ، ٦٦ ، ١٤٦ ، ٢٠٣ ، ٢٥٨ ، ٢٩٢ ، ٣٤٨	٩	﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ﴾
١٣٠ ، ١٤٦ ، ١٦٨ ، ٣٤٨	١٠	﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا ﴾

رقم الآية	رقم الصفحة	الآية
سورة الصف		
٤	٣٢٣	﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُم بُنِينَ مَرْصُوصًا ﴾
٦	١٠	﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾
سورة الجمعة		
٢	١١٤، ٣٨	﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾
سورة المنافقون		
٤	٢٤٦	﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ﴾
سورة القلم		
٤	٢٢٥، ٢٠	﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾
سورة نوح		
٦ - ٩	٤٢	﴿ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿ فَلَِمَّ يردُّهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا ﴾
سورة الجن		
٢٦ - ٢٧	٣٧٠	﴿ عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿ إِلَّا مَنْ أَرَضَى مِنْ رَسُولٍ ﴾
سورة الإنسان		
٨	١١٠	﴿ وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾
٩	١١٠	﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ﴾
سورة التكويد		
٨، ٩	٨٠	﴿ وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سِيلَتْ ﴿ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُنَلَتْ ﴾
٢٠	٢٩٩	﴿ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴾



رقم الآية	رقم الصفحة	الآية
٢٧	٦١	﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾
سورة المطففين		
٢٦	١٤	﴿وَفِي ذَلِكَ فَلَيْتَنَّافِسِ الْمُتَنَفِسُونَ﴾
سورة العاشية		
٢١، ٢٢	٣٤	﴿فَذِكْرٌ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾
سورة الليل		
١٧ - ٢١	٩٤	﴿وَسَيَجْنِبُهَا الْآتِقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾
سورة الضحى		
٨	٢٩٩	﴿وَوَجَدَكَ عَابِلًا فَأَغْنَى﴾
سورة العلق		
١ - ٥	٢٩٩	﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * أقرأ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾
سورة الفيل		
١	٢٠٤	﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾
سورة الكافرون		
٦	٣٦٤	﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾
سورة الناس		
١ - ٣	٩	﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ﴾



فهرس الأحاديث النبوية الشريفة



رقم الصفحة	الحديث
	أ
١٢٨	آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أوّتمن خان
٢٢٦	أبو بكر. قيل: ثمّ من؟ قال: عمر. قيل: ثمّ من؟ قال: أبو عبيدة
٢١٤	اثبتّ أيّها الجبل؛ فإنّما عليك نبيّ أو صديق أو شهيد
٧٦	احبس الأصل وسبّل الثمرة
٢٧٠	أحد جبلٌ يُحبُّنا ونحبُّه
٩٥	اختار أبا بكر ليكون رفيقه في هذه الرحلة الشاقّة
٣٠	إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر
٣٣٧	إذا جلس بين شعبها الأربع، ومسّ الختان الختان، وجب الغسل
١٢٨	أربع من كنّ فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهنّ
٢٧٩	أرحم أمّتي بأمّتي أبو بكر، وأشدّهم في أمر الله عمر، وأعلمهم بالحلال والحرام
٢٢٦	أرسل إليكم أمينًا حق أمين
٣٧٢	أرض العرب ستعود مروجًا وأنهارًا
١٨٨ ، ١٧٥	ارم فداك أبي وأمي
٨٥ ، ٦٣	أسلم تسلّم، فإن توليت فإنّما عليك إثم المجوس



رقم الصفحة	الحديث
٨٥ ، ٦٣	أسلم تسلم، فإن توليت فإنما عليك إثم اليبوسيين
٥٤ ، ٥٣ ٢٦٢ ، ٢٦١	أشيروا عليَّ أيُّها الناس... سيروا وابشروا، فإنَّ الله تعالى قد وعدني
٥	أعطيتُ خمسًا لم يُعْطهنَّ أحد من الأنبياء قبلي: نُصرتُ بالرعب
١٠٤	افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم لترُدُّ على فقرائهم
٣٣٨	أفتى لسهلة امرأة أبي حذيفة أن ترضع سالمًا مولى أبي حذيفة
٢٤٠ ، ٢٣٩	اقرأ عليَّ القرآن. فقلت: يا رسولَ الله، اقرأُ عليك وعليك أنزل؟
١٨٩	ألا ليت رجالًا صالحًا من أصحابي يحُرِّسني الليلة؟!!
٢٦٥	الله أكبر، أبشروا يا معشرَ المسلمين
٢٤٢	الله الذي لا إله إلا هو؟. فقام معي حتَّى خرج يمشي معي
٦٦ ، ١٧	الله في أصحابي، فمن أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم
١٨٩	اللهم استجب لسعدٍ إذا دعاك
١٩٠	اللهم اشفِ سعدًا
٣٠٣	أم أيمن أمي بعد أمي
١١٨	أمًا بعد؛ فإنَّ الأرض لله يُورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين
٣٦	أمر جماعة من أصحابه أن يذهبوا إلى الحبشة
٩٧	أمر الرسول أبا بكر أن يؤمَّ النَّاس
١٠٢	أمرتُ أن أقاتل النَّاس حتَّى يقولوا: لا إله إلاَّ الله
٣٧١	إنَّ الله زوى لي الأرض - أي ضُمت وجمعت - فرأيت مشارقها ومغاربها
٩٣	إنَّ الله قد أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى
٣١٤	إنَّ الله لم يبعثني مُعْتَبًا ولا متعْتَبًا، ولكن بعثني مُعَلِّمًا مُبَسِّرًا
٢٣٥	إنَّ الله ليملي للظالم حتَّى إذا أخذه لم يفلته

رقم الصفحة	الحديث
١٩٦	إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ التَّقِيَّ، الْغَنِيَّ، الْخَفِيَّ
٣٤٠	أَنَّ امْرَأَةً بَغِيًّا سَقَتَ كَلْبًا فَغَفَرَ اللَّهُ لَهَا
٣٤٠	إِنَّ امْرَأَةً دَخَلَتْ النَّارَ فِي هَرَّةٍ حَبَسَتْهَا، فَلَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا، وَلَا هِيَ تَرَكَتْهَا
٤٠	إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعَصَابَةُ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ، لَا تُعْبَدُ فِي الْأَرْضِ
٣٢٥	إِنَّ جَبْرِيْلَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ
٣٠٥	إِنَّ خَدِيْجَةَ سَتَأْتِيْكَ بِإِنَاءٍ فِي الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، فَإِذَا جَاءَتْكَ فَأَقْرئْهَا مِنْ رَبِّهَا
٣٥	إِنَّ الرَّائِدَ لَا يَكْذِبُ أَهْلَهُ، وَاللَّهُ لَوْ كَذَبْتُ النَّاسَ جَمِيعًا مَا كَذَبْتُمْ
١٥٢	إِنْ رَأَيْتُمُونَا تَخَطَّفْنَا الطَّيْرُ فَلَا تَبْرَحُوا مِنْ مَكَانِكُمْ هَذَا حَتَّى أَرْسَلَ إِلَيْكُمْ
٣٣	إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلُّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، كَقَلْبِ وَاحِدٍ
٢٢٨	إِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ، وَإِنْ كَانَ فِي الْمَقْدَمَةِ كَانَ فِي الْمَقْدَمَةِ
٣٢٧، ٣١٢	إِنْ كَانَ لِيَمْرَ الْهَلَالِ ثُمَّ الْهَلَالِ ثُمَّ الْهَلَالِ، ثَلَاثَةَ أَهْلَةٍ فِي شَهْرَيْنِ
١٦٢	إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيًّا، وَحَوَارِيِّي الزُّبَيْرُ
٩٨	إِنَّ مِنْ أَمْنِ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صَحْبَتِهِ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ أَبَا بَكْرٍ
٣٤٠	إِنَّ الْمَيْتَ لِيُعَذَّبُ بِبَكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ
٣١١	إِنْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ خَيْرٌ يَمْضِيهِ اللَّهُ رَجَبًا
١٠	أَنَا الْعَاقِبُ فَلَا نَبِيَّ بَعْدِي
٥٠	إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى
٣٣٧	إِنَّمَا الْمَاءُ مِنَ الْمَاءِ
٣٣٤	إِنَّمَا النِّسَاءُ شِقَاقُ الرِّجَالِ
٣٠٤	إِنَّهَا كَانَتْ، وَكَانَتْ، وَكَانَ لِي مِنْهَا وَلَدٌ
٢٨٥، ٢٨٢	إِنِّي أَبْعَثُكَ إِلَى الْيَمَنِ لِأَجْبِرَكَ
٣١٤	إِنِّي عَارِضٌ عَلَيْكَ أَمْرًا أَرْجُو أَلَّا تَتَعْجَلِي فِيهِ حَتَّى تَوَاطُرِي فِيهِ أَبُويْكَ



رقم الصفحة	الحديث
٢٨١	إِنِّي لِأَحْبُكَ
٣٢٦	إِنِّي لِأَعْرِفُ رِضَاكَ مِنْ غَضَبِكَ يَا عَائِشَةَ. قَالَتْ: وَكَيْفَ تَعْرِفُ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟
٣٥٦	إِنِّي لِأَعْلَمُ إِذَا كُنْتُ عَنِي رَاضِيَةً، وَإِذَا كُنْتُ عَلَيَّ غَضَبِي
١٥٥	إِنِّي لِأَعْلَمُ كَلِمَةً لَا يَقُولُهَا رَجُلٌ عِنْدَ حَضْرَةِ الْمَوْتِ إِلَّا وَجَدَ رُوحَهُ لَهَا رَوْحًا
١٥٤	أَوْجِبَ طَلْحَةَ
١٣٢	أَوْلَتْهُ الْعِلْمَ
٢٠٨	أَوْلِمَ وَلَوْ بِشَاةٍ
٣٠١	أَوْ مُخْرَجِيَّ هَمْ؟!
١٣٤، ٩٦	أَوْ مِنْ بَهَذَا أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ
٣٥٧، ٣٢٨، ٣٢٧	أَيْنَ أَنَا غَدًا؟
١٥٥، ١٥٤	أَيْنَ السَّائِلُ عَمَّنْ قَضَى نَحْبَهُ؟
٤١	أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، كُلُّكُمْ لِأَدَمَ، وَأَدَمٌ مِنْ تَرَابٍ
ب	
١١٨	بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ، إِلَى مُسَيْلِمَةَ الْكُذَّابِ
٤١	بُعِثْتُ بِحَنِيفِيَّةٍ سَمَّحَةٍ
٢٦٦	بَلْ هُوَ شَيْءٌ أَصْنَعُهُ لَكُمْ، وَاللَّهُ مَا أَصْنَعُ ذَلِكَ إِلَّا لِأَنِّي رَأَيْتُ الْعَرَبَ رَمْتَكُمْ
٢٨٢	بِمَ تَقْضِي يَا مَعَاذُ؟ ... الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَفَّقَ رَسُولَ رَسُولِ اللَّهِ لِمَا يَرْضَى رَسُولُ اللَّهِ
١١٩	بَيْنَمَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُ فِي يَدَيَّ سَوَارِينَ مِنْ ذَهَبٍ، فَأَهْمَنِي شَأْنُهُمَا
ت	
٢١١	تَجْدُونَ النَّاسَ كِابِلٍ مَائَةٍ، لَا يَجِدُ الرَّجُلُ فِيهَا رَاحِلَةً
٣٠٩	تَشْتَهِيَنَّ تَنْظِيرِينَ؟

رقم الصفحة	الحديث
ث	
٥٨	ثلاث من كنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه
١٩١، ١٩٠	الثلاث، والثالث كثير، إنَّك أنْ تَذَرَ ورثتك أغنياءَ خيرٌ من أن تذرهم عالةً
ج	
١٠٩	جعل فداءهم أن يُعلِّم كل واحد منهم عشرة
١٨٩	جمع أبويه للزُّبير بن العوام
٩٦	جئتُ أنا وأبو بكر وعمر، وذهبتُ أنا وأبو بكر وعمر
ح	
٣٧٢	حتى إنَّ الرجل ليأخذ صدقته في يده يبحث عمن يأخذ منه صدقته فلا يجد
٢٦٨، ١١٠	حكّموا مَنْ شئتم
خ	
٢٧٨، ٢٣٩	خذوا القرآن من أربعة: من عبد الله بن مسعود، وسالم مولى أبي حذيفة
٢٨٢	خذوا ما شئتم من ماله... لعلنا نبعثك في بعثٍ يجبرك الله فيه
٨٤، ٦٦، ١٧	خير القرون قرني، ثمَّ الذين يلونهم، ثمَّ الذين يلونهم
د	
٤٠	دخل النبي ﷺ إلى مكّة فاتحًا يطعن الأصنام برمحه
٢٣	دعاة على أبواب جهنم، مَنْ أجابهم إليها قذفوه فيها
٢٨٤	الرسول أمره أن يأخذ الجزية من غير المسلمين دينارًا أو عدله معافر
ز	
١٧٥	الزُّبير حواربي من أمّتي وابن عمّتي
٢٩٩	زملوني، زملوني



رقم الصفحة	الحديث
س	
٩٨	سُدُّوا الخَوَاحَاتِ كُلِّهَا إِلَّا خَوْخَةَ أَبِي بَكْرٍ
٢٥٢	سَلَّ تَعَطُّهُ، ثُمَّ قَالَ: مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ رَطْبًا كَمَا أَنْزَلَ فَلْيَقْرَأْ قِرَاءَةَ ابْنِ أُمِّ عَبْدِ
ص	
٥٥	صَبْرًا آلَ يَاسِرٍ؛ فَإِنَّ مَوْعِدَكُمْ الْجَنَّةَ
٣٠٧	الصَّحْبَةَ
ض	
١٩٠	ضَحِكُ النَّبِيِّ ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ
٧٦	ضَعْفُهَا فِي أَقْرَابِكَ
ع	
٣٥٣	عَائِشَةُ. قَالَ: وَمَنْ الرِّجَالُ؟ قَالَ: أَبُوهَا
١٠٢	عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا
١٣١	عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ
ف	
٣١٥	فَأَخَذَتْ عَائِشَةُ الْحَرِيرَةَ وَلَطَخَتْ بِهَا وَجْهَهَا، وَالنَّبِيُّ يَضْحَكُ
٨٥	فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَعَلَيْكَ إِثْمُ الْأَرِيسِيِّينَ
٨٥	فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَعَلَيْكَ إِثْمُ الْمَجُوسِ
ق	
١٧٩	قَاتِلِ الرَّبِيعَ فِي النَّارِ
١٢٩	قَدْ أَجْرْنَا مَنْ أَجْرْتَ، يَا أُمَّ هَانِئِ



رقم الصفحة	الحديث
٢١٠	قد أحسنتم، وأصبتم
٢٤٩	قرأت من في رسول الله ﷺ سبعين سورة
ك	
٥٤	كان إذا سُرَّ استنار وجهه كأنه فلقة قمر
٦٠	كان خُلِقَ القرآن
٣٣٧، ٣٣٦	كان ﷺ يأمرني فأتزر - ألبس الإزار - فيياشرنني وأنا حائض
٣٠١، ٢٩٩، ٢٩٨	كان يخلو بغار حراء فيتحنَّث فيه الليالي ذوات العدد
٣٣٧	كان يُقبِّلني وهو صائم، وكان أملككم لإربه
٢٦٣	كأنِّي أراك تكره هذا يا سعد
٢٠٨	كلاكما قتله
٣٠٦	كَمُل من الرجال كثير، وكَمُل من النساء: مريم بنت عمران
٣٥٣، ٣١٥	كنت لك كأبي زرع لأم زرع. وفي رواية: إِلَّا أَنَّهُ طَلَّقَهَا وَإِنِّي لَا أَطْلُقُكَ
٢٦٧	كيف أصبحت؟ ويمرُّ عليه في المساء فيقول: كيف أمسيت
٣١٧	كيف تيكم؟
ل	
٢٧٣	لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض
٣٧٣	لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين، لعدوهم قاهرين
٢٣	لا تزال طائفة من أمتي قائمة على الحق، لا يضرها مَنْ خالفها
٣٤٨، ٦٦، ١٧	لا تسبُّوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبًا
٣٤٦	لا تسبُّوا الحمى؛ فإنها تذهب خطايا بني آدم
٣٤٦	لا تسبُّوا الدهر؛ فإن الله هو الدهر



رقم الصفحة	الحديث
٣٤٦	لا تسبوا الديك؛ فإنه يوقظ للصلاة
٣٤٦	لا تسبوا الريح؛ فإنها مأمورة
٣٤٦	لا تسبوا الشيطان وتعوذوا بالله من شره
٣٤٦	لا تقل: تعس الشيطان. ولكن قل: باسم الله. فإنك إذا قلت: تعس الشيطان
٣٧٢	لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود، فيقتلهم المسلمون
٥٨	لا، والذي نفسي بيده، حتى أكون أحب إليك من نفسك
٣٣٦	لا يا ابنة الصديق، بل هي في الذين يصلون ويصومون ويتصدقون
٨٢	لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة
٢١٨	لا يشير أحدكم إلى أخيه بالسلاح؛ فإنه لا يدري أحدكم لعل الشيطان ينزغ في يده
٣٦٩	لئن فتحن القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش
٢٦٩	لقد اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ
٢٦٨	لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات، حكمت فيهم بحكم الملك
١٣٢	لقد كان فيمن كان قبلكم محدثون - أي ملهَمون - فإن يكن في أمّتي أحد فعمر
١٥٢	لك سهمك. قال: وأجري يا رسول الله! قال: ولك أجرك
٢٣١، ٢٢٦	لكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبّيدة بن الجرّاح
١٧٩	لكل نبي حوارِيّ، وحواريّ الزبير
٥٤، ٤٣ ٢٦٢، ٧٥	لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك
١١٨	لو سألتني هذه القطعة ما أعطيتها، ولن تعدو أمر الله فيك
١٥٤	لو قلت: باسم الله لرفعنك الملائكة والناس ينظرون
٩٨	لو كنت متخذًا خليلًا غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلًا، ولكن أخي وصاحبي
٦٧	ليأتين على الناس زمانٌ، يغزو فيه فئام من الناس

رقم الصفحة	الحديث
٣٦٨	ليبلغن هذا الدين ما بلغ الليل والنهار
٣٢٧	ليصلي أبو بكر بالناس، إنكن صواحب يوسف
	↑
٣٠٤	ما أبدلني الله خيراً منها؛ آمنت بي إذ كفر بي الناس
٢٩٩	ما أنا بقارئ
٥٠	ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا
٢٩٤	ما بعث الله نبياً إلا ورعى الغنم
٥٩	ما بك يا ثوبان؟ ... أبشر، فإن المرء مع من أحب
٢٩٧، ٢٩٦	ما بيدي ما أتزوج به... قالت: أنا عليّ ذلك. قال: فأنا أفعل
١٣٢	ما سلكت فجاً إلا سلك الشيطان فجاً آخر يا عمر
٣١٣	ما شبع رسول الله ﷺ من خبز مآدوم ثلاثة أيام
٩٣	ما عرضت الإسلام على أحد؛ إلا كان له نظرٌ وتردُّد، غير أبي بكر
٣٣٨	ما كان رسول الله ﷺ يزيد في رمضان، ولا في غيره على إحدى عشرة ركعة
٣٣٨	ما كان النبي ﷺ يأتيني في يوم بعد العصر، إلا صلى ركعتين
٣١٣	ما لي وللدنيا؟ إنما مثلي ومثل الدنيا كمثل راكب في يوم صائف
١٣، ٥	ما من نبي من الأنبياء إلا وأوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر
٢١٢، ٥	ما من يوم يصبح العباد فيه، إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما
٩٨	ما نفعني مالٌ كمال أبي بكر
٩٧	ما هذا؟ قال: هذا مالي كله يا رسول الله. قال: وماذا أبقيت لأهلك وعيالك
٣١٣	ما يبكيك يا عمر؟ ... يا عمر، أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة
٢٠٤، ١٨٦	ما يُدريك يا عمر، لعل الله قد اطلع على أهل بدرٍ فقال: اعملوا ما شئتم

رقم الصفحة	الحديث
١٧٢	ماذا يا زبير؟ قال: سمعت أنك أخذت يا رسول الله. قال له: فكنت صانعاً ماذا؟
٩٦	متّعنا بنفسك يا أبا بكر؛ فإنما أنت بمنزلة سمعي وبصري
٣٦٩	مدينة هرقل تفتح أولاً
٢٤٥	مّم تضحكون؟ قالوا: يا نبيّ الله، من دقّة ساقيه. فقال: والذي نفسي بيده
٢٥٢	من أراد أن يقرأ القرآن غضّاً كما أنزل، فليقرأه بقراءة ابن أمّ عبد
٢٨٧	مّن سأل الله الشهادة بصدق؛ بلّغه الله منازل الشهداء، وإن مات على فراشه
٢٤٠	من سرّه أن يقرأ القرآن غضّاً كما أنزل، فليقرأه على قراءة ابن أمّ عبد
١٥٩	مّن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله
٢٥٣	من قرأ سورة الواقعة لم تُصِبْه فاقة أبداً
١٧٧	مّن كذب عليّ مُتعمداً فليتبوّأ مقعده من النار
١٥٣	مّن للقوم؟. فقال طلحة: أنا. قال رسول الله ﷺ: كما أنت
١٧٥، ١٧٤	مّن يذهب إلى القوم إلى بني قريظة ليأتينني بخبرهم
٢٤٠	من ينظر ما صنع أبو جهل
٢٦٨	المؤمن لا يلدغ من جحرٍ واحد مرّتين
ن	
٣٤٠	نعم، في كل كبد رطبة أجر
١٢٧	نعم. قيل: أيكون المؤمن بخيلاً؟ قال: نعم
٢١٣	نعم المال الصالح للرجل الصالح
هـ	
١٨٧	هذا خالي، فليرني امرؤ خاله
٢٠٨، ٢٠٧	هل أولمت؟ قال: لا. قال ﷺ: أولم ولو بشاة
٣٣٩	هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؛ فإننا قد وجدنا ما وعد ربنا حقاً؟

رقم الصفحة	الحديث
	و
٢٧١	وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَمَنَادِيلِ سَعْدِ بْنِ مَعَاذٍ فِي الْجَنَّةِ أَحْسَنُ مِنْ هَذَا
١٨، ٤٣، ٥٤، ٢٦٢، ٧٥	وَاللَّهِ لَوْ اسْتَعْرَضْتُ بِنَا هَذَا الْبَحْرِ فَخُضَّتْهُ لَخُضَّنَاهُ مَعَكَ
١١٨	وَاللَّهِ لَوْلَا أَنَّ الرِّسْلَ لَا تُقْتَلُ لَضَرَبْتُ أَعْنَاقَكُمْ
٥٨	وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ أَحَدًا يَحِبُّ أَحَدًا كَحَبِّ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ مُحَمَّدًا
١٨، ٤٣، ٥٣، ٢٦١، ٧٥	وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَا نَقُولُ لَكَ كَمَا أَصْحَابُ مُوسَى لِمُوسَى
٢٨١	وَاللَّهِ يَا مَعَاذَ إِنِّي لِأَحْبُبُّكَ. فَقَالَ: وَأَنَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَحْبَبُّكَ
٢٧٩	وَإِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينًا وَأَمِينُ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ
١٣٤	وَدَخَلْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَخَرَجْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ
٣٦٨	وَلَا يَبْقَى بَيْتٌ مَدْرٍ أَوْ وَبَرٍ؛ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ هَذَا الدِّينَ، بَعَزٌّ عَزِيزٌ
٨٣	وَمَا يُدْرِيكَ يَا عُمَرُ، لَعَلَّ اللَّهَ أَطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ
٢٧٠	وَمَا يَمْنَعُهُ أَنْ يَخِفَّ، وَقَدْ هَبَطَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ كَذَا وَكَذَا لَمْ يَهْبَطُوا قَطُّ
٣٠٨	وَمَنْ؟ قَالَتْ: إِنَّ شَيْئًا بَكْرًا وَإِنْ شَيْءٌ ثِيْبًا. قَالَ: مَنْ الثِّيْبُ وَمَنْ الْبَكْرُ؟
	ي
٩٥	يَا أَبَا بَكْرٍ، مَا ظَنُّكَ بَاثْنَيْنِ اللَّهُ تَالِثَهُمَا
٣٢٥	يَا أُمَّ سَلْمَةَ، لَا تَوْذِينِي فِي عَائِشَةَ؛ فَوَاللَّهِ مَا نَزَلَ الْوَحْيُ عَلَيَّ
٣١٠	يَا بَنِيَّتِي، أَتَحْبِبِينَ مَا أَحَبُّ؟ قَالَتْ: نَعَمْ. قَالَ: فَأَحْبِبِي هَذِهِ
٣٦	يَا بَنِي عَبْدِ مَنْفٍ، يَا بَنِي مَخْزُومٍ، يَا بَنِي عَدِيٍّ، يَا بَنِي فُلَانٍ، يَا مَعْشَرَ قَرِيْشٍ
٢٦٢	يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا نَبِيٌّ لَكَ عَرِيْشًا، تَظَلُّ فِيهِ
١٩١	يَا سَعْدُ، لَعَلَّكَ أَنْ تُخَلَّفَ حَتَّى يَنْتَفِعَ بِكَ أَقْوَامٌ، وَيُضَرُّ بِكَ آخَرُونَ



رقم الصفحة	الحديث
٣١٨	يا عائشة، إن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه
٣٥٠	يا عائشة، إنني أريد أن أعرض عليك أمرا
٣٥٩	يا عمر، ما يدريك، لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم
٢٣٨	يا غلام، هل عندك من لبنٍ تسقيننا؟ ... إِنَّكَ غَلامٌ مُعَلِّمٌ
٢٨١	يا معاذ، أتدري ما حقُّ الله على العباد، وما حقُّ العباد على الله؟
٢٨٣	يا معاذ، إنك تأتي قومًا أهل كتاب. يعني أنّ هؤلاء ليسوا من الوثنيين
٢٨٠	يا معاذ، لقد سألت عن عظيم، وإنه ليسيرٌ على من يسره الله تعالى عليه
٢٨٦	يُحشر معاذ بن جبل أمام العلماء برتوة
٢٤	يحمل هذا العلم من كلِّ خَلْفٍ عُدُوهُ، ينفون عنه تحريف الغالين
٢٨٤	يسرًا ولا تُعسرًا، وبشرا ولا تُنفرًا، وتطاوعا ولا تختلفا
١٩٢	يَطَّلَعُ عَلَيْكُمْ الْآنَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ

* * *



غير مرخصة للطباعة

فهرس الموضوعات

- ❖ من الدستور الإلهي للبشرية..... ٤
- ❖ من مشكاة النبوة الخاتمة..... ٥
- ❖ ١ - خصائص النبوة المُحمَّديَّة..... ٧
- ١ - رسالة عالميَّة عامَّة..... ٨
- ٢ - رسالة خاتمة خالدة..... ٩
- ٣ - القرآن معجزة الإسلام الخالدة..... ١٢
- ٤ - الحفظ الإلهي للقرآن..... ١٣
- ٥ - الحفظ الإلهي للسنة..... ١٤
- ٦ - تميُّز أصحاب النبي ﷺ..... ١٦
- ٧ - إعداد الله نبيّه لحمل رسالته..... ١٩
- ٨ - أميَّة الرسول ﷺ..... ٢٠
- ٩ - استعصاء الأمة على الفناء..... ٢١
- ١٠ - عصمة مجموع الأمة..... ٢٣
- واجبنا تجاه الرسالة المُحمَّديَّة..... ٢٥
- دعوة للتبرع لموقع بلبو إسلام..... ٢٧
- ❖ ٢ - الرد على المتهمجين على النبي ﷺ..... ٢٨
- اتهام الغرب للإسلام بالإرهاب..... ٢٨
- تجني بعض أبناء الإسلام عليه..... ٢٩

- ٣٠..... القرآن يدعو للنظر والاعتبار والاجتهاد
- ٣١..... الاجتهاد المقبول من أهله في محله
- ٣١..... ثوابت الإسلام لا يجوز اختراقها
- ٣٣..... منهجي المناقشة لا التكفير
- ٣٣..... ما مهمّة النبيّ في مكّة؟
- ٣٤..... حُزن النبي لإعراض قومه
- ٣٤..... الدعوة من الرسول والهداية من الله
- ٣٥..... دعوة متواصلة ثلاثة عشر عامًا
- ٣٦..... فلسفة الهجرة إلى الحبشة
- ٣٧..... بيعة العقبة الأولى والثانية
- ٣٨..... مهمة الرسول الدعوة والتربية والتعليم
- ٣٨..... تكوين نواة المجتمع المسلم
- ٣٩..... الهجرة بداية تاريخ الإسلام
- ٤٠..... هدم الأصنام في قلوب عابديها
- ٤١..... إقامة التوحيد وإعادة الحنيفيّة
- ٤١..... المساواة بين النَّاس جميعًا
- ٤٢..... دعوة النبيّ ودعوة أولي العزم من الرسل
- ٤٤..... مقارنة بين الصحابة وأتباع الأنبياء السابقين
- ٤٥..... في سيرة النبيّ القدوة في مختلف المجالات
- ٤٥..... انتصار الرسول على السيف لا بالسيف
- ٤٦..... إقامة المجتمع الإسلامي على المبادئ الربّانيّة والأخلاقيّة
- ٤٧..... الأمة الإسلاميّة أكثر الأمم تدينا
- ٤٩..... رثاء الشيخ عبد الحميد كشك
- ٥٠..... رثاء الشيخ عبد الرشيد صقر



- ❖ ٣ - من فضائل الصحابة الكرام (١) ٥٢
- خير أجيال النبوات ٥٢
- بذل أصحاب النبي لهذا الدين ٥٥
- تضحيات الصحابة بنفوس راضية، وأعين قريرة ٥٧
- محبتهم لله ورسوله ٥٨
- المحافظة على القرآن ونقله للأمة ٥٩
- الحفاظ على السُّنة النبويّة والسيرة المحمدية ٦٠
- فتح الفتوح ونشر الإسلام في الآفاق ٦١
- حروب الصحابة كانت حروب تحرير لا حروب استعمار ٦٢
- أبرّ هذه الأمة وأعلمها ٦٤
- ثناء القرآن على الصحابة ٦٥
- ثناء النبي على صحابته ٦٦
- قضيّة فلسطين وانهايار الطموحات ٦٨
- الحكم بسجن الشيخ عمر عبد الرحمن ٧١
- ❖ ٤ - من فضائل الصحابة الكرام (٢) ٧٣
- جيل فريد من نوعه ٧٣
- نماذج مثاليّة رفيعة ٧٥
- تتلمذوا على خير مُربٍّ في العالم ٧٦
- من شكك في تربية التلاميذ إنّما يطعن في معلمهم ٧٧
- خير رُفقة وخير زملاء ٧٧
- بيئة صالحة وفطرة سليمة ٧٨
- التزكية أرفع من التربية ٧٩
- أثر الإسلام في تحرير عقول الصحابة ٨٠
- ثناء القرآن على الصحابة ٨١



- ٨٢.....مبغضو الصحابة لا عقل لهم
- ٨٢.....الصحابة كلهم عدول
- ٨٤.....ثناء النبي على الصحابة
- ٨٥.....شهادة التاريخ بفضل الصحابة
- ٨٧.....خير أجيال العالم كله
- ٨٩.....وحدة السودان
- ٩٢..... ❖ ٥ - أبو بكر الصديق رضي الله عنه
- ٩٣.....حادثة الإسراء والمعراج
- ٩٩.....خلافة أبي بكر
- ١٠٠.....إرسال جيش أسامة بن زيد
- ١٠١.....محاربة المرتدين
- ١٠٧.....التفريط في قضية الأسرى المصريين
- ١٠٨.....افتراء على الإسلام وعلى رسوله
- ١١٢..... ❖ ٦ - الصديق وحروب الردة
- ١١٢.....خلافة أبي بكر
- ١١٣.....أعراب الجزيرة العربية يرتدون عن الإسلام
- ١١٤.....من وهدة البداوة إلى نور الحضارة
- ١١٥.....أمة موحدّة ربّانية وسطية حضارية
- ١١٧.....متنبئون كذابون وأتباعهم يعلمون
- ١١٩.....كذاب ربيعة خير من صادق مضر
- ١٢٠.....كبار الصحابة يحرسون مداخل المدينة
- ١٢٢.....ثبات الصحابة في معركة اليمامة
- ١٢٣.....هزيمة الردة بهزيمة مسيلمة الكذاب



- ١٢٤..... ردّة وأبو بكر لها
- ١٢٦..... اعتقال الدكتور موسى أبو مرزوق
- ١٢٧..... احترام الكلمة واجب على المسلم
- ١٢٨..... احترام الإسلام لعهد الأمان
- ١٣١..... ❖ ٧ - عمر بن الخطّاب رضي الله عنه
- ١٣٥..... توليه عمر الخلافة
- ١٣٧..... من كلمات عمر الشهيرة
- ١٣٩..... اهتمام عمر بالرعية
- ١٤٠..... محاسبة عمر للولاءة
- ١٤٣..... التكافل الاجتماعي
- ١٤٤..... التكافل المكاني
- ١٤٥..... التكافل الزمني
- ١٤٩..... ❖ ٨ - طلحة بن عبّيد الله
- ١٤٩..... طلحة والزُّبير قرينان
- ١٥٠..... اختلافهما من ناحية الصفات الجسديّة
- ١٥٠..... قلّة روايتهما للحديث
- ١٥١..... تحمُّله الأذى في سبيل الله
- ١٥١..... جهاده في سبيل الله
- ١٥٢..... جهاده في غزوة أُحد
- ١٥٦..... إنفاقه في سبيل الله
- ١٥٧..... طلحة الفياض
- ١٥٩..... الفتنة الكبرى
- ١٦٠..... موقفه رضي الله عنه من الفتنة



- ١٦٢..... مقتله رضي عنه رضي الله عنه
- ١٦٤..... دعوة إلى حقن الدماء في العراق
- ١٦٦..... العنف في أمريكا
- ١٧٠..... ❖ ٩ - الزُّبَيْرُ بن العَوَّام رضي عنه رضي الله عنه
- ١٧١..... بداية إسلامه
- ١٧١..... شجاعة الزبير وقوته
- ١٧٢..... هجرة الزبير ومشاركته في الجهاد
- ١٧٤..... حوار الرسول
- ١٧٦..... موضع ثقة الصحابة
- ١٧٦..... قلة الحديث وكثرة الصدقة
- ١٧٨..... موقعة الجمل
- ١٧٨..... قاتل الزبير في النار
- ١٧٩..... دَيْنُ الزبير
- ١٨٠..... لا يقتص من ابن جرموز للزبير
- ١٨٢..... الحرب على الحكومة المنتخبة في فلسطين
- ١٨٦..... ❖ ١٠ - سعد بن أبي وقَّاص رضي عنه رضي الله عنه
- ١٨٧..... نسبه
- ١٨٧..... إسلامه
- ١٨٨..... أوَّل من رمى بسهم في سبيل الله
- ١٨٨..... قتاله في غزوة أُحُد
- ١٨٩..... موقفه في غزوة الخندق
- ١٩٠..... مرضه في مكَّة
- ١٩٢..... من مواقفه في غزوة أُحُد

- ١٩٣..... قيادة الجيش الإسلامي في القادسيّة.
- ١٩٤..... ولايته رضي عنه على الكوفة
- ١٩٥..... موقفه من الخلافة
- ١٩٦..... موقفه رضي عنه من الفتنة
- ١٩٧..... موقفه مع معاوية
- ١٩٧..... موقفه من أمّه
- ١٩٧..... وفاته رضي عنه

❖ ١١ - عبد الرحمن بن عوف

- ٢٠٠..... فضل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم
- ٢٠٣..... من هؤلاء الصحابة عبد الرحمن بن عوف
- ٢٠٤..... نسبه رضي عنه
- ٢٠٤..... مولده رضي عنه
- ٢٠٤..... مناقبه رضي عنه
- ٢٠٥..... بين عبد الرحمن وسعد بن الربيع
- ٢٠٨..... موقفه في غزوة بدر
- ٢٠٨..... قيادته سرية إلى دومة الجندل
- ٢٠٩..... صلاة النبي صلى الله عليه وسلم خلفه
- ٢١٠..... الغني الشاكر
- ٢١٣..... أخلاقه رضي عنه
- ٢١٤..... وصيته لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم وأهل بدر
- ٢١٥..... موقفه رضي عنه من الخلافة
- ٢١٥..... وفاته رضي عنه



- ❖ ١٢ - أبو عبيدة بن الجراح ٢٢٠
- أحد العشرة المبشرين بالجنة ٢٢١
- من السابقين الأولين ٢٢١
- قتل أبي عبيدة لأبيه يوم بدر ٢٢٢
- نزع حلقتي المغفر من وجنتي رسول الله ٢٢٣
- مشاركته في الجهاد ٢٢٣
- في سقيفة بني ساعدة ٢٢٥
- أمين الأمة ٢٢٥
- قتال المرتدين والمشاركة في الفتوح ٢٢٦
- قيادة الجيوش الإسلامية ٢٢٧
- مقام أبي عبيدة بالشام ٢٢٩
- لم تغيره الدنيا ٢٢٩
- صفوة أصحاب النبي ٢٣٠
- طاعون عمواس ٢٣١
- ❖ ١٣ - عبد الله بن مسعود ٢٣٧
- قصة إسلامه ٢٣٨
- كان من قرّاء القرآن ٢٣٩
- من أصحاب الهجرتين ٢٤٠
- جهاده في سبيل الله ٢٤٠
- قربه من رسول الله ﷺ وقيامه بحاجته ٢٤٢
- جمعه بين الحفظ والفهم ٢٤٣
- أقرب الناس إلى هدي رسول الله ﷺ ٢٤٥
- صفاته الخلقية ٢٤٥
- خوفه من الله ٢٤٧

٢٤٧..... عبد الله بن مسعود يُؤسّس مدرسة الكوفة

٢٤٨..... موقفه من جمع القرآن في عهد عثمان

٢٥٢..... مرضه ووفاته

❖ ١٤ - سعد بن معاذ سيّد الأوس..... ٢٥٧

٢٥٨..... نسبه

٢٥٩..... إسلامه

٢٥٩..... قصّة إسلام سعد

٢٦٠..... مواقف سعد في غزوة بدر

٢٦٠..... الموقف الأول

٢٦١..... الرسول ﷺ يستشير أصحابه

٢٦٢..... الموقف الثاني

٢٦٣..... الموقف الثالث

٢٦٣..... موقف سعد بن معاذ في غزوة أحد

٢٦٤..... موقف سعد في غزوة الأحزاب

٢٦٩..... من فضائل سعد

٢٦٩..... اهتزاز عرش الرحمن لموته

٢٧٠..... مشاركة الملائكة في تشييعه

٢٧٢..... قضية فلسطين

٢٧٢..... قضية العراق

❖ ١٥ - معاذ بن جبل رضي الله عنه..... ٢٧٦

٢٧٧..... إسلام معاذ وشهوده بيعة العقبة

٢٧٨..... شهوده الغزوات مع رسول الله

٢٧٨..... استخلافه بمكة لتعليم القرآن



- ٢٧٩..... مؤاخراته مع ابن مسعود
- ٢٧٩..... أعلم الأمة بالحلال والحرام
- ٢٨١..... أسمح الناس كفاً
- ٢٨٢..... بعثته إلى اليمن
- ٢٨٦..... أمنية عمرية
- ٢٨٨..... في معركة اليرموك
- ٢٨٨..... طاعون عمّواس
- ٢٩٠..... إصابته بالطاعون
- ٢٩١..... سيرة حافلة

❖ ١٦ - أم المؤمنين خديجة بنت خُوَيْلِد

- ٢٩٣.....
- ٢٩٤..... أوّل امرأة في الإسلام
- ٢٩٥..... التجارة بمال خديجة
- ٢٩٦..... زواجها قبل رسول الله ﷺ
- ٢٩٦..... وساطة نفيسة بنت منية
- ٢٩٧..... خطبتها من عمها عمرو بن أسد
- ٢٩٨..... حياته ﷺ مع خديجة قبل البعثة
- ٢٩٩..... مع مرضعته حليلة السعدية
- ٣٠٠..... مع ورقة بن نوفل
- ٣٠١..... خديجة أوّل صوت ارتفع بتأييد محمّد ﷺ
- ٣٠١..... أولاده ﷺ من خديجة
- ٣٠٢..... حصار قريش للنبي وأصحابه في شعب أبي طالب
- ٣٠٢..... وفاة خديجة
- ٣٠٣..... ذكره ﷺ لخديجة
- ٣٠٤..... خديجة المثل الصالح والأم الأولى



- ❖ ١٧ - الصّديقة بنت الصّديق (١) ٣٠٦
- نشأة عائشة ٣٠٧
- محبة النبي لعائشة ٣١٠
- حادثة الإفك ٣١٦
- ذكرى نكبة ١٩٦٧م ٣٢٠
- ❖ ١٨ - الصّديقة بنت الصّديق (٢) ٣٢٤
- أحب الناس ٣٢٤
- مشاركتها في الغزوات ٣٢٦
- الوفاة في بيت عائشة ٣٢٧
- أدب الأكابر ٣٣٠
- طلب القصاص والثأر لعثمان ٣٣١
- دعوة لمساعدة النيجر ٣٤٢
- ❖ ١٩ - ردُّ الإساءة عن أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر ٣٤٤
- عائشة أحب الناس إلى رسول الله ٣٥٢
- روايتها للحديث النبوي ٣٥٣
- سنُّ عائشة حين تزوجها النبي ﷺ ٣٥٤
- عائشة من خيرة النساء لرسول الله ﷺ ٣٥٦
- مرض موت النبي ﷺ ووفاته في بيت عائشة ٣٥٧
- عبادتها وجودها وشجاعتها ٣٥٨
- معركة الجمل ٣٥٨
- تكريم المستشار الألمانية للرسام المسيء ٣٦١
- ❖ ٢٠ - المبشرات بمستقبل الإسلام ٣٦٥
- ضربات متتابعة لأبناء الصحوة ٣٦٥



- ٣٦٦..... الأمل والرجاء سلاح المؤمن
- ٣٦٧..... المبشرات من القرآن الكريم
- ٣٦٨..... بشارات السُّنة النبوية
- ٣٦٨..... فتح القسطنطينية
- ٣٧٠..... كيف يكون الفتح؟
- ٣٧١..... بلوغ ملك الإسلام المشارق والمغرب
- ٣٧٢..... الانتصار على اليهود
- ٣٧٣..... الطائفة المنصورة
- ٣٧٤..... المبشرات من التاريخ
- ٣٧٤..... أحداث الردة
- ٣٧٥..... الحروب الصليبية
- ٣٧٥..... زحف التتار
- ٣٧٧..... معارك التحرير الحديثة
- ٣٧٧..... المبشرات من الواقع
- ٣٧٨..... القوة المادية
- ٣٧٨..... القوة الروحية
- ٣٧٩..... الصحوة الإسلامية
- ٣٨٠..... المبشرات من السنن الإلهية

- ٢٨٥..... • فهرس الآيات القرآنية الكريمة
- ٤٠٢..... • فهرس الأحاديث النبوية الشريفة
- ٤١٤..... • فهرس الموضوعات



غير مرخصة للطباعة

فهرس كتب المجلد

- ١٧٨ - خطب الشيخ القرضاوي (١٥) ٥
- ١٧٩ - خطب الشيخ القرضاوي (١٦) ٤٢٥

* * *

